التعاليق البهية

على

المَنْظُومَةِ التَّائِيَّةِ

لأَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَسْعُودٍ التُّجَيْبِيِّ الْغَرْنَاطِيِّ الأَلْبِيرِيِّ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى (ت ٤٦٠ هـ)

شرحها فضيلة الشيخ:

أَبُو يُوسُفَ مُصْطَفَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مَبْرَمُ

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

اعتنى بها تفريغًا وترتيبًا:

إدارة حساب: فوائد ش/مصطفى مبرم

Fawaidmbrm

التعاليق البهية

على

المَنْظُومَةُ التَّائِيَّة

لِأَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَسْعُودٍ التُّجَيْبِيِّ الغَرْنَاطِيِّ الأَلْبِيرِيِّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى (ت ٤٦٠ هـ)

شرحها فضيلة الشيخ:

أَبُو يُوسُفَ مُصْطَفَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللهِ مَبْرَمُ

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

اعتنى بها تفريغًا وترتيبًا:

إدارة حساب: فوائد ش/مصطفى مبرم

Fawaidmbrm

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي أرسَل رسُولهُ بِالهدَى ودينِ الحقِّ ليُظهرَهُ علَى الدِّينِ كُلِّه وكفَى بالله شهيدًا، وأشهدُ أن لَا إِله إلَّا الله وحــدهُ لا شَريــكَ لـــهُ إقــرارًا بــهِ وتَوحِيـــدًا، وأشهـــدُ أنَّ محمَّـــدًا عبــدهُ ورسُـــولهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ تسليمًا مزيـدًا.

بعد نشرِي لتفريغِ شَرح التَّائيَّة عبرَ الشّبكة سَنة (**١٤٣٩هـ**)، وصلتنِي طَلبَاتٌ ورسَائِل عدَّة، مفادُها أن يصير هذا الشَّرحُ كتابًا مطبوعًا، وقَد كانَ هذَا رجَائي أيضًا لِما تضمَّنهُ مِنْ فوَائد ودُرَر، وتَذكِرَة وأثَر يَستشْعرُه جميعُ مَن حَضرهُ.

ولسببٍ آخر وهو أنِّي قبلَ عُثوري على هذه الدُّروسِ بحثتُ كثيرًا عن شرحٍ مطبوعٍ أو مُفرَّغ لهذه المنظُومة، لكنِّي فُوجئتُ بشحٍّ شديدٍ فِي شُرُوحهَا رغْمَ أهمِّيتِهَا.

والآن بَعدَ هذِه السِّنين وعملاً بقولِ الصَّادقِ الأمِين:«**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[١] عزمتُ على إعادةِ مُراجَعتِهَا، لتَصحِيحِ مَا وقَع منِّي مِنْ أخطَاء فِي تفريغِي السَّابقِ، ثُمَّ تَرتيبِها وتنْسِيقها، رجَاء تَسهيلِ طباعةِ نُسخٍ مِنهَا.

والله المسؤُول أن يجعلَ هذَا العَمل خالصًا لوجههِ

وأن يَجزي شيخَنَا خيرًا ويُباركَ في علمهِ.

[١] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (١٨٨٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

مميزات النسخة الجديدة:

١ _ رتَّبتُ التَّفريغ ليصير على شكل كتابٍ، لا دروس مُستقلة.

٢ _ صحَّحتُ الأخطاء الَّتي وقعت منِّي في التَّفريغ السَّابق.

٣ _ قمتُ بإضافة شرحٍ للأبيات الَّتي ليس لها شرحٌ في التَّفريغ السَّابق بسببِ تقطُّعاتٍ كانت في التَّسجيل القديم، -وما أضفتُه هو مِن شرح شيخنا الجديدِ لهذه المنظومة-.

٤ _ عدَّلتُ الفهرس والحواشي القديمة، مع إضافاتٍ جديدة.

وغير هذا ..

مُلاحظةٌ: استأذنتُ شيخنا -حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى- فأذن بذلك كلِّه، بارك الله في وقته وعمره.

كتبته إدارة حساب:

فوائد ش/مصطفى مبرم

١٤٤٤هـ

نُبَذَةٌ مُخْتَصَرَةٌ

«عَنِ الشَّيخِ مُصْطَفَى مَبْرَمُ حَفِظَهُ اللهُ تعالى»[1]

❋ هُوَ أَبُو يُوسف مصطفَى بن محمد مَبرم اليمَنيّ، نزيل مدينة الرِّياض.

❖ مشايخهُ:

أخذَ العلم على جمعٍ منَ المشايخ منهُم:

- الشَّيخ العلاَّمة مُقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة أحمد بن يحيى النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة عبد الله بن عبد الرَّحمن الغديان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة عبد الله بن عبد العزيز العقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة زيد بن محمَّد بن هادي المدخلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة عبدالرَّزَّاق الشَّاحذي المحويتي، وهو مِن مشايخ الشَّيخ مقبل الوادعي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة محمَّد بن عبد الوهَّاب الوصابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة يحيى بن عثمان المدرس العظيم أبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة صالح بن فوزان الفوزان حَفِظَهُ اللهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة ربيع بن هادي عمير المدخلي حَفِظَهُ اللهُ.
- الشَّيخ العلامة صالح بن محمد اللّحيدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشَّيخ العلاَّمة عبيد بن عبد الله الجابري حَفِظَهُ اللهُ.

وغيرهم مِن المشايخ . . .

[1] النُّبذةُ التعريفيةُ كَتَبهَا تِلْمِيذُهُ: «أَبُو عَبد الوَدود عِيسى البيضَاوي» جَزاهُ الله خيرًا.

❖ من العلماء الذين جالسهم وانتفع بهم:

• الشَّيخ العلاَّمة محمَّد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

• الشَّيخ العلاَّمة محمَّد بن عليّ آدم الأتيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

• الشَّيخ العلاَّمة عبدالمحسن بن حمد العباد حَفِظَهُ اللهُ.

وغيرهم مِن المشايخ . . .

❖ الإجازات العلمية:

• أجازه الشَّيخ العلاَّمة أحمد النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجميع مرويَّاته.

• أجازه الشَّيخ العلاَّمة عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجميع مرويَّاته.

• أجازه الشَّيخ العلاَّمة محمد بن علي ثاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجميع مرويَّاته.

• أجازه الشَّيخ العلاَّمة زيد المدخلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بثبت مؤلفاته.

• أجازه الشَّيخ محمد أكبر الفاروقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجميع مرويَّاته.

• أجازه الشَّيخ العلاَّمة علي البهكلي حَفِظَهُ اللهُ بجميع مرويَّاته.

• أجازه الشَّيخ العلاَّمة ربيع المدخلي حَفِظَهُ اللهُ بجميع مرويَّاته.

• أجازه الشَّيخ العلاَّمة يحيى بن عثمان المدرس العظيم أبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجميع مرويَّاته.

• أجازه الشَّيخ ثناء الله بن عيسى خان المدني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجميع مرويَّاته.

وغيرهم -رحم الله الأموات وحفظ الأحياء- . . .

❖ ثناء العلماء عليه:

• قال عنه الشَّيخ العلاَّمة مُقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«حافظٌ للقرآن مستفيد في المصطلح» اهـ (مِن كتاب «ترجمة أبي عبدالرَّحمن مُقبل الوادعي»).

• قال عنه الشَّيخ العلاَّمة أحمد بن يحيى النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«طالبُ علمٍ جيِّد وله معرفة جيِّدة في الحديث لأنَّه درس عند الشَّيخ مُقبل وأعرف توجهه أنَّه توجُّهٌ سليمٌ، وله حرص على طلب العلم» اهـ (مِن شفاعة مكتوبة بخط يد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتاريخ **١٤٢٧**).

• قال عنه الشَّيخ العلاَّمة محمَّد بن عبدالوهَّاب الوصَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«ننصح بالاستفادة مِن دروسه جزاه الله خيرًا، فهو مِن أهل السُّنَّة والجماعة» اهـ (مقطع صوتيٌّ له عبر اليوتيوب).

• قال عنه فضيلة الشَّيخ الأستاذ الدُّكتور عبد الله بن عبدالرَّحيم البخاري حَفِظَهُ ٱللَّهُ:«من خيرة الإخوة وطلاَّب العلم، فأفيدوا منه، زادكم وزاده الله توفيقًا وتسديدًا» اهـ (رسالة نصية بتاريخ **٢٩/١/٢٠١٩**).

❖ بحوثه ومؤلفاته:

• صفحاتٌ مِن فتنة أبي الحسن أو مِن أصول الفتن.

• كتابُ الأربعين في التَّحذير مِن فتنة القبوريِّين «مطبوع».

• طليعة الانتصار في الرَّد على المستدرك المعثار أحمد بن نصر الله صبري في كتابه «أضواء على أخطاء كتاب: الصَّحيح المسند»، -قرأه وأثنى عليه الشَّيخ العلاَّمة أحمد النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -.

• الزِّيادات والتَّصويبات على بعض المتون العلمية مِن أمالي العلاَّمة أحمد النَّجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الشَّيخ مُصطَفى مَبرم حَفِظَهُ ٱللَّهُ.

• براءة العلاَّمة مُقبل الوادعي من فتنة التَّكفير.

• مراحل الحجّوري في اتهام الصَّحابة بالمشاركة في قتل عثمان بن عفان، -قدَّم له الشَّيخ العلاَّمة عُبيد الجابري حَفِظَهُ ٱللَّهُ-.

• أربعون حديثا مِن كلمتين مع شرحها «مطبوع».

وغيرها. . .

❖ الكتب والمتون المشروحة:

• شرح كتاب التوحيد.

• شرح ثلاثة الأصول.

- شرح القواعد الأربع.
- شرح نواقض الإسلام مع نظمه لشيخه العلاَّمة زيد المدخلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- شرح فضل الإسلام.
- شرح العقيدة الواسطيَّة.
- التَّعليق على شرح العقيدة الطَّحاوية لابن أبي العز.
- شرح لمعة الاعتقاد.
- شرح نظم عقيدة شيخ الإسلام لشيخه العلاَّمة زيد المدخلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني.
- شرح كتاب الفتن والحوادث لابن عبدالوهَّاب.
- شرح القواعد المثلى لابن عثيمين.
- شرح عقيدة أهل السنة والجماعة لابن عثيمين.
- شرح نخبة الفكر.
- شرح نزهة النَّظر.
- شرح الأربعون النَّوويَّة.
- شرح عمدة الأحكام.
- شرح منهج السَّالكين.
- شرح متن الغاية والتَّقريب لأبي شجاع.
- شرح متن الورقات.
- شرح منظومة القواعد الفقهية.
- شرح المقدمة الآجروميَّة.
- شرح فضائل القرآن لابن عبدالوهَّاب.
- شرح منظومة السَّير إلى الله والدَّار الآخرة للسّعدي.
- شرح تائيَّة الألبيري «الَّتي بين أيديكم».
- شرح مقدمة كتاب الجامع لابن أبي زيد القيرواني.

وغيرها مِن الكتب والرَّسائل. . .

❖ منظوماته:

- نظم مراتب المحبَّة وما يثبت منها لله وما لا يثبت.
- نظم الفرق بين أهل السنة وبين الأشاعرة والمعتزلة.
- نظم ما يُبنى من الأسماء.
- نظم أصول مذهب الإمام أحمد بن حنبل.
- نظم شروط العرايا على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.
- نظم القواعد الفقهية الكبرى.
- نظم لأزواج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على ترتيب دخوله بهن.
- نظم آل البيت.
- نظم نواقض الإسلام.
- نظم الأصول السِّتَّة.
- قصيدة كتبها في مجلس ختم صحيح البخاري على الشيخ العلامة عبدالله بن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقرأها عليه.
- نظم في أوقات استحباب السواك.
- نظم في دلالات الألفاظ الثَّلاث: المطابقة والتضمن والالتزام.
- نظم أولي العزم من الرسل.
- نظم مشاهير مَنْ روى عن ثابت بن أسلم البناني.
- نظم العبادلة الأربعة من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.
- نظم في أن ترتيب الآيات توقيفي.
- نظم في أن ترتيب السور ليس توقيفيا.
- نظم أساليب الحصر الأربع المشهورة.

وغيرها . . .

مَتْنُ الْقَصِيدَةِ التَّائِيَّةِ

تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيّامُ فَتّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السّاعاتُ نَحْتَا

وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعاءَ صِدْقٍ ... أَلَا يَا صَاحِ: أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذاتَ خِدْرٍ ... أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا

تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ ... بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا

فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى ... مَتَى لَا تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى؟

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ لَوْ[1] عَقَلْتَا

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

وَيَجْلُو[2] مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا ... وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ[3] إِذَا ضَلَلْتَا

وتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ... وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا ... وَيَبْقَى ذِكْرُهُ[4] لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

هُوَ العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا ... خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ ... وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا ... لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ ... وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوضٍ ... وَلَا خِدْرٌ بِزِينَتِهَا كَلِفْتَا[5]

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

وَإِنْ أُعْطِيتَ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ[6] ... وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَا[7]

---

[1] في نسخة: (إِنْ).

[2] في نسخة: (تجلو).

[3] في نسخة: (وتهديك السَّبيل).

[4] في نسخة: (ذخره).

[5] في نسخة: (بربربه كلفتا).

[6] في نسخة: (أوتيت فيه طول باع).

[7] في نسخة: (سبقتا).

فَلَا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُ ... بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ، فَهَلْ عَمِلْتَا؟

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا ... وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

وأَفْضَلُ[1] ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ لَكِنْ[2] ... نَرَى[3] ثَوْبَ الإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا ... وتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ إِذَا كَبِرْتَا

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ... وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدْتَا

وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ... إِذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا[4]

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا ... وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا

فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ... وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ ... قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفُلْتَا

فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَى ... فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا

وَلَا تَخْتَلْ[5] بِمَالِكَ وَالْهَ عَنْهُ ... فَلَيْسَ الْمَالُ إِلَّا مَا عَلِمْتَا

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغْنٍ[6] ... وَلَوْ مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى

سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلَاءٍ[7] ... وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَمْتَا[8]

وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي ... إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلًا ... لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا

وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ ... سَتَعْلَمُهُ إِذَا «طَهَ» قَرَأْتَا

لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ... لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

لَئِنْ جَلَسَ[9] الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا ... لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا

وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ ... لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا

---

[1] في نسخة: (وضافي).

[2] في نسخة: (لا أن).

[3] في نسخة: (تُرى).

[4] في نسخة: (وتغبطها إذا عنها شُغلتا).

[5] في نسخة: (ولا تحفل).

[6] في نسخة: (معنى).

[7] في نسخة: (في نديٍّ).

[8] في نسخة: (إن كتبتا).

[9] في نسخة: (وإن جلس).

وَمَهْمَا اِفْتَضَّ[1] أَبْكَارَ الْغَوَانِي	فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكَمِ اِفْتَضَضْتَا[2]
وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ شَيْئًا	إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا
فَمَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ	إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا
فَقَابِلْ بِالْقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي[3]	فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا
وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا	وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا
فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ	تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا
وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا	كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلَمْتَا[4]
سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ	فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا!
وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ	سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا[5] طَعِمْتَا
وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا[6] ثِيَابًا	وَتُكْسَى إِنْ مَلَابِسَهَا خَلَعْتَا
وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ	كَأَنَّكَ لَا تُرَادُ لِمَا[7] شَهِدْتَا
وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ	لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا
وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا	وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا
وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا	إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا
فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا	مِنَ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا
وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا[8]	فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا
وَمَنْ[9] لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ	وَمَا[10] تَدْرِي أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا[11]؟
وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا	وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا
وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا	بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ ابْنُ مَتَّى
وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ	سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

[1] في نسخة: (اقتضَّ).
[2] في نسخة: (اقتضضتا).
[3] في نسخة: (صحيح نُصحي).
[4] في نسخة: (إن حلُمتا).
[5] في نسخة: (منها).
[6] في نسخة: (لها).
[7] في نسخة: (بما).
[8] في نسخة: (لهوًا).
[9] في نسخة: (وكيف).
[10] في نسخة: (ولا).
[11] في نسخة: (غلِقْتا).

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا ... لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا

وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ اِمْتِهَالٌ[1] ... وَفَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى[2] ... بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ[3] قَدْ نَظَرْتَا

تُقَطِّعُنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْمًا ... وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا

وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا ... وَمَا تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتَا[4]

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلًا ... فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا[5]

وهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا ... كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ ... وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا

وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ ... وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا اِنْتَفَعْتَا

وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ ... وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَاِنْتَهَكْتَا[6]

لَقَدْ[7] صَاحَبْتَ أَعْلَامًا كِبَارًا ... وَلَمْ أَرَكَ اِقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا

وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ ... وَنَبَّهَكَ[8] الْمَشِيبُ فَمَا اِنْتَبَهْتَا

وَيَقْبُحُ[9] بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي ... وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا ... لِعَيْبٍ[10] فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

وَأَنْتَ[11] أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي ... وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا[12]

وَلَوْ[13] بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا ... لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا

ومَنْ لَكَ بِالأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ ... أُمِرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلَا أَطَعْتَا

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ... لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا

---

[1] في نسخة: (فيه مجال).

[2] في نسخة: (وقُل لي يا نصيحُ لأنت أولى).

[3] في نسخة: (لو بعقلك).

[4] في نسخة: (وما تجري ببالك حين شختا).

[5] في نسخة: (قد نُكستا).

[6] في نسخة: (وانهملتا).

[7] في نسخة: (وقد).

[8] في نسخة: (ونَهْنَهَكَ).

[9] في نسخة: (ليقبح).

[10] في نسخة: (بعيب).

[11] في نسخة: (فأنت).

[12] في نسخة: (ولو سكت المسيء لما نطقتا).

[13] في نسخة: (فلو).

وتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي ... وَتَرْحَمُهُ، ونَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

رَجَعْتَ القَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا ... لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَا

وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ ... وَنُوقِشْتَ[1] الْحِسَابَ إِذًا هَلَكْتَا

وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ ... عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَا

وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا ... وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى

لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا ... عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا

تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ ... فَهَلَّا مِنْ[2] جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا؟

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا ... وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا

فَلَا تُنْكِرْ[3] فَإِنَّ الأَمْرَ جِدٌّ ... وَلَيْسَ كَمَا حَسِبْتَ وَلَا ظَنَنْتَا

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا

فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي ... بِبَاطِنِهِ[4] كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

فَلَا تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهْوَ[5] عَارٌ ... عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ[6] مَقْتَا

وَيَهْوِي[7] بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا ... وَيُبْدِلُهُ[8] مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُك[9] الدَّرَارِي ... وَتَجْعَلُكَ القَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا ... وَتَلْقَى[10] الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا[11]

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزًا[12] ... وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا[13] قَدْ غَرَسْتَا

---

[1] في نسخة: (وناقشك).

[2] في نسخة: (عن).

[3] في نسخة: (تُكذب).

[4] في نسخة: (بباطنتي).

[5] في نسخة: (فهي).

[6] في نسخة: (الإنسان).

[7] في نسخة: (وتهوي).

[8] في نسخة: (وتبدله).

[9] في نسخة: (تُنْعِلُكَ).

[10] في نسخة: (فتلقى).

[11] في نسخة: (حيثُ كنتا).

[12] في نسخة: (كريما).

[13] في نسخة: (بمَّا).

وَأَنْـــتَ الآنَ لَـــمْ تُعْـــرَفْ بِعَيْـــبٍ[1] وَلَا دَنَّسْـــتَ ثَوْبَـــكَ مُـــذْ نَشَـــأْتَا

وَلَا سَـــابَقْتَ فِـــي مَيْـــدَانِ زُورٍ وَلَا أَوْضَـــعْتَ فِيـــهِ وَلَا خَبَبْتَـــا

فَـــإِن لَـــمْ تَنْـــأَ عَنْـــهُ نَشِـــبْتَ فِيـــهِ وَمَـــنْ لَـــكَ بِـــالْخَلَاصِ إِذَا نَشِـــبْتَا

تُـــدَنِّسُ[2] مَـــا تَطَهَّـــرَ مِنْـــكَ حَتَّـــى كَأَنَّـــكَ قَبْـــلَ ذَلِـــكَ مَـــا طَهُرْتَـــا[3]

وَصِـــرْتَ أَسِـــيرَ ذَنْبِـــكَ فِـــي وَثَـــاقٍ وَكَيْـــفَ لَـــكَ الفِكَـــاكُ وَقَـــدْ أُسِـــرْتَا

فَخَـــفْ[4] أَبْنَـــاءَ جِنْسِـــكَ وَاخْـــشَ مِـــنْهُمْ كَمَـــا تَخْشَـــى الضَّـــرَاغِمَ وَالسَّـــبَنْتَى

وَخَـــالِطْهُم وَزَايِلْهُـــمْ حِـــذَارًا وَكُـــنْ كَـــ«السَّـــامِرِيِّ» إِذَا لُمِسْـــتَا

وَإِنْ جَهِلُـــوا عَلَيْـــكَ فَقُـــلْ: سَـــلَامٌ[5] لَعَلَّـــكَ سَـــوْفَ تَسْـــلَمُ إِنْ فَعَلْتَـــا

وَمَـــنْ لَـــكَ بِالسَّـــلَامَةِ فِـــي زَمَـــانٍ تَنَـــالُ الْعُصْـــمَ[6] إِلَّا إِنْ عُصِـــمْتَا

وَلَا تَلْبَـــثْ بِحَـــيٍّ فِيـــهِ ضَـــيْمٌ يُمِيـــتُ الْقَلْـــبَ إِلَّا إِنْ كُبِلْتَـــا

وَغَـــرِّبْ فَـــالتَّغَرُّبُ فِيـــهِ خَيْـــرٌ[7] وَشَـــرِّقْ إِنْ بِرِيقِـــكَ قَـــدْ شَـــرِقْتَا

فَلَـــيْسَ الزُّهْـــدُ فِـــي الـــدُّنْيَا خُمُـــولًا لَأَنْـــتَ بِهَـــا الأَمِيـــرُ إِذَا زَهِـــدْتَا

وَلَـــوْ فَـــوْقَ الأَمِيـــرِ تَكُـــونُ فِيهَـــا سُـــمُوًّا وَارْتِفَعًـــا[8] كُنْـــتَ أَنْتَـــا

فَـــإِنْ فَارَقْتَهَـــا[9] وَخَرَجْـــتَ مِنْهَـــا إِلَـــى «دَارِ السَّـــلَامِ» فَقَـــدْ سَـــلِمْتَا

وَإِن أَكْرَمْتَهَـــا[10] وَنَظَـــرْتَ فِيهَـــا لِإِكْـــرَامٍ[11] فَنَفْسَـــكَ قَـــدْ أَهَنْتَـــا

جَمَعْـــتُ لَـــكَ النَّصَـــائِحَ فَامْتَثِلْهَـــا حَيَاتَـــكَ فَهِـــيَ أَفْضَـــلُ مَـــا امْتَثَلْتَـــا

وَطَوَّلْـــتُ الْعِتَـــابَ وَزِدْتُ فِيـــهِ لِأَنَّـــكَ فِـــي الْبَطَالَـــةِ قَـــدْ أَطَلْتَـــا

وَلَا يَغْـــرُرْكَ تَقْصِـــيرِي[12] وَسَـــهْوِي وَخُـــذْ بِوَصِـــيَّتِي لَـــكَ إِنْ رَشَـــدْتَا

---

[1] في نسخة: (بعاب).

[2] في نسخة: (ودَنَّس).

[3] في نسخة: (ما طَهَرْتَا).

[4] في نسخة: (وخف).

[5] في نسخة: (سلامًا).

[6] في نسخة: (ينال العُصْمَ)

[7] في نسخة: (وغرِّب فالغريب له نَفَاق).

[8] في نسخة: (وافتخارًا).

[9] في نسخة: (وإن فرَّقْتَهَا).

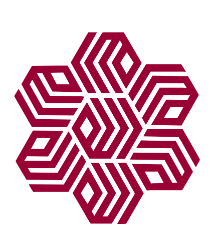
[10] في نسخة: (كرَّمتها).

[11] في نسخة: (بإجلالٍ).

[12] في نسخة: (فلا تأخذ بقصيري).

وَقَـــدْ أَرْدَفْتُهَـــا تِسْـــعًا[1] حِسَـــانًا وَكَانَـــتْ قَبْـــلَ ذَا مِائَـــةً وَسِـــتَّا

وَصَـــلِّ عَلَـــى تَمَـــام الرُّسْـــل رَبِّـــي وعِتْرَتِـــهِ الكَرِيمَـــةِ مَـــا ذُكِرْتَـــا



[1] في نسخة: (ستا)، -وهي نُسخةٌ لا تشمل البيت: ٢٧ و٣٠ و١١٤-.

مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين،

أمَّـا بـعـــد:

فبعد الفراغ مِنَ التَّعليق والشَّرح على متن «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» للعلاَّمة ابن العثيمين عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ، وقد تمَّ الكتاب بفضلٍ مِنَ الله جَلَّ وَعَلَا وحدهُ لا شريك له، نشرع إن شاء الله تعالى ابتداءً مِنْ هذه اللَّيلة في درسين مُقترنين -أو قُل متتابعين- ببعضهما البعض، لا غنى لطالب العلم عنهما كما أنَّه لا غنى له عن شيءٍ مِنَ العلم.

والدَّرس الأوَّل سيكُون في شرح منظومة المُقرئ والفقيه والأديب والشَّاعر أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري الأندلسي التُّجَيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، وستكون مُدَّة الدَّرس عشرون دقيقة، ثمَّ بعد ذلك نأخذ الدَّرس الثَّاني في شرح متن «الآجرُّومية» للعلاَّمة المقرئ محمَّد ابن آجرُّوم الصِّنهاجي عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ.

وهذه الدُّروس تنعقد بفضل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونعمته ومنَّته على غرفة إمام دار الهجرة العلمية[1]، شكر الله للقائمين عليها، وجعلنا وإيَّاهم مفاتيح خيرٍ مغاليق شرٍّ.

فنشرع بمنظومة العلاَّمة الأَلبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، وجرت العادة كما نبَّهنا على ذلك مرارًا على ذِكر شيءٍ مِنْ ترجمة المصنِّف -وهاهنا نقول النَّاظم-، وعلى ذكر نبذة مُتعلِّقة بالمصنَّف -وهنا نقول بالنَّظم-.

- أمَّا الأمر الأوَّل فقد نبَّهنا عليه مرارًا لأنَّه مِنْ حقِّ المصنِّف أو النَّاظم علينا، ولأَنَّ معرفة تراجم هؤُلاء العلماء فيها اقتداءٌ وائْتِساءٌ بهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى في علمهم وصبرهم وما يتعلَّق بذلك.
- فإذا تقرَّر هذا؛ فإنَّ الأمر الثَّاني راجعٌ إلى الكلام على النَّظم أو المصنَّف، فيُذكر أهمّ ما اشتمل عليه وما قصدهُ المصنِّف مِنْ تَصنيفهِ أو النَّاظم مِنْ نظمهِ.

[1] مُلاحَظةٌ: بدايةُ الشَّرح إلى الصَّفحة ٧٧ هي دُروس أُلقِيَت عبر شبكةِ إمامِ دار الهجرةِ العِلميَّة -سَنة (١٤٣٤ هـ) تَقريبًا-، أمَّا مِنَ الصَّفحة ٧٨ إلى نهاية الشَّرح فهِي دُروسٌ أُلقِيَت عبر إذاعةِ ابن أبي زيدٍ القَيروَاني -سَنة (١٤٣٧ هـ) تقريبًا-، وسببُ ذلك أَنِّي كنتُ قد شرعتُ في تفريغ الشَّرح الأوَّل لكن شيخَنا -حفظهُ الله- توقَّف دون إتمامه، ثُمَّ بعد سنين شرع في شرح المنظومة مِنْ جديدٍ فأتممتُ التَّفريغ مِن حيثُ توقَّف في الشَّرح القديم.

أَهـمّيّةُ الأَدَبِ

وقبل هذا كلِّه أيضًا -أي قبل الكلام على النَّاظم وعلى نظمهِ- لا بدَّ مِنْ أخذ نُبذة مُهمَّة عن الأدب[1] وأهميَّته واعتناء الإسلام به للمسلمين عمومًا ولطالب العلم خصوصًا، فإنَّ طالب العلم لا بدَّ وأن يتصوَّر أنَّ علمه بقدْر أدبه، وأنَّه بقدر ما يكونُ عنده مِنَ الأَدب للعلم وفي العلم يكون عندَه مِنَ العلم، وهذا أمرٌ مُهمٌّ، وإنَّما تذهب بركة العلم بسوءِ أدب حامله أو يُصرف العلم عن طالبه بسبب عدم أدبه، فإذا كان اعتناء طالب العلم بالأدب وبمعرفته وبأَهمِّيته فإنَّه يُحصِّل خيرًا كثيرًا في ذلك.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ عاقلٍ يأخذ مِنْ ذوي الخبرة ما يجعله يسلك في سبيلهم، ولا شكَّ أنَّ أهل الخبرة في هذا المقام هم السَّلف، ومَنْ رأى اعتناءهم بالأدبِ في العلم وحثِّهم عليه وتأديب طلاَّبهم عليه وحملهم عليه رأى أنَّهم لم ينالوا تلك الدَّرجاتِ في العلم إلَّا بالأدب فيه، فإذا أردنا أن نسير على طريقهم وأن نسلك دربهم المطرُوق فإنَّنا لا بدَّ وأن نأخذ طرفًا مِنْ نصائحهم، ولهذا كانوا يعتنون بتأديبِ أبنائهم وتأديبِ أنفسهم قبل ذلك أكثر مِنْ أيِّ شيء.

ذكر الرَّاغب الأصفهاني[2] أنَّ المنصور بعث إلى مَنْ في الحبس مِنْ بني أُمية يقول لهم: (مَا أَشَدُّ مَا مَرَّ بِكُمْ فِي هَذَا الْحَبْسِ؟ فَقَالُوا: مَا فَقَدْنَا مِنْ تَرْبِيَةِ أَوْلَادِنَا)[3]، ولهذا كان السَّلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ يتَّخذون لأَبنائهم مؤدِّبًا ويسمُّونه بـ:«المؤدِّب»، واشتهر بعض أهل العلم بأنَّه مؤدِّب الأولاد، أو بعضهم اشتهر -كابن أبي الدُّنيا- بأنَّه مؤدِّب أولاد الخلفاء[4]، وربَّما بعضهم يُلقَّب بهذا اللَّقب يُقال فيه: المؤدِّب.

لماذا نذكرُ هذه التَّقدمةَ؟

لأنَّ منظومة الأَلبيري مُتمحِّضة في آدابِ طالبِ العلمِ، وحملِ نفسه على الأدبِ فيهِ وعدم التَّهاون في الأدب -أي في

[1] مِن بَابِ مَزِيد فَائِدة: قَالَ شَيْخنَا مُصطَفَى مَبْرَم حَفِظَه الله: (كَثِيرٌ مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ يبْحَثُونَ عَنْ كُتبِ آدَابِ طَالِبِ الْعِلْمِ؛ وَأَقُولُ لَهُمْ: جَنَاحَانِ لَا بُدَّ لِكُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ أَرَادَ أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَ الْعِلْمِ وَآدَابِهِ، جَنَاحَانِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُمَا وَهُمَا كِتَابَانِ -هَذَانِ الْجَنَاحَانِ هُمَا كِتَابَانِ-، رُبَّمَا لَوْ اسْتَغْنَى عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا فِي بَابِهِمَا لَكَفَاهُ، وَإِنْ كَانَتِ الْكُتُبُ كَثِيرَة -لَا نُرِيدُ أَنْ نَظْلِمَهَا-، لَكِنْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْبَابِ هُمَا كِتَابَان: **الْكِتَابُ الأَوَّلُ**:"الْجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ" لِأَبِي بَكْرٍ الْخَطِيب الْبَغْدَادِيّ الْمَشْرِقِي رَحِمَهُ الله. **وَالثَّانِي كِتَابُ**:"جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وفَضْلِه" لِلْحَافِظ أَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ الْقُرْطُبِيّ الْمَالِكِيّ الْمَغْرِبِيّ رَحِمَهُ اللهُ. وَهَذَان الْكِتَابَانِ: كِتَابَانِ حَافِلَانِ بِمَا تَقرُّ بِهِ عَيْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْبَابِ) من شرحه لكتاب أحاديث في الفتن والحوادث.

[2] قَالَ شَيْخُنَا مُصْطفَى مَبْرَمُ حَفِظَهُ اللهُ -فِي ضَبْطِ اسْمِ الأَصْفْهَانِيّ-: (الأَصْبَهَانِيّ أَوِ الأَصْفَهَانِي؟ هَذَا مِمَّا يَقُولُهُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ الْعَصْرِيِّينَ، يَقُولُونَ:"يَصِحُّ بِهَذَا وَهَذَا" وَهَذَا غَلَطٌ، لِمَاذَا؟ لأَنَّهُ مِنْ فَارِس وَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ لَا الْبَاءَ الْمُحَقَّقَة وَلَا الْفَاءَ الْمُحقَّقَة، وَإِنَّمَا يَنْطِقُونَهَا بِحَرْفٍ يُشْبِهُ مَا عِنْدَ اللُّغَةِ الإِنْجْلِيزِيَّةِ: V "الأَصْفْهَانِي" وَلِهَذَا يَضَعُونَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ ثَلَاثَ نِقَاطٍ) من شرحه لنزهة النظر بتصرُّفٍ يسير.

[3] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله؛ ص: ٢٠.

[4] قال الخطيب البغدادي رحمه الله: (وَكَانَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا يُؤَدِّبُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ) "تاريخ بغداد" ج١٠، ص٨٩.

الأدب مع العلم-.

وابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (الأَدَبُ ثَلاَثَةُ أَنْوَاعٍ: أَدَبٌ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَدَبٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرْعِهِ، وَأَدَبٌ مَعَ خَلْقِهِ)[1].

كان ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول: (مَنْ تَهَاوَنَ بِالأَدَبِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ السُّنَنِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالسُّنَنِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْفَرَائِضِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْفَرَائِضِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْمَعْرِفَةِ)[2] كما ذكر الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ذلك عنه في «مدارج السَّالكين».

وكذلك يقول رُوَيْم بن أحمد البغدادي لابنه: (يَا بُنَيَّ اجْعَلْ عَمَلَكَ مِلْحًا وَأَدَبَكَ دَقِيقًا)[3] أراد أنَّه لا بُدَّ مِنَ الاستكثار مِن الأدبِ لأنَّه ثمرةُ العلم وحقيقةُ العلم وروح العلم، ولهذا قال البُوشَنْجِيُّ: (مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ وَالْفِقْهَ بِغَيْرِ أَدَبٍ فَقَد اقْتَحَمَ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[4].

وكان النَّخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (كَانُوا إِذَا أَتَوا رَجُلاً لِيَأْخُذُوا عَنْهُ نَظَرُوا إِلَى سَمْتِهِ وَصَلاَتِهِ وَإِلَى حَالِهِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ)[5]، ولهذا ذكروا في ترجمة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّه يجتمع في مجلسه خمسة آلاف أو يزيدون، بعضهم يكتب الحديث -قيل خمسمائة- والباقون يتعلَّمون منه حسن الأدب والسَّمت[6]، ولهذا جاء في ترجمة أحد طُلاَّب أحمد أنَّه حضره عشر سنين قال: (مَا كَتَبْتُ مِنْهُ حَدِيثًا وَاحِدًا، إِنَّمَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَأَخْلاَقِهِ وَآدَابِهِ)[7].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (اطْلُبِ الأَدَبَ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْمُرُوءَةِ، وَمُؤْنِسٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَصَاحِبٌ فِي الْغُرْبَةِ، وَمَالٌ عِنْدَ الْقِلَّةِ)[8].

كان الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول: (كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: اذْهَبْ إِلَى رَبِيعَةَ فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ)[9].

---

[1] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ ج٢، ص:٣٥٧.

[2] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ ج٢، ص:٣٦٠.

[3] "الفروق" للقرافي رحمه الله؛ ج١، ص:٢٩٨.

[4] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١٣، ص:٥٨٦.

[5] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ ج١، ص:٣٦.

[6] عن الحسين بن إسماعيل عن أبيه قال: (كَانَ يَجْتَمِعُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ زُهَاءَ خَمْسَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ، نَحْوُ خَمْسِمِائَةٍ يَكْتُبُونَ، وَالْبَاقُونَ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ حُسْنَ الْأَدَبِ وَالسَّمْتِ) "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١١، ص:٣١٦.

[7] عن أبي بكر المطوّعي أنَّه قال: (اخْتَلَفْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةٍ وَهُوَ يَقْرَأُ "الْمُسْنَدَ" عَلَى أَوْلَادِهِ، فَمَا كَتَبْتُ مِنْهُ حَدِيثًا وَاحِدًا، إِنَّمَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ) "مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:٢٨٨.

[8] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ ج١، ص:٣٦.

[9] "ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله؛ ج١، ص:١٣٠.

وابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (طَلَبْتُ الْعِلْمَ فَأَصَبْتُ مِنْهُ شَيْئًا، وَطَلَبْتُ الأَدَبَ فَإِذَا أَهْلُهُ قَدْ بَادُوا)[1] -يعني ذهبوا-.

وكان ابن المبارك أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (نَحْنُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ)[2].

ولـمَّا سُئل الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أنفع الأدبِ قال: (التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا للهِ عَلَيْكَ)[3].

ولهذا قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ طَلَبَةُ الْحَدِيثِ أَكْمَلَ النَّاسِ أَدَبًا، وَأَشَدَّ الْخَلْقِ تَوَاضُعًا، وَأَعْظَمَهُمْ نَزَاهَةً وَتَدَيُّنًا، وَأَقَلَّهُمْ طَيْشًا وَغَضَبًا، لِدَوَامِ قَرْعِ أَسْمَاعِهِمْ بِالأَخْبَارِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى مَحَاسِنِ أَخْلاقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآدَابِهِ، وَسِيرَةِ السَّلَفِ الأَخْيَارِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ وَطَرَائِقِ الْمُحَدِّثِينَ وَمَآثِرِ الْمَاضِينَ فَيَأْخُذُوا بِأَجْمَلِهَا وَأَحْسَنِهَا، وَيَصْدِفُوا عَنْ أَرْذَلِهَا وَأَدْوَنِهَا)[4] هكذا يقول في كتابه «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع».

سُفيان بنُ عُيَيْنَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (إِنَّ رَسُولَ اللهِ هُوَ الْمِيزَانُ الأَكْبَرُ، فَعَلَيْهِ تُعْرَضُ الأَشْيَاءُ، عَلَى خُلُقِهِ وَسِيرَتِهِ وَهَدْيِهِ، فَمَا وَافَقَهَا فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ الْبَاطِلُ)[5].

كان الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (إِنَّ حَقًّا عَلَى مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِأَثَرِ مَنْ مَضَى قَبْلَهُ)[6].

هكذا جاءت آثارٌ كثيرةٌ عن السَّلفِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في ضرورةِ الاعتناءِ بالأدبِ والتَّخلُّقِ بأخلاق العلم وحمل النَّفس على الأَدب في العلم، ولهذا صنَّفوا الكُتب الكثيرةَ: «الآداب الشَّرعية» لابن مفلح، «غذاء الألباب» للسَّفاريني، منظومة ابن عبد القوي، منظومة الشَّيخ حافظ حكمي «الميمية»، وهذه المنظومة التي نحن بصَدَدها، وقلَّ أن تجد عالمًا من العلماء إلَّا وصنَّف كتابًا مُستقلاً أو نظمَ نظمًا يتعلَّق بآداب طالب العلم، ولا زال العلماء يُصنِّفون في ذلك المصنَّفات الكثيرة.

لـمـاذا هذا كلُّه؟ لأنَّ المعرفة بهذا فيها حثٌّ على العلم والحرص عليه وعدم الاستغناء بشيءٍ عنه، ولهذا مِنْ روائع منظومة الشَّيخ العلامة حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال:

---

[1] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ ج١، ص:٣٦.

[2] "مدارج السالكين" ج٢، ص:٣٥٦.

[3] "مدارج السالكين" ج٢، ص:٣٥٦.

[4] "الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ ج١، ص:٧٨.

[5] "الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ ج١، ص:٧٩.

[6] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ ج٦، ص: ٣٢٤.

يَـا طَالِـبَ الْعِلْـمِ لَا تَبْغِـي بِـهِ بَـدَلًا ... فَقَـدْ ظَفِـرْتَ وَرَبِّ اللَّــوْحِ وَالْقَلَـمِ
وَعَظِّـمِ الْعِلْـمَ وَاعْـرِفْ قَـدْرَ حُرْمَتِـهِ ... فِي الْقَـوْلِ وَالفِعْلِ وَالآدَابِ فَالْتَزِمِ[1]

وهي منظومةٌ رائعةٌ، رائقةٌ، مشهورةٌ، ومطبوعةٌ، ومنشورةٌ.

❋ ❋ ❋

التَّعرِيفُ بِالنَّاظِمِ

ما نحن بصدد الكلام عليه هو منظومة العلاَّمة الشَّهير أبي إسحاق الألبيري الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى، وهذا العَلَم قد ترجم له كثيرٌ مِنْ أهل العِلم وإن كان لَم يترك الكثير مِنَ المصنَّفات إلَّا أنَّ شِعره كما ذكر المترجمون له كان مجموعًا ومعروفًا.

- منسوبٌ إلى إلبيرة، ويُنسب إلى غرناطة، ويُنسب إلى حِسن العُقاب، ويُنسب إلى آخر نسبه وهو التُّجَيْبِيّ لأنَّه يرجع إلى قبيلة تُجَيْب مِنَ اليمن.
- يُكنى بأبي إسحاق.
- واسمهُ: إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى وَغَفَرَ لَهُ-.
- فقيهٌ ومُقرئٌ وعالِمٌ في زمانه، أخذ القراءات وعُرف بها.
- مِنْ مشاهير شُيوخه: إمام السُّنة في زمانه الإمام «ابن أبي زَمْنِين»، فإنَّه مِنْ طُلاَّبه الَّذين أخذوا العلم عنهُ، وله روايةٌ عنهُ، وله أيضًا إجازةٌ عنه كما ذكر المترجمون له -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى وَرَحِمَ ٱلْجَمِيعَ-.
- وُلد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ما يقرب مِنْ سنة خمسٍ وسبعين وثلاثمائة.
- وتُوفي على ما ذَكر المترجمون أيضًا في سنة ستِّين وأربعمائة.
- وكان معاصرًا لأبي محمَّد ابن حزم الظَّاهريّ.

وكان في زمانه معروفًا وبعد زمانه، وديوانه تداوله العلماء وأخذوه، وكان بعض أهل العلم -وإن كان لا يحضرني الآن- لا يُقرئ بعض طُلاَّبه العلم حتَّى يحفظ المنظومة التَّائية -الَّتي نحن بصدد الكلام عليها-، بل قال أبو

[1] "المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية" للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله.

الحجَّاج يوسف بن محمَّد البَلَوِيّ في كتابه الماتع «ألف باء» قال إنَّ أَبا عَبد الله بن سَوْدَة كان يَحملُ طَلبَتهُ على حفظِها لجوْدتِها[1] -أي على حفظ هذه المنظومة الَّتي هي المعروفة بالتَّائية أو بمنظومة الآداب الَّتي نظمها رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-.

هذا ما يتعلَّق بالنَّاظم، ولَم تذكر كتب التَّراجم كثيرًا مِنْ كتُبه ومصنَّفاته، وهذا ليس عيبًا في العالِم، فإنَّ كثيرًا من العلماء لَم يتركوا كُتبًا ولَم يؤلِّفوا ولَم يُصنِّفوا -كما هو معلومٌ- وليس هذا محلّ الكلام عليه.

❋ ❋ ❋

التَّعرِيفُ بِالمَنظُومَةِ

هذا النَّظم قيل إنَّ الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ وصَّى به ابنه الَّذي يُكنى بأبي بكر، وهذا قولٌ مشهورٌ، ولكن اعترض بعضهم بأنَّ هذا غير معروفٍ ولا دليل عليه، ومعلومٌ أنَّ قول النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ في موضعين:«أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا» في الموضع الأوَّل في أوَّلها، وفي آخرها:«أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي» أنَّ هذا عند أهل المصطلح وأهل الحديث مُهملٌ، فإنَّه قد أهملهُ ولم يُبيِّن مَنْ هُو.

_ فقال بعضهم: إنَّه وصَّى بذلك ابنه، واحتجَّ بشيءٍ مِنْ أبيات المنظومة.

_ وقال آخرون: بل كان مُزاملاً لهُ، كان أحد المزاملين له في العلم إلَّا أنَّه نال مِنْ عرض الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ وتكلَّم عليه بما يُشينه، فردَّ عليه الألبيري بهذه الوصايا وهذه النَّصائح وهذه الذِّكرى وهذه العِظَة ولَم يتطرَّق إلى ما دار بينه وبينه في الكلام، وهؤلاء يحتجُّون بقوله:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرُهُ وَمُعْظَمُهُ سَتَرْتَا
وَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

إلى غيرها من الأبيات، ومَنْ قال بأنَّ المراد ابنه وأنَّه وصَّاه بهذه الوصايا احتجَّ بمثل قوله:

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ ... وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا

---

[1] (وَهَذَا الشَّاعِرُ هُوَ أَبُو إِسْحَاقَ، إِبْرَاهِيمَ بْن مَسْعُودٍ الأَلْبِيرِي رَحِمَهُ اللهُ، وَالْقَصِيدُ -أي التائية- حَسَنٌ طَوِيلٌ، كَانَ الأُسْتَاذُ الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِاللهِ بْن سَوْدَةَ شَيْخِي رَحِمَهُ اللهُ يَحْمِلُ طَلَبَتَهُ عَلَى حِفْظِهِ لِجَوْدَتِهَا) "ألف باء" ليوسف بن محمَّد البلوي رحمه الله؛ ج١، ص:١٣.

وَلَـمْ أَحْلُلْ بِـوَادٍ فِيــهِ ظُلْمٌ وَأَنْــتَ حَلَلْــتَ فِيــهِ وَانْهَمَلْتَـا
وَلَـمْ أَنْشَـأْ بِعَصْـرٍ فِيـهِ نَفْـعٌ وَأَنْـتَ نَشَأْتَ فِيـهِ وَمَـا انْتَفَعْتَـا

قالوا إنَّ هذا يدلُّ على التَّفاوت -وهذا مُحتمل- على التَّفاوت والبون بينهما في العمر وفي النِّسبة.

وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ هذا النَّظم قد اشتمل علَى نصائح ووصايا عظيمة ستتبيَّن لكم مِنْ خلال سماعها وما يتعلَّق بالتَّعليق عليها.

هذه المنظومة مِنَ البحر الوافر عند العروضيين، واشتملت على خمسة عشر ومائة بيت، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في آخرها:

وَقَـــدْ أَرْدَفْتُهَـــا تِسْعًـــا حِسَانًـا وَكَانَــتْ قَبْـــلَ ذَا مِائَــةً وَسِتَّـا

هذا ما يتعلَّق بشيءٍ مِنَ الاختصار حول هذا النَّظم، وهو نظمٌ رائقٌ، معروفٌ، مشهورٌ بين أهل العلم، مَرْويٌّ عن النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومَن تأمَّل في أبياته رأى أنَّه قد اشتمل مِن الحِكَم والمواعظ والتَّذكير وبيان حال الدُّنيا وأهمِّية العلم والحكم والدُّرر الشَّيءَ الكثيرَ، فإذا اعتنى بها طالب العلم وسمعها ولو سماعًا فإنَّه سيُحصِّل منها -إن شاء الله تعالى- خيرًا كثيرًا.

ولا بُدَّ وأن نرجع إلى ما بدأنا فيه فيما يتعلَّق بقضيَّة الأدب وأهميَّته، فإنَّنا كلُّنا ذلك الرَّجل نحتاج إلى مَنْ يذكِّرنا بالأدب، إلى مَنْ يُنبِّهنا على أهمِّية الأدب، إلى مَنْ يُعظِّم الأدب في نُفوسنا، إلى مَنْ يُبيِّن لنا حقيقةَ الأدبِ، وكيف نتعامل مع الله عَزَّوَجَلَّ، وكيف نتعامل مع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف نتعامل مع بعضنا البعض، كيف يتعامل المتعلِّم مع العالِم، والعالِمُ مع المتعلِّم، كلُّ هذا ممَّا نحتاج إليه.

وإنَّما اخترتُ أن يكون التَّعليق والشَّرح علَى هذه المنظومة لما سمعتم من أهمِّيتها ورَونقيَّة ألفاظها وأبياتها ومواعظها ونصائحها، ولما يتعلَّق بذلك أيضًا أنَّه ليس لها شرحٌ مطبوعٌ معروفٌ مُتداولٌ، وقلَّ من شرح هذه المنظومة.

وسيكون الشَّرح والتَّعليق عليها بشيءٍ مِنَ الاختصار مع الاعتناء بآثار السَّلف الَّتي تدلُّ عليها.

❊ ❊ ❊

ذِكْرُ هَادِمِ اللَّذَّاتِ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا النَّظم وفي مطلعه وابتدائه:

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتَّا وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا
وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا
أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا
تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا
فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى مَتَى لَا تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى

بدأ النَّاظم هذا النَّظم بالتَّذكير بأعظم مُصيبةٍ تنزل على العبد وهو الموت، لأنَّ العبد إذا ذكر الموت صَلح ظاهره وباطنه، وإذا نَسيَ الموت فَسد مِنْ ظاهره وباطنه بقدر ما يترتَّب على ذلك مِنْ نتائج هذا النِّسيان، فذِكر الموت موعظةٌ عظيمةٌ ذكَّرنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها في كتابه، وذكَّرنا بها النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُنَّته، بل إنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالإكثار مِنْ ذكر الموت كما في التِّرمذي مِنْ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»[١].

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[آل عمران:١٨٥]، ويقول جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٢٧]. إلى غير ذلك مِنَ النُّصوص الدَّالة على التَّذكير بالموت والخُروج مِنَ الدُّنيا.

وكما ذكرتُ لك فإنَّ ذكر الموت مِنْ أعظم الأسباب الَّتي تقود العبد إلى الصَّلاح، ونسيان الموت مِنْ أعظم الأسباب الَّتي تقود العبد إلى الفساد، وهذا أمرٌ معلومٌ، فأراد النَّاظم أن يبدأ نظمه بهذه الموعظة وهذا التَّذكير لأجل بيان أنَّ العبد لا صلاح له إلَّا بذكر الموت.

وما سيأتي مِنَ المواعظ والنَّصائح والتَّوجيهات الَّتي ذكرها إنَّما هي راجعة إلى التَّذكير بالموت والتَّزهيد في الدُّنيا مع الحرص على طلب العلم ونفع النَّفس ونفع النَّاس.

---

[١] قال الألباني رحمه الله في "سنن الترمذي" (٢٣٠٧) : حسن صحيح. اهـ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:«تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتًّا» الْفتُّ في أصل اللُّغة: الكسر، ومنه يُقال لكَسْر الخبز أو لكِسَر الخبز: الفَتِيت، فالفتُّ معناه كَسْرُ الشَّيء. ويقول لك هنا بأنَّ الأيام تفعل فيك، تفعل في قلبك وفي فؤادك الكسر، فكلُّ يوم يمرُّ مِنْ حياتك يكسر شيئًا مِنَ القلب، وهذه الأشياء إذا كُسرت فإنَّ كسرها لا يُشْعَب.

شبَّه أو نبَّه هنا -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاهُ- إلى أنَّ عمل الأيام في الإنسان كعمل الإنسان في تفتيت الشَّيء، وكما قال ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء:١٢] فاللَّيل يمحو النَّهار والنَّهار يمحو اللَّيل، والشَّيء الَّذي يُمحى مِنْ عمر الإنسان لا يرجع أبدًا، وكما قال بعض السَّلف: (إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلاَنِ فِيكَ، فَاعْمَلْ فِيهِمَا)[١].

ولهذا جاء في صحيح البخاري في حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا أخذ بمنكبه وقال:«**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[٢] وكان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: (إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِك)[٣]، وهكذا النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث المعروف يقول: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ**»[٤] إلى آخر الحديث، فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعلمه ومعرفته لأمر الدُّنيا وأمور الآخرة يُنبِّه على هذا الأمر ويبدأ به.

وقوله:«فُؤَادَكَ» مِنْ أهل العلم واللُّغة مَنْ فرَّق بين القلب والفؤاد ومنهم مَنْ لَم يفرِّق بينهما، والخطب في هذا -كما يُقال- ميسورٌ في مثل هذا النَّظم.

«تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ» أي أنَّ الأيام بتداولها ومرورها وذهابها تعمل في فؤادك الفتَّ والإزالة، وهذا أمرٌ كما هو معلومٌ ومشاهدٌ، إلَّا أنَّ النَّاس -ونسأل الله أن يعافينا- في غفلةٍ عن هذا كلِّه، والعاقل مَنْ يُنزل نفسه حيث أنزلها الله جَلَّ وَعَلَا.

وهكذا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول بعد ذلك:«وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا» أصل النَّحت في لُغة العرب أنَّه نوعٌ من الإزالة -أي إزالة الحديد للخشب-، فيُسمَّى عمل النَّجار نحتًا لأنه يُنقص مِنْ ذلك الخشب، ومَنْ تأمَّل هذا الَّذي

---

[١] "مكارم الأخلاق" لابن أبي الدنيا رحمه الله؛ ص:٤٧.

[٢] رواه البخاري (٦٤١٦).

[٣] رواه البخاري (٦٤١٦).

[٤] قال ﷺ:(اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٣٣٥٥)؛ من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

ذكره النَّاظم أيضًا في هذا المقام عَلِم أنَّ النَّحت الَّذي تقوم به الأيَّام في هذا الإنسان في عُمره وفي لياليه وفي دهره أنَّها تُزيلها كما أنَّ الحديد يُزيل أشياء مِنَ الخشب.

النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ -أقول وأُكرِّر- لعلمه بهذا الأمر يَذْكره في أوَّل هذا النَّظم، لأنَّ العبد إذا تذكَّر الموت والآخرة سهل عليه ما بعدهما، ولهذا انظروا إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية:٣٢].

كان الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (يَا ابْنَ آدَمَ نَهَارُكَ ضَيْفُكَ فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ)[١] أي بالطَّاعات، وهذا الأمرُ معلومٌ في قرارة نُفوس العباد، وأنَّهم راحلون عن الدُّنيا، لكنَّ العاقل مَنْ عَلِم أنَّ كلَّ راحلٍ لا بدَّ له مِنْ زادٍ في رحلته، فالنَّاظم ذكَّرنا بهذه الموعظة الَّتي لا بدَّ وأن نأخذ بزمامها وأن نجعلها نصب أعيننا -كما يُقال-.

والعبد الَّذي يعمل بطاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنَّه لا يَلتفت إلى المصاعب ولا إلى شيءٍ يُكدِّرها، قال بعض السَّلف: (إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ مَعْدُودَةٌ، فَإِذَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ، وَيُوشِكُ إِذَا ذَهَبَ الْبَعْضُ أَنْ يَذْهَبَ الكُلُّ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ، فَاعْمَلْ)[٢].

ثُمَّ قال النَّاظم -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاهُ-:

وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ ... أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

أكَّد الذِّكرى بالموت بهذا البيت.

«وَتَدْعُوكَ»: تُناديكَ، كلُّ يوم يمرُّ مِنْ أيَّامك يُناديك فيه الموت إلى قبرك.

«وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ» دُعاءَ صِدقٍ لا كذب فيه، ودعاءَ حقٍّ لا باطل فيه، بل كلُّ إنسانٍ سيرِدُ على هذا المقام، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[الجمعة:٨]، وكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء:٧٨]، فكلُّ العباد إلى هذا الطَّريق سائرون، وإلى هذا المصير صائرون، لا يخرج عن هذا أحدٌ مِنَ الخلق أبدًا، ولكنَّ العاقل مَنْ عمل بما صوَّره له النَّاظم وهو أنَّ المنون لا تدعو غيره وإنَّما تدعوه هو، لأنَّنا نُدخل أنفسنا في غفلةٍ بسبب أنَّنا نرى أنَّ الموت لا ينادينا نحن -كما سيُذكِّر بذلك النَّاظم فيما يُستقبل من أبياته فلا نتقدَّم عليه-.

[١] "آداب الحسن البصرى وزهده ومواعظه" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:٣٤

[٢] "صفة الصفوة" لابن الجوزي رحمه الله، ج٤، ص٢٩.

هنا يقول: «وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ» والمنون هي الموت، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[الطور: ٣٠] يعني أرادوا الموت، فالمنون مِنَ المنِيَّة وهي أخذُ النَّفس وحصول الموت.

«وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ» ماذا تقول؟ «أَلَا» هذا حرف استفتاح يُفيد الاهتمام والاعتناء بما يأتي بعده.

وقوله: «يَا صَاحِ» هذا ترخيم للصَّاحب، «أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا» أي لا أطلب غيرك، المنون هكذا قائلة، أمَّا العبد فلا يقول هذا لنفسه، فإنَّه يُغسِّل كأنَّه لا يُغَسَّل، ويُصلِّي على النَّاس وكأنَّه لا يُصلَّى عليه، ويُشيِّع وكأنَّه لا يُشيَّع، ويُنزِل النَّاس في قبورهم وكأنَّه لا يُنزَل، ويُهيل عليهم التُّراب وكأنَّه لا يُهال عليه -إلَّا ما رحم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

فهو يذكِّرك ويقول: «أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا» أي أنَّ الموت يُناديك بصدقٍ وبحقٍّ «يَا صَاحِ» يا صاحبي، مِنَ المُصاحبةِ، وكأنَّه نزَّل الموت مِنَ الإنسان منزلة الصَّاحب الَّذي لا يفارقه، «أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا».

❋ ❋ ❋

التَّحْذِيرُ مِنَ الاغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا

ثمَّ ينقلنا النَّاظم إلى نفس المقام، إلى ما يقطعنا عن الآخرة وما يُنسينا ذكر الموت، فيقول:

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ ... أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا

يقولُ له: ما أراكَ وهذا حالُكَ، وهذا منزلُكَ، وهذه طريقتُكَ في الحياةِ، إلَّا أنَّك تُحبُّ عِرسًا، وليست العِرس هذه هي العروس الَّتي هي الزَّوجة، وإنَّما هي الدُّنيا، لأنَّه يُريد أن يذُمَّ كلَّ ما في هذه الدُّنيا ممَّا يقطع عن الآخرة، لَم يُرد أن يُزهِّد فقط في المرأة.

«أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ» هذه أراد بها الدُّنيا.

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِدَارِ إِقَامَةٍ ... وَلَكِنَّهَا دَارُ انْتِقَالٍ لِمَنْ عَقَلْ

هذه الدُّنيا كنَّاها النَّاظم في بيتٍ سنستقبله بأُمِّ دَفر، كما هو معلوم أنَّ هذا مِنْ أسماء أو كُنى هذه الدُّنيا، فهُو يقُول: «أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ».

(الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ لَا دَارُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا)[1] كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ؛ وقد جاء في صحيح مُسلم في حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[2]، وهذا أمرٌ ظاهرٌ.

ولهذا صحَّ عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان يقول: (يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِي، فَقَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثًا)[3]؛ ولهذا النَّاظم يقول: «أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتًّا» والأكياس جمعُ كيِّس، والكيِّس هو العاقل، وكما جاء في حديث شدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي» والحديث ضعَّفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ[4]، فالنَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ أخذ هذه المعاني كلَّها ونظمها في هذه الأبيات.

«أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ» في خِباءٍ مع ما هي فيه مِنَ المكر، مع ما هي فيه مِنَ الخيانة، مع ما هي فيه مِنَ الأماني الباطلة؛ كلُّ هذا حال الدُّنيا ومع هذا فإنَّها تتزيَّن للإنسان حتَّى تأكُل شبابه وحتَّى تأكل صحَّته وحتَّى تأكل أحسن ما فيه، ثمَّ تُريه نفسها على حقيقتها وأنَّها تلك العجوز الشَّمطاء الَّتي لَا يلتفتُ إليها أحد.

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ　　　أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا

كيف تُحبُّ هذه العِرْس ذات الخدر وقد أبتَّ طلاقها العقلاء المتنزِّهون عنها العالِمون بحقيقتها؟

«بَتًّا» تأكيد لهذا الطَّلاق الَّذي كانوا عليه.

«أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتًّا» ما دليلُهُ وما برهانه على أنَّ هذا العبد أراد الدُّنيا أراد عرسًا ذات خدر؟ دليله ما سيذكره، وهو قوله: «تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ».

_ «وَيْحَكَ» هذه كلمة «وَيْح»: تُستعمل لشيءٍ مِنَ التَّهديد مع التَّخويف، ففيها نوع اشفاقٍ.

---

[1] "الآداب الشرعية" لابن مفلح رحمه الله؛ ج١، ص:٣٧٨

[2] رواه مسلم (٢٢٣).

[3] بلفظ: (يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، أَبِي تَعَرَّضْتِ أَمْ لِي تَشَوَّفْتِ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بَتَتُّكِ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ لِي فِيكِ، فَعُمُرُكِ قَصِيرٌ، وَعَيْشُكِ حَقِيرٌ، وَخَطَرُكِ كَبِيرٌ؛ آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ) "صفة الصفوة" لابن الجوزي، ج١، ص:١١٨.

[4] "ضعيف سنن الترمذي" للألباني رحمه الله (٢٤٥٩).

_ وأمَّا «وَيْل»: فإنَّها كلمةُ تهديدٍ لَا اشفاقَ فيه.

هكذا «وَيح» يقولون و «وَيْل» و «وَيْس» و «وَيْب»، كلُّها معانيها متقاربة.

فهو يقول له: ويحكَ أمْسِك عن هذا، تنام الدَّهر كلَّه لا في عمل الدُّنيا ولا في عمل الآخرة! قد أضعتَ دهرك نومًا، والنَّائم ميِّت لأنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَلَا يَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ»[1].

قال: «فِي غَطِيطٍ» الغطيط هو الصَّوتُ الَّذي يُحْدِثُه النَّائم، يُسمَّى الشَّخير، ويُسمَّى الغطيط.

تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ ... بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا

«بِهَا» أي بهذه الدُّنيا وبالعرس الَّتي في خِدرها، «حَتَّى إِذَا متَّ» مِتَّ أو مُتَّ وهما قراءتان قُرِئ بهما في السَّبعة.

«حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا» قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[المؤمنون:١٠٠- ٩٩] وهل تنفع؟ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في كتابه الكريم مُبيِّنًا هذا بالنِّسبة للقاطع الخاص بالإنسان المفرد، وقد ينقطع الأمر بعموم النَّاس عند طلوع الشَّمس مِنْ مغربها ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾[الأنعام:١٥٨] قبل أن تنقطع بك السُّبُل، نِمْتَ مِنْ أهل الدُّنيا وتستيقظ وأنتَ مِنْ أهل الآخرة، كم مِنْ إنسانٍ نام على فراشٍ وفيرٍ وتغطَّى بما يُحبُّ مِنَ الغطاء ونام وبات ليلته وهو مِنْ أهل الدُّنيا يتنفَّس بأنفاسهم ويتكلَّم بكلامهم، ولكنَّه لا يستيقظ إلَّا وهو مِنْ أهل الآخرة، قد خرج مِنَ الدُّنيا، وخرج بكلِّ ما تحمله الكلمة ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾[الواقعة:٨٣-٨٥] فيخرج الإنسان مِنْ هذه الحياة الدُّنيا، لا يُبصر النَّاس الملائكة الَّتي قَبَضت روحه.

«تَنَامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ» في نومٍ وغفلةٍ وسُباتٍ ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾[الأنبياء١]، ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[القمر:١]، والنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَلَا يَزْدَادُ النَّاسُ عَلَى الدُّنْيَا إِلَّا حِرْصًا، وَلَا يَزْدَادُونَ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا**»[2] -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

«بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا» أيُّ تنبيهٍ هذا؟ التَّنبيه هو أنَّك بدلًا مِنْ أنَّك كُنتَ مِنْ أهلِ الدُّنيا صِرتَ مِنْ أهل الآخرة ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾[المؤمنون:٩٩] فلا يرجع.

---

[1] قال الألباني رحمه الله في "السِّلسلة الصَّحيحة" (١٠٨٧) : الحديث صحيح من بعض طُرقه عن جابر رضي الله عنه، والله أعلم. اهـ

[2] "ضعيف التَّرغيب" للألباني رحمه الله (١٩٥٥)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

فَكَــمْ ذَا أَنْــتَ مَخْــدُوعٌ وحَتَّــى مَتَــى لَا تَـرْعِــوِي عَنْهَــا وَحَتَّــى

«فَكَمْ ذَا»، «كَمْ» هذه لها معنيان ولها وجهان في الإعراب:

_ تُستخدَم للتَّكثير، وإذا كَثَّرت جَرَّت.

_ وتُستخدم للاستفهام، فإذا اسْتَفْهَمَت نَصَبَت.

وهذا يظهر فيها إعرابه ظاهر، لكنَّه يخفى فيها إعرابه تقديريٌّ، أنتَ تقول: (كَمْ رَجُلاً فِي الدَّارِ؟) تقصدُ العدد، وتقولُ: (كَمْ رَجُلٍ فِي الدَّارِ) فتقصد كثرتهم ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾[النَّجم:٢٦].

هنا يقول:«فَكَمْ ذَا» ماذا يُريد؟ يُريد كثرةَ الغفلةِ الَّتي أنتَ فيها والخداع الَّذي انخدعتَ به.

فَكَــمْ ذَا أَنْــتَ مَخْدُوعٌ وحَتَّــى مَتَــى لَا تَرْعِــوِي عَنْهَــا وَحَتَّــى

حتَّى متى؟ وقد مرَّ بك هذا الَّذي ذكرتُه لكَ مِنْ فتِّ الفؤاد، ونَحْتِ الجسم، وحُلولِ المنُون، وحصول الخروج من الدُّنيا، والموت؛ مع هذا أنتَ في غفلتك وأنت في سُباتكَ!

وهذا ممَّا يدلُّ على أنَّ الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مقرئٌ فقيهٌ -نسيتُ أن أذكر هذا في ترجمته- مقرئٌ، فقيهٌ، نحويٌّ، ذكروا في ترجمته مَنْ أخذَ عليهم القراءات، زاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فنقول هنا: هذا ممَّا يدلُّ على ما كان عليه الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حُسنِ الوعظ والتَّذكير، لأنَّ الوعظ والتَّذكير بالآخرة وأمورها والجنَّة والنَّار -الَّذي يقطع الشَّهوات- ثمَّ الدُّخول بما يريده الإنسان يُسمَّى بـ: «التَّخلية والتَّحلية»، فهو يُريدك أن تقطع أوَّلًا علاقتك بالدُّنيا حتَّى تلتفت إلى الآخرة، أن تقطع علاقتكَ بمشاغل الدُّنيا حتَّى تلتفت إلى العِلْمِ.

«مَتَى لَا تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى» لا ترعوي، ولا ترجع، ولا تقيل عنها.

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى مِنْ معرفته وزُهده بدأ بالكلام على التَّذكير بالموت وصِفاته وما يتعلَّق بالانتقال مِنَ الدُّنيا إلى الآخرةِ لتتهيَّأ النَّفس لما يأتي مِنَ النَّصائح والمواعظ والتَّذكير.

❋ ❋ ❋

مَنِ الْمَقْصُودُ بِأَبِي بَكْرٍ؟

ثُمَّ إنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ بالنِّداء لمن أراد نُصحه وتوجيهه:

«أَبَا بَكْرٍ» دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا

والخلاف الحاصل بين القائمين على طبع هذا النَّظم:

_ مِنْ أنَّ طائفة منهم يقولون بأنَّ «أبا بكر» الَّذي ناداه النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا المنادى هو ابنٌ للنَّاظمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

_ ومنهُم مَنْ قال بأنَّه مُزاملٌ له في الطَّلب، ثمَّ جرى عليه ما جرى مِنَ التَّغيُّر فأخذ يَعِيب ويتكلَّم في الألبيري، فردَّ عليه بهذه النَّصائح وبهذه المواعظ.

* والنَّاظر المتأمِّل في هذا النَّظم يرى أنَّ هذين القولين بعيدان عن الصَّواب، وأنَّ القول بأنَّ هذا المعني ليس شخصًا أو ذاتًا مُعيَّنًا، وحُجَّة هذا أنَّه أحيانًا يُخاطب شخصًا كبيرًا قد تمادى في الغيِّ والباطل:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي ... وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

وما أشبه هذا مِنَ الأبيات الَّتي تتضمَّنها هذه المنظومة، وأحيانًا يقول مخاطبًا أو ناقلاً عنه أنَّه يقول: «وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا».

فالشَّاهد أنَّ هذا قد يكون مِنْ باب التَّذكير والنُّصحِ لهذا المُنادَى وإن لَم يكن شخصًا مُعيَّنًا.

❊ ❊ ❊

فَضْلُ الْعِلْمِ وَشَرَفُ أَهْلِهِ

يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

«أَبَا بَكْرٍ» دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

وَيَجْلُو مَـــا بِعَيْنِكَ مِـــنْ غِشَاهَـا وَيَهْدِيـــكَ الطَّرِيـــقَ إِذَا ضَلَلْتَـــا
وَتَحْمِـلُ مِنْـهُ فِـي نَادِيـكَ تَـاجًـا وَيَكْسُـــوكَ الْجَمَـــالَ إِذَا عَـرِيتَـــا

هذه الأبيات بدأها النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بالنِّداء لهذا الَّذي ذُكر مِنْ قبل الخلاف فيه.

وقوله: «أَبَا بَكْرٍ» هذا منصوبٌ على حذف حرف النِّداء النَّائب عن الفعل: (أدعو أبا بكر) أو ما أشبه ذلك.

«أَبَا بَكْرٍ» هذا مِنْ باب الكُنى، «دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا» لو تفيد امتناع الوجودِ، فهو يناديه ويقول له: لو أجبتَ هذا النِّداء فقد وقعتَ على المحلِّ المطلوب، «لَوْ أَجَبْتَا» إجابةً صحيحةً.

«إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ» يعني إلى أوفر الحظِّ والنَّصيب، «إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ» والحظ هو النَّصيب عند أكثر أهل اللُّغة، ومنهم مَنْ فرَّق بين الحظِّ وبين النَّصيبِ، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[النساء:١١] والمراد هُنا: النَّصيب، فهو يقول بأنَّ إجابتكَ لِي سبيلٌ لهذا الحظِّ وهذا النَّصيبِ، وأنَّ تَفْويتك لهذه الإِجابة يُفوِّتُ عليك الحظَّ والنَّصيبَ الَّذي قُسم لك.

«إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ» متى؟ «لَوْ عَقَلْتَا»، وقوله: «لَوْ عَقَلْتَا» هُنا أرادَ لو كان لك عقلٌ فأجبتَ فإنَّك قد أدركتَ حظَّك، وهذا العقل لأنَّه يعْقِلك عن مواطن الرِّيب وما يُسفِّه عليه الإنسان.

ما هو هذا الَّذي دعاه إليه؟ فسَّره في البيت الثَّاني بقوله: «إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا».

«إِلَى عِلْمٍ» استعمل النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ التَّنكير، إلَّا أنَّ المراد به خصوص العلم الشَّرعيِّ، ولَم يُرد النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ كلَّ عِلمٍ يُوصل إلى هذا الحظِّ، فلا يُفهم مِنْ هذا التَّنكير أنَّ هذه الفضائل الَّتي سيذكرها ترجعُ إلى كلِّ علمٍ، بل المقصود بالفضائل الشَّرعية حيثُ أُطلقتْ وجاءت فإنَّها المقصود بها: العِلمُ الشَّرعيُّ.

«إِلَى عِلْمٍ» أين يُوصل هذا العلم؟ إلى الإمامةِ، ولهذا قال: «إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا» أي أنَّ هذا العلم يُوصلك إلى الإمامةِ في الدِّين والَّتي هي مِنْ أعظم المطالب، ولهذا علَّمنا الله عَزَّوَجَلَّ دُعاء الصالحين وهم عباد الرَّحمن بدأها بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى أن قال: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان:٧٤]، وأصلُ الإمام هو المتقدِّم؛ ومنه سُمِّي الإمام في الجيش إمامًا، والإمام في الصَّلاة إمامًا، فهو يقول بأنَّ هذا العلم يُوصلك للتَّقدُّم على غيرك.

«إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا» وهذه الإمامة المقصود بها الإمامة في الدِّين، لكن لا يكون المقصد مِنَ العلمِ طلبُ الإمامة، وهذا في جميع ما يَحصُل مِنَ الآثار والأسباب بالنِّسبة لطالب العلم ممَّا فيه نوعُ حظٍّ مِنَ الدُّنيا، ولكن يكون قصدهُ العلم ثمَّ بعد ذلك تأتي هذه الإمامة لكن لا تكون مقصودة، ولهذا صحَّ عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: (مَا تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ إِلَّا لِنَفْسِي، وَمَا تَعَلَّمْتُ لِيَحْتَاجَ النَّاسُ إِلَيَّ، وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ)[1]، هذا الأثر العظيم يُبيِّن فيه الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ المنهج الَّذي كان عليه النَّاس في طلب العلم، ولهذا قال: (وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ)، ويُوضِّح هذا أنَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى قال: (طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ؛ قِيلَ: فَأَيُّ شَيْءٍ تَصْحِيحُ النِّيَّةِ؟ قَالَ: يَنْوِي أَنْ يَتَوَاضَعَ فِيهِ وَيَنْفِيَ عَنْهُ الْجَهْلَ)[2]، فالنَّاظم يُبيِّن هُنا أنَّ العلم الَّذي أُريد به وجه الله هو الَّذي يُوصِل إلى الإمامة في الدِّين، والإمامةُ في الدِّين مَطلبٌ شرعيٌّ عظيمٌ، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة:١٢٦]، ولمَّا قال له: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:١٢٤] علَّق ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ صاحب الهوى لا يكون إمامًا لأنَّ الهوى يقودُ إلى الظُّلم[3] ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:١٢٤].

فالإمامة في الدِّين فسَّرها النَّاظم بقوله: «مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا» فيكون مُطاعًا إذا أمر وإذا نهى، لأنَّ هذه هي حقيقة العلم الَّتي تُوصل الأوامر والنَّواهي.

والإمامة لا تكون إلَّا بالعِلمِ، ولهذا تأمَّلوا في قول الله عَزَّوَجَلَّ مُخبرًا عن نبيٍّ مِنْ أنبياء بني إسرائيل مِنْ بعد موسى -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ﴾ هذا الجواب وهذا الشَّاهد: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[البقرة:٢٤٧-٢٤٦] فذكر العلم لأنَّه هو المقدَّم في هذه الإمامة -إمامة الدِّين-، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ

---

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٨، ص:٦٦.

[2] "غذاء الألباب" للسفاريني رحمه الله؛ ج٢، ص:٥١٩.

[3] قال ابن القيّم رحمه الله: (مُتَّبِع الْهَوَى لَيْسَ أَهْلًا أَنْ يُطَاعَ وَلَا يَكُون إِمَامًا وَلَا مَتْبُوعًا، فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَزَلَهُ عَنِ الإِمَامَةِ وَنَهَى عَنْ طَاعَتِهِ، أَمَّا عَزْلُهُ فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أيْ لا يَنَال عَهْدِي بِالإِمَامَةِ ظَالِمًا، وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَهُوَ ظَالِمٌ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ طَاعَتِهِ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾) "روضة المحبين" ص:٦٣٦.

وَالْجِسْمِ﴾.

ولمَّا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة:١١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ -قالها في سورة الأنعام وفي سورة يوسف-، قال مالك عن زيد بن أسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ قال: (بِالْعِلْمِ)[1]، ولهذا خرَّج مُسلم في صحيحه أنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ لقيَ نافع بن عبد الحارث بعُسفان، وكان نافع هذا واليًا على القرى -يعني على مكَّة وما حولها-، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»**)[2] هذه هي الإمامة.

ولهذا يقول الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في مقدِّمة كتابه العظيم «إعلام الموقعين» وهو يسوق فضائل أهل العلم وما لهم مِنَ المزايا والفضائل قال: (وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:٨٣])[3] فمِنْ أسباب عدم اتِّباع الشَّيطان وعدم تسلُّطه على النَّاس: وجود أهل العلم، وهم وُلاة الأمر على الحقيقة، ولهذا قال الحافظ أبو عبد الله ابن بطَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: (طَاعَتُهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْخَلقِ وَاجِبَةٌ، وَمَعْصِيَّتُهُم مُحَرَّمَةٌ)[4] وبهذا الأصل العظيم عَصَم الله الأمَّة مِنَ الفتن في أوَّل صدرها، واستمرَّ هذا حتَّى قلَّ العلم وقلَّ الرُّجوع إلى أهله فانتشرتِ الفتن، ولهذا النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَبطَ وُجود الفِتنِ بذهاب هؤلاء العلماء كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الصَّحيحين أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»**[5] هذا مِنْ أشدِّ آثار ذهابِ أهل العلم، لهذا فسَّر طوائف مِنَ العلماء -مِنَ المفسِّرين وغيرهم- قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:٤١] قالوا: (﴿نَنقُصُهَا﴾ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ)[6]، وهكذا العلماء إذا ذهبوا ذهبت الإمامةُ في الدِّين.

---

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٦١٩.

[2] رواه مسلم (٨١٧).

[3] "إعلام الموقعين" لابن القيِّم رحمه الله؛ ج١، ص:٨.

[4] "إبطال الحيل" لابن بطة رحمه الله، ص:٥٦.

[5] متَّفق عليه؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري (١٠٠).

[6] تفسير "الدر المنثور" للسيوطي رحمه الله، ج٤، ص:١٢٦.

والآثار في هذا كثيرةٌ جدًّا، والمقصود هو توضيح ما أراده النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لأنَّ مِنَ الأسباب الدَّافعة إلى الحرص على الشَّيء المعرفةُ بفضائله، مِنَ الأسباب الَّتي تحثُّ المسلم وتحضُّه على الشَّيء وعلى الحرص عليه أن يعلم فضائله، فإذا علم الفضائل كان أحرص على هذا الَّذي له هذه الفضائل.

يقُول: «إِلَى عِلْمٍ تكُونُ بِهِ إِمَامًا» ما حقيقة هذه الإمامة؟ فسَّرها: «مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا»، وهذا مِنْ آثار العلم، وقد سمعتم هذه النَّصوص وهذه الآثار، والآثار كثيرةٌ جدًا.

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَمٌ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
لَا فَضْلَ إِلَّا لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ[1]

مِنْ روائع ما قاله عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: (كَفَى بِالْعِلْمِ شَرَفًا أَنْ يَدَّعِيهِ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ، وَيَفْرَح بِهِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ)[2]، ونحن لا نريد الآن لو تكلَّمنا عن فضائل العلم وفضائل العلماء، لكنْ سنمشي مع النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ ليكون هذا هو المقصود مِنْ إيضاح كلامه.

❋ ❋ ❋

أَثَرُ العِلْمِ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ

ثُمَّ ذَكر أثرًا عظيمًا مِنْ آثار العلم وهو ما يحدثه في نفس المتعلِّم مِنْ إزالة الغشاء والغطاء الَّذي يكون على القلب قبل العين، فقال:

وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا ... وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا

مِن آثار العلم العظيمة أنَّه يجلو الغشاء الواقع على العين، وهذا الغشاء الواقع على العين الَّذي غطَّى البصر أين مصدره؟ مصدرهُ الغشاء الَّذي يكون على القلب بسبب الجهل لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[ص:٢٩]، فإذا ذهبت بصيرة القلب ذهبَ بصرُ العين، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ

[1] تُنسبُ لعلي بن أبي طالب ﷺ.
[2] "المجموع" للنووي رحمه الله، ج١، ص:٤١.

﴿إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨]، والله عَزَّوَجَلَّ أخبر بما نتج مِنْ عماهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[فصلت:٥] فهم لا يبصرون شيئًا وإن كان الحقُّ أمامهم؛ فالعلم هو النُّور الَّذين يُضيء لك الطَّريق.

ما الَّذي يُذهب الغشاء الَّذي على القلب؟ وما الَّذي يُذهب الغشاء الَّذي على العين؟ قال: «وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا» هذا الغشاء هو الجهل، ما الَّذي يُذهبه؟ العِلمُ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام:١٢٢]، العلم فُرقان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩].

«وَيَجْلُو مَا بِعَيْنِكَ مِنْ غِشَاهَا» فإذا انجلى ما على العينِ مِنَ الغشاء وذهبَ رأيتَ الطَّريقَ، لهذا مِنْ بَرَاعةِ قول النَّاظم في هذا البيت: «وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا» فلا بدَّ أوَّلًا مِنْ ذهاب الغشاء الواقع على العين والغشاء الواقع على القلب، فإذا ذهبَ الغشاء الواقع على الحسِّ والمعنى بَانَ الطَّريق وظَهر، فإذا بان الطَّريق وظهر جاء الامتحان بالسُّلوك أو بالانحراف عن الجادَّة.

فالنَّاظم يقول: «وَيَهْدِيكَ» يكون لك هداية، «الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا» فإذا حصل نوعٌ مِنَ الضَّلال العلمُ يرُدُّك، والعالِمُ لا يُمكن أن يُحيط بكلِّ شيءٍ علمًا، ولكنَّ علمه يحكمه ويُرجعه إلى مقام الجادَّة.

- هذه ثلاثةُ آثارٍ للعلم ذكرها في بيتين:

_ الإمامة.

_ وذهاب غشاء العين.

_ والهداية إلى الطَّريق الصَّحيح المستقيم، أثرٌ مِنْ آثار العلم بل أعظم آثاره، وما فائدة العلم إذا لَم يكُن قائدًا للخير؟ وسيُبيِّن النَّاظم إذا لَم يكن قائدًا إلى الخير، ولهذا يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فيما سيأتي معنا من أبياتٍ:

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْرًا	فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا
وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ	فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

فالعلم لا بُدَّ وأن يهدي إلى الطَّريق: «وَيَهْدِيكَ الطَّرِيقَ إِذَا ضَلَلْتَا».

❁ ❁ ❁

العِلْمُ سَبِيلُ الرِّفْعَةِ

ثمَّ ذكر أثرًا عظيمًا يرجع إلى الأثر الأوَّل فقال:

وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا وَيَكْسُوكَ الجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا

«وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ» النَّادي المرادُ به المُجتمع الَّذي يجتمع فيه النَّاس، فحيثما اجتمع النَّاس ورَأَوْك كان هذا العلم بمثابة التَّاج الَّذي يُميِّز المَلِكَ عن غيره مِنَ النَّاس، فيقول بأنَّك إذا مررتَ: «تَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا» وهذه هي حقيقة الإمامة في الدِّين، والتَّقدم في الدِّين، والتَّقدم في العلم.

«وَتَحْمِلُ مِنهُ فِي نَادِيكَ» في مُجتمعك، «تَاجًا» بسبب هذا العلم، ومع هذا التَّاج: «وَيَكْسُوكَ الجَمَالَ إِذَا عَرِيتَا» فإذا حصل الفقرُ والفَاقةُ وقلَّة ذاتِ اليدِ ومُزِّقت الثِّياب ولَم تجد غيارًا كان هذا العلم هو كساؤُك وهو رِداؤُك.

«وَيَكْسُوكَ الجَمَالَ» يُجمِّلك، يُعطيك جمالًا ورَوْنقًا، وهذه كانت حالة أهل العلم وحَملة العلم. فحيثما كنتَ فإنَّ الجمال مُصاحبٌ لكَ، هو لباسك.

❁ ❁ ❁

بَقَاءُ أَجْرِ العِلْمِ بَعْدَ وَفَاةِ صَاحِبِهِ

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

«وَيَبْقَى ذُخْرُهُ» وفي نُسخة: «وَيَبْقَى ذِكْرُهُ».

«يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَادُمْتَ حَيًّا» أي أنَّك تُحصِّل نفع هذا العلم مُدَّة حياتك، فما بقيتَ مع العلم وما بقيت حاملاً للعلم

فإنَّك تنتفع به ما دمتَ حيًّا، فمدَّة حياتك هي المكان الَّذي تُحصِّل فيه هذا العلم، وليس هذا فحسب بل إنَّه أكدَّ إلى أنَّ هذا العلم سيَبقى «ذُخْرُهُ» أو «ذِكْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا» وأراد بالذَّهاب هُنا الموت، فيقول: إذَا ذهبتَ وخرجتَ من هذه الحياة الدُّنيا ولقِيَك الموت وأدْركك -كما تقَّدم معنا أنَّه ذكَّر بالموت-، يقول لك أنَّه حال ذهابك مِنْ هذه الحياة الدُّنيا وخُروجكَ منها فإنَّ هذا العلم سيبقى ذُخرًا وسيبقى ذِكرًا.

_ أمَّا على نسخة: «ذُخْرُهُ» فإنَّ الذُّخر هو الشَّيء الَّذي يُدَّخر للإنسان ويبقى له على مَدىٍ أو على عُمرٍ مديدٍ، فيكون ذُخرًا لهذا الإنسان.

_ وأمَّا على نسخة: «ذِكْرُهُ» فإنَّ المراد بالذِّكر هنا الشَّرف والمكانة والمنزلة، يدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾[الزخرف:٤٤] أراد أنَّه شرفٌ لكَ ولقومكَ، فتَشْرفُون به، ويبقى ذكرًا لكم، لِأَنَّ هذا ممَّا يحرص عليه الإنسان، والعرب كانوا مِنْ أحرص النَّاس على هذا.

وأراد هُنا ذِكر الخيرِ والإمامةِ في الدِّين، والله عَزَّوَجَلَّ قال عن نبيِّه وخليله إبراهيم عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصَّلاة والتَّسليم قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[الشعراء:٨٤] ولسان الصِّدق في الآخرين هو أن يُذكر بالذِّكر الحسن.

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يُقرِّب لك هذا المعنى، يقول بأنَّ العلم يُبقِي لكَ الذِّكر ويَبقى أيضًا ذُخرًا لك، ولهذا النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال كما في صحيح مسلم مِنْ حديث العَلاء بن عبد الرَّحمن عن أبيه عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1] والشَّاهد منه قوله: «**أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ**» هذا ممَّا يبقى للإنسان، ويجري عليه عمله.

وأنتم تَرَوْنَ في تأريخ هذه الأمة مُنذ بدئِها كيف أنَّ الَّذين بقيَ ذِكرهم وبقِيَت إمامتُهم هم الَّذين حملوا العلم، الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ مُقدَّمون في هذا وعلى رأسِ هذه الأُمَّة، والتَّابعون الَّذين جاءوا مِنْ بعدِهم عاصروا مُلوكًا وأُمراء وأغنياء إلَّا أنَّه لَم يبق مِنَ الذِّكر إلَّا ذكرُ العُلماء وحملة العلم، الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كم الَّذين عاصروهُ وعاشوا معه في زمانه مِنْ حَمَلَةِ المُلْكِ والسُّلطان أو حَمَلَةِ الجاهِ والمال.



[1] رواه مسلم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سُلْطَانُ الْعِلْمِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هُـــوَ العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْــسَ يَنْبُــو   تُصِيبُ بِــهِ مَقاتِلَ مَــنْ أَرَدْتَــا

«العَضْبُ» أي قاطعٌ، فهو يقول لكَ بأنَّ العلم إذا حصَّلته:«هُوَ الْعَضْبُ» وأيضًا «الْمُهَنَّدُ».

_ «الْعَضْبُ»: نِسبةً إلى حِدَّة القطع وشدَّته.

_ و«الْمُهَنَّدُ»: قيل فيه أقوال، وأشهرها أنَّه منسُوب إلى الهند، بمعنى أنَّه صُنع ببلاد الهند.

وهذا ممَّا يُوصف به السَّيف، فيُوصفُ بالمهنَّدِ، ويُوصفُ بالعضبِ، ويُوصفُ بالبتَّارِ، ويُوصف بالصَّارمِ؛ فلِقُوَّةِ سُلطانِ العلمِ شَبَّه هذا العِلْمَ بالسَّيفِ، فقال:«هُوَ العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو».

لاحظ إلى الأوصاف الَّتي وصف بها السَّيف:«الْعَضْبُ» و «الْمُهَنَّدُ» وفي نفس الوقت:«لَيْسَ يَنْبُو» والنَّبو (نَبَا، يَنْبُو، نَبْوًا) النَّبْوُ هو الخطأ في الإصابة، يقولون: (نَبَا السَّيفُ، يَنْبُو، نُبُوًّا) إذا لَمْ يُصب موقعه، فإذا لم يُصبْ هدفهُ فإنَّه يُقال فيه: (نَبَا السَّيفُ).

هنا يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«هُوَ العَضْبُ» لاحظ إلى الأوصاف «العَضْبُ» قُلنا: شدَّة القطع، و «الْمُهَنَّدُ» أيضًا من شدَّة القطع والحدَّة، ومع هذا:«لَيْسَ يَنْبُو» بمعنى أنَّه بمجرَّدِ وُقوعه على الهدف لا يُخطئه ولا يَرجعُ على صاحبه «لَيْسَ يَنْبُو».

ثُمَّ يقُول:«تُصِيبُ بِهِ مَقاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا» والمَقاتل هي مواضع القتل في الإنسان، يعني المواضع الَّتي تَقتُل الإنسان، وقد ذكر الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتاب الحدود والقصاص هذه المواضع والخلاف فيها، وليس هذا محلُّه؛ لكنَّ مُراد النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنْ يقول بأنَّ حامِلَ العلم كحامل السَّيف حيثما أراد الإصابة أصاب.

هُـــوَ الْعَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْــسَ يَنْبُــو   تُصِيبُ بِــهِ مَقاتِلَ مَــنْ أَرَدْتَــا

لماذا؟ لأنَّ العِلْمَ سُلطانٌ، العلم له سُلطان، فإذا جاء العلم ذهب الجهل وذهب الضَّلال، ولا يَقف للبِدع، ولا يقفُ للجهل، ولا يقف للخُرافات، ولا يقف للانْحرافات إلَّا العلم؛ ولهذا شَبَّهه بالسَّيف، فمَن كان ذكيًا فَهِمًا لكن لا علم عنده فإنَّما هو بمثابة الشُّجاع المقدام الَّذي لا سيفَ له، فهو يقول لكَ: إن كنتَ لَقِنًا فهِمًا ذكيًّا فعَليكَ بالعلم.

والعلم هو إصابة المَقتل، ولهذا لا تندثر شُبهات وحُجج أهل الباطل إلَّا بالعلم، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرَّحمن:٣٣] قالوا المرَاد بالسُّلطان هنا: العِلْم، وهكذا العلم مكانته عظيمةٌ جدًّا كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالْجَهْـلُ دَاءٌ قَـاتِـلٌ وَشِفَـاؤُهُ ... أَمْـرَانِ فِـي الـتَّـرْكِيـبِ مُـتَّفِـقَـانِ
نَـصٌّ مِـنَ الْـقُـرْآنِ أَوْ مِـنْ سُنَّـةٍ ... وَطَبِـيـبُ ذَاكَ الْعَـالِـمُ الرَّبَّـانِـي[1]

هذا الجهل داءٌ، ومع أنَّه قاتلٌ إلَّا أنَّ ذهابَ وشفاءَ هذا الدَّاءِ هو العلم.

وهنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وعنده براعةٌ في النَّظمِ عجيبةٌ- يقول لكَ: إذَا تحمَّلتَ العِلم فقد تحمَّلت سيفًا لا يذر ولا يُبقي «تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا».

❁ ❁ ❁

أَهَمِّيَةُ الْحِفْظِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكَنْـــزٌ لَا تَخَـــافُ عَلَيْـهِ لِصًّـا ... خَفِيــفُ الْحَمْـلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَـا

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في وصف هذا العلم بأنَّه كنزٌ، ومع هذا فإنَّه خفيفُ الحمل، وأنتم تعرفون الكُنوز في تلك الأزمنة، زمن النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المائة الرَّابعة، في المائة الخَّامسة -توفي في أربعمائة وستين تقريبًا-، كانت الكُنوز عندهم مِنَ الذَّهب والفضَّة، ولهذا هنا قال: «خَفِيفُ الْحَمْلِ» فالرَّجل الَّذي يكونُ عنده كنزٌ في ذاك الزَّمان يحتاج له للصَّناديق، اليوم يضع المليارات في البنوك -أو ما أشبه ذلك-.

[1] نونية ابن القيم رحمه الله.

هو يقول:«وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا» أينما اتَّجهت فإنَّ اللُّصوص لن يدخلُوا إلى قلبك، يعني اللُّصوص الَّذين يسرقون المواد أو الأمور الحسِّية، أمَّا اللُّصوص الَّذين يسرقون الأمور المعنوية فما أكثرهم، وقد يَصلُون إلى هذا الكنز، وهم جنود الشُّبهات وجنود الشَّهوات، فقد يذهب العلم وقد يذهب سُلطانه بدخُولهم على الإنسان، لكن النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى إنَّما أراد مَنْ حافظ على العلم وحافظ على منزلته.

يقُول:«وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا» ما يسرقه أحد، ومع هذا: «خَفِيفُ الحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا».

• هـــذا متى يُقـــال؟

إذا كان الإنسان حافظًا للعلم، أمَّا مَنْ كان علمهُ في كِتابه أو في كرَّاسه ودفتره فإنَّ وجوده كعدمه، انظرُوا إلى قول أبي زيدٍ عمرو بن أخْطَب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَأَرْضَاهُ لَمَّا حدَّث عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بذاك الحديث الطَّويل -وهو في صحيح مسلم- قال: (فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا)[1]، والرَّحبي رَحِمَهُٱللَّهُ يقول في نظمه: (فَاحْفَظْ فَكُلُّ حَافِظٍ إِمَامُ)[2]، وكما قال النَّاظم الآخر -فيما ذكره أبو عمر ابن عبد البَّر في «جامع البيان»- قال:

وَاعْلَـمْ بِـــأَنَّ الْعِلْـــمَ بِـالتَّعَلُّـمِ   وَالحِفْـــظِ وَالإِتْقَـــانِ وَالـتَّفَهُّمِ[3]

هذه حقيقة العلم، فالنَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى يقول:«خَفِيفُ الحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا».

أمَّا إذا كان عُمدة طالب العلم على الكُتب وعلى القراطيس فإنَّه يخونه العلم أحوج ما يكون إليه، ولهذا يقول الشَّاعر الآخر:

اسْتَـوْدَعَ الْعِلْـمَ قِرْطَاسًا فَضَيَّعَـهُ   فَبِئْـسَ مُسْتَوْدَعُ العِلْمِ القَرَاطِيسُ[4]

أبو مُحمَّد ابن حزم، وقبل أبي مُحمَّد ابن حزم، الشَّافعي رَحِمَهُٱللَّهُ يقول فيما رُويَ عنه من الشِّعر:

عِلْمِـي مَعِـي حَيْثُمَا يَمَّمْـتُ يَصْحَبُنِي   قَـلْبِـي وِعَـاءٌ لَـهُ لَا بَطْـنَ صُنْـدُوقِ
إِنْ كُنْـتُ فِي الْبَيْتِ كَـانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي   أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّـوقِ

[1] قال عَمْرو بْن أَخْطَب: (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا) رواه مسلم (٢٨٩٢).

[2] منظومة "بغية الباحث عن جُمل الموارث" للرحبي رحمه الله.

[3] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله (١/٥٧٨) قال: (أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ فِي آدَابِ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ مِنَ النَّظْمِ مَا يُنْسَبُ إِلَى اللُّؤْلُؤِيِّ مِنَ الرَّجَزِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْسِبُهُ إِلَى الْمَأْمُونِ).

[4] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله (١/٢٩٤) قال: (عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: سَمِعَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ رَجُلًا يُنْشِدُ..) ثمَّ ذكر البيت.

وذكروا في ترجمة أبي مُحمَّد ابن حزم، وأبو مُحمَّد ابن حزم معروفٌ عداؤه ومُعاداته لأئمَّة المذاهب الأربعة، حتَّى ذكروا بأنَّه عنْدما كان في بلاد الغرب الإسلامي لَم يقم له إلَّا أبو الوليد الباجي عندما رجع من رحلته من جهة الشَّرق، فالشَّاهد أنَّه حصل في زمانٍ من أزمنته أنَّهم جمعوا كتبه وأحرقوها كلَّها، فلمَّا أحرقوها وقف عليها وقال أبياتًا مرتجلاً بها:

فَإِنْ تَحْرِقُـوا الْقِرْطَاسَ لَا تَحْرِقُوا الَّذِي	تَضَمَّنَهُ الْقِرْطَاسُ بَـلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيرُ مَعِـي حَيْـثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِـي	وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْـزِل، وَيَسْكُـنُ فِـي قَبْرِي
دَعُونِـي مِـنْ إِحْـرَاقِ رِقٍّ وَكَاغِـدٍ	وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
وَإِلَّا فَعُــودُوا فِــي الْمَكَـاتِبِ بَـدْأَةً	وَكَـمْ دُونَ مَــا تَبْغُونَ للهِ مِـنْ سِتْرِ
كَذَاكَ النَّصَارَى يُحْـرِقُونَ إِذَا عَلَـتْ	أَكُفُّهُــمُ الْقُــرْآنَ فِـي مُـدُنِ الثَّغْـرِ

هذا أبو مُحمَّد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومثلُ هذا كثير.

وهل تعرفون أنَّ أبا زرعة الرَّازي قال لعبد الله ابن الإمام أحمد: (أَبُوكَ يَحْفَظُ أَلْفَ أَلْفِ حَدِيثٍ) يعني مليون، فقد كانوا يحفظون الأسانيد وآثار الصَّحابة ويُسمُّونها أحاديث[1]، فقال له عبد الله: (وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَقَالَ: ذَاكَرْتُهُ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ)[2]، وهذا كان دأب السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ الحرص على الحفظ.

وقد ذكروا أيضًا في ترجمة أبي حامد مُحمَّد بن مُحمَّد الغزَّالي، الفقيه الشَّافعيُّ المشهور، المُتكلِّم المتصوِّفُ، أنَّه لـمَّا رحل إلى جرجان، وكان يكْتُبُ عن الأشياخ حتَّى حمَّل وِتْرَ بعيرٍ، فخَرجَ مُسافرًا، ووجده اللُّصوص، فسألوه عمَّا يحمل – يعني سألوه أن يعطيهم ما يحمل–، فقال: (إِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ وَأَوْرَاقٌ، وَعِلْمٌ، كَتَبْتُهُ عَنِ الأَشْيَاخِ، قَالُوا لَهُ: أَتَحْفَظُهُ؟ قَالَ: لَا. فَأَخَذُوهُ)[3] أخذوه ليداووا قهر نفوسهم لأنَّهم ظنُّوا أنَّ هذا القادم مُحمَّل بالبضائع، وأخذوه ليقهروه أيضًا

---

[1] قال الذهبي رحمه الله: (وَكَانُوا يَعُدُّونَ فِي ذَلِكَ: الْمُكَرَّرَ، وَالْأَثَرَ، وَفَتْوَى التَّابِعِيِّ، وَمَا فُسِّرَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَالْمُتُونُ الْمَرْفُوعَةُ الْقَوِيَّةُ لَا تَبْلُغُ عُشُرَ مِعْشَارِ ذَلِكَ) "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١١، ص:١٨٧.

[2] "مناقب الإمام أحمد بن حنبل" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:٧٣.

[3] جاء في ترجمة الغزَّالي أنَّهُ: (...سَافَرَ إِلَى جُرْجَان إِلَى الإِمَامِ أَبِي نَصْرٍ الإِسْمَاعِيلِيّ، وَعَلَّقَ عَنْهُ التَّعْلِيقَةَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى طُوْسٍ، قَالَ الإِمَامُ أَسْعَد الْمِيهَنِيّ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قُطِعَتْ عَلَيْنَا الطَّرِيقُ، وَأَخَذَ الْعَيَّارُونَ جَمِيعَ مَا مَعِي وَمَضَوْا، فَتَبِعْتُهُمْ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ مُقَدَّمُهُمْ وَقَالَ: ارْجِعْ وَيْحَكَ وَإِلَّا هَلَكْتَ! فَقُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِالَّذِي تَرْجُو السَّلَامَةَ مِنْهُ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ تَعْلِيقَتِي فَقَطَ فَمَا هِيَ بِشَيْءٍ تَنْتَفِعُونَ بِهِ، فَقَالَ لِي: وَمَا هِيَ تَعْلِيقَتُكَ؟ فَقُلْتُ: كُتُبٌ فِي تِلْكَ الْمِخْلَاةِ هَاجَرْتُ لِسَمَاعِهَا وَكِتَابَتِهَا وَمَعْرِفَةِ عِلْمِهَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: كَيْفَ تَدَّعِي أَنَّكَ عَرَفْتَ عِلْمَهَا وَقَدْ أَخَذْنَاهَا مِنْكَ فَتَجَرَّدْتَ مِنْ مَعْرِفَتِهَا وَبَقِيتَ بِلَا عِلْمٍ؟) "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي رحمه الله؛ ج٦، ص:١٩٥.

لأنَّك لا تحفظ هذا العلم، فلمّا رجع في رحلته الثَّانية كان لا يكتب شيئًا إلَّا حفظه[1].

طبعًا أنا أذكره هنا ليس ثناءً لهؤلاء، لا لأبي مُحمَّد ابن حزم ولا لمحمَّد الغزَّالي؛ لا.

ولو نظرنا إلى علمائنا -عُلماء الحديث- كما ذكرتُ لكم أبو زرعة كان يحفظ ستّمائة ألف حديث[2].

وجاء في ترجمة الجمَّاعيلي المقدسي مؤلِّف كتاب «العمدة الصُّغرى والكبرى» أنَّه كان حافظَ أهل بلاده، فقال رجلٌ يومًا لزوجته عند القاضي مُختصِمًا: (أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْجَمَّاعِيلِي) هو يُريد أن يتخلَّص منها ظنَّ أنَّ المقدسي لا يحفظ هذا القدر مِنَ الأحاديث، قال: (أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْجَمَّاعِيلِي حَافِظًا لِمِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ)، فلمَّا عُرضت المسألة على القاضي تحيَّر فيها قال: (كيف نفعل في مثل هذا؟) لا جواب إلَّا أن يُسأل الجمَّاعيلي، فإن كان حافظًا لمائة ألف حديثٍ لَم يقع الطَّلاق وإلَّا وقع، فلمَّا ذهبوا إلى المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (لَوْ قَالَ أَكْثَرَ لَصَدَقَ!)[3] ولَم يقع الطَّلاق[4]، -يعني يقول لهم: أنا أحفظ أكثر مِنْ مائة ألف حديث-، هذا وهو يُعتبر في طبقة المتأخِّرين، فلازال العلماء على هذا -أي على الحفظ- لأنَّه مهمٌّ بالنِّسبة لطالب العلم.

فالألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول هنا:«وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصًّا» لا تخاف عليه من اللُّصوص الَّذين يتسلَّلون إلى الذَّوات والأماكن، لكن هناك لُصوص أخفياء وقد يسرقون العلم، وقد يكونون من حواسِّك -أسأل الله أن يعافيني وإيَّاك منهم- فعينُكَ لصٌّ، ويدُكَ لصٌّ، وبطنُكَ لصٌّ، وفرجُكَ لصٌّ، كلُّ هؤلاء لُصوصٌ، وهؤلاء اللُّصوص هم الَّذين يتمكَّنون مِنْ سرقة العِلْمِ، أمَّا لُصوصُ الدُّنيا ولُصوصُ الكنُوز -الذَّهب والفضَّة- فإنَّهم لا يستطيعونه.

---

[1] قال الغزَّالي رحمه الله: (فَقُلْتُ: هَذَا مُسْتَنْطقٌ أَنْطَقَهُ اللهُ لِيُرْشِدَنِي بِهِ فِي أَمْرِي، فَلَمَّا وَافَيْتُ طُوس أَقْبَلْتُ عَلَى الاشْتِغَالِ ثَلَاثَ سِنِينَ حَتَّى حَفِظْتُ جَمِيعَ مَا عَلَّقْتُهُ، وَصِرْتُ بِحَيْثُ لَوْ قَطَعَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ قَاطِعٌ لَمْ أَتَجَرَّدْ مِنْ عِلْمِي) "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي رحمه الله (٦/١٩٥) وقال السبكي رحمه الله: (وَقَدْ رَوَى هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَنِ الْغَزَّالِي أَيْضًا الوَزِيرُ نِظَامُ الْمَلِكِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي تَرْجَمَةِ نِظَامِ الْمَلِكِ مِنْ ذَيْلِ السَّمْعَانِيّ) نفس المصدر السابق، ص:١٩٦.

[2] قال الإمام أحمد بن حنبل رحمهُ الله: (صَحَّ مِنَ الْحَدِيثِ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ وَكَسْرٌ، وَهَذَا الْفَتَى -يَعْنِي أبَا زُرْعَةَ- قَدْ حَفِظَ سِتُّمِائَةِ أَلْفٍ) "صفة الصفوة" لابن الجوزي رحمه الله؛ ج٢، ص٢٩٠.

[3] (قَالَ رَجُلٌ لِلْحَافِظ عَبْدِ الغَنِيّ: رَجُلٌ حَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنَّكَ تَحْفَظُ مِائَةَ أَلْفِ حَدِيثٍ. فَقَالَ: لَوْ قَالَ أَكْثَرَ لَصَدَقَ!) "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٢١، ص:٤٤٩.

[4] وجاء نحو هذا أيضًا عن أبي زرعة الرازي رحمه الله، بلفظ: (سُئِلَ أَبُو زُرْعَةَ عَنْ رَجُلٍ حَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَحْفَظُ مِائَتَيْ أَلْفِ حَدِيثٍ هَلْ حَنِثَ؟ فَقَالَ: لَا؛ ثُمَّ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: أَحْفَظُ مِائَتَيْ أَلْفِ حَدِيثٍ، كَمَا يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَفِي الْمُذَاكَرَةِ ثَلَاثُ مِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ) قَالَ الْحَافِظُ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيّ: (سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: كُنْتُ بِالرَّيِّ، وَأَنَا غُلَامٌ فِي الْبَزَّازِينَ، فَحَلَفَ رَجُلٌ بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ: أَنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَحْفَظُ مِائَةَ أَلْفِ حَدِيثٍ. فَذَهَبَ قَوْمٌ -أَنَا فِيهِم- إِلَى أَبِي زُرْعَةَ، فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَهُ عَلَى الْحَلِفِ بِالطَّلَاقِ؟ قِيلَ: قَدْ جَرَى الْآنَ مِنْهُ ذَلِكَ. فَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: لِيُمْسِكِ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهَا لَمْ تُطَلَّقْ عَلَيْهِ؛ أَوْ كَمَا قَالَ) ذكره الذَّهبي رحمه الله في "سير أعلام النبلاء" ج١٣، ص:٦٨-٦٩.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكَنْــزٌ لَا تَخَــافُ عَلَيْـهِ لِصًّــا خَفِيـفُ الْحَمْــلِ يُوجَـدُ حَيْثُ كُنْتَــا

يعني حيثما وُجدتَ فالعلم معك -كما قدَّمتُ لكَ-، لكنَّ هذا العلم هو العلم المحفوظ، العلم الَّذي في الصَّدر، العلم الَّذي تحمَّلته بحفظك، ولهذا كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يحضُّون ويحثُّون ويُشدِّدون على قضيَّة الحِفظ والاعتناء بها.

«خَفِيفُ الحَمْلِ» لا يُثقلك، على العكس بل الإنسان كلَّما حفظ العلم كلَّما كان نشيطًا.

تذكَّرتُ نوعًا مِنَ الفقه في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لـمَّا قال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1] الشَّاهد مِنْ هذا في الكلام على البيت أنَّ هذا الحديث قال: «**لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ**» لماذا؟ لأنَّ العلم في الصُّدور، هذا الأصل، الكُتُبُ عاملٌ مساعدٌ، الكتبُ علاقتُكَ بها في بدايةِ الطَّلبِ وفي نهايته للمراجعة فيها، ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

❋ ❋ ❋

يَزِيدُ بِالإِنْفَاقِ وَيَنْقُصُ بِالإِقْتَارِ

يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَــزِيــدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَــاقِ مِنْــهُ وَيَنْقُـصُ إِنْ بِــهِ كَفًّــا شَدَدْتَــا

كلَّما أنفقتَ مِنْ هذا العِلْمِ بجميعِ النَّفقاتِ: بتعليمه، بالتَّأليف فيه، بشرحه، بتوضيحه، فإنَّك تزيد في هذا العلم، ومِنَ الإنفاقِ للعلم: العملُ به، وهذا سيأتي معنا في الكلام على العَمل بالعِلم، في كلام النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنَّه سيقول بعد ذلك:

إِذَا مَــا لَـمْ يُفِـدْكَ العِلْــمُ خَيْرًا فَخَيْرٌ مِنْـهُ أَنْ لَــوْ قَـدْ جَهِلْتَــا

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صفة الفتوى"(٧)، وأصله في الصَّحيحين.

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا
سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ الْعَجْزِ جَهْلاً وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ إِذَا كَبُرْتَا

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يقول:«يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإنفاقِ مِنْهُ» كان بعض العلماء كالإمام أحمد وغيره يقولون: (كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ)[1]، وهذا كثيرٌ في كلام الأئمَّة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ولهذا جاء عن سعيد بن جُبير -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَرَحِمَهُ- وهو أحد تلاميذ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حَبر هذه الأمة، يقول عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ وَمَغْفِرَتُهُ: (لَأَنْ أَنْشُرَ عِلْمِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى قَبْرِي)[2]، ولهذا كانوا يحرصون على بذل العلم، ونشر العلم، وتعليم العِلم بجميع وسائل النَّشر، وهذا الحال لا زال باقيًّا في هذه الأُمَّة وفي حَملة العلم ما بقيَ العلمُ.

فهذا العلم يقول فيه النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ» جاء عن جماعة من السَّلف -ورُوِيَ هذا مرفوعًا إلَّا أنَّه لا يصحُّ بحال-: (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[3].

يقُول لكَ:«يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ... وَيَنْقُصُ» ينقص هذا العلم ويبقى راكدًا أو ينقص فلا يزيد بل يذهب، «وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا» فإذا أمسكتَ العلم وحجمتَ عنهُ أهلهُ وطالبيهِ فإنَّه يذهب.

أوَّل المنظومة هو رأسها وأساسُها، وأبياتها أقوى، وهي -كما قدَّمنا- منظومةٌ رائقةٌ فائقةٌ على غيرها، وطالبُ العلم مُحتاجٌ إلى التَّأمُّل في دقيقِ مَعانيها.

❊ ❊ ❊

حَلاوةُ العِلمِ ولَذَّتُه

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله (١/٧٠٩) عن الشعبي ووكيع بن الجراح رحمهما الله. وجاء في "الآداب الشرعية" لابن مفلح رحمه الله (٢/٨٦) عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع رحمه الله.
[2] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٤، ص:٣٢٦
[3] "فتح المغيث" للسخاوي رحمه الله؛ ج٣، ص:٢٨٣.

وَلَـمْ يَشْغَلْـكَ عَنْـهُ هَـوًى مُطَـاعٌ ... وَلَا دُنْيَـا بِـزُخْرُفِهَـا فُتِنْتَـا
وَلَا أَلْهَــاكَ عَنْـهُ أَنِيـقُ رَوْضٍ ... وَلَا خِـدْرٌ بِـزِينَتِهَـا كَـلِفْتَـا

هذه الأبيات لا يزال النَّاظم فيها يُبيِّن أثر العلم وتأثيره على طالبه وحامله والسَّاعي فيه.

ولـمَّا ذكر بعض الثِّمار المتعلِّقة بالعلم، تمَّم بأنَّ هذه الثِّمار تتجاوز إلى نفْس المتعلِّم فلا يجد راحةً ولَا أُنسًا ولَا لذَّةً ولَا نَشوةً إلَّا بالعِلم وفي العِلْم، وعلى الخصوص في ذلك العلم الَّذي يَقودُ إلَى الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، في العِلم الَّذي يُعرِّف بالله تَبَارَكَوَتَعَالَى وبأسمائه وصفاته؛ فإنَّ أَلذَّ العلوم وأكملها وأجلَّها وأفضلهَا ما أوصل إلى معرفة الرَّب تَبَارَكَوَتَعَالَى، والنَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى يُقرِّر لنا هذا المعنى في غاية التَّقرير، فانظر في قوله رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى:

«أَبَا بَكْرٍ» دَعَوْتُـكَ لَـوْ أَجَبْتَـا ... إِلَى مَـا فِيـهِ حَظُّكَ لَـوْ عَقَلْتَا
إِلَـى عِلْـمٍ تَكُـونُ بِــهِ إِمَامًـا ... مُطَاعًا إِنْ نَهَيْـتَ وَإِنْ أَمَـرْتَـا
وَيَجْلُــو مَــا بِعَيْنِـكَ مِــنْ غِشَاهَا ... وَيَهْدِيـكَ الطَّـرِيـقَ إِذَا ضَلَلْتَـا
وَتَحْمِـلُ مِنْهُ فِــي نَادِيـكَ تَـاجًـا ... وَيَكْسُــوكَ الْجَمَـالَ إِذَا عَرِيتَـا
يَنَالُـكَ نَفْعُـهُ مَـا دُمْـتَ حَيًّـا ... وَيَبْقَـى ذِكْـرُهُ لَـكَ إِنْ ذَهَبْتَـا
هُـوَ العَضْـبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُـو ... تُصِيبُ بِــهِ مَقاتِـلَ مَــنْ أَرَدْتَـا
وَكَنْــزٌ لَا تَخَـافُ عَلَيْـهِ لِصًّـا ... خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَـدُ حَيْثُ كُنْتَـا
يَزِيـدُ بِكَثْــرَةِ الإِنْفَـاقِ مِنْـهُ ... وَيَنْقُـصُ إِنْ بِـهِ كَفًّـا شَدَدْتَـا

إلَى أن قال رَحِمَهُٱللَّهُ:«فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا» يقول بأنَّكَ لو ذُقت حلاوةً للعلم، لأنَّ الأمور المعنويَّةَ لها طعمٌ ولها حلاوةٌ ولها لذَّةٌ، بل حلاوتها تفُوق كلَّ حلاوةٍ، ولذَّتها تفُوق كلَّ لذَّةٍ، وطعمُها يفوقُ كلَّ طعمٍ، ومِنْ ذلكَ الإيمان، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال -كما في صحيح مسلم من حديث العبَّاس بن عبد المطَّلب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-:«ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»[1] وبيَّن هذا الطَّعم كما في الصَّحيحين مِنْ حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فقال:«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[2]، هذه الحقائقُ وهذه المعاني لها طعمٌ ولها حلاوةٌ لا يجدُها إلَّا مَنْ عَانَاهَا، وكما قال النَّوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: (قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ:

[1] رواه مسلم (٣٤)، من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ.

[2] متفق عليه، من حديث أنس بن مالك ﷺ، واللَّفظ لمسلم (٤٣).

مَعْنَى حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ اسْتِلْذَاذُ الطَّاعَاتِ، وَتَحَمُّلِ الْمَشَقَّاتِ فِي رِضَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا)[1]، هكذا نقول أيضًا في العلم فإنَّه استلذاذٌ بطلبه وتحمُّل المشاقّ في تحصيله وإيثاره على كلِّ شيءٍ لحلاوة الإيمان.

فهذا البيت مِنْ أنْفس أبيات هذا النَّظم وأحسنها وأجلِّها، فإنَّ النَّاظم يقوله فيه عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ:

فَلَوْ قَــــدْ ذُقْـتَ مِـــنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا ... لَآثَـــرْتَ التَعَـلُّـمَ وَاجْـتَـهَـدْتَـا

ولهذا لمَّا رَوى الإمام مُسلم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أحاديث المواقيت في الصَّلاة مِنْ طريق يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر قولهُ: (لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ)[2].

فالعلمُ لذَّتُه أعظمُ اللَّذات، وشهوتُهُ أعظم الشَّهواتِ، وأصحابهُ هم المسرُورون وهم الفرحُون، وإذا ذكرنا العِلم فإنَّما نذكُر العلم الَّذي يُوصل إلى معرفة الله -كما تقدَّم معنا-.

ولهذا يقول النَّضر بن شُمَيل رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (لَا يَجِدُ الرَّجُلُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّى يَجُوعَ، وَيَنْسَى جُوعَهُ)[3] هذه المنزلةُ مَنْ يتطلَّبها فضلاً عن أن يُدركها منزلةٌ ليس بعدها في العَظَمَةِ مَنزلةٌ.

ولهذا النَّاظم يقول:«فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا» أي مِنْ حلوى العلم، «لَآثَرْتَ التَعَلُّمَ وَاجتَهَدْتَا» يقول الحافظ ابن القيِّم عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ: (وَأَمَّا عُشَّاقُ الْعِلْمِ فَأَعْظَمُ شَغَفًا بِهِ وَعِشْقًا لَهُ مِنْ كُلِّ عَاشِقٍ بِمَعْشُوقِهِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ أَجْمَلُ صُورَةٍ مِنَ الْبَشَرِ)[4]، وقال أيضًا: (وَلَوْ صُوِّرَ الْعِلْمُ صُورَةً لَكَانَتْ أَجْمَلَ مِنْ صُورَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)[5]، فالعلم له لذَّةٌ وله حلاوةٌ -إخوتي في الله-.

قيل للشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَيْفَ شَهْوَتُكَ لِلْعِلْمِ؟ قَالَ: أَسْمَعُ بِالْحَرْفِ) أي: بالكلمة (مِمَّا لَمْ أَسْمَعْهُ، فَتَوَدُّ أَعْضَائِي أَنَّ لَهَا أَسْمَاعًا تَتَنَعَّمُ بِهِ مِثْلَ مَا تَنَعَّمَتْ بِهِ الْأُذُنَانِ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ حِرْصُكَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: حِرْصَ الْجَمُوعِ الْمَنُوعِ فِي بُلُوغِ

---

[1] قال النووي رحمه الله تعالى: (قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: مَعْنَى حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ اسْتِلْذَاذُ الطَّاعَاتِ وَتَحَمُّلِ الْمَشَقَّاتِ فِي رِضَا اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَرَسُولِهِ ﷺ، وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا، وَمَحَبَّةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بِفِعْلِ طَاعَتِهِ، وَتَرْكِ مُخَالَفَتِهِ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) من شرحه لصحيح مسلم، ج٢، ص:١٣.

[2] صحيح مسلم.

[3] "تذكرة الحفاظ" للذهبي رحمه الله؛ ج١، ص:٢٢٩.

[4] "روضة المحبين" لابن القيم رحمه الله؛ ص:١٠٨

[5] "روضة المحبين" لابن القيّم رحمه الله، ص:٢٩٤.

لَذَّتِهِ لِلْمَالِ، فَقِيلَ لَهُ: فَكَيْفَ طَلَبُكَ لَهُ؟ قَالَ: طَلَبُ الْمَرْأَةِ الْمُضِلَّةِ وَلَدَهَا لَيْسَ لَهَا غَيْرُهُ)[١] هذه اللَّذة الَّتي كانوا يُعايشونها ويتعايشُونَ معها ويستشعرُونَهَا ويطلبونها هي حياتهم ورُوحهم.

ولهذا نُسِبَ إلى الشَّافعيِّ –ونُسِبَ إلى غيره–[٢] أنَّه قال:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لِي	مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ
وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى صَفَحَاتِهَا	أَحْلَى مِنَ الدَّوْكَاءِ وَالْعُشَّاقِ
وَأَلَذُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُفِّهَا	نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
وَتَمَايُلِي طَرَبًا لِحَلِّ عَوِيصَةٍ	فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
يَا مَنْ يُحَاوِلُ بِالأَمَانِي رُتْبَتِي	كَمْ بَيْنَ مُسْتَفِلٍ وَآخَرَ رَاقِي
أَأَبِيتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيتُهُ	نَوْمًا وَتَبْغِي بَعْدَ ذَاكَ لَحَاقِي؟

هذه حملت أهل الحديث إلى أن يضربوا الفيافي والقفار في تحصيله وفي طلبه وفي البحث عنه والوصول إلى عواليه، هذا الَّذي كان عليه أئمَّة الحديث وهكذا غيرهم مِنْ أهل العلم الَّذين حصَّلوا العلم وعايَنُوا لذَّته، كما ذكرتُ لك قول النَّضر بن شُمَيْل الَّذي ينبغي أن تكُون مستحضرًا له دائمًا[٣].

وقد ذكر المترجمون للعلاَّمة الشَّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا أيضًا موجودٌ في أوَّل كتاب «أضواء البيان» للعلاَّمة شيخ مشايخنا محمَّد الأمين الشَّنقيطي رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتُهُ لمَّا دعاه بعض أقرانه إلى الزَّواج ورغَّبوه في ذلك، قال أبياتًا؛ قال:

دَعَانِي النَّاصِحُونَ إِلَى النِّكَاحِ	غَدَاةَ تَزَوَّجَتْ بِيضُ الْمِلَاحِ
فَقَالُوا لِي تَزَوَّجْ ذَاتَ دَلٍّ	خَلُوبَ اللَّحْظِ جَائِلَةَ الوِشَاحِ
كَأَنَّ لِحَاظَهَا رَشَقَاتُ نَبْلٍ	تُذِيقُ القَلْبَ آلَامَ الْجِرَاحِ
وَلَا عَجَبٌ إِذَا كَانَتْ لِحَاظٌ	لِبَيْضَاءِ الْمَحَاجِرِ كَالرِّمَاحِ

[١] "توالي التأسيس لمعالي مُحَّد بن إدريس" لابن حجر العسقلاني رحمه الله، ص:١٠٦

[٢] قَالَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفِظَهُ الله –فِي مَوْضِعٍ آخَرَ–: (تُنْسَبُ إِلَى الشَّافِعِيِّ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ، كَمَا فِي دِيوَانِهِ الْمَطْبُوعِ، وَبَعْضُهُمْ كَمَا سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْ شَيْخِنَا –الشَّيْخ مُقْبِل رَحِمَهُ الله– يَنْسِبُهُ إِلَى الزَّمَخْشَرِي أَوْ إِلَى غَيْرِهِ) اهـ.

[٣] أراد قول النَّضر بن شُمَيل رحمه الله: (لَا يَجِدُ الرَّجُلُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّى يَجُوعَ، وَيَنْسَى جُوعَهُ) "تذكرة الحفاظ" للذهبي رحمه الله؛ ج١، ص٢٢٩.

إلى آخر ما قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَغَفَرَلَهُ-[1].

• وهذه حقيقةٌ يغفلُ عنها كثيرٌ مِنَ النَّاس، وهي أنَّ الإنسان إنَّما يتحرَّك إلى الشَّيء بقدر ما يكونُ عنده مِنَ الحبِّ لهُ، ولهذا ذكر الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضع عِدَّة مِنْ كتابه العظيم الجليل «قاعدةٌ في المحبَّة» يقول فيه عَلَيْهِرَحْمَةُاللهِ بأنَّ أصل كلِّ حركات العالَم إنَّما هي المحبَّة، وأنَّ الإنسان إنَّما يتحرَّك في طلب الشَّيء بقدر محبَّته لهُ[2]، بمعنى أنَّ الإنسان يطلبُ الشَّيءَ على القدر الَّذي يُعايشه أو يَختلجُ في قلبه مِنْ حبِّه، وأنتم تعرفون أنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئًا فإنَّه يطلبه علَى قدر محبَّته له، فالعلمُ هو أعظمُ محبوبٍ، وخصوصًا هذا العلم الَّذي يُعرِّف بالله عَزَّوَجَلَّ كما نبَّهْنا على ذلك مرارًا.

وهناك بيتٌ حسنٌ ذكره الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع بيان العلم وفضله» قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَنْشَدَنَا أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ بْنِ حَامِدٍ الرُّومِيُّ الْكَاتِبُ لِنَفْسِهِ فِي أَبْيَاتٍ ذَوَاتِ عَدَدٍ:

إِنَّمَا الْعِلْمُ مِنْحَــةٌ لَيْسَ فِي ذَا مُنَازِعُ ... هُــوَ لِلنَّفسِ لَذَّةٌ وَهْوَ لِلْقَدْرِ رَافِعُ[3]

وهذا البيتُ بيتٌ حسنٌ، وذكرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا قال: (وَأَنْشَدَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَلَذُّ مَــا طَلَــبَ الْفَتَى بَعْدَ التُّقَى ... عِــلْــمٌ هُنَـــاكَ يُــزِينُــهُ طَــلَبُـهْ

---

[1] جاء في ترجمة الشَّيخ محمَّد الأمين الشنقيطي رحمه الله المطبوعة في "أضواء البيان": (وَقَدْ خَاطَبَهُ بَعْضُ أَقْرَانِهِ فِي أَمْرِ الزَّوَاجِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ، وَفِي الْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ:

دَعَـــانِي النَّاصِـــحُونَ إِلَى النِّكَـــاحِ ... غَـــدَاةَ تَزَوَّجَـــتْ بِـــيضُ الْمِـــلاَحِ
فَقَـــالُوا لِي: تَـــزَوَّجْ ذَاتَ دَلٍّ ... خَلُـــوبَ اللَّحْـــظِ جَائِلَـــةَ الوِشَـــاحِ
كَـــأَنَّ لِحَاظَهَـــا رَشَـــقَاتُ نَبْـــلٍ ... تُـــذِيقُ الْقَلْـــبَ آلاَمَ الْجِـــرَاحِ
وَلاَ عَجَـــبٌ إِذَا كَانَـــتْ لِحَـــاظٌ ... لِبَيْضَـــاءِ الْمَحَـــاجِرِ كَالرِّمَـــاحِ
فَكَـــمْ قَـــتَلاَ كَمِيًّـــا ذَا دِلَاصٍ ... ضَـــعِيفَاتُ الْجُفُـــونِ بِـــلاَ سِـــلاَحِ
فَقُلْـــتُ لَهُـــمْ: دَعُـــونِي إِنَّ قَلْـــبِي ... مِـــنَ الْعِـــيِّ الصُّـــرَاحِ الْيَـــوْمَ صَـــاحِ
وَلِي شُـــغُلٌ بِأَبْكَـــارٍ عَـــذَارَى ... كَـــأَنَّ وُجُوهَهَـــا ضَـــوْءُ الصَّـــبَاحِ
أَرَاهَـــا فِي الْمَهَـــارِقِ لاَبِسَـــاتٍ ... بَرَاقِـــعَ مِـــنْ مَعَانِيهَـــا الصِّـــحَاحِ
أَبِيـــتُ مُفَكِّـــرًا فِيهَـــا فَتُضْـــحِي ... لِفَهْـــمِ الْفَـــدْمِ خَافِضَـــةَ الْجَنَـــاحِ

[2] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَحَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ مِن الْحُبِّ وَالإِرَادَةِ، فَهُوَ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَمَبْدَؤُهُ) "قاعدة في المحبة" لابن تيمية رحمه الله، ص:٧.

[3] "جامع بيان العلم وفضله" ج١، ص:٢٤٧.

وَلِكُلِّ طَالِبِ لَذَّةٍ مُتَنَزِّهٍ ... وَأَلَذُّ نُزْهَةِ عَالِمٍ كُتُبُهُ[1]

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ذكر تلميذه ابن القيِّم عنه؛ قال: (وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا أَبَا العَبَّاس ابن تَيْمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ، وَقَدْ عَرَضَ لَهُ بَعْضُ الأَلَمِ، فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ: أَضَرُّ مَا عَلَيْكَ الْكَلَامُ فِي الْعِلْمِ وَالْفِكْرُ فِيهِ وَالتَّوَجُّهُ وَالذِّكْرُ، فَقَالَ: أَلَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا قَوِيَتْ وَفَرِحَتْ أَوْجَبَ فَرَحُهَا لَهَا قُوَّةً تُعِينُ بِهَا الطَّبِيعَةَ عَلَى دَفْعِ الْعَارِضِ فَإِنَّهُ عَدُوُّهَا فَإِذَا قَوِيَتْ عَلَيْهِ قَهَرَتْهُ؟ فَقَالَ الطَّبِيبُ: بَلَى، فَقَالَ: وَأَنَا إِذَا اشْتَغَلَتْ نَفْسِي بِالتَّوَجُّهِ وَالذِّكْرِ وَالْكَلَامِ فِي الْعِلْمِ وَظَفِرَتْ بِمَا يُشْكِلُ عَلَيْهَا مِنْهُ فَرِحَتْ بِهِ وَقَوِيَتْ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ دَفْعَ الْعَارِضِ، -هَذَا أَوْ نَحْوُهُ مِنَ الْكَلَامِ-)[2] هكذا يحكي ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مفتاح دار السَّعادة» عن شيخه.

وذكر ابن جماعة في «تذكرة السَّامع والمتكلِّم في آداب العالم والمتعلِّم» أنَّ بعض أهل العلم كانوا يستشفون بالأمراض بالعلم والتَّعليم[3].

ولهذا قال العلاَّمة الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِي الْعِلْمِ بِالأَشْيَاءِ لَذَّةٌ لَا تُوَازِيهَا لَذَّةٌ، إِذْ هُوَ نَوْعٌ مِن الاسْتِيلاَءِ عَلَى الْمَعْلُومِ وَالْحَوْزُ لَهُ، وَمَحَبَّةُ الاسْتِيلاَءِ قَدْ جُبِلَتْ عَلَيْهَا النُّفُوسُ، وَمُيِّلَتْ إِلَيْهَا الْقُلُوبُ)[4] هكذا يقول العلاَّمة الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا في كتابه «الموافقات».

النَّاظم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ- هنا يقول:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا ... لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا
وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ ... وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

وهذا مِنْ لذاذةِ العلمِ وحلاوتِهِ، وقد ذكرتُ لك فيما سبق أنَّ العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مِنْ شدَّة حرصهم على العلم وتوجُّههم إليه لَم يتركوا سبيلاً ولا مجالاً يَصِلون به إلى العلم إلَّا وأخذوه، لماذا؟ لأنَّه يُحقِّق لذَّتهم الَّتي أرادوها والَّتي طلبوها، وطالبُ العِلْم ينبغي أن يكون هذا حاله، وينبغي أن يحرص على هذه اللَّذة لأنَّها مُوصلة إلى رضا

[1] "جامع بيان العلم وفضله"، ج٢، ص:٢٠٣.

[2] "مفتاح دار السَّعادة" ج٢، ص١٧٩.

[3] قال ابن جماعة رحمه الله في "تذكرة السَّامع والمتكلِّم في آداب العالم والمتعلِّم" ص٥٧: (وَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يَتْرُكُ الاشْتِغَالَ لِعُرُوضِ مَرَضٍ خَفِيفٍ، أَوْ أَلَمٍ لَطِيفٍ، بَلْ كَانَ يَسْتَشْفِي بِالْعِلْمِ وَيَشْتَغِلُ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ كَمَا قِيلَ:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُم ... وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

[4] "الموافقات" للشاطبي رحمه الله؛ ج١، ص:٨٦.

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقد كنتُ قلتُ أبياتًا -لا أزعم حقيقتها في نفسي- وذلك في مجلس ختمِ صحيح الإمام البُخاري بروايةِ أبي ذرٍّ الهرويِّ على شيخنا العلاَّمة الجليل والدَّراكة النَّبيل عبد الله بن عبدالعزيز العقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، قلتُ قصيدةً، وفي ضِمنها:

فَحِرْصًا يَا رَعَاكَ اللهُ جَهْدًا ... لِإِدْرَاكِ الْمَطَالِبِ بِارْتِحَالِ
فَمَا لِلْعِلْمِ إِنْ عَوَّضْتَ دُنْيَا ... وَمَا لِلْعِلْمِ تَبْدِيلٌ لِسَالِ
فَتَحْصِيلُ الْعُلُومِ أَلَذُّ مِمَّا ... يُنَادِمُهُ الْمُغَازِلُ فِي اللَّيَالِي
وَأَحْلَى مِنْ كُؤُوسِ الشَّهْدِ صَبًّا ... وَأَنْدَى مِنْ مُنَاوَلَةِ الزُّلَالِ
وَأَطْرَبُ لِلنُّفُوسِ مِنَ التَّغَنِّي ... وَأَشْهَى مِنْ مُعَافَسَةِ الْعِيَالِ
وَنَشْوَةُ فَارِسٍ يَحْتَزُّ رَأْسًا ... إِذَا مَا هُزَّ سَيْفٌ لِلْقِتَالِ
وَلَوْ مُلْكُ الْعِرَاقِ لَكُمْ تَأَتَّى ... لَزَالَ الْمُلْكُ فَاعْتَبِرِ الْمَخَالِ

حقيقةُ هذا أنَّ العلم له لذَّةٌ، وبقدر ما يجد طالب العلم مِنْ لذَّة العلم بقدر ما يكون عنده مِن الحرص عليه، ولهذا قال شيخ مشايخنا العلاَّمة حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ميميته الرَّائقة:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا ... فَقَدْ ظَفِرْتَ وَرَبِّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
وَعَظِّمِ العِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ ... فِي الْقَوْلِ وَالفِعْلِ وَالآدَابِ فَالْتَزِمِ[1]

فالعلمُ عِزٌّ، والعلم لذَّةٌ، والعلم حياةٌ، فإذا طَلَبَ طالِبُ العِلْمِ العِلْمَ فإنَّه ينبغي له أن يترُك كلَّ شيء وراءه.

كنتُ في مجلسٍ مع شيخنا العلاَّمة ابن غديان عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ وَمَغْفِرَتُهُ، وكُنَّا نقرأ عليه، وحضرتُ أنا وأحد الإخوان كلُّ واحدٍ منَّا يحمل كُتبه، وصَاحَبَنا شخصٌ لا يَحمِل كتابًا، فقال له الشَّيخ: (أَيْنَ كِتَابُكَ؟ قَالَ: أَنَا حَضَرْتُ مَعَ الإِخْوَانِ) فقال له الشَّيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ -وهكذا أهلُ العلم لا يتركُون أيَّ مقامٍ يُوصلون فيه النُّصح إلَّا وفعلوا-، قال له: (يَا بُنَيَّ اِجْعَلْ أَعْظَمَ مَقْصَدٍ لَكَ فِي حَيَاتِكَ هُوَ الْعِلْم، وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ تَابِعٌ لَهُ) هذه الكلمةُ العظيمةُ مِنَ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ تَرسُم لِطالبِ العلم حياةً طويلةً في طلبه لِلعلم.

[1] "المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية" للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله.

قال بعضُ الحكماء: (مَنْ خَلاَ بِالْعِلْمِ لَمْ تُوحِشْهُ الْخَلْوَةُ، وَمَنْ تَسَلَّى بِالْكُتُبِ لَمْ تَفُتْهُ السَّلْوَةُ)[1].

ولهذا قيل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَنْ تُجَالِسُ؟ فَقَالَ: أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنِّي أَنْظُرُ فِي كُتُبِ آثَارِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ)[2]، وقد قيل للنَّوْفَلِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَا بَلَغَ بِكَ مِنْ شَهْوَتِكَ لِلْعِلْمِ؟ قَالَ: إِذَا نَشِطْتُ فَلَذَّتِي، وَإِذَا اغْتَمَمْتُ فَسَلْوَتِي)[3] فهو متقلِّبٌ بين هذين الأمرين، وهذا النَّفَس عن أهل العلم في طلب العلم وفي تحصيله -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَحِمَهُمْ- شيءٌ كثيرٌ.

فالشَّاهد مِنْ هذَا أنَّني -كما ذكرتُ لكم قبلُ- بأنَّ بعض أبياتِ هذه المنظومة -وخصوصًا في أوَّلها- فيها مِنَ العَظمةِ ما يحتاج إلى كثيرٍ مِنَ النَّظر والتَّأمُّل والتَّفكُّر فيها.

وهذا البيتُ عندي مِنْ أهمِّ أبياتِ منظومةِ الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنَّه قال: «فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا» أي حلوى العلم، «لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ» تفعُّل بمعنى أنَّك تطلبه ويكونُ فتحُ المسألة مِنْ ألذِّ الأشياء إليك.

«لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا» واجتهدت فيه، وسنذكر الاجتهاد في طلب العلم وعلوّ الهمَّة عند قول النَّاظم :«فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ» فلا نتقدَّمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا   لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

لآثرت التَّعلُّم على كلِّ مرغوبٍ ومحبوبٍ، واجتهدت.

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ   وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا

يقولُ: لو قد وصلتَ إلى هذه المرحلة مِنْ طلبِ العلمِ وتحقَّقت في نفسك وآثرت التَّعلُّم واجتهدتَ فإنَّه لن «يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ» يعني الهوى الَّذي تُطيعُه، وإنَّما سُمِّيَ الهوى «هوًى» لأنَّ النَّفس تَهواه وتُحبُّه وتميل إليه، ولأنَّه يَهْوِي بصاحبه عن المقاماتِ العالية، أو يهوي بصاحبه -عياذًا بالله- كما جاء عن طائفةٍ مِنَ السَّلف: في نارِ جهنَّم[4]، فيهوي به أوَّلًا في مطامعه، ثُمَّ يَهوي به في نارِ جهنَّم -عياذًا بالله-.

[1] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص:٥١.

[2] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص:٥١.

[3] "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني رحمه الله، ص:٥١.

[4] قال الشَّعبي رحمه الله: (إِنَّمَا سُمِّيَ الهَوَى هَوًى لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِي النَّارِ) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي رحمه الله؛ ج٨، ص:١٢٢.

فهو يقول لك: «وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى» يعني لن تشتغل عنه بهوى تُطيعه، فهذه الكلمة عامَّة في كلِّ شيءٍ تهواه، فالإنسانُ يهوَى أشياء، ويختلفُ هوى النَّاس مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ، ومِنْ زمانٍ إلى زمانٍ، ومِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، فمِنَ النَّاس مَنْ زُيِّنت له الحياة الدُّنيا إجمالًا، وآخرين زُيِّنت لهم النِّساء، وآخرين زُيِّنت لهم المراكب؛ وهكذا.

«وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ» الهوى موجودٌ في النَّفس ومُستقرٌّ فيها، تهوى الأشياء، لكنْ ما هو الهوى المضرُّ؟ الهوى المضرُّ هو الهوى المُطاع، فإذا أطاع الإنسانُ هواه أضرَّه، ولهذا مِنْ دقيق تعبير النَّاظم في لفظه أنَّه قال: «هَوًى مُطَاعٌ» فإذا لَمْ تُطع الهوى، أنتَ تهوى هذا الشَّيء لكنَّك لَمْ تُطِعه، ولَمْ تتَّبعه، لَمْ تُجارِ نفسك عليه، فأنتَ مأجُورٌ على مُجاهدتك لنفسك على هذا، ولهذا قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[النَّازعات:٤٠] فالهوى موجودٌ مغروسٌ في الفِطَر، لكنَّ الحكيم يردُّه ويرفضه، فهو يقول لكَ: «وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ» تُطيعه حتَّى تترُكَ العلم، ولهذا قال ذَاك الشَّاعر:

إذَا كَـانَ يُؤْذِيكَ حَـرُّ الْمَصِيفِ	وَيُبْسُ الْخَرِيفِ وَبَـرْدُ الشِّتَـا
وَيُلْهِيكَ حُسْـنُ زَمَـانِ الرَّبِيعِ	فَأَخْـذُكَ لِلْعِلْـمِ قُـلْ لِـي: مَتَـى؟[1]

فإذا كان الإنسان مُشتغلاً بما يُسمَّى بالمناظر الخلاَّبة، أو بالرَّحلات المُطربة، أو بأشياء لَا قيمة لها –وإن كانت من جنسِ المْباحات– فمتى يكون أخذه للعلم؟

ولهذا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ بديع أقواله أنَّه ما سيذكُره في هذه الأبيات:

وَمَهْمَا افْتَـضَّ أَبْكَـارَ الغَوَانِي	فَكَـمْ بِكْـرٍ مِـنَ الْحِكَمِ افْتَضَضْتَا

فستأتي معنا هذه الحلاوة الَّتي سيذكرها النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطَاعٌ» هوى تهواه، ثمَّ عقَّب بعد الهوى بالدُّنيا فقال: «وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا» الزُّخرف هو نوعٌ مِنَ الزِّينة يُزخرَفُ به الشَّيء مِنْ ذهبٍ أو فِضَّة أو زُبرجد أو أي شيءٍ يُلهي، فهذه الدُّنيا لأنَّها دنيئةٌ نازلةٌ لَا قيمة لها مِنَ الدَّناءة، فإنَّ الله وصفها بالزُّخرف في مواضع، ووصفها بالزِّينة في مواضع أُخرى، لأنَّها لا تقُوم لها حقيقة بدون الزَّخارف والزِّينة الَّتي تُكمِّل نقصها، وكلُّها نقصٌ.

«وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا» وما زُخرفها؟ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

[1] "تأريخ دمشق" لابن عساكر رحمه الله؛ ج٦٤، ص:٣٤٨، لابن فارس النحوي.

﴿الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران:١٤]، ويقول ربُّنا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[يونس:٢٤]، وتأمَّلوا في قصَّة أولئك القوم الَّذين قصَّ الله خَبرهم في سورة القَلم وكيف دخلوا في حديقتهم وعزموا على حِرمان مَنْ قَصدهم، وتأمَّلوا في قصة الرَّجلين اللَّذين حكى الله خبرهُما في سورة الكَّهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾[الكهف:٣٢] تأمَّلوا في هذا، فإنَّ الدُّنيا معبر اعتبار.

دُنْيَا تُجَدِّدُ كُلَّ يَوْمٍ غَدْرَهَا ... وَالنَّاسُ مِنْهَا فِي عَنِيفِ صِرَاعِ
يَتَنَازَعُونَ عَلَى رَخِيصِ مَتَاعِهَا ... وَغَدًا يَفُضُّ الْمَوْتُ كُلَّ نِزَاعِ

فلو تلذَّذت بالعلم ما شغلتك الدُّنيا «وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَا»، ثُمَّ أكَّد هذا فقال:

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ ... وَلَا خِدْرٌ بِزِينَتِهَا كَلِفْتَا

يقول: «وَلَا أَلْهَاكَ» مِنَ الإِلْهَاءِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[التكاثر:١-٢] فصار يُلهيك، «وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ» الشَّيء الأَنيق، الجميل، البَهيّ، الحَسَن. «أَنِيقُ رَوْضٍ» والرَّوض هنا المقصُود بِها: الرَّوضةُ الَّتي يكون فيها الأشجار والأنهار -وما أشبه ذلك- تُسمَّى: رَوْضَة.

«وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ... وَلَا خِدْرٌ» الخدر حقيقتُهُ أنَّه السِّتر الَّذي يُمدُّ للجاريَّة في البيت، وكلُّ ما واراك وسَترك فهو يُقال فيه بأنَّه خدر، والنَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ أرادَ هنا: ولا صاحبة خِدرٍ، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، «وَلَا خِدْرٌ بِزِينَتِهَا» وفي نُسخة أخرى: «بِرَبْرَبِهِ كَلِفْتَا» يعني أنَّك لن تشتغل بصاحبةِ الخِدر مَهما تزيَّنت، مهما تطيَّبت، مهما عمِلَت إذا كان المقام مَقام علمٍ.

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ ... وَلَا خِدْرٌ بِزِينَتِهَا كَلِفْتَا

ما سيذكُره بعد ذلك يحتاج إلى كثيرٍ منَ التَّأمُّل في الأبيات.

وأوَّل المنظومة هو أساسها وأصلها، والأبياتُ اللاَّحقة هي عبارةٌ عن شرحٍ أو توضيحٍ لها، لأنَّه قال بعد ذلك:

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أَنِيقُ رَوْضٍ ... وَلَا خِدْرٌ بِزِينَتِهَا كَلِفْتَا
فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

* * *

حَيَاةُ الإِنْسَانِ إِنَّمَا هِيَ بِالْعِلْمِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَقُــوتُ الــرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِــي   وَلَيْــسَ بِــأَنْ طَعِمْــتَ وَلَا شَرِبْتَــا

الإنسان في الدُّنيا له حياتان:

_ حياةٌ دُنيويَّةٌ، مِنَ الدُّنوِّ وهو النُّزول أو الدَّناءة وهي الخِسَّة.

_ وحياةٌ عُلويَّةٌ، وهي الحياةُ الإيمانية.

فأمَّا الحياةُ الأولى: فإنَّه يَشْرَكه فيها غيره مِنْ بَهائِمِ الأنْعام وسائِرِ ما تدُبُّ فيه حياةُ الحركة، فإنَّ هؤُلاء كلّهم يقتاتون، وهذه الحياة ما جاءت في القُرآن إلَّا بالتَّعبير عنها بالحياة الدُّنيا، كقول الرَّب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[الحديد:٢٠]، وحيثما جاءت الحياة وأُريد بها هذا النَّوع مِنَ الحياة وهو مجرَّد المأْكل والمشرب والمطعم فإنَّما تُقيَّد بالدُّنيا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[الحديد:٢٠] وهذا هو النَّوع الأوَّل مِنَ الحيَاتين؛ -الإنسان له حياتان، ينبغي أن تعْلم هذا-.

والحياةُ الثَّانية: هي الحياةُ العُلويَّةُ، حياةُ الإيمان والطَّاعة والاستقامة، ولهذا الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤] هنا قال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أليْسُوا أحياء يمشون على الأَرض، يأكُلون، يشربون، يتمتَّعون؟ بلَى؛ لكنَّ الله أراد أنْ يُنبِّههُم إلى أنَّ الحياة الحقيقية الَّتي ينبغي أن تَسمُوا إليها هِمَمُهم وأن يتطلَّبُوها إنَّما هي الحياةُ معهُ، الحياةُ الَّتي لا تكون إلَّا بالاستجَابة لهُ، ولذلك هنا قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال:٢٤]، ولهذا الله جَلَّجَلَالُهُ يقول في كتابه الكريم: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[يس:٧٠] يُنذر مَنْ كان حيًّا معَ أنَّ الجميع يشتركون في هذه الحياة، لكنْ مَنْ كان حيًّا حياةً فيها إقبال على الله، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا في الآية الأُخرى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[ق:٣٧] والنَّاس كلُّهم لهم قلُوب؛ لكنْ لهُ قلبٌ يَعرفُ الحقَّ ويُقْبِلُ عليه ويستقبله، ولهذا ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أيضًا قال في كتابه الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٩٧] أَلَيْس حيًّا؟ أَلَيْس يأكل؟ أَلَيْس يشربُ؟ أَلَيْس يتمتَّعُ كما

يتمتَّع النَّاس؟ هذه ليستْ حياةً حقيقيَّةً، الحياةُ الحقيقيَّة قال:﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا:﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾[الأنعام:١٢٢] ليس الميِّت هاهنا مَنْ دُفن تحت الثَّرى، وإنَّما الميِّت هنا مَنْ دُفِّن قلبُه وغُطِّيَ وقُبِر قلبه بالشَّهوات.

وهنا أيضًا يقول ربُّنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مُبيِّنًا رُوح هذه الحياة الحقيقية وأنَّه القُرآن:﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[الشورى:٥٢] فكما أنَّ رُوح الحياة الدُّنيا المطاعِم والمشَارب والمآكل، فإنَّ رُوح الحياة العُلويَّةِ الحياةُ الَّتي فيها تعلُّقٌ بالله، ومعرفةٌ بالله، وحياةٌ مع الله، وقُوَّةٌ مع الله إنَّما رُوحها القرآن، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فروح القلب الحقيقي هو القرآن كلام الله جَلَّوَعَلَا.

ولهذا نبيُّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول:«**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ: مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»[1] -خرَّجه البخاري-، لاحظ أنَّه قال:«**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ**» لأنَّ هذا هُو روح الحياة الحقيقيَّة، روح الحياة العلويَّة، «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ**» ما مَثله؟ «**مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**» هذا هُو المثل الَّذي ضربه النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وهكذا جاء في أحاديث أُخرى تُناسبه-، النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث يضربُ لنا هذَا المثل، فمن أَعرض عن ذِكر الله فهو ميِّت وإنْ ملَك الأرض بأَسرها، وإن مَلك الدُّنيا بأَسرها، وإن كان أثرى الأثرياء ممَّن يُشار إليه بالبنان فإنَّه ميِّتٌ في حقيقة الأمر، ولهذا قال الله جَلَّوَعَلَا عن الكفَّار:﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[محمد:١٢].

فحقيقة مَنْ أعرض عنِ الله في هذه الدُّنيا أنَّه ميِّت، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ: (الْمَحْبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ)[2] هذا مضمونُ ما أراد أن يُنبِّهك إليه النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ.

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ[3]

فهنا يقول:«فَقُوتُ الرُّوحِ» هل قوتُ الرُّوح الفواكهُ والخضرواتُ وأنواع المأْدُبات وأصنافُ المأكولات؟ لا؛ ليس هذا حياة الرُّوح.

يقول:«فَقُوتُ الرُّوحِ» بلغ رَحِمَهُٱللَّهُ حتَّى قال:«أَرْوَاحُ الْمَعَانِي» يعني ليستْ المعاني فحسب الَّتي هي وجدان

---

[1] متفق عليه؛ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، واللفظ للبُخاري (٦٤٠٧).

[2] قال ابن القيِّم رحمه الله: (قَالَ لِي مَرَّةً -أي شيخ الإسلام ابن تيمية-: الْمَحْبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ، وَالْمَأْسُورُ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ) "الوابل الصيب" ص:١٠٩.

[3] نونية البستي رحمه الله.

الإِنسان، حياتُه معرفتُه بربِّه، لأنَّ الرُّوح لا تقوى إلَّا بمعرفة الله، فقُوَّتُها وحياتُها وأُنسُها لا يكون إلَّا بالله جَلَّوَعَلَا.

فيقُول:«فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي» هذا هو قوتُ الرُّوح: عِلْمُكَ بالقرآن، عِلْمُكَ بالسُّنة، تعلُّمك للعلم؛ لأنَّه قد بيَّن لكَ فيما سبق ممَّا شرحنا:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا　　　لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

ولعلَّكم تذكرون قول النَّضر بن شُميل رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا قال: (لَا يَجِدُ الرَّجُلُ لَذَّةَ الْعِلْمِ حَتَّى يَجُوعَ، وَيَنْسَى جُوعَهُ)[١].

فهنا يقول:«فَقُوتُ الرُّوحِ» الَّذي تقتاتهُ الرُّوح، الرُّوحُ لها غداءٌ ولها حياةٌ؛ ما غداؤُها؟ ما حياتُها؟ ما طُمأنينتها؟ هذا الكتاب وهذه السُّنة وهذا العلم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾[الرَّعد:٢٨].

«أَرْوَاحُ الْمَعَانِي» يوم أنْ تصِل إلى قلبكَ الفائِدة وتنزِل على قلبكَ كما ينزلُ الغيثُ على الأرض يهتزُّ قلبك ويُنبتُ عُشبها وكلأها ويتفجَّر منهُ فيه أنهارها، كما أنَّ هذا القطر الَّذي ينزل مِنَ السَّماء على الأرض مِنْ جهة الحسِّ تهتزُّ له وتربو وتُنبت مِنْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ، كذلك قطراتُ العلم الَّتي تُرسلُها إلى قلبك، فوائِدُ العلم تُحييه، تُنعشه، تحرِّكه، تهزُّه، تُنبتُ فيه الفضِائل، تُنبتُ فيه الأخلاق، تُنبتُ فيه التَّواضع، فهذه حقيقة القُوت الَّتي تحتاجها الرُّوح.

ولهذا النَّاظم هنا يقولُ -وهذا من بدائِع هذا النَّظم وهذه الأبيات-:«وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا» قد يستغني الإِنسان عن الطَّعام شهرًا أو يزيد -يستغني عن الطَّعام ولا يستغني عن الماء طبعًا-، يستغني عن الطَّعام ولا يَحصل لهُ شيءٌ، بل بعضهم يَرى أنَّ هذا من أسباب الصِّحة كما فعل ذلك الشَّيخ العلاَّمة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ أربعين يومًا ظلَّ يشربُ ماء دون أن يأكل طعامًا، فقال: (اسْتَفَدْتُ فَائِدَتَيْنِ: الأُولَى: اسْتِطَاعَةُ الْإِنْسَانِ تَحَمُّلَ الْجُوعِ تِلْكَ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَالْأُخْرَى: أَنَّ الْجُوعَ يُفِيدُ فِي شِفَاءِ الْأَمْرَاضِ الْامْتِلَائِيَّةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَقَدْ يُفِيدُ فِي غَيْرِهَا أَيْضًا)[٢].

---

[١] "تذكرة الحفاظ" للذهبي رحمه الله؛ ج١، ص:٣١٤.

[٢] ذكر الألباني رحمه الله -تجربته هذه- في كتابه "السِّلسلة الضَّعيفة" (٤١٩/١) قال رحمه الله: (وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَقُولُ: لَقَدْ جَوَّعَتُ نَفْسِي فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ (١٣٧٩) أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُتَتَابِعًا، لَمْ أَذُقْ فِي أَثْنَائِهَا طَعَامًا قَطُّ، وَلَمْ يَدْخَلْ جَوْفِي إِلَّا الْمَاء! وَذَلِكَ طَلَبًا لِلشِّفَاءِ مِنْ بَعْضِ الْأَدْوَاءِ، فَعُوفِيتُ مِنْ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ، وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ تَدَاوَيْتُ عِنْدَ بَعْضِ الْأَطِبَّاءِ نَحْوَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ دُونَ فَائِدَةٍ ظَاهِرَةٍ؛ وَقَدْ خَرَجْتُ مِنَ التَّجْوِيعِ الْمَذْكُورِ بِفَائِدَتَيْنِ مَلْمُوسَتَيْنِ: الْأُولَى: اسْتِطَاعَةُ الْإِنْسَانِ تَحَمُّلَ الْجُوعِ تِلْكَ الْمُدَّة الطَّوِيلَةَ، خِلَافًا لِظَنِّ الْكَثِيرِينَ مِنَ النَّاسِ. وَالْأُخْرَى: أَنَّ الْجُوعَ يُفِيدُ فِي شِفَاءِ الْأَمْرَاضِ الامْتِلَائِيَّةِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ يُفِيدُ فِي غَيْرِهَا أَيْضًا، كَمَا جَرَّبَ كَثِيرُونَ، وَلَكِنَّهُ لَا يُفِيدُ فِي جَمِيعِ الْأَمْرَاضِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَجْسَامِ، خِلَافًا لِمَا يُسْتَفَادُ مِنْ كِتَابِ "التَّطْبِيب بِالصَّوْمِ" لِأَحَدِ الْكُتَّابِ الْأُورُبِيِّينَ؛ وَفَوْقَ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم).

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول:

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ... وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَلَا شَرِبْتَا

ما الحياةُ بهذه المطاعِمِ وهذهِ المشارِب وهذه اللَّذائِذ، فإنَّه يُشاركُك فيها كلُّ أحدٍ، كما ذكرنا قولَ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[محمد:١٢] والمسلم ليس أكلهُ كما تأكل الأنعام، ولِذلك لهُ نيَّة في مطعمه، ومشربه، وملبسه، ونومه.

* * *

الحِرْصُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالصَّبْرُ عَلَى تَحْصِيلِهِ

ثُمَّ إنَّ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقل بعد ذلك إلى بيتٍ آخر، فقال:

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

يقولُ: بعد ما ذكرتُ لكَ مِنْ فوائد العلم وثمراته وأنَّه:

العَضْبُ الْمُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو ... تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ أَرَدْتَا

وأنَّه: «كَنزٌ لَا تَخَافُ عَلَيهِ لِصًّا»، وأنَّه: «قُوتُ الرُّوحِ» إلى آخره؛ يقولُ: إنْ لَمْ تَنفعك هذه الموعظة فتصلُ بك إلى المواظَبة عليه فماذا عسى أن ينفعك؟

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَوَاظِبْهُ» يعني واظب عليه، اجتهد في الحصول عليه.

والمواظبة معناها: المُلازمة، بمعنى أنَّك تُلازم العِلم، لا مُجرَّد إعطاء العلم فُضول الوقت! بل لا بُدَّ في هذا العلم من إعطاء رأْس المال في الوقت وهي المواظبة.

وأنتم تعلمون في كثير مِنْ سير أهل العلم وأئمَّته كيف كان حَالهم مع هذا العلم، أَليس بعض السَّلف يقول: (الْعِلْمُ

شَيْءٌ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ حَتَّى تُعْطِيَهُ كُلَّكَ)[1] يعني كُن للعلم بكُلِّ حواسك ومشاعرك وجُهدك وجِهادك، فإذا أَعطيتَ العلم كُلَّك فإِنَّ العلم سيُعطيك بعضه، وهذه قضيةٌ معروفةٌ، أَمَّا أَنَّنا نُعطي العِلم فُضول أوقاتنا وهي الأوقاتُ الَّتي نجلسها أَمام الشَّبكات أَو أَمام شاشات الأَجهزة -وما أَشبه ذلك- فإِنَّ هذا لا يُحصِّل شيئًا؛ إِلَّا شيئًا يسيرًا إن حصَّله! لكن المواظبة على العلم والمحافظة عليه إذا نظرنا إلى أبي هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُوَأَرْضَاهُ لمَّا قال: (كُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي)[2] هذه مواظبةٌ، مُحافظةٌ، ليس فقط أن تنظر إلى العلمِ مِنْ طرفٍ خفيٍّ إن جاءت الفائدة وإِلَّا فلتذهب حيث شاءت، هذا أَبُو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -كما ذكرتُ لك-، وكثيرٌ مِنَ الأَئمَّة -رَحِمَهُمُٱللَّهُ وَغَفَرَلَهُمْ- كان يذكُر مِنْ حالهِ في هذا العِلم ما يعجزُ عنهُ جُموعٌ مِنَ الرِّجال في هذه الأَعصار مِنْ جهة الحفظ والتَّنقير والطَّلب والرِّحلة -وما أشبه ذلك-، وكانوا يُسأَلون: (كَيْفَ حَصَّلْتَ هَذَا الْعِلْمَ؟) فيقولون: (بِبُكُورٍ كَبُكُورِ الْغُرَابِ)[3] يعني يَذكُرُون الحرص وما يُؤصِّل إليهم هذا العلم شيءٌ يعجَبُ منهُ مَنْ قرأ في تراجمهم.

وكثيرٌ مِنْ أَهل العلم كان فيهم مِنَ الحرص والنَّهَمة ما لا يعلمه إِلَّا الله، ولهذا النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يقول:«مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»[4] وهذه الحقيقة لا بُدَّ مِنْ معرفتها، فإِنَّ النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى يقول:«فَوَاظِبْهُ» المواظبة، أَمَّا أَنَّك تطلُبُ العلم شهرًا وتتركه شهرين وتتركُه سنةً ثُمَّ تأتي بعد ذلك وترجِع مِنْ جديد! لا؛ لا بُدَّ منَ المواظبة والاستمرار، وهذه المواظبة هي حقيقة العلم هي الَّتي تُنتج العلم ولهذا قالوا: (مَنْ ثَبَتَ نَبَتَ)، وقالوا: (مَنْ كَانَتْ بِدَايَتُهُ مُحْرِقَة، كَانَتْ نِهَايَتُهُ مُشْرِقَة) ولهذا قال النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ:«وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ» أي اجتهد اجتهادًا بالغًا، أعْطِ العلم كُلَّ ما تستطيع، لا أَنَّك تُعطيه الأَشياء الَّتي فضلتْ عليكَ، هذه حقيقةٌ -إخواني في الله- لا بُدَّ أن ننظر فيها في نفوسنا، لا بدَّ أن نتأمل، فالنَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ يقول:

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

هذا الحرص على العلم والمواظبة والجدِّ والاجتهاد كان السَّلفُ رَحِمَهُمُٱللَّهُتَعَالَى في غايةٍ منها، ولهذا يحيى بن أَبي كثير

[1] "تأريخ بغداد" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ ج١٤، ص:٢٥١، عن أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم رحمه الله.

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: (إِنَّكُمْ تَقُولونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وتَقُولُونَ: مَا بَالُ المهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ المهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ صَفْقٌ بِالأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ على مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ، أَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: إِنَّه لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ ثُمَّ يَجْمع إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلَّا وَعَى مَا أَقُولُ، فَبَسَطْتُ نَمِرَةً عَلَيَّ، حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَقالَتَهُ جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ شَيْءٍ) متفق عليه، واللفظ للبخاري (٢٠٤٧).

[3] (قِيلَ لِبزرجمهَرَ: بِمَ أَدْرَكْتَ مَا أَدْرَكْتَ مِنَ الْعِلْمِ؟ قَالَ: بِبُكُورٍ كَبُكُورِ الْغُرَابِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الْحِمَارِ، وَحِرْصٍ كَحِرْصِ الْخِنْزِيرِ) "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١ ص:٤٢٩.

[4] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٦٦٢٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا رَوى أحاديث المواقيت في صحيح مُسلم قال: (لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ)[1].

هذا الشَّعبيُّ عامر بن شراحيل -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَرَحِمَهُ- يقولُ لمَّا سُئل: (مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْعِلْم كُلَّهُ؟ قَالَ: بِنَفْيِ الاعْتِمَادِ) -يعني ما أعتمد على أحدٍ- (وَالسَّيْرِ فِي الْبِلَادِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الْجَمَادِ، وَبُكُورٍ كَبُكُورِ الْغُرَابِ)[2]، وهكذا كان السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ولهذا الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (حَقٌّ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الاِسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ)[3] وهذه الحقائق الَّتي ينبغي أن نتعلَّمها، وأن ننظر في كلام السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

ولهذا مِنَ الحِرص أنَّ الشَّعبيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (إِذَا سَمِعْتَ شَيْئًا فَاكْتُبْهُ وَلَوْ فِي الْحَائِطِ)[4] اكتبه لا تتركه يذهب ولو على الجدار، لأنَّه يذهب وينقضي عنكَ، ولهذا كانوا يجلسون اللَّيالي الطِّوال يقرؤُون كُتب الحديث وكُتب السُّنَّة ويتداولونها فيما بينهم.

❋ ❋ ❋

العِلْمُ رِزْقٌ مِنَ اللهِ

يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ... فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

مَنِ الَّذي يُعطي العلمُ؟ كيفَ يُنال العلمُ؟ كيفَ يُحصَّل العلمُ؟ إنَّما الله جَلَّ وَعَلَا هو الَّذي يُعطيه مَنْ يشاء مِنْ عباده، ولهذا قال لنبيِّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء:١١٣]، وقال عن آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[البقرة:٣١]، وقال عن الخضر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف:٦٥]، وقال في داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأهله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[الأنبياء:٨٠]، إلى غير ذلك مِنَ الآيات الكثيرة؛ فمَنِ اعتقَد أنَّه يُحصِّل العلم بجُهدِه أو باجتهاده أو بسهره أو بحِرصه

---

[1] صحيح مسلم.

[2] "تذكرة الحفاظ" للذهبي رحمه الله؛ ج١، ص:٨١.

[3] "الرسالة" للشافعي رحمه الله، ص:١٩.

[4] "تقييد العلم" للخطيب البغدادي رحمه الله، ص:١٢٧.

في معزلٍ عن الاعتماد على الله وطلبه فإِنَّ أوَّل ما سيجني عليهِ اجتهاده.

إِذَا لَـمْ يَكُـنْ عَوْنٌ مِـنَ اللهِ لِلْفَتَى فَـأَوَّلُ مَـا يَجْنِي عَلَيْـهِ اجْتِهَادُهُ[1]

فلا بدَّ أنْ تعلم أنَّ ما عندك مِنَ العلم إنَّما آتاك الله إيَّاه ولو شاء لسلبهُ منك، وأخذه منك، ولم يبقَ معك منهُ شيء.

❋ ❋ ❋

الانْتِفَاعُ بِالْعِلْمِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَوَاظِبْـهُ وَخُـذْ بِـالْجِـدِّ فِيـهِ فَـإِنْ أَعْـطَـاكَـهُ اللهُ انْـتَفَعْتَـا

أنتَ بذلتَ الأسباب الَّتي تُوصلك إلى العلم، أخذت بالأسباب مِنَ السَّهر والاجتهاد والحفظ والتَّنقيب والتَّنقير والحِرص، فأعطاكهُ الله انتفعت، فإذا انتفعتَ بهذا العلم فإنَّ هذا هو العلم النَّافع.

النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول: «فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا» لاحِظ هنا، النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مِنْ دُعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**»[2] فكان النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوَّذ مِنَ العلم الَّذي لا ينفع.

كما قلتُ لك العلم الَّذي لا ينفعُ لهُ جهتان:

_ الجهة الأولى: أن يكون علمًا لا ينفع فِي حقيقته، وهو العلمُ المذمُوم، كعِلم السِّحر والنُّجوم -وما أشبه ذلك-.

_ الجهة الثَّانِيَة: علمٌ هو نافعٌ في حقيقته وذاته، فإنَّه نافعٌ، إلَّا أنَّ صاحبهُ لا ينتفع به.

فلا بدَّ أن يجتمع هذان الأمران، يجتمعان بأن يكون العلم نافعًا وبأن ينتفع به صاحبه، لأنَّه قد يكون نافعًا لكنَّ صاحبه لا ينتفع به، ولهذا النَّاظم هنا يقول: «فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا».

---

[1] تُنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[2] رواه مسلم (٢٧٢٢)؛ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وأنبِّه هُنا أنَّه ربَّما يكونُ في أَوَّل هذه المنظُومة نوعُ طولٍ مِنَ الشَّرحِ لأنَّنا مُحتاجون لـها في أوَّلـها، والأَبيات الَّتي في آخرها ربَّما لا يستغرقُ البيتُ الدَّقيقة أو أكثر بقليل، بسببِ أنَّها ترجع إلى الأَبيات المتقدِّمة، فإنَّ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى شحن أوَّلها شحنًا عجيبًا بالفوائد والنَّصائح والمواعظ، جزاهُ الله خيرًا ونفعنَا الله وإيَّاكم بالعلم، وجعلنا وإيَّاكم ممَّن يستمعُ القول فيتَّبع أحسنه فهو وليُّ ذلك والقادر عليه.

* * *

اَلْعَمَلُ بِالْعِلْمِ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَإِنْ أُعْطِيتَ» وفي نُسخةٍ:

وَإِنْ أُوتِيـــــتَ فِيـــــهِ طُـــولَ بَـاعٍ ... وَقَــالَ النَّــاسُ إِنَّـكَ قَـدْ عَلِمْتَـا

وفي نُسخةٍ: «إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا».

فَــلاَ تَــأْمَنْ سُـــؤَالَ اللهِ عَنْـــهُ ... بِتَـــوْبِيخٍ: عَلِمْــتَ، فَهَــلْ عَمِلْتَـا؟

هنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى يتوجَّه إلى من كنَّاه بأبي بكر فيقول له: إذَا بلغتَ في العلم شأْوًا ونظر النَّاس إلى طُولك وطول باعِك في العلم فرأوك في الأعالي، وأشَاروا إليك بالبنان، وصرتَ تُعرف في المشارق والمغارب، ورأَستَ النَّاس فصِرت مرجعًا لهم، فإنَّك والحالة هذه لم تنتهِ مُهمَّتك في هذه الحياة الدُّنيا بل ما ازدادت مُهمَّتك إلَّا تعقيدًا، فإنَّ الواجب عليكَ أنْ تَعرف حقَّ العلم عليكَ، ومِنْ أَعظم حُقوق العلم -بل هُو أَعظمها-: العملُ به، لأنَّه لا نجاة للعالِمِ فضلاً عن غيره، لا نجاة لأهل العلم كلِّهم فيما حملوه مِنَ العلم -قليلاً أو كثيرًا- وما بلغهُم مِنَ الحجَّة إلَّا أن يكون لهم جوابٌ عند الله عن هذا العلم ماذا عملوا به، وهذه هي الثَّمرة الَّتي يُراد لَها العلم، فإنَّها ثمرةُ العِلْم العمل.

وقد عَدَّ الهيثمي في «الزَّواجر عن اقتراف الكبائر» عدَّ عدم العمل بالعِلم مِنَ الكبائر[1]، وفي نظم «الزُّبد» المشهور عند الشَّافعية:

---

[1] قال ابن حجر الهيثمي رحمه الله: (الْكَبِيرَةُ الْخَامِسَة وَالأَرْبَعُون: عَدَمُ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ) "الزواجر عن اقتراف الكبائر" ج١، ص:٩٧.

فَـعَـالِـــمٌ بِعِلْمِـــهِ لَـمْ يَعْمَلَـنْ مُعَـذَّبٌ مِـنْ قَبْـلِ عُبَّـادِ الْوَثَـنْ[1]

وقد جاء في السُّنن مِنْ حديث أبي بَرْزَةَ ومِنْ حديث ابن مسعود[2] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَ، أنَّ النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لَا تَـزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَـنْ عِلْمِـهِ مَـاذَا عَمِـلَ فِيـهِ، وَعَـنْ مَـالِهِ مِـنْ أَيْـنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ**»[3] والنَّاظم يُشير إلَى هذا: «بِتَوْبِيخٍ: عَلِمتَ، فَهَل عَمِلْتَا؟».

فلا تأْمن سُؤال الله عنهُ وإن كُنت مِنْ أهل العلم الأكابر الَّذين بلغُوا في العلم مراتِب ربَّما قلَّ مَنْ يبلُغها، فإنَّك مسؤولٌ عن هذا العلم بينَ يدَي الله جَلَّوَعَلَا، ولهذا الرَّب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قال في كتابه الكريم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤] هذا في حقِّ اليهود، وقال جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصَّف:٣-٢]، وقد جاء في الصَّحيحين مِنْ حديث أُسامة بن زيد –حِبِّ رسول الله وابن حبِّه– رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَ، أنَّه قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى؛ قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**»[4] وهذه منزلةٌ قبيحةٌ لمن أَمْكنه العمل بالعلم ولم يعمل به.

والعلاَّمة حافظ حكمي رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ يقول في ميميَّته المشهورة:

يَـا طَالِـبَ الْعِلْـمِ لَا تَبْغِـي بِـهِ بَـدَلَا فَقَـدْ ظَفِـرْتَ وَرَبِّ اللَّـوْحِ وَالْقَلَـمِ
وَعَظِّـمِ العِلْـمَ وَاعْـرِفْ قَـدْرَ حُرْمَتِـهِ فِـي الْقَـوْلِ وَالفِعْلِ وَالآدَابِ فَـالْتَزِمِ[5]

أبو الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: (وَيْلٌ لِلَّذِي لَا يَعْلَمُ مَرَّةً، وَوَيْلٌ لِلَّذِي يَعْلَمُ وَلَا يَعْمَلُ سَبْعَ مَرَّاتٍ)[6] كما ذكر ذلك الذَّهبيُّ عنه في «سير أعلام النبلاء».

والسَّلف كانُوا يُعجبهم التَّواضع وهضم النَّفس، الشَّعبيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ عامرُ بن شرَاحيل الإمام المعروف، يقول: (إنَّا

[1] "صَفوة الزُّبد" لابن رسلان الرملي رحمه الله.

[2] من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: (لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٤١٦).

[3] قال الألباني رحمه الله في "اقتضاء العلم" (١) : إسناده صحيح اهـ. من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ.

[4] متفق عليه، واللفظ لمسلم (٢٩٨٩).

[5] "المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية" للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله.

[6] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٢، ص:٣٤٧.

لَسْنَا بِالْفُقَهَاءِ، وَلَكِنَّا سَمِعْنَا الْحَدِيثَ فَرَوَيْنَاهُ، وَلَكِنَّ الْفُقَهَاءَ مَنْ إِذَا عَلِمَ عَمِلَ)[١].

ولهذا ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «زاد المعاد» يقولُ بأنَّ الإجماع مُنعقدٌ على أنَّ الفقيه لا يُسمَّى عالِمًا حتَّى يعمل بعلمه[٢]، ولهذا قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كَانَ الرَّجُلُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَلاَ يَلْبَثُ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وَزُهْدِهِ وَلِسَانِهِ وَبَصَرِهِ)[٣]، ومِثْلُ هذا النَّفس كثيرٌ في كلام الأئمَّة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، ولهذا صحَّ عند طائفة مِنْ أهل العلم قولهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ**»[٤] والحديث ذكره العلاَّمة الألباني عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ في «السِّلسلة الصَّحيحة».

والشَّاهد مِنْ هذا كلِّه أنَّ طالب العلم يحْرص على العمل، وقد كان السَّلف يقولون: (كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ)[٥].

وجاء عن عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعن ابن المنكدر[٦] أنَّه قال: (هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ)[٧]، ولهذا في وصايا عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لكُمَيل بن زياد أنَّه قال: (الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ)[٨] أراد أنَّ العلم يُنمِّيه العمل ويُرسِّخه، لأنَّ العمل هو ثمرة العِلم، ولهذا جاء مرفوعًا -كما ذكرنا مِنْ قبل- وإن كان الصَّحيح فيه أنَّه لم يصح مرفوعًا وإنَّما هو في بعض الآثار: (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[٩].

❊ ❊ ❊

[١] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٤، ص:٣٠٣.

[٢] قال ابن القيِّم رحمه الله: (فإنَّ السَّلفَ مُجمِعُونَ عَلَى أنَّ العَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعلِّمَهُ، فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ) "زاد المعاد" ج٣، ص٩.

[٣] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٤، ص:٥٨٣.

[٤] "السِّلسلة الصَّحيحة" (١١٣٣)، من حديث جندب بن عبدالله رضي الله عنه.

[٥] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله (١/٧٠٩) عن الشعبي ووكيع بن الجراح رحمهما الله. وجاء في "الآداب الشرعية" لابن مفلح رحمه الله (٢/٨٦) عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع رحمه الله.

[٦] عن ابن المنكدر بلفظ: (الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَل) "اقتضاء العلم العمل" للخطيب البغدادي رحمه الله، ص٣٦.

[٧] "اقتضاء العلم العمل" للخطيب البغدادي رحمه الله؛ ص:٣٦.

[٨] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ ج١، ص:٨٠

[٩] "فتح المغيث" للسخاوي رحمه الله؛ ج٣، ص:٢٨٣

رَأْسُ الْعِلْمِ التَّقْوَىٰ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَىٰ

ثمَّ قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـرَأْسُ الْعِلْـمِ تَقْـوَى اللهِ حَقًّـا   وَلَـيْـسَ بِـأَنْ يُـقَـالَ لَـقَـدْ رَأَسْـتَـا

يقول هنا: رأسُ العلم، حقيقةُ العلم، ماهية العلم: التَّقوى، وهي الخَشية والخوفُ مِنَ الله تعالى، ولهذا جاء عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قال: (لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ خَشْيَةُ اللهِ)[1].

والتَّقوى هي وصيَّة الله جَلَّجَلَالُهُ للأوَّلين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النِّساء:١٣١]، وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (التَّقِيُّ مُلْجَمٌ لَا يَفْعَلُ كُلَّ مَا يُرِيدُ)[2].

ولمَّا خَطَبَ طَلْقُ بن حَبيب يومًا النَّاس قال: (إِذَا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ فَأَطْفِئُوهَا بِالتَّقْوَى، قَالُوا: وَمَا التَّقْوَى؟ قَالَ: أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَخَافُ عِقَابَ اللهِ)[3] وهذا الأثر حسَّنه العلاَّمة الألباني عَلَيْهِرَحْمَةُاللهِ[4] لأنِّي أذكر أنَّه عند ابن أبي شيبة في مُصنَّفه[5] -هذا ما أذكره الآن-.

والحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول كما ذكر عنه الحافظ ابن رجب -وجاء هذا عن غيره كسعيد بن جُبير بمعنى قوله هذا-، أنَّه قال: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ حَتَّى تَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ الْحَرَامِ)[6] يقول هنا: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ) يعني أنَّه جعل التَّقوى مثل الحادي الَّذي يحدُو ويُنادي، فما زالت التَّقوى تُناديهم وتُخاطبُهم وتَحْمِلهم على المكارم والفضائِل حتَّى تركُوا التَّوسُّع في المباحات والتَّوسُّع في الحلال خشيةَ أن يلتذُّوا به ويركنوا إلى الدُّنيا فيقعُوا فيما يُشبهه أو يقودُ إليه وهو الحرام، فمنزلةُ الورع منزلةٌ عظيمةٌ.

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٧٥٩.

[2] "شرح السُّنَّة" للإمام البغوي رحمه الله؛ ج١٤، ص:٣٤١.

[3] "الرسالة التبوكية" لابن القيم، ص:٨.

[4] قَالَ الأَلْبَانِي رحمه الله في "كتاب الإيمان": (وَهَذَا الأَثَرُ صَحِيحُ السَّنَدِ إِلَى طَلْقِ بْنِ حَبَيب، وَهُوَ تَابِعِيٌّ عَابِدٌ) ص٣٩.

[5] جاء في مصنف ابن أبي شيبة (٣٦١٦٩) بلفظ: (التَّقْوَى عَمَلٌ بِطَاعَةِ الله رَجَاء رَحْمَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ الله، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعْصِيَةِ الله مَخَافَةَ الله عَلَى نُورٍ نُورٍ مِنَ الله).

[6] "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله؛ ج١، ص:٢٠٩.

❋ ❋ ❋

مِحْنَةُ الأَلْقَابِ

النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا قال:

فَـرَأْسُ الْعِلْـمِ تَقْـوَى اللهِ حَقًّـا ... وَلَيْـسَ بِأَنْ يُـقَـالَ لَـقَدْ رَأَسْـتَـا

يعني ليس العلم أن يُقال: هذا العالِمِ الفُلانيُّ، الإِمام الفُلانيُّ، هذا المقدَّم، هذا الوَجيه؛ وهكذا مِنْ مِحْنة الألقاب الَّتي أُولع بها العصريُّون، ومِنْ أَزمنةٍ لا بأس بها مُتقدِّمة أُولع النَّاس بالأَلقاب، ومَنِ اعتنى بكتب أهل الحديث رأى ما كانوا عليه مِنَ التَّواضع وعدم الاعتناء بهذه الأَلقاب مطلقًا لا في أَنفسهم ولا في أَشياخهم، اقرأ مُسند الإمام أحمد مِنْ أوَّله إلى آخره، وقدْ ذكرَ فيه -على بعض التَّرقيم- ثلاثين أَلف حديث، لَمْ يَصِف أيًّا ممَّن روَى عنهم، وقد رَوى عن جبالٍ وأئِمَّة كبارٍ، لَمْ يصِفهم ولَمْ يُلقِّبهم بأيِّ شيءٍ مِنَ الأَلقاب.

✷ نحن لا نُحرِّم هذه الأَلقاب، لكن أَنْ تكون هي الهمُّ، أن يكُون الإنسان إذا لَمْ تُذكر في حقِّه: فضيلة الشَّيخ، والشَّيخ الفاضل، والأستاذ الدُّكتور، والمقرئ، والمسنِد، والمحدِّث، والفقيه، والعلاَّمة، وإمام الثَّقلين -إلى ما أشبه ذلك مِنَ الألقاب-، هذه لَا تجدها عند أئِمَّة الحديث، أصحاب الكتب السِّتة نفسُ الشَّيء: (حَدَّثَنَا يَحْيَى قَالَ حَدَّثَنَا مَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ أَبِيهِ)، (حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ حَدَّثَنَا بُنْدَارُ حَدَّثَنَا غُنْدَرُ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ) كلُّهم لَم يكن عندهم ذلك الاعتناء بالألقاب، لأَنَّه لَمَّا كثُر عِلمهم وعرفوا العلم على الحقيقة هانت في نُفوسهم هذه الأَلقاب، ولمَّا قلَّ العلم صار يُغضب ممَّن يسلبنا إيَّاها، فهنا النَّاظم يُشير لنا إلى هذه القضيَّة المهمَّة.

❋ ❋ ❋

ذَمُّ الرِّئَاسَةِ وَالتَّصَدُّرِ

يقُول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـرَأْسُ الْعِلْـمِ تَقْـوَى اللهِ حَقًّـا   وَلَيْـسَ بِـأَنْ يُـقَـالَ لَـقَـدْ رَأَسْـتَـا

فلنتأمَّل بعض الآثار العظيمة الَّتي كان عليها السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

سُفيان الثَّوريُّ كما عند الآجريِّ في «أخلاق العلماء» وعند الخطَّابي في «العُزلة»، سُفيان الثَّوريُّ يَرْوي عن أبيه قال: (أَتَيْتُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ فِي شَيْءٍ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحَدٌ يَشْفِيكَ مِنْ هَذَا؟)[1] يعني: لَم تجد غيري؟ (احْتِيجَ إِلَيَّ! احْتِيجَ إِلَيَّ!)[2] إبراهيم النَّخعيّ يَنْعى على نفسه يقول: احتاج النَّاس إليَّ، احتاج النَّاس إليَّ!، يقول: (إِنَّ دَهْرًا صِرْتُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَدَهْرُ سُوءٍ)[3] يقول هذا وهو فقيه أهل الكوفة، ومِنْ أصحاب ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -يعني مِنْ تلاميذ التَّلاميذ الَّذين أخذوا عن مدرسته-.

وهذا مُحمَّد بن عبد الأعلى الصَّنعاني يقول: (خَرَجَ عَلَيْنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ) يعني هم طُلاَّب العلم، وكانت عادتهم الملازمة الشَّديدة لشُيوخِهم حتَّى ربَّما أضجروهم وتألَّموا منهم، فمحمَّد بن عبدالأعلى الصَّنعاني يقول: (خَرَجَ عَلَيْنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ) ما الَّذي ينتظِرونه؟ يوزِّع عليهم الدَّراهم والدَّنانير؟ لا؛ يُريدون أن يسمعوا حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يقول هذا مُحمَّد بن عبدالأعلى الصَّنعاني: (خَرَجَ عَلَيْنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ فَقَالَ:

خَلَـتِ الدِّيَــارُ فَسُـدْتُ غَـيْرَ مُسَـوَّدِ   وَمِـنَ الشَّقَـاءِ تَفَـرُّدِي بِالسُّـؤْدَدِ[4]

ثُمَّ ذكر الخطَّابي في «العزلة » -بعد أن ذكر هذا البيت-، قال: (وَأَنْشَدَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ فِرَاسٍ فِي نَحْوٍ مِنْ هَذَا:

وَإِنَّ بِقَــوْمٍ سَــوَّدُوكَ لَحَــاجَــةً   إِلَـى سَيِّـدٍ لَــوْ يَظْفَرُونَ بِسَيِّـدِ[5]

وَقَالَ آخَرُ فِي نَحْوِهِ) -ولا زال الكلام للخطَّابي-:

وَمَـا سُدْتَ فِيهِـمْ أَنَّ فَضْلَكَ عَمَّهُمْ   وَلَكِـنَّ هَذَا الْخَلْـطَ فِـي النَّـاسِ يُقْسَمُ[6]

---

[1] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٧٠.
[2] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٧٠.
[3] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٧٠.
[4] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٧٠.
[5] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٧٠.
[6] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٧٠.

والرِّياسة وطلبها والحرص عليها مضيَعة للعلم وذهابٌ له، ولهذا جاء عند البُّخاري مُعلَّقًا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –وصله ابن أبي شيبة بإسناد صحيح كما قال في «الفتح»–[1]، أنَّه قال: (تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا)[2] ولهذا ذكر في «الفتح» أنَّه في رواية الكُشْمِيهَنِيّ للبخاري أنَّ البُخاري قال: (وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا)[3]، قال الخطَّابيُّ: (يُرِيدُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْدُمِ الْعِلْمَ فِي صِغَرِهِ اسْتَحْيَى أَنْ يَخْدُمَهُ فِي كِبَرِ السِّنِّ وَإِدْرَاكِ السُّؤْدَدِ)[4].

وقال سُفيان الثَّوريُّ –كما ذكر الخطابيُّ أيضًا–: (مَنْ تَرَأَّسَ فِي حَدَاثَتِهِ كَانَ أَدْنَى عُقُوبَتِهِ أَنْ يَفُوتَهُ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْعِلْمِ)[5].

وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهِ عَلَيْهِ أنَّه قال: (مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَوَانِهِ لَمْ يَزَلْ فِي ذُلٍّ مَا بَقِيَ)[6].

أنشدنا أبو سُليمان –أبو سُليمان يعني الخطَّابي طبعًا– قال: (أَنْشَدَنِي سَهْلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: أَنْشَدَنَا مَنْصُورُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ لِنَفْسِهِ:

الْكَلْبُ أَكْرَمُ عِشْرَةً ... وَهُوَ النِّهَايَةُ فِي الْخَسَاسَهْ
مِمَّنْ يُنَازِعُ فِي الرِّيَاسَةِ ... قَبْلَ أَوْقَاتِ الرِّيَاسَهْ[7]

وقيل للمُبرِّد رَحِمَهُ اللَّهُ: (لِمَ صَارَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْفَظَ مِنْكَ لِلْغَرِيبِ وَالشِّعْرِ؟) –يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ يَحْيَى– (قَالَ: لِأَنِّي تَرَأَّسْتُ وَأَنَا حَدَثٌ وَتَرَأَّسَ وَهُوَ شَيْخٌ)[8]، ولهذا سُفيان بن عُيَيْنَة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (جَلَسْنَا إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَأَحَطْنَا بِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْنَا فَقَالَ: شِنْتُمُ الْعِلْمَ وَذَهَبْتُمْ بِنُورِهِ، لَوْ أَدْرَكَنِي وَإِيَّاكُمْ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَأَوْجَعَنَا ضَرْبًا)[9].

قال المُظَفَّري: (وَزَادَنِي غَيْرُ عَمْرٍو: مَا أَنَا أَهْلٌ لِأَنْ أُحَدِّثَ، وَلَا أَنْتُمْ أَهْلٌ لِأَنْ تُحَدَّثُوا؛ وَمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ

---

[1] قال ابن حجر رحمه الله: (أَمَّا أَثَرُ عُمَرَ فَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرُهُ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ... فَذَكَرَهُ؛ وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ) اهـ "فتح الباري" ج١، ص:٢٩٢.

[2] صحيح البخاري.

[3] قال ابن حجر رحمه الله: (زَادَ الْكُشْمِيهَنِيُّ فِي رِوَايَتِهِ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ –أَيِ: الْبُخَارِيُّ–: وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا) "فتح الباري" ج١، ص:٢٩٢.

[4] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٣.

[5] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٣.

[6] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٣.

[7] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٣.

[8] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٣.

[9] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٤.

الْأَوَّلُ: افْتَضَحُوا فَاصْطَلَحُوا)[1].

وهذا الزُّهريُّ مُحمَّد بن شهاب يقول -عن رجلٍ مِنَ المهاجرين-، قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ وَارَتِ الْقُبُورُ أَقْوَامًا لَوْ رَأَوْنِي مَعَكُمْ سَخِرُوا مِنِّي)[2].

• طالب العلم لا يكون همُّه أن يكون عالمًا، ليس مِنْ شرط العلم أن تكون عالمًا، أن تكُون مؤلِّفًا، أن تكون مُحاضرًا، أن تكُون مدرِّسًا، الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقُول: (مَا تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ إِلَّا لِنَفْسِي، وَمَا تَعَلَّمْتُ لِيَحْتَاجَ النَّاسُ إِلَيَّ، وَكَذَلِكَ كَانَ النَّاسُ)[3]، لتكن همَّتك هي الوصُول إلى رضا الله جَلَّ وَعَلَا، تعْرف ما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به، وتعْرف ما نَهى الله عنه، لأنَّ طلب الرِّئاسة سبيل للإحداث في الدِّين.

أَأُخَيَّ مَنْ عَشِقَ الرِّئَاسَةَ خِفْتُ أَنْ ... يَطْغَى وَيُحْدِثَ بِدْعَةً وَضَلَالًا[4]

ولقد حرص أقوامٌ على الرِّياسة فداسُوا على كرامةِ العلماء وحاربُوهم وبارزُوهم لأنَّهم رأوا أنَّهم لَمْ يُعْطَوا هذه الرِّئاسة ولَمْ يَصلُوا إليها، فأرادوا أن يُزحزحُوا هؤلاء العلماء مِنْ طريقهم حتَّى يصلُوا إلى مكانهم، وهذا هو الضَّلال المبين -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

طالبُ العلم همُّه رضا الرَّب جَلَّ جَلَالُهُ، طالبُ العلم يعلم أنَّ حقيقة العلم ما أوصله إلى خشية الله جَلَّ وَعَلَا، ما أوصله إلى العمل بطاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ثمَّ مَنْ وفَّقه الله جَلَّ جَلَالُهُ وواصلَ العِلم ومَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه بأن صار إمامًا في النَّاس واحتاج النَّاس إليه وصار مُوجِّها وإمامًا لهم، فإنَّ هذا شيءٌ حسنٌ لأنَّه جاء تبعًا، أمَّا أن يكون هو القصد كَمن يتعلَّم العلم ليكُون قاضيًا أو عالمًا أو موجِّهًا ثُمَّ بعد ذلك لا يَحمله العلم على طاعة الله -نسأل الله العافية والسَّلامة- فإنَّ هذا نوعٌ مِنَ الضَّلال -عياذًا بالله- أو مِنَ الأُمور الَّتي تُوصل طالب العِلم إلَى نوعٍ مِنَ الضَّلال.

وقد ذكرتُ لكم أنَّ مَنْ حَرص على الرِّئاسة قادته إلى البدعة، وقَلَّ مَنْ يَسلم مِنْ هذا مَنْ أرادها، جاء في أثرٍ في ذكر الخوارج أنَّه يأتي على النَّاس زمانٌ يقرأ النَّاس العلم فيقوم شخصٌ فيقول: (مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟

[1] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٤.

[2] "العزلة" للخطابي رحمه الله، ص:٨٤.

[3] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٨، ص:٦٦.

[4] لأبي العتاهية.

مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلاَلَةٌ)[١] هذا ممَّا يحمل الإنسان على الرِّياسة لأنَّه إنَّما طلب العلم لهذه الغاية فلم يُحصِّلها فقاتل النَّاس عليها، فالله الله في معرفة هذه الوصايا العظيمةِ الجليلة.

فَـلاَ تَأْمَـنْ سُـؤَالَ اللهِ عَنْـهُ ... بِتَـوْبِيخٍ: عَلِمْـتَ، فَهَـلْ عَمِلْتَـا
فَـرَأْسُ العِلْـمِ تَقْـوَى اللهِ حَقًّـا ... وَلَيْـسَ بِـأَنْ يُقَـالَ لَقَـدْ رَأَسْتَـا

هذا البيت مِنْ أجلِّ وأنفع أبياتها الَّتي تُعين طالب العلم على تربية نفسه وإصلاحها وعدم الالتفات إلى مُراداتها – كما ذكرنا ذلك آنفًا–.

❋ ❋ ❋

الإِحْسَانُ فِي طَلَبِ العِلْمِ

ثُمَّ قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَفْضَـلُ ثَوْبِـك الإِحْسَـانُ لَكِـنْ ... نَـرَى ثَـوْبَ الإِسَـاءَةِ قَـدْ لَبِسْتَـا

وفي نُسخةٍ:

وَضَافِـي ثَوْبِـكَ الإِحْسَـانُ لَا أَنْ ... تُـرَى ثَـوْبَ الإِسَـاءَةِ قَـدْ لَبِسْتَـا

واختلافُ النُّسخ هذا أمرٌ معلوم، لكنَّه لا يضرُّ في كثير من الأحيان.

«وَأَفْضَلُ ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ» لَمَّا كان أهل العلم وحملتُهُ وطلاَّب العلم هم نجوم الأرض الَّتي يُقتدى بها ويُهتدى بها في الأرض كما أنَّ نجوم السَّماء هي الَّتي يُقتدى بها ويُهتدى بها والعلامات الَّتي يُوصَل بها إلى المرادات، لَمَّا كان أهل

---

[١] عنْ أَبِي إِدْرِيس الْخَوْلَانِيِّ عَائِذ اللَّهِ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَيْرَةَ –وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ– أَخْبَرَهُ قَالَ: (كَانَ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلَّا قَالَ: اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَوْمًا: إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ؛ فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ. قَالَ: قُلْتُ لِمُعَاذٍ: مَا يُدْرِينِي –رَحِمَكَ اللَّهُ– أَنَّ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: بَلَى! اجْتَنِبْ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ الَّتِي يُقَالُ: مَا هَذِهِ؟ وَلَا يُثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا) قال الألباني رحمه الله في "صحيح أبي داود" (٤٦١١) : إسناده صحيح موقوفًا.

العلم بهذه المنزلة وكان النَّاس مِنْ طبيعتهم ومِمَّا جُبلوا عليه أنَّهم يبحثون فيمن يقتدون به ويتَّبعونه على أهل الكمالات والمقامات العالية، نصَحنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى بأن يكون الثَّوب الَّذي نلبسه ونتجلبب به -كما نتزيَّن بأفضل لباسنا-: هو الإحسان، والإحسان اسمٌ جامعٌ لكلِّ مراتبِ الدِّين، وأنتم تعلمون أنَّ مراتب الدِّين ثلاثة:

_ الإسلام وهو أعمُّها.

_ ثُمَّ الإيمان وهو أخص منه.

_ ثُمَّ الإحسان وهو أخصُّها.

كلُّ محسنٍ مُؤمن، وهكذا لا ينعكس الأمر، ليس كلُّ مؤمن محسنًا، وليس كلُّ مسلم مؤمنًا، كما هو متقرِّر في أبواب الاعتقاد.

حاصل هذا أنَّ الإحسان هو أعلى مراتب الدِّين، فيُريد أن تستجمع قواك للحصول على كامل الأخلاق الَّتي أمر بها الدِّين لتتزيَّا بها، لتكون هي بمثابة ثوبك الحسيِّ الَّذي تلبسه وتتجلَّل به، والإحسان: (كَفُّ الأَذَى، وَبَذْلُ النَّدَى، وَطَلاَقَةُ الْوَجْهِ)[1] وأعظمه بعد الإحسان مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إحسان المرء إلى نفسه بحملها على ما يُصلحها عند الله جَلَّ وَعَلَا ورعاية مقاصد الشَّرع فيها مِنْ جهة تزكيتها وتربيتها وتهذيبها كما قال ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشَّمس:٩-١٠].

وهو يقول لك هنا: «وَأَفْضَلُ ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ لَا أَنْ» أو «لَكِنْ نَرَى» أو «تُرَى ثَوْبَ الإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا» فاعتضتَ عن الإحسان بالإساءة، فبدلًا مِنْ أن تتجمَّل بالإحسان شِنتَ العلم بالإساءة، وإذا كنتَ مُسيئًا فإنَّ النَّاس لا يقبلون ما معك مِنْ نُور العِلم الَّذي به حياتهم وصلاحهم، فطالب العلم ينبغي عليه أن يحرص على هذا الأمر وأن يتجلَّل ويتجلبب بمواطن الإحسان لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثنى على المحسنين.

(إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَجْزِي عَلَى الإِحْسَانِ بِالْعِلْمِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ الْجَزَاءِ. فَأَمَّا الْمَقَامُ الأَوَّلُ فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الزمر:٣٣-٣٥] وَهَذَا يَتَنَاوَلُ الْجَزَاءَيْنِ: الدُّنْيَوِيّ وَالأُخْرَوِيّ. وَأَمَّا الْمَقَامُ الثَّانِي فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٢٢]، قَالَ الْحَسَنُ: «مَنْ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ فِي شَبِيبَتِهِ، لَقَّاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾» وَمِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُ

[1] مَقْصُودُ شَيْخِنَا -حَفِظَهُ اللهُ- تَعْرِيفُ الإِحْسَانِ بِالنِّسْبَةِ لِمُعَامَلَةِ الخَلْقِ.

الْعُلَمَاءِ:«تَقُولُ الحِكْمَةُ: مَنِ الْتَمَسَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي فَلْيَعْمَلْ بِأَحْسَنِ مَا يَعْلَمُ، وَلْيَتْرُكْ أَقْبَحَ مَا يَعْلَمُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَأَنَا مَعَهُ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْنِي»[1] فهذا كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مفتاح دار السَّعادة».

فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ ... وَالْعِلْمُ لَا يَحْسُنُ إِلَّا بِالْأَدَبِ
وَالْأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ السَّمْتِ ... وَفِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ
وَالصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ[2]

هذا البيت العظيم الَّذي ذكره النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى يحملنا على مطلبٍ عظيم ألا وهو الإحسان؛ الإحسان في العلم، والإحسان في العمل، ولينظر الإنسان إلى أثره على غيره.

❋ ❋ ❋

التَّحْذِيرُ مِنْ تَرْكِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ

ثُمَّ قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدها:

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْرًا ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

لأنَّك إذا لم تستمع نصيحتهُ وتعمل بالعلم الَّذي تعلَّمته ولَم تستفد خيرًا بالعلم الَّذي به حياتك والَّذي به نجاتك فماذا عسى أن يفيدك هذا العلم؟

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْرًا ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

ولهذا تقدَّم معنا -فيما سبق مِنَ الكلام- أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يسأل أهل العلم عن علمهم: **«وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ»**[3].

---

[1] "مفتاح دار السَّعادة" لابن القيم رحمه الله؛ ج١، ص:٤٧٧

[2] قال ابن عبد البر رحمه الله -عند ذكره لهذه الأبيات-: (أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ فِي آدَابِ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ مِنَ النَّظْمِ مَا يُنْسَبُ إِلَى اللُّؤْلُؤِيِّ مِنَ الرَّجَزِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْسِبُهُ إِلَى الْمَأْمُونِ) "جامع بيان العلم وفضله"؛ ج١، ص:٥٧٨.

[3] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب" (٣٥٩٢) : حسن صحيح. اهـ؛ من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ.

اعْمَلْ بِعِلْمِكَ تَغْنَـمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ لَا يَنْفَـعُ العِلْمُ إِنْ لَمْ يَحْسُنِ العَمَلُ
وَالعِلْمُ زَيْـنٌ وَتَقْـوَى اللهِ زِينَتُـهُ وَالْمُتَّقُونَ لَهُـمْ فِـي عِلْمِهِمْ شُغُلُ
وَحُجَّةُ اللهِ يَـا ذَا العِلْـمِ بَالِغَـةٌ لَا الْمَكْـرُ يَنْفَعُ فِيْهَـا لَا، وَلاَ الحِيَلُ
تَعَلَّمِ الْعِلْمَ وَاعْمَلْ مَـا اسْتَطَعْتَ بِـهِ لَا يُلهِيَنَّـكَ عَنْـهُ اللَّهْـوُ وَالجَـدَلُ
وَعَلِّـمِ النَّاسَ وَاقْصِـدْ نَفْعَهُمْ أَبَـدًا إِيَّـاكَ إِيَّـاكَ أَنْ يَعْتَـادَكَ الْمَلَـلُ
وَعِـظْ أَخَـاكَ بِـرِفْقٍ عِنْـدَ زَلَّتِـهِ فَالرِّفْقُ يَعْطِفُ مَـنْ يَعْتَـادُهُ الزَّلَلُ[1]

الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول:«إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلْمُ خَيْرًا» إذا ما لَم تستفد بالعلم خيرًا: لم تعبد ربَّك، لَم تُحسن إلى نفسك، لَم تُحسن إلى والديك، لَم تُحسن إلى جارك، لَم تُحسن إلى معلِّمك، لَم تُحسن إلى إخوانك، لَم تُحسن إلى ذوي الحاجات، فماذا استفدت مِنَ العلم إذًا؟!

يقُول:«فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا» ومضمون هذا البيت -فيما تذكرون وقد سمعتم مِنْ قبل- قد تقدَّم معنا الكلام عليه في الأبيات المتقدِّمة.

❊ ❊ ❊

خُطُورَةُ الاعْتِمَادِ عَلَى الفَهْمِ فِي مَعْزِلٍ عَنِ النُّصُوصِ

والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك قال:

وَإِنْ أَلْقَـاكَ فَهْمُـكَ فِـي مَهَـاوٍ فَلَيْتَـكَ ثُـمَّ لَيْتَـكَ مَـا فَهِمْتَـا

هذا الفهم هو الفهم الَّذي سُلب التَّوفيق، يعني كما قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يصف المتكلِّمين؛ قال:

[1] ذكرها الحافظ ابن عساكر رحمه الله في كتابه "ذم من لا يعمل بعلمه"؛ ص:٤٠.

(أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً، وأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا)[1] والفهم أحيانًا إذا تجرَّد عن التَّوفيق فإنَّ أوَّل ما يجني على المرء اجتهاده.

إِذَا لَـمْ يَكُـنْ عَوْنٌ مِـنَ اللهِ لِلْفَتَى   فَـأَوَّلُ مَـا يَجْنِي عَلَيْـهِ اجْتِهَادُهُ[2]

فالإنسان، طالب العلم، المتعلِّم، العالِم، لا يعتمد على فهمه ويعتزل النُّصوص ويعتزل الآثار ويترك ما كان عليه السَّلف وما سارت عليه الأمَّة ويُعجبه فهمه، يُعجبه رأيه كما كان الشَّأن في أهل الأهواء والبدع، هل ضلَّ الخوارج في أوَّل الإسلام في باب الأسماء والأحكام إلَّا بفهومهم وأهوائهم الَّتي هجروا بها علماء الصَّحابة واعتزلوهم ثمَّ قاتلوهم؟ هل ضلَّت المعتزلة إلَّا بفهومها يوم أن خرج عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وتركوا أئمَّة أزمنتهم وعصورهم كالحسن وغيره؟ وهل ضلَّت المتصوِّفة إلَّا باتباع منهج اليونان الذَّوقي الرِّياضي وترك أهل الإسلام؟ وهكذا أهل الكلام، وهكذا مَنْ أعرض عن الحق والسَّبيل والصِّراط المستقيم وفَهِم الإسلام في معزلٍ عن آلاته، فلا عنده آلات تُؤهله لفهم هذا الدِّين ولا لمراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى به، بل ذهب إلى التَّحزُّبات وإلى الجماعات وإلى الفِرق وإلى المِلَل وإلى النِّحل وطوَّف في كلِّ المعاهد ولم يدخل معهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتمد على فهمه؛ فهذا هو الضَّلال المبين، وهذا الفهم يُلقيه في المهاوي -مهاوِي البدعة، ومَهَاوِي الرَّدى، ومهاوِي مساوئ الأخلاق-.

يقُول هنَا:«وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ» في كلِّ وادٍ سحيق، ذهبت مع كلِّ أحد، لَم تستفد من هذا العلم، لَم تستفد ممَّا يقودك إليه العلم، لم تُعظِّم النُّصوص، لَم تعظِّم الآثار، لَم تعظِّم اتِّباع الأئمَّة، وإنَّما قَصَرْتَ نَفْسَكَ على نَفْسِكَ، وأخذتَ بكلِّ قولٍ وبكلِّ فعلٍ وبكلِّ اعتقادٍ وأعرضتَ عمَّا أمرك الله به ورسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

❋ ❋ ❋

[1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً وَأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا وَأُعْطُوا سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾) "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ ج٥، ص:١١٩.

[2] تُنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أَضْـــــــرَارُ «الْبَرْمجَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ» وَ «الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ»

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ أَلْقَــاكَ فَهْمُـكَ فِـي مَهَـــاوٍ   فَلَيْتَـكَ ثُـــمَّ لَيْتَـكَ مَـــا فَهِمْتَـــا

هذه نصحيةٌ جليلةُ القدرِ، اعتماد المرء على نفسه، اعتماد المرء على فهمه؛ اليوم تُنشأ المعاهد! في القديم في بداية الدَّعوة وبداية انتشار هذا العِلمِ في هذه العصور -في أرجاء هذه المعمورة- كان أهل العلم وحملته هم العلماء الرَّاسخون في العلم، ولمَّا لَم يَرْضَ طَريقتهم الكثير ممَّن انتسب إلى هذه الدَّعوة أو انتسب إلى العلم وثقل عليه ما عليه العلماء مِنَ التَّقيُّد والارتباط بمنهج السَّلف ذهبوا وأنشأوا مصطلحًا زيَّنوه لأنفسهم وهو مُصطلح: (الصَّحوة) و (شباب الصَّحوة) و (دُعاة الصَّحوة) و (علماء الصَّحوة) الَّذين شهدوا على أنفسهم بأنَّهم كانوا في غفلة وصحوا والنَّاس قد ساروا وذهبوا، واستمرَّ هذا زمنًا لا يعلمه إلَّا الله جَلَّوَعَلَا ولا يزال، ورجع النَّاس إلى علمائهم بعد أن رأوا رسوخهم في العلم، فجاؤوا بمصلح «الفكر» وقالوا: (هَذَا المُفَكِّرُ الإِسْلاَمِي) و (صَاحِبُ الْفِكْرِ الإِسْلاَمِي) و (هَؤُلاَءِ المُفَكِّرُونَ) ولا يُطلقون عليهم «علماء» -كما كان اصطلاح المتكلِّمين أيضًا-، وأرادوا أن يعزلوا الأمَّة والنَّاس عن علمائهم: (لِأَنَّ هَذَا مُفَكِّرٌ)، (لِأَنَّهُ فَاهِمٌ لِلْوَاقِعِ)، (لِأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ مِنْ لَمْسِ جِرَاحَاتِ المُسْلِمِينَ، ومِنْ، وَمِنْ...) -إلى آخره-.

واليوم جاؤوا لنا بنِحلة جديدة وهي محنة المدرِّبين، ما خلصنا مِنَ الصَّحويين إلى المفكِّرين حتَّى تلقَّف شبابنا المُدرِّبون! (هَذَا مُدَرِّبٌ) وش مُدِّرب؟ النَّاس كانوا يعرفون المدرِّب الرِّياضي -مدرِّب على كرة سلَّة أو على كرة طائرة أو على كرة قدم-، مدرِّبٌ رياضيٌّ، لا؛ هذا مدرِّبٌ إسلاميٌّ، يُدرِّب على ماذا؟ على الثِّقة في النَّفس، وعلى ذلك يدندنون «البرمجة» أو ما يسمُّونه بـ: «البرمجة العصبيَّة» وغايتهم أنَّهم يريدون أن يَصِلُوا بهذا المتدرِّب إلى أن يكون واثقًا مِنْ نفسه، وكفى بهذه سوأة، لأنَّه لا يجوز للمسلم أن يثق بنفسه أبدًا، لا يجوز، النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول:«وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي»[1] فالعبد لا يفرح بنفسه حتَّى وإن كان رأى أنَّه فهِم هذه المسألة ولم يفهمها ذاك العالم أو عسرت على غيره، مهما يكن، فلكلِّ مقام مقال، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم، هذه المنظومةُ مَنظومةٌ تَربويَّة عَظيمةٌ جليلةٌ.

[1] حسَّنه الإمام الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٥٨٢٠)؛ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

يقول: «وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ» ما قيَّدك العلم، ما حملك العلم على طريقة أهله «فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمتَا» ما استفدتَ أنتَ، ما استفادتِ الأُمَّة، ما استفادَ جُلساؤُك بهذا الفهم؛ حتَّى صرتَ متكلِّمًا، فيلسوفًا، تُسمِّي نفسك ناقدًا أو صحويًا أو مُفكِّرًا أو مُدرِّبًا -أو ما أشبه ذلك- في معزل.

✷ نحن لا نُحرِّم هذه الأشياء -أو بعضها- إذا لم تخالف الشَّريعة، لكنَّنا نتكلَّم عن الإنسان الَّذي عزل نفسه عن العلماء، عزل نفسه عن أئمَّة الدِّين، عن حملة العلم، وهكذا.

فيقول: «فَلَيْتَكَ» لأنَّ الأُمَّة ما هي مُحتاجة لك، «فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا».

❋ ❋ ❋

عَاقِبَةُ مَنْ تَكَاسَلَ عَنِ الطَّلَبِ

«فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا» لماذا؟ يقولُ بأنَّ هذا الفَهْمَ مِن آثارِهِ أَنْ ذَكرَ النَّاظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال:

سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ العَجْزِ جَهْلاً ... وَتَصْغُرُ فِي العُيُونِ إِذَا كَبُرْتَا

هذا مِنْ ثمارِهِ، وسيأتي الكلام -إن شاء الله تعالى- على هذا البيت وما يتعلَّق به لأنَّ العجز ضد الكيس، والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال في صحيح مسلم: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ**»[1]، فمِنْ ثمارِ العجز ومِنْ ثمار أن يكون الإنسان عاجزًا، كسولًا، ليس ذا همَّة عالية، لا ينظر إلى رفائع الأمور ومعاليها وإنَّما ينظر إلى سفاسفها، فإنَّ مِنْ ثمار هذا العجز: أن يكون جاهلاً.

وَاطْلُبِ العِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا ... أَبْعَدَ الخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الكَسَلْ[2]

وكما قال يحيى ابن أبي كثير: (لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ)[3].

---

[1] رواه مسلم (٢٦٥٥)؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

[2] لامية ابن وردي رحمه الله.

[3] صحيح مسلم.

وَإِذَا كَـانَـتِ النُّـفُـــوسُ كِـبَـــارًا ... تَعِبَــتْ فِــي مُرَادِهَــا الأَجْسَــامُ[١]

قيل للشَّيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهِ عَلَيْهِ -وهو مِنْ أئمَّة هذا العصر، فكيف بأئمَّتنا الَّذين مضوا!- قيل له: (كَيْفَ تَعْمَلُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَاعَةٍ؟) -يعني: سبع عشرة ساعة وأنت تعمل!- فقال: (إِذَا أَحَبَّتِ النَّفْسُ شَيْئًا) -أو بهذا المعنى لعلَّنا نأتي بها في مقام آخر[٢]- (إِذَا أَحَبَّتِ النَّفْسُ شَيئًا لَمْ تَنْظُرْ إِلَى مَتَاعِبِهِ) -أو ما أشبه ذلك-.

وكما جاء مِنْ حديث شدَّاد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي**» والحديث ضعَّفه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[٣].

وفي صحيح مُسلم مِنْ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**الْمُؤْمِنُ القَـوِيُّ خَـيْرٌ وَأَحَـبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَـا يَنْفَعُـكَ، واسْـتَعِنْ بِـاللَّهِ وَلَا تَعْجِـزْ**» -لا تكن عاجزًا-، «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَـلَ**»[٤] ما تكُنْ عاجزًا ودائمًا تنظر إلى الأماني: (كَيْفَ وَصَلَ فُلاَنٌ إِلَى هَذَا الْعِلْمِ؟ كَيْفَ حفظَ؟ كَيْفَ...!) لا تُفكِّر فيه وتُكثر الأفكار، اقتدِ به واسلك طريق العلم، فإذا كنتَ عاجزًا جَنَيْتَ الجهل، وإذا جنَيتَ الجهل قال النَّاظم: «وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ إِذَا كَبُرْتَا» أو «كَبِرْتَا».

_ إذا قلنا: «كَبُرْتَا» -بالضَّم- بمعنى المعنويِّ الَّذي هو الكِبْر، فإذا تكبَّرتَ وتعاليتَ على النَّاس وصرتَ مُتكبِّرًا فإنَّك تصغُر.

_ أو أن يكون هذا الشَّطر راجع على الَّذي قبله ويكون الشَّطر هكذا: «وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ إِذَا كَبِرتَا» يعني صرتَ كبيرًا، ويكون على الأمر الحسيِّ الَّذي هو كِبر السِّن؛ فيقودك الجهل إلى أنَّك حتَّى وإن كبرتَ في السِّن وصرتَ شيخًا ينبغي أن تُجلَّ وأن تُحترمَ وأن تُكرمَ، لكن لصِغَرِكَ في العلم لا يرفعُ النَّاس بكَ رأسًا ولا يُبالُونَ بكَ.

---

[١] لأبي الطيب المتنبِّي.

[٢] ذكروا في سيرته رحمه الله، ما نصُّه: (زَارَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مُورِيتَانْيَا، قَالَ: عَجِبْتُ مِنْ دَأْبِ الشَّيْخِ، وَجَلَدِهِ عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ، وَالْكِتَابَةِ لَهُمْ، وَضِيَافَتِهِمْ، وَالْجُلُوسِ فِي حِلَقِ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِ الطُّلَّابِ، وَمُذَاكَرَةِ الْمَسَائِلِ، قَالَ: فَسَأَلْتُهُ مَرَّةً وَقُلْتُ: سَأَلْتُكَ بِاللهِ يَا شَيْخ وَأَنْتَ قُرْبَ التِّسْعِينَ؛ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَا يُطِيقُهُ أَبْنَاءُ الثَّلَاثِينَ وَالأَرْبَعِينَ؟ فَأَعْرَضَ عَنِّي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً حَتَّى شَدَدْتُ عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ قَائِلًا: سَأَلْتُكَ بِالله يَا شَيْخ، كَيْفَ تُطِيقُ هَذَا كُلَّهُ؟ فَقَالَ: يَا وَلَدِي، إِذَا كَانَتِ الرُّوحُ تَعْمَلُ فَالْجَوَارِحُ لَا تَكِلُّ) المصدر: الموقع الرسمي للشيخ ابن باز رحمه الله.

[٣] "ضعيف سنن الترمذي" للألباني رحمه الله (٢٤٥٩)

[٤] رواه مسلم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

* * *

فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْجَاهِلِ

ثمَّ قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ... وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدْتَا

وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ... إِذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا ... وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا

فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ... وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

لا يزال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يتكلَّم على علاقة المتعلِّم بالعلم وأثر العلم على صاحبه، وأنَّ العلم -كما يقولون- يتجاوز بصاحبه الحدود، فإذا كان الإنسان يظنُّ أنَّ العِلم إنَّما يبقى ما بقيَ هو حيًّا فقد أخطأ الطَّريق، وذلك أنَّ مِنْ شَرَفِ العلم أن يذهب صاحبه ويبقى أثرُه في النَّاس، فيبقى هذا العالِمِ بذكره وفضله؛ فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ... وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدْتَا

فالنَّاس قسمان عند النَّاظم: عالِمٌ وجاهلٌ، وهذا هو حالُ النَّاس في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأنَّ الله قال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣] فجعل الرَّب النَّاس: عالِمين وجاهلين، ثمَّ إنَّ هذا العالِمِ يبقى ذكره بعد موته، والجاهل يُفقد وهو في حياته لأنَّه إنَّما النَّاس بالعِلم، وقد رَوى الإمام مُسلم في صحيحه مِنْ طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرَّحمن عن أبيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1] الشَّاهد منه قوله: «**أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ**» مع قوله: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ**» والإنسان إنَّما هو حيٌّ ببقاء علمه فإذا ذهب علمه مات على الحقيقة، فما بقيَ له عملٌ في الدُّنيا يجري عليه ثوابُهُ فإنَّه لا يزال حيًّا، يدلُّ على هذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[الفجر:٢٤] فالحياة الحقيقية المتَّصلة بالآخرة هي لمن أبقى شيئًا مِنَ العمل في الدُّنيا يجري عليه ثوابهُ في الآخرة، وقد جاءت جملة مِنَ الأعمال عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمعها بعض أهل العلم في

[1] رواه مسلم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مصنَّفات -ليس هذا محلاً للكلام عليها-.

الشَّاهد أنَّ أهل العلم يَبقَوْن ببقاء عُلومهم حتَّى وإن ماتوا، ولهذا جاء في وصية علي ابن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لكُمَيْل بن زياد -وهي وصيَّةٌ عظيمةٌ جدًّا، اعتنى بها العلماء وشرحوها وأفردوها بمصنَّفات كالسَّفاريني- قال فيها عليٌّ ابن أبي طالب لكُميل بن زياد: (العِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ مَمَاتِهِ)[1] أراد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ هذا العلم مع ما فيه مِنَ الفضائل فإنَّه يُكسب صاحبه الطَّاعة في الدُّنيا -كما مرَّ معنا في بداية النَّظم-:«مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا»، ويُكسبُهُ بعد موته جميل الأحدوثة، بمعنى أنَّه يكون حديثًا حسنًا للنَّاس بآثاره وما تركه مِنَ العلم، أكان ذلك في طلاَّبه والَّذين حملوا العلم عنه أو كان ذلك فيما صنَّفه وكَتبه، وفي هذا العصر أيضًا فيما سجَّله فإنَّ مثل هذه الوسائل ممَّا تُعين العبد وتُعين العالِمَ على نشر علمه وبقائِه في النَّاس، هذا فضلٌ عظيم امتنَّ الله به على عباده.

وفي قصيدة علي ابن أبي طالب المنسوبة إليه وهي مشهورة، قوله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -الَّتي قال في مطلعها-:

النَّـاسُ مِـنْ جِهَـةِ التِّمْثَالِ أَكْفَـاءُ	أَبُـوهُـــمُ آدَمٌ وَالْأُمُّ حَـــوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِـنْ أَصْلِهِمْ نَسَـبٌ	يُفَـاخِرُونَ بِــهِ فَـالطِّينُ وَالْـمَاءُ
لَا فَضْـلَ إِلَّا لِأَهْـلِ العِلْـمِ إِنَّهُـمُ	عَـلَى الهُـدَى لِمَـنِ اِسْـتَهْدَى أَدِلَّاءُ

إلى أن قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

فَفُـزْ بِعِلْـمٍ تَعِـشْ حَيًّـا بِـهِ أَبَـدًا	فَالنَّاسُ مَوْتَـى وَأَهْـلُ الْعِلْمِ أَحْيَـاءُ

وهذه هي الحقيقة، فأنتَ إذا نظرتَ إلى تأريخ الأُمَّة -وتأريخ الأُمم حتَّى في غير المسلمين- تجد أنَّه لم يبق الذِّكر إلَّا لمن حمل العلم، وتجد أنَّه يتعاصر في الطَّبقة الواحدة ثلاثة أصنافٍ مِنَ النَّاس لهم الوجاهة -يعني الَّذين يُذكرون في حال حياتهم-:

_ الملوك.

_ والعلماء.

_ والتُّجار.

ولكنَّه لا يبقى ذكرٌ لأحد بعد الممات إلَّا لأهل العلم، وقلَّ أن يُذكر أهل المُلك أو التِّجارة إلَّا لبعض المميِّزات الَّتي

[1] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ ج١، ص:٨٠.

فيهم، ولذلك العلم الَّذي يُكسب الفضائل هو الَّذي يبقى ذِكر صاحبه، ولهذا قال القائل:

وَمَـــا دَامَ ذِكْـرُ الْمَـرْءِ بِالْفَضْلِ بَاقِيًـا ... فَذَلِكَ حَـيٌّ وَهُـوَ فِـي التُّرْبِ هَالِـكٌ

لماذا؟ لأنَّ العلم هو الَّذي يُكسبك الفضائل (وَمَادَامَ ذِكْرُ الْمَرْءِ بِالْفَضْلِ بَاقِيًا) الفضائل والأخلاق والعمل بالعلم، (فَذَلِكَ حَيٌّ وَهُوَ فِي التُّرْبِ هَالِكٌ) حيٌّ بذكره لما يذكرهُ النَّاس ويذكرون فضائله ويذكرون علمه؛ ولهذا قال الآخر:

قَدْ مَاتَ قَـــوْمٌ وَمَا مَاتَتْ فَضَائِلُهُمْ ... وَعَاشَ قَـــوْمٌ وَهُـمْ فِي النَّـاسِ أَمْوَاتُ

والآخر يقول:

وَفِـي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُـــمْ قَبْـلَ الْقُبُـورِ قُبُـــورُ

وَأَرْوَاحُهُمْ فِـي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِـمْ ... فَلَيْـسَ لَهُـمْ حَتَّـى النُّشُـورِ نُشُـورُ

هذه الحقيقة هي الَّتي يُريد أن يُوصلك إليها الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حثًّا لك على معرفة العلم ومعرفة فضله وأنَّ الإنسان مُحتاج للعمل ولن يطول عمره، ولو طال ما عُمِّر نوح عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنَّه سينقضي عمره إلَّا أهل العلم، فإنَّ أهل العلم الَّذين اكتسبوا الفضائل يبقى لهم علمهم.

والأبياتُ في هذا كثيرةٌ، الأبيات الَّتي أعرضنا عنها أكثر مِنَ الَّتي ذكرنا في تبيين وتأصيل هذه القضية.

وهو يقُول:«وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ» أنت في النَّاس تمشي كما يمشون، وتأكل ما يأكلون، وتشرب ما يشربون، «وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَلَوْ فُقِدْتَا» ذهب بدنُكَ وصرتَ ميتًا في عداد الأموات، لكن لا تجلس مجلسًا إلَّا وتجد النَّاس مِنْ بعدك يذكرونك بعلمك، كما هو الحال والشَّأن في الأئمَّة المتقدِّمين والمتأخِّرين، فإنَّ مجالس أهل العلم ومجالس أهل الدِّين ومجالس أهل الصَّلاح عامرة بذكرهم، مِنْ طبقة الصَّحابة وطبقة التَّابعين ومَنْ بعدهم، يذكرون مالكًا والشَّافعيَّ وأحمد، ويذكرون مَنْ جاء بعدهم كشيخ الإسلام ابن تيمية ويذكرون ابن القيِّم ويذكرون ابن عبد الوهَّاب، وفي هذا العصر يذكرون ابن عثيمين وابن باز -إلى غيرهم مِنْ أئمَّة الدِّين والسُّنَّة-، وهذا فضلٌ مِنَ الله يُؤتيه مَنْ يشاء، فالنَّاظم يُنبِّه إلى هذه القضية، وهي قضية مُهمَّة كَوْن الإنسان يبقى عمله وقد ذهب ذاته ويجري عليه ثوابه بعد موته، أيُّ فضلٍ أعظم مِنْ هذا؟ فتأتيه الحسنات، ناهيك عن أنَّ النَّاس وهم ينتفعون بعلمه يستفيدُ الأجر والثَّواب، ومع هذا فإنَّ مِنْ حقوق العالِم على النَّاس الَّتي يعرفها أهل العلم وحملته بعدهم: أنَّهم لا يَذكرون العالِم إلَّا بالدُّعاء، فيترحَّمون عليه ويُثنون عليه الخير ويشهدون له بالصَّلاح، ولو لَم يكن إلَّا أنَّهم يترحَّمون

عليه لكان ذلك كافيًّا، حتَّى أنَّ الإمام أحمد جاء عنه بأسانيد صحيحة أنَّه قال: (مَا بِتُّ مُنْذُ ثَلاثِينَ سَنَة إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو لِلشَّافِعِيِّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ)[1] رَحِمَهُمَاللَّهُ، وهذا كثير، إنَّما ذكرنا هذا مِنْ باب التَّمثيل والاستئناس وإلَّا فإنَّك لو نظرت في تراجم الأئمَّة تجد أنَّهم يذكرون مثل هذا الدُّعاء، حتَّى قال أبو حاتم وجاء عن جماعة حتَّى مِنَ الصَّحابة كالبراء بن عازب وغيره رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أنَّهم ما كانوا يُصلُّون أو يسجدون أو يقفون في مقام تُرجى فيه إجابة الدَّعوة إلَّا ودَعَوْا لعلمائهم، وهذا فضلٌ عظيمٌ مع ما يَستفيده العالِمِ مِنْ انتشار علمه واستفادة النَّاس مِنْ علمه، أيضًا الَّذين جاؤوا مِنْ بعده يترحَّمون عليه.

❋ ❋ ❋

تَقَبُّلُ النُّصح

ثُمَّ قال رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى:

وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ... إِذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا

هو ينبِّهك على أنَّ الشَّأن ليس في القول، ومِنْ بديع ما يُقال في مثل هذا الباب ما قاله بعض العلماء: (النَّصِيحَةُ سَهْلَةٌ، وَلَكِنَّ الصَّعْبَ قَبُولُهَا) والقبول فيه انشراح الصَّدر وفيه العمل بها، فهو يقول:«وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ».

«بَعْدَ حِينٍ» لكن الله أعلم بهذا الحين، فقد يكون هذا الحين عند غرغرة الرُّوح وقُرب الأجل فلا ينتفع الإنسان بشيءٍ، وقد يكون هذا الحين مُتقدِّمًا على هذا ولكنَّه فات على الإنسان شيءٌ كثير ضيَّع فيه وفرَّط.

«بَعْدَ حِينٍ» هذا فيه نوعٌ مِنَ التَّهديدِ، فيه نوعٌ مِنَ التَّنبيهِ، مِنَ التَّقريعِ، هو يقول له:«وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ» متى هذا الحين؟ ربَّما يكون هذا الحينُ حينَ لا ينفع ندم ولا ينفع استدراك.

وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ... إِذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا

[1] "وفيات الأعيان" لابن خلكان رحمه الله؛ ص: ١٦٤

فإذا عملتَ بهذا النُّصحِ الَّذي قدَّمته لكَ –والَّذي سيأتي ممَّا تستقبله– ستذكُرُ قيمة هذه النَّصيحة، وستذكر فضلها ومكانتها وأنَّها كانت لكَ بمثابة النُّور والحياة الَّتي لا يُمكن أن تستغني عنها.

«وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ» لكن متى؟ «إِذَا حَقًّا بِهَا يَوْمًا عَمِلْتَا» هل لأنَّ الألبيري هو قائلها؟ لا؛ لكن لأنَّ العِلْم هو الحاكم بها، النُّصوص مِنَ الكتاب والسُّنَّة، هذا أثرُ العلم، كما ذكرنا في مجالس مُتقدِّمة كلام ابن بطَّة[1] وكلام الآجريّ[2] وكلام ابن القيِّم[3] رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في أنَّ طاعة أَهْل العِلْم وَاجِبة ومَعصيَّتُهم مُحرَّمة، لِمَ؟ لما يقضون به مِنَ العلم والحكمة الَّتي إمَّا أن تكون منصوصة في كتاب الله وفي سُنَّة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو تكون ممَّا استنبطوه وفتح الله به عليهم.

وَتَذْكُــرُ قَوْلَتِــي لَكَ بَعْــدَ حِيــنٍ	إِذَا حَقًّــا بِهَــا يَوْمًــا عَمِلْتَــا
فَــإِنْ أَهْمَلْتَهَــا وَنَبَــذْتَ نُصْحًــا	وَمِلْــتَ إِلَــى حُطَــامٍ قَــدْ جَمَعْتَــا

هنا يقول إن أهملتَ ما قدَّمتُهُ لكَ –وما سيأتي ممَّا سأذكره–، «وَنَبَذْتَ» يعني طرحتَ النُّصح، النَّبذ معناه الطَّرح واللَّفظ (نَبَذَ الشَّيءَ)، فلم تلتفت إلى هذه النَّصائح ولم تلتفت إلى هذه التَّوجيهات ولم ترفع بها رأسًا.

«وَنَبَذْتَ نُصْحًا» هنا نكَّر، مِثْلُ هذا نحن نستأنس بالوجوه البلاغية وإلَّا فإنَّ النَّظم أحيانًا يكون هو الحاكم، ولكن الألبيري كان مِنْ بُلغاء الشُّعراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن كان ليس مِنَ القرون المستشهد بها، لكنَّه يقول لك هذا المعنى المنكَّر: لا ينبغي لك أن تنبذ أيَّ نصحٍ مهما كان، لأنَّه يعُمُّ، التَّنكير عمومٌ حتَّى وإن كان في سياق الإثبات –على خلافٍ بين الأصوليين والبلاغيين فيما يتعلَّق بالنَّكرة في سياق الإثبات–.

يقول لك:«فَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا» أيَّ نصحٍ، الإنسان ينصحك بأداء شيءٍ يسير، سهل، قد لا يكون فيه مِنَ الأجر ما هو كبير، لكنَّه أجرٌ وفضلٌ مِنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فلاَ تنبذه حتَّى إذا كان هذا مِنَ الأشياء الكمالية الَّتي يحسن بها نوعٌ مِنْ خُلقك أو أدبك –أو ما أشبه ذلك– فلا تنبذهُ.

---

[1] قال ابن بطَّة رحمه الله: (طَاعَتُهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ وَاجِبَةٌ وَمَعْصِيَتُهُمْ مُحَرَّمَةٌ مَنْ أَطَاعَهُمْ رَشَدَ وَنَجَا وَمَنْ خَالَفَهُمْ هَلَكَ) "إبطال الحيل"، ص:٥٦.

[2] قال الآجري رحمه الله –عند ذكره لمقام العلماء–: (هُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْعُبَّادِ، وَأَعْلَى دَرَجَةً مِنَ الزُّهَّادِ، حَيَاتُهُمْ غَنِيمَةٌ، وَمَوْتُهُمْ مُصِيبَةٌ، يُذَكِّرُونَ الْغَافِلَ، وَيُعَلِّمُونَ الْجَاهِلَ، لَا يُتَوَقَّعُ لَهُمْ بَائِقَةٌ، وَلَا يُخَافُ مِنْهُمْ غَائِلَةٌ، بِحُسْنِ تَأْدِيبِهِمْ يَتَنَازَعُ الْمُطِيعُونَ، وَبِجَمِيلِ مَوْعِظَتِهِمْ يَرْجِعُ الْمُقَصِّرُونَ، جَمِيعُ الْخَلْقِ إِلَى عِلْمِهِمْ مُحْتَاجٌ، وَالصَّحِيحُ عَلَى مَنْ خَالَفَ بِقَوْلِهِمْ مِحْجَاجٌ، **الطَّاعَةُ لَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَاجِبَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ لَهُمْ مُحَرَّمَةٌ**) "أخلاق العلماء" ص٦.

[3] قال ابن القيِّم رحمه الله: (حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾) "إعلام الموقعين"؛ ج١، ص:٨.

«فَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا... وَمِلْتَ» تجنَّبت وجنحت «إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا» حُطامُ الشَّيءِ -الشَّيءُ المتحطِّمُ-: حطامُ الحطبِ، حطامُ الزُّجاجِ، شيءٌ محطَّمٌ لا يُمكن أن يجتمع لك حتَّى تُكوِّن منه شيئًا أو هيئةً أو شيئًا فيه مصلحة، هو في حقيقته الآن موجود أمامك لكن ما الَّذي يؤول إليه أمره؟ أنَّه حُطام.

«وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا» النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ قَدْ ضُرِبَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرْ إِلَى مَا يَصِيرُ**»[1] -والحديث في «صحيح الجامع» للعلاَّمة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، هذا مثلٌ عجيبٌ؛ الطَّعام الَّذي يأكله الإنسان يضعُ عليه التَّوابل والبهارات والأملاح مِنْ أجل أن يُزيِّنه ويُحسِّنه، ما مآله؟ «**فَانْظُرْ إِلَى مَا يَصِيرُ**» ولم يذكر النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما يصير إليه لأنَّه شيءٌ معلومٌ يعلمهُ كلُّ البشر وغير البشر.

«وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا» والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيكرِّر هذا المعنى عندما سيذكر المال والمقارنة بينه وبين العلم:

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلاً ... لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الوَحْيِ بَوْنٌ ... سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا

وذكر هذا المعنى في أكثر مِنْ موضعٍ، سنُرجئُ الكلام عليه إلى المقارنة بين المال وبين العلم.

❋ ❋ ❋

حَسْرَةُ الْفَوْتِ

«وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا» ما الأمر الَّذي سيصل إليه بعد ذلك؟ قال:

فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ... وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

إذا أهملتَ النَّصيحة ونبذتها ووصلتَ إلى مرحلة لا يسعك أن ترجع فيها -كما يقولون- إلى الوراء ولن يستطيع ذلك أحد مِنَ النَّاس، حتَّى قيل لبعض السَّلف: (قِفْ أُكَلِّمكَ) قال: (أَمْسِكِ الشَّمْسَ)[2] وهذا أيضًا كثير عنهم -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَحِمَهُمْ-، وهنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن يُؤكِّد هذا المعنى.

[1] حسَّنه الإمام الألباني في "صحيح الجامع" (٢١٩٥)، من حديث أُبَي بن كعب ﷺ.

[2] "صيد الخاطر" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:٥٠٥، عن عامر بن عبدالله رحمه الله.

«فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا» أصل النَّدمِ حسرةُ القلب ولَوْعَتُهُ، ومحلُّه القلب كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلَّا أنَّ اليدين أكثر تعبيرًا عن هذا النَّدم والحسرة الواقعة فيه -يعني في القلب-، ولهذا ذكر الله هذا المعنى في موضعين من كتابه:

_ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصَّة الرَّجلين في سُورة الكهف: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[الكهف:٤٢] مِنْ طبيعة ابن آدم أنَّه إذا خسر شيئًا وتحسَّر عليه قَلْبُه عبَّر عنه بيديه فيصير يُقلِّب ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ حسرةً وندمًا ولوعةً، ذكر الله هذا في أمور الدُّنيا.

_ وفي أُمور الدِّين ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في التَّحسر على اتِّباع النَّبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ﴾ -هذا هو الحسرة- ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[الفرقان:٢٧-٢٨].

وهنا النَّاظم قال: «فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا» والعضُّ حقيقةً ليس كما يقول بعض المفسِّرين وبعض الشُّراح أنَّه كناية عن شدَّة النَّدم والحسرة؛ لا، حتَّى الإنسان إذا نظرتَ إليه أحيانًا تجد أنَّه بمجرَّد النَّدم يعضُّ على أصابعه، طبيعة في الإنسان، وتقليب الكفَّين أيضًا هو على حقيقته، والله عَزَّ وَجَلَّ هنا لم يذكرْ الأنامل والأصابع بل قال: ﴿يَعَضُّ﴾ هذا متى؟ في الآخرة، وأمور الآخرة غيبٌ لا يعلمه إلَّا الرَّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

«فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا» لكن «وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا؟» هل يُغني الإنسان أن يندم وأن يتحسَّر وأن يتكلَّم بهذا النَّدم وبهذه الحسرة؟ لا يُغنيه، إلَّا إذا كان مرحلة انتقالية بين الخير والشَّر، لماذا؟ لأنَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال كما في مسند الإمام أحمد مِنْ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**إنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، ولِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**»[1] وفي رواية: «**إِلَى بِدْعَةٍ فَقَدْ ضَلَّ**»[2] والحديث في «الصَّحيح المسند» لشيخنا مُقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

«**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، ولِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ**» هذه الفترة -إن صحَّ التَّعبير- يُقال فيها: فترة انتقالية، فيفتر الإنسان، لكن بعد هذه الفترة وهذا الفتور إلى أين يكون مآله؟ إن كان إلى رجوع إلى الأحسن وإلى سُنَّة النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهذا هو الهُدى والخير، وإن كان إلى غير ذلك فقد ضلَّ.

[1] قال الشيخ أحمد شاكر في "مسند أحمد" (٦٧٦٤): إسناده صحيح.

[2] قال ﷺ: (إنَّ لِكُلِّ عُمُرٍ شِرَّةٌ، ثُمَّ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى بِدْعَة فَقَدْ ضَلَّ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدِ اهْتَدَى) صحَّحهُ الشَّيخ مُقبل الوادعي رحمه الله في "الصَّحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (١٤٨٦) عن رجل من الأنصار ﷺ.

وهنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ ... وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

لكن النَّدامة قد تُغني، لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيضًا يقول: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[1] النَّدم هو مرحلةٌ ابتدائية للتَّوبة، حسرةُ القلب وتَلَوُّعُهُ هذا نوعٌ مِنَ التَّوبة، وأمَّا إذا كان الإنسان في مرحلةٍ لا ينفعه فيها النَّدم فهذا ما يزيدهُ إلَّا ألَمًا وحسرةً ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠] وأيضًا في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[الفجر:٢٥-٢٦].

وهذه المعاني الَّتي زَبرها وصَاغها وسَاقها الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ معانٍ جليلة، عظيمة، وكلُّها كما تَرَون مع قلَّة التَّركيز والقصور في فهم معانيها إلَّا أنَّها احتوت شيئًا كثيرًا مِنَ التَّنبيه على ما يسلكه الإنسان في العلم وعلى حقوق العلم.

❋ ❋ ❋

ٱلْعِلْمُ سَبِيلُ ٱلرِّفْعَةِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ ... وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

متى يأتي هذا العضُّ على الأصابع مِنَ النَّدم؟

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ ... قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفُلْتَا

وذلك أنَّه -كما مرَّ معنا- فإنَّ مِنْ أعظم أسباب الرِّفعة في الدُّنيا وفي الآخرة: العلم، وأهلُ العلم هم أهل الرِّفعةِ، كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١] المؤمنون أهل رفعةٍ وعلوٍّ، ولهذا قال سُبحانه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩]، وهنا قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ ومِنَ الَّذين آمنوا:

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح ابن ماجه" (٣٤٤٨)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

الَّذين أوتوا العلم، فهؤلاء يرفعهم درجاتٍ فوق درجاتِ الَّذين آمنوا، وهكذا تُفهم هذه الآية، يعني أنَّ أهل الإيمان لهم رفعة إلَّا أنَّ مَن اتَّصف بصفةٍ زائدةٍ على الإيمان وهي «العلم» فإنَّه يرتفعُ فوق درجةِ أهل الإيمان، هذا أيضًا كقوله سبحانهُ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[البقرة:٢١٢] يعني والَّذين اتَّقوا مِنْ أهل الإيمان فوقهم يوم القيامة.

مرَّ معنا أيضًا ما جاء في صحيح مسلم في حديث عبد الرَّحمن بن أبزى، لـمَّا لقيَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نافع بن عبد الحارث بعُسفان، واستعماله لابن أبزى، فسأله: (مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ)[1]؛ كذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[يوسف:٧٦] قال مالك بن أنس إمام دار الهجرة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن زيد بن أسلم –وعامَّةُ ما يأخذه مالك مِنَ التَّفسير فإنَّه يأخذه عن زيد بن أسلم–؛ أنَّه قال: (﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ قال: بِالْعِلْمِ)[2].

وكذلك ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصَّة بني إسرائيل: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[البقرة:٢٤٦] كانوا لا يظنُّون أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيبعث طالوت ملكًا، حتَّى قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٤٨] فبدأ بالمُلك أنَّ سببه هو العلم.

فهو يقول: «إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ» الَّذين صحبوك وزاملوك، «فِي سَمَاءٍ» قد صاروا مُرتفعين، لأنَّ لفظ «السَّماء» يُراد به العلوّ –كما مرَّ معنا في الواسطيَّة–، أنَّ السَّماء تُطلق على العُلوِّ؛ يعني إذا أبصرت صحبك في علوٍّ «قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفُلْتَا» وهذا حال الإنسان أنَّه:

_ إمَّا أن يكون في عليِّين.

_ وإمَّا أن يكون في أسفل سافلين أو في السَّافلين –عياذًا بالله–.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[التين:١-٦] فالجهل مِنْ أعظم الأسباب المورثة لأنْ يكون الإنسان

---

[1] رواه مسلم (٨١٧).

[2] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٦١٩.

في أسفل سافلين، لأنَّه إذا جهل عمل كلَّ الأعمال، ولم يَكف عن أيِّ عمل ممَّا يُشان به صاحبه.

فهو يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى بأنَّك ستعضُّ أصابع النَّدم إذا جاء الوقت الَّذي ترى فيه أصحابك وأقرانك ومَنْ زاملُوك قد ارتفعوا عليك وقد سفلت، فصرتَ محتاجًا إليهم في أقلِّ أُمورك: استشارةً، وسُؤالًا، وتعلُّمًا. وهذا لا شكَّ أنَّ أصحاب الهمم العليَّة وأصحاب العقول الزَّكيَّة لا يرضون بهذه المنزلة، ولهذا يعضُّون أصابع النَّدم عليها، متى هذا؟ كما قلنا:

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفُلْتَا

❋ ❋ ❋

التَّحْذِيرُ مِنَ الْكَسَلِ

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَى فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا

هنا قال –انتبه–: «فَرَاجِعْهَا» ما هي؟ النَّفس، راجع النَّفس، ما دُمتَ تتنفَّس فمعك فيها سعة.

فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَى فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا

يقول: راجع النَّفس، حاسبها، وأقبل عليها، لماذا؟ لأنَّك لا تُدرك هذه الرِّفعة وهذه المنزلة بالهُوَيْنَى وبالبطء، لأنَّ الإنسان إذا تبطَّأ عن العمل لم ينفعه نسبٌ ولا منصبٌ ولا مالٌ ولا جاهٌ، مِصداقُ هذا ما جاء في الصَّحيح عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[1].

فهو يقول: لا تُدرِك المنازل العليَّة بالبطء، ولكنَّما تُدركُها بالجدِّ والاجتهاد.

هو أراد هنا الجدَّ والاجتهاد ولم يرد السُّرعة في التَّحصيل، لماذا؟ لأنَّه قد مرَّ معنا أنَّ السَّلف كانوا يَنهوْن عن سُرعة التَّحصيل في العلم، كما جاء عن محمَّد بن شهاب الزُّهْريّ فيما رواه عنه الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ النّمريّ

[1] رواه مسلم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الجامع»، أنَّه كان يقول: (مَنْ رَامَ الْعِلْمَ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً)[1]، وكما قيل:

الْيَـــــوْمَ شَـيْءٌ وَغَـــــدًا مِـثْلُــــهُ   مِـنْ نُخَـبِ الْعِلْـمِ الَّتِـي تُلْتَقَـطْ
يُحَصِّـــلُ الْـمَـــــرْءُ بِهَـا حِكْمَـــةً   وَإِنَّمَـا السَّيْــلُ اجْتِمَــاعُ النُّقَــطْ

ففرقٌ بين النَّهيِ عن الإسراع في العلم مِنْ جهةِ التَّحصيل وبين الأمر بالإسراع في تحصيله قبل ذهاب وقته.

فكون الإنسان يأخذ العلم شيئًا فشيئًا فهو مُجِدٌّ ومجتهدٌ ولم يتباطأ عنه، فإذا أسرع فيه وقطع وِدْيانه انقطع به، وكما جاء في بعض الآثار -وبعضهم يرويه مرفوعًا ولكنَّه لا يصح-: (إِنَّ الْمُنْبَتَّ) يعني الْمُسرع الَّذي لا يلتفت إلى شيءٍ (إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى)[2] الَّذي يُعاجل الأمور يُفسد ظهره، ما المراد بالظَّهر؟ مركُوبه -يعني ناقته الَّتي معه-، وهو أيضًا لا يقطع الأرض الَّتي يُريد أن يقطعها.

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا» ومرَّ معنا في قول النَّاظم: «فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ» جُملةٌ مِنَ الكلام والآثار عن السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، حتَّى قيل لابن المُبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إِلَى مَتَى تَطْلُبُ الْعِلْمَ؟ قَالَ: حَتَّى الْمَمَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)[3]، وقيل له مرَّة أخرى مثلُ ذلك فقال: (لَعَلَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَنْفَعُنِي لَمْ أَكْتُبْهَا بَعْدُ)[4]، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَعَ الْمِحْبَرَةِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ)[5] كانوا يحرصون على سماع العلم والمواظبة عليه والجدِّ والاجتهاد فيه غاية الحرص.

بعض الأبياتِ فيها نوعٌ مِنَ التَّشابهِ، قد مرَّ معنا الكلام عليها.

❋ ❋ ❋

---

[1] "جامع بيان العلم وفضله"، لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٤٣١.
[2] "خُلاصة الأحكام" للنووي رحمه الله (٢٠٤١) ج١، ص:٥٩٨.
[3] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٤٠٦.
[4] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٤٠٦.
[5] قَالَ صَالِح بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل: (رَأَى رَجُلٌ مَعَ أَبِي مِحْبَرَةً، فَقَال لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ هَذَا الْمَبْلَغَ، وَأَنْتَ إِمَامُ الْمُسْلِمِين. فَقَالَ: مَعَ الْمِحْبَرَةِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ) "مناقب أحمد" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:٣٧.

رَأْسُ مَالِ الْمَرْءِ عِلْمُهُ

ثمَّ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَا تَخْتَــــــلْ بِمَالِــكَ وَالْــهُ عَنْــهُ ... فَلَيْـسَ الْمَــالُ إِلَّا مَــا عَلِمْتَــا

وفي نُسخة:«وَلَا تَحْفَلْ بِمَالِكَ».

• «وَلَا تَخْتَلْ» مِنَ الاختيال، والاختيال مأخوذٌ مِنَ الخيال وهو التَّخيُّل الَّذي يتخيَّله الإنسان على غير حقيقته، ولهذا يُسمَّى مَنْ نزَّل نفسه غير منزلتها بـ: «المختال»، لأنَّه نزَّلها منزلةً مِنَ الخيال، هو تخيَّل أنَّ هذه منزلته، لهذا نهى الله عَزَّوَجَلَّ في آياتٍ كثيرة عن الاختيال –أن يختال الإنسان–، لماذا؟ لأنَّه يُنزل نفسه منزلةً هي ليست له، هذا ضربٌ مِنَ الخيال، فهو يقول:«وَلَا تَخْتَلْ» مِنَ الاختيال، «بِمَالِكَ» وتظنّ أنَّ مَنْ حصَّل المال فقد حصَّل كلَّ شيءٍ في الدُّنيا، وهذا مقياس أهل الدُّنيا.

والمال مِنْ أعظم الفتن الَّتي تصرف طالبَ العِلْمِ عَنِ الْعِلْمِ، ولن نتكلَّم عنه في هذا المجلس، وقُلنا سنتكلَّم عليه –إن شاء الله– لأنَّ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كرَّرهُ في مواضع، ولكنَّ أنسب المواضع له قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

جَعَلْـتَ الْمَـالَ فَـوْقَ العِلْمِ جَهْـلاً ... لَعَمْرُكَ فِـي القَضِيَّةِ مَـا عَدَلْتَــا

وَبَيْنَهُمَــا بِنَــصِّ الوَحْــيِ بَـوْنٌ ... سَـتَعْلَمُــهُ إِذَا طَــهَ قَـرَأْتَــا

• وفي النُّسخة الأُخرى:«وَلَا تَحْفَلْ» تحفل: مِنَ الاحتفال، وهو انتشاء الإنسان بالشَّيء الَّذي عنده، كما يُقال: (هَذَا احْتِفَالٌ) أو (هَذَا مَحْفَلٌ).

فهو يقولُ: لا تحفلْ أو لا تختلْ بمالِكَ الَّذي تموَّلتَهُ. والمال ليس المراد به النَّقدين –الذَّهب والفضَّة أو ما قام مقامهما مِنَ الورق–، وإنَّما المال عند أهل اللُّغة وفي العُرف الشَّرعي: هو كلُّ ما تموَّله الإنسان أكان عقارًا أم دراهمًا، أكان ذهبًا أم فضَّةً، فكلُّ ما تُمُوِّل فهو يُسمَّى مالًا.

فهُو يقُول:«وَلَا تَخْتَلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ» هذا مِنْ أعجب ما أوصى به الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لماذا؟ لأنَّه قلَّ أن يُوجد –لَوْ وُجدَ– أحدٌ يَلهو عن المال، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في كتابه الكريم:﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[الفجر:٢٠]، وقال

جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات:٨]، ومع هذا فقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن أن يُغرِق الإنسان في المال إذا كان هذا سيصرفه عن أمور دينه وآخرته.

وهذه العلاقة وهذه الصِّلة بين أمور المال وأمور الدِّين أيضًا سنذكرها في البيت الَّذي تقدَّم، لماذا؟ لأنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال فيما يرويه عن ربِّه –وكان هذا يُتلى قرآنًا–: «**إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...؛ وَلَا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»[1].

فهُو يقُول: «وَلَا تَخْتَلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ» ولهذا مِنْ عجائب هذه المنظومة أنَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا تكلَّم على الدُّنيا قال:

وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

وبهذا يُفهم هذا البيت «وَالْهُ عَنْهُ»:

وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

يُفهَم اللَّهو عَنِ المال وهدم الدُّنيا إذا كان هذا هو الحِصْن الَّذي يتحصَّن به دينك «وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا».

«فَلَيْسَ الْمَالُ» هذا –كما قلتُ لكم– بأنَّه الشَّيء الَّذي تموَّل الإنسان، يعني يحتويه، يصير مالًا.

«فَلَيْسَ الْمَالُ إِلَّا مَا عَلِمْتَا» فالمال حقيقة الَّذي يتموَّله الإنسان: هو العِلم، وأشرف ما يؤتاه الإنسانُ العلم، وهو العلم الشَّرعيُّ، العلم الَّذي لا قيد له، ولا قيد لمن اتَّصف به، قالوا: (هذا عالِمٌ) فلا يُراد به إلَّا عالِمَ الشَّريعة، أمَّا إذا وُصف بالعلم في غير علم الشَّريعة فإنَّه يُؤتى فيه بالقيد: (عالم كيمياء، عالم طب، عالم فيزياء، عالم تكنولوجيا) أمَّا إذا قيل: (هذا عالِمٌ) فإنَّ العُرف الذِّهنيّ والشَّرعي واللُّغوي ينصرف إلى عالم الشَّريعة، العالم بكتاب الله وبسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهو يقول لكَ: ليسَ المال الحقيقيُّ الَّذي تتموَّلهُ إلَّا ما علمتَ.

❋ ❋ ❋

---

[1] (إِنَّا أَنْزَلْنا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ لَأَحَبَّ أنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "السِّلسلة الصَّحيحة" (١٦٣٩) من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْجَهْلُ وَقَبِيحُ أَثَرِهِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنًى ... وَلَوْ مُلْكُ العِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى

«وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ» لاحظ! هنا مع الهال يقول:«وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنًى»، وفي نسخة:«مُغْنٍ» بهذا وبهذا: «مَعْنًى» في الحقيقةِ أو «مُغْنٍ» يُغني عنه، «وَلَوْ مُلْكُ العِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى».

«لَيْسَ لِجَاهِلٍ» الجاهل الَّذي لم يتعلَّم العِلْمَ ولم يُميِّز بالعلم بين صحيح الأمور وفاسدها، وحقِّها وباطلها، وخيرها وشرِّها، ليس له معنى في النَّاس أو ليس له مغنٍ يُغني عنه، وما الغَناء في أن يكون الإنسان جاهلاً ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الرعد:١٩]، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الملك:٢٢] فليس للجاهل لا معنى ولا ما يُغني عنه حتَّى ولو مَلَكَ العِراق «وَلَوْ مُلْكُ العِرَاقِ لَهُ تَأَتَّى».

- **تقول: لماذا ذكر العراق؟!**

لأنَّ خلفاء بني العبَّاس –والَّذي امتدَّت خلافتهم– اتَّخذوا بغداد عاصمة لدولة الخلافة، وبغداد هي حاضرة العالَم الإسلامي في ذلك الزَّمان ومحط أفئدة العلماء مع أنَّ كثيرين منهم كان يكره الإقامة فيها بل ينهى عنه[١]، قد جاء عن بعض السَّلف عندما سُئل عن إقامة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بها أنَّه قال: (دَفَعَتْنَا الضَّرُورَةُ إِلَى الْمَقَامِ بِهَا كَمَا دَفَعَتِ الضَّرُورةُ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ)[٢]، وهكذا جاء عن الفُضيل بن عياض وعن غيره[٣]، لكنَّها كانت حاضرة العالَمِ الإسلامي ومحطّ أفئدة النَّاس وعاصمة دولة الخلافة، ولهذا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنَّه –والله أعلم– ذكر هذا المعنى لما كانت لها هذه المنزلة.

---

[١] قال الخطيب البغدادي رحمه الله: (وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ يَكْرَهُ سُكْنَى بَغْدَادَ وَالْمقَامَ بِهَا، وَيَحُثُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، وَقِيلَ: إِنَّ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ كَانَ لَا يَرَى الصَّلَاةَ فِي شَيْءٍ مِنْ بَغْدَادَ لِأَجْلِ أَنَّهَا عِنْدَهُ غَصْبٌ) "تأريخ بغداد" ج١، ص٣٤.

[٢] عن أحمد بْن يوسف بْن الضحاك، قَالَ: سمعتُ أَبِي يقول: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ، يَقُولُ: (بَغْدَادُ ضَيِّقَةٌ عَلَى الْمُتَّقِينَ، مَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقِيمَ فِيهَا، قُلْتُ لَهُ: فَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: دَفَعَتْنَا الضَّرُورَةُ إِلَى الْمَقَامِ بِهَا كَمَا دَفَعَتِ الضَّرُورةُ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ) "تأريخ بغداد" للخطيب البغدادي رحمه الله، ج١، ص٣٥.

[٣] قال عمر بن أيُّوب: (سَأَلْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ عَنِ الْمُقَامِ بِبَغْدَاد، فَقَالَ لِي: لَا تُقِمْ بِهَا، وَاخْرُجْ عَنْهَا) "تأريخ بغداد" ج١، ص٣٤.

وذكروا في سببِ تسمية العراق أشياء كثيرةً جدًّا ذكرها الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوَّل «تأريخ بغداد»[1] وذكر جملة مِنْ هذه الآثار الَّتي ذكرتُها لكم بأنَّ بعض السَّلف كانوا يكرهون المقام في بغداد[2].

فهو يقول:«لَيْسَ لِجَاهِلٍ» الجاهل الَّذي جهل ما أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على رسول، «مُغْنٍ» حتَّى ولو تأتَّى له مُلْك العراق.

وما كان النَّاس يَزِنُونَ بعضهم البعض إلَّا بما يُؤتَوْنه مِنَ العلم، حتَّى ذكروا أنَّ بعض الخلفاء -وكان فيه نوعٌ مِنَ التَّهاون- كان مرَّة في مجلسه الخاص مع أحد وُزَرائه ويلعبون بالشَّطرنج، دخل عليهم رجلٌ ولم يكونوا يعلمون بمدخله، فلمَّا أحسَّ به غطَّى هذا الشَّيء الَّذي كان يلعب به، لأنَّه كان عندهم نظر إلى مسألة ما يخرم في مروءة الإنسان، حتَّى وإن كان عندهم نوعٌ مِنَ المُجون أو السَّفه لم يكونوا يُجاهرون به، فلمَّا دخل هذا الرَّجل سأل الأميرَ شيئًا -هذه عادة كثيرين ممَّن يدخلون على الأُمراء وذوي السُّلطة-، فقال له: (هَلْ جَمَعْتَ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: لَا؛ كَانَتْ شَغَلَتْنَا عَنْهُ شَواغِلٌ، قَالَ: أَحَفظْتَ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَمَغَازِيهِ وَأَحَادِيثِهِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا؛ كَانَتْ شَغَلَتْنَا عَنْ ذَلِكَ شَوَاغِلٌ، قَالَ: فَأَحَادِيثُ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهَا؟ قَالَ: لَا)[3] كلَّما سأله سؤالًا أجابه بالنَّفي، فكشف ما كان يلعب عليه وقال: -الْعَبْ- (مَا مَعَنَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ)[4] انظر: (مَا مَعَنَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ) النَّاس كانوا هذا حالهم، كانوا يَزِنُون النَّاس بما يعلمون، ولـمَّا كان هذا هو حال النَّاس مع العلم كانت الأُمَّة في غاية مِنَ القيادة والرِّيادة والسِّيادة، فلمَّا ذهب العلم ذهب كثيرٌ مِنْ هذا الَّذي كانت عليه -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

هنا يقول:«لَيْسَ لِجَاهِلٍ» انظر إلى هذه التَّعبيرات وهذه الألفاظ الَّتي يستعملها النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في الحطِّ مِنَ الجهل:«وَلَيْسَ لِجاهِلٍ فِي النَّاسِ مُغْنٍ» يعني ما يُغْنِي عنه ويقوم مقامه إذا غاب أو حضر، أو «مَعْنًى» إذا غاب أو حضر.

«وَلَوْ مُلْكُ الْعِـرَاقِ لَهُ تَأَتَّى» ولو كان هو الملِك، لماذا؟ لأنَّ العلماء إذا أطلقوا باب الشَّهادة وباب اعتبارها فإنَّهم لا يطلقونها على مفهوم الرِّعاع مِنَ النَّاس والدَّهماء، النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال:«**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**»[5]

---

[1] قال الخطيب البغدادي رحمه الله: (قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْعِرَاقُ عِرَاقًا، لِأَنَّهُ سَفلَ عَنْ نَجْدٍ، وَدَنَا مِنَ الْبَحْرِ) "تأريخ بغداد" ج١ ص٥١، وذكر أسبابًا أخرى للتَّسمية تجدونها في نفس المصدر.

[2] انظر ج١ ص٣٤ من "تأريخ بغداد".

[3] "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:١٩.

[4] نفس المصدر السَّابق.

[5] مُتَّفقٌ عليه، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

بشرط الشَّهادة، والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] والشَّاهد له شروط أو يشهد مَن شَهِد؟ لا شكَّ له شروطٌ، فهنا مَنِ الَّذي يشهد بأنَّه لا قيمة للإنسان ولا معنى له ولا غنى عنه ولو مُلك العراق له تأتى؟ أهل العلم، وإلَّا فإنَّ جمهور الملُوك وجمهور مشاهير الفنِّ وجمهور مشاهير الرِّياضة يُغَطُّون عين الشَّمس، لكن هل هم النَّاس؟ ليسوا هم النَّاس، النَّاس أهل العِلْمِ، كما مرَّ معنا في قول عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَمٌ وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ نَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
لَا فَضْلَ إِلَّا لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ

إلى أن قال: (فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ).

* * *

أَثَرُ الْعِلْمِ عَلَى حَمَلَتِهِ فِي الحَيَاةِ وَبَعْدَ المَمَاتِ

ثمَّ قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلَاءٍ ... وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَا

وفي نُسخةٍ:

سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ ... وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَا

هنا لا يزال النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ يذكر آثار العلم وفضائله، ومِنَ المعلوم الَّذي تقدَّم أنَّ العلم:

_ إمَّا أن تكون فضائلُه وآثاره على صاحبه في حياته الدُّنيا، -يعني وهو حيٌّ يُرزق-.

_ وإمَّا أن تكون آثارهُ عليه بعد موته كما مرَّ معنا في حديث: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ**»[١].

وأنَّ النَّاس كلّهم أموات إلَّا أهل العلم بعلومهم وما تركوه وورَّثوه في النَّاس مِنَ العلم، ومِنْ هذا أنَّ النَّاظم

[١] رواه مسلم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى يقول: «سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلاَءٍ» والملأ مِنَ النَّاس هم الجماعة الَّذين يجمعهم وصفٌ مُعيَّن ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الأعراف:٦٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[البقرة:٢٤٦]، ويُطلق على الملائكة أيضًا الملأ[١].

فهُو يقُول: «سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلاَءٍ» مَنْ هؤلاء الملأ؟ الغالب أنَّهم يكونون أهل العلم وحملته، لأنَّ النَّاس كما هو مُتقرِّر وكما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ: (كَأَسْرَابِ القَطَا، مَجْبُولُونَ عَلَى تَشَبُّهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ)[٢].

وهناك شيءٌ في النَّاس في العلاقات الاجتماعية يُسمُّونه بـ «المشاكلة» بمعنى -كما يقولون-: (الطُّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ)، وأنتم تعلمون أنَّ أهل الرِّياضة اهتمامهم بالرِّياضة، وهكذا أهل الفنّ، وأهل العلم اهتمامهم بالعلم وبحملته، فَعِلْمُ العالِمِ ينطق في هذا الملأ -يعني في ملأ العلماء وطُلاَّب العلم وحملته-، فهم أعرف النَّاس بأهل العلم وبحملته وبوفياتهم وبتراجمهم -إلى غير ذلك-.

فيقُول: «سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلاَءٍ» لماذا فسَّرناه بهذا المعنى مع أنَّه قد يخرج إلى ما هو أكثر مِنَ الملأ الَّذين يجمعهم وصفٌ واحدٌ؟ لأنَّ أهل اللُّغة يقولون بأنَّ الملأ هم جماعة النَّاس الَّذين يجمعهم وَصفٌ، ولكن ليس معنى هذا أنَّه لا يخرج عن هذا الملأ، قد يُذكر العالِمِ في العوَّام وهذا كثيرٌ جدًّا موجودٌ في الخُطب، في المحاضرات، في الدُّروس، يسمعونَ بأسماء العلماء وأئمَّة الدِّين.

فهو يقول: «سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي مَلاَءٍ» بماذا سينطق؟ بالذِّكر الحسن كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[الشعراء:٨٤]، واستشهدنا بآية أُخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف:٤٤] لأنَّ العلم شرفٌ لصاحبه.

يقُول: «وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَا» بمعنى أنَّك إذا كتبت هذا العلم الَّذي تحمَّلته ونسخته فصنَّفت الكتب وألَّفت.

* وفرقٌ بين التَّصنيف والتَّأليف:

_ التَّأليف: جمعٌ.

_ والتَّصنيف: ابتكارٌ وشيءٌ جديدٌ لَمْ يُسبق إليه الإنسانُ.

---

[١] أَرَاد حَفِظَهُ الله: قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، قَالَ قَتَادَة: (هُمْ الْمَلَائِكَةُ؛ كَانَتْ خُصُومَتهمْ فِي شَأْنِ آدَمَ حِينَ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي خَالِق بَشَرًا مِنْ طِين﴾) "تفسير الطبري"؛ ج٢١، ص:٢٣٧.

[٢] "مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ ج٢٨، ص: ١٥٠.

فيقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ هذا العلم يُكتب عنك، فيُستنسخ ممَّا كتبت؛ لماذا ذَكر هذا؟ لأنَّه لم تكن عندهم هذه المطابع الَّتي أضعفت العلم، تعرفون أنَّ العلماء -في الغالب- كانوا يكتبون الكُتب التَّسعة بأيديهم، ويكتبون الشُّروح بأيديهم، ومَنْ كان قد وسَّع الله عليه أو عنده نسَّاخ أو عنده وَرَّاقٌ كَتبَ له، وهذا كثيرٌ، مَنْ قرأ في تراجم الأئمَّة يجد أنَّه كتبَ الكتب السِّتة أكثر مِنْ مرَّة أو كتبَ الكتب التِّسعة.

ممَّا قد يحضر -حتَّى أنَّ هذا إلى زمن متأخِّر- أنَّ الصَّنعاني والشَّوكاني كتبا «فتح الباري» بخطِّ أيديها عندما وَصَلَهُما، ما كانت هذه الطِّباعات والتَّفاخر فيها والتَّكثُّر منها ما كان موجودًا، وهي نِعمة لكنَّها للأسف الشَّديد أضعفت العلم، أضعفت القراءة في الكتب -إلى آخره-.

فهو يقُول:«وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَا» فإذا كتبتَ هذا العلم كُتِبَ عنكَ، ويتناقلُ النَّاس هذا العلم وخصوصًا العلم المميَّز الَّذي قلَّ أن يَشْركك فيه أحد.

- وهنا نذكرُ الكلمةَ الَّتي يقولها بعض السَّلف بأنَّ (مِنْ بَرَكَةِ العِلْمِ نِسْبَتُهُ إِلَى أَهْلِهِ) وهذه المسألة ليست مُطلقةً بل هي مقيَّدة؛ وممَّن قيَّدها: النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في كتابه «بستان العارفين»، فإنَّه ذكر أنَّ هذا حيث يكون العلم دقيقًا ويكون في استنباطه نوعٌ مِنَ الدِّقَّة أو المشقَّة -أو ما أشبه ذلك-[1]، لا ما يكون مِنَ العلم مُشاعًا أو يتناقلهُ النَّاس بكثرةٍ، لكن هناك فوائد عزيزةٌ -توجيهٌ في مسألة، ردٌّ على شيءٍ معيَّنٍ- فمِثْلُ هذا ينبغي أن يُنسب إلى قائله.

❋ ❋ ❋

فَضْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ «١»

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَـــا يُغْنِيــكَ تَشْيِيـــدُ الْمَبَانِـي ... إِذَا بِالْجَهْـــلِ نَفْسَكَ قَـــدْ هَدَمْتَـــا

[1] قال النَّوَوِيُّ رَحِمهُ الله: (وَمِنَ النَّصِيحَةِ: أَنْ تُضَافَ الْفَائِدَةُ الَّتِي **تُسْتَغْرَبُ** إِلَى قَائِلِهَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بُورِكَ لَهُ فِي عِلْمِهِ وَحَالِهِ) "بستان العارفين"، ص:٤٨.

الْتفتَ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا إلى المقارنة بين الدُّنيا وبين العلم وحملته، يقول بأنَّك إذا شيَّدت المباني وبنيت وعمَّرت ماذا يُغنيك هذا؟ فإنَّ النَّاس يشاركونك فيه بكثرة، وخصوصًا أصحاب الأموال والجاه والسُّلطان، وهو لن يُغني عنك شيئًا لأنَّ الأرض كلّها معمورة، والعامرون للأرض كلُّ النَّاس، وأهل العلم آحاد في النَّاس، فيقول لك:«وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي» ماذا يُغنِي عنك أن تُشيِّد المباني وأن ترفعها؟

• **قد تقولُ: لماذا ذكر النَّاظم هذا؟**

لأنَّ التَّشييد تفعيلٌ، وهذا التَّفعيل محتاجٌ إلى وقتٍ:

_ إمَّا في جهةِ جمع ماله وتحصيله –حتَّى وإن وَكلت مَنْ يقوم بهذا البناء وهذا التَّشييد–.

_ وإمَّا أن تقوم بهذا التَّشييد أنتَ بنفسك.

وكلَّما اقتطعت للدُّنيا مِنْ وقتك كلَّما ذهب ذلك مِنْ علمكَ وآخرتك، فهذه المعادلة لا يمكن أن تنجر أبدًا.

فهُو يقُول:«وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي» متى؟ «إِذَا بِالْجَهْلِ» مشروطٌ، «إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا» فهو لا يلتفت إلى تحريم أنَّ الإنسان يكون عنده بناء، وإنْ كان هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم فيما تجاوز به الإنسان الحدَّ، حتَّى أنَّه أُخذ في حكم البنيان رسالة دكتوراه مطبوعة في مجلَّدين في أحكام البنيانِ.

والزِّيادةُ على البناءِ المعتادِ فيها كلامٌ كثيرٌ لأهل العلم لأنَّهم تكلَّموا على حديث:«**إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ، إِلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ**»[1].

فهنَا قَال:«وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي» مشروطٌ بأيِّ شيء؟ «إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا» ولأنَّه سيأتي معنا في المقارنة بين المال والعلم: أنَّ المال لا يُذمُّ ذمًّا مُطلقًا، ومَنْ ذمَّهُ ذمًّا مُطلقًا فقد ذمَّهُ أهلُ العلم لِذمِّه لهذا المال.

وَمَـــا يُغْنِيــكَ تَشْيِيـــدُ الْمَبَانِـي	إِذَا بِالْجَهْــلِ نَفْسَـكَ قَــدْ هَدَمْتَــا
جَعَلْــتَ الْمَـالَ فَــوْقَ الْعِلْمِ جَهْــلاً	لَعَمْرُكَ فِــي الْقَضِيَّةِ مَــا عَدَلْتَـــا
وَبَيْنَهُمَـــا بِنَـــصِّ الْوَحْـــيِ بَـــوْنٌ	سَــتَعْلَمُــهُ إِذَا طَـــهَ قَــرَأْتَـــا

[1] رواه البُخاري (٥٦٧٢)، من حديث خباب بن الأرت ﷺ.

هذان البيتان متَّصلان ببعضهما البعض وهما مِنْ أهمِّ الأبياتِ الَّتي في هذه المنظومة، لماذا؟ لأمرين اثنين:

_ الأمر الأوَّل: أن فيها بيان فضل العلم مِنْ جهةِ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَم يأمر نبيَّه محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يطلب المزيد مِنْ شيءٍ إلَّا مِنَ العلمِ، وذلك أنَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ يشير في قوله:«سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا» إلى قوله تعالى:﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه:١١٤] فلم يأمر الله نبيَّه مُحمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يطلب المزيد مِنْ ربِّه مِنْ شيءٍ إلَّا مِنَ العلمِ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وذلك أنَّ العلم في ازديادٍ بالنِّسبة لصاحبه أكان ذلك في الأنبياء أو في الرُّسل أو في العلماء، وكما قال الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِذَا مَـــــا ازْدَدْتُ عِــلْـــمًـــا ... زَادَنِـي عِلْـمًـــا بِــجَهْـلِـــــي

فهو يقول هنا معاتبًا مَنْ كنَّاه بأبي بكر، ومُعاتبًا كلَّ مَنِ اتَّصف بهذا الوصفِ بقوله:«جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلاً» بمعنى أنَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ يقطع بأنَّ مَنْ جعل المال فوق العلم فهو جاهلٌ، جاهلٌ بالشَّرع، وجاهلٌ بالأحكام الشَّرعية، وجاهلٌ بالنُّصوص.

• ما سبب هذا الجهل؟!

قال:«سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا» لماذا؟ لأنَّه طُلب مِنَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يستزيد مِنَ العلم ولَم يُطلب منه أن يستزيد مِنَ المال، بل رَدَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في حديث أبي مُوَيْهِبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] وأحاديث كثيرة، وحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«إِنَّ عَبْدًا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا»[2] إلى آخره.

❊ ❊ ❊

[1] قال ﷺ:(يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ هَذَا الْبَقِيعِ فَانْطَلِقْ مَعِي، قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْمَقَابِرِ؛ لِيَهْنِئْ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهِ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتْبَعُ آخِرُهَا أَوَّلَهَا، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى، يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، فَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي وَالْجَنَّةِ، قَالَ: فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! فَخُذْ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ) "السلسة الضعيفة" للألباني رحمه الله (٦٤٤٧).

[2] عن أبي سَعِيد الخُدري رضي الله عنه قَالَ:(خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ -وَنَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ- عَاصِبًا رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ، حَتَّى أَهْوَى نَحْوَ الْمِنْبَرِ، فَاسْتَوَى عَلَيْهِ وَاتَّبَعْنَاهُ، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى الحَوْضِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ عَبْدًا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا، فَاخْتَارَ الآخِرَةَ، قَالَ: فَلَمْ يَفْطِنْ لَهَا أَحَدٌ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ، فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: بَلْ نَفْدِيكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: ثُمَّ هَبَطَ؛ فَمَا قَامَ عَلَيْهِ حَتَّى السَّاعَةِ) "تخريج مشكاة المصابيح" للألباني رحمه الله (٥٩٦٨).

حكم قول: «لَعَمْرُكَ»

فهنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقُول:

جَعَلْتَ الْمَــالَ فَــوْقَ العِلْمِ جَهْـلاً   لَعَمْـرُكَ فِــي القَضِيَّةِ مَـا عَدَلْتَـا

هذه مسألة «لَعَمْرُكَ» هل هي قسم أو ليس بقسم؟

فيها خلافٌ كثيرٌ بين أهل العلم وطويلٌ، وصنَّف فيها الشَّيخ حمَّاد بن محمد الأنصاري رسالة مطبوعة، وإن كان الرَّاجح أنَّها ليست قسمًا لأنَّها ممَّا جرى مِنَ الألفاظ على أَلْسِنَةِ النَّاس، حتَّى جاء عن جمعٍ مِنَ الصَّحابة أنَّهم فعلوها، وتخريج هذه الآثار في هذه الرِّسالة وفي غيرها مِنَ الكتب -لعمري، ولعمرك، وما أشبه ذلك- إذا توجَّه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمَّا في حقِّ الرَّب فإنَّ لَعَمْرُكَ معناها: وحياتك.

❊ ❊ ❊

أَهَمِّيَّةُ نَشْرِ الْعِلْمِ وَتَبْلِيغِهِ

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

جَعَلْتَ الْمَــالَ فَــوْقَ العِلْمِ جَهْـلاً   لَعَمْـرُكَ فِــي القَضِيَّةِ مَـا عَدَلْتَـا

«لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ» أي في هذا الحكم الَّذي حكمته، «مَا عَدَلْتَا» بل جُرْت في الحكم وظلمتَ يوم أن جعلت المال فوق العلم.

عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في وصيته لكُمَيْل بن زياد، وهي وصيَّة عظيمة ذكرناها من قبل، ولها شرح للعلاَّمة السَّفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسمه «القول العليُّ لشرح أثر الإمام عليّ» مطبوعٌ في مُجلَّد، فيه فوائد، وقد أطال في هذا الموضع الَّذي

سأذكره لكم، فيها يقول عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ وَالْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ)[١] يزكو: مِنْ زَكَا بمعنى نَما، فالعلم كلَّما أنفقتَ منه كلَّما زاد، لماذا؟ لأنَّ الإنفاق مِنَ العِلْم عَمَلٌ.

وقد مرَّ معنا قولُ بعض السَّلف -وبعضهم يرويه مرفوعًا-: (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[٢]، وذكر السَّفارينيّ أنَّ مِنْ أسباب إثبات العِلم في النَّفس وزيادته: تلقينُهُ وتدريسُهُ[٣]، قال بل رُبَّما تنكشف لك المسألة بسبب تدريسك لها[٤]، وكان شيخنا مُقبل عَلَيۡهِ رَحۡمَةُ ٱللَّهِ يقول بأنَّ تدرِيس العِلم عَشرة أَعْشار الفهْم[٥] -يعني تسعين مِنْ مائة، عشرة بالمائة أنَّك تتعلَّم-.

وهذا التَّدريس الَّذي تُدرِّسه وتُنفقه كما قال سعيد بن جُبَير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لَأَنْ أَنْشُرَ عِلْمِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى قَبْرِي)[٦] كان السَّلف يحرصون على تبليغ العلم، والله عَزَّوَجَلَّ قد أمر به: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران:١٨٧]، وجاء في صحيح مسلم مِنْ حديث عياض بن حمار المُجَاشِعِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -الحديث الطويل- وفيه قول الرَّب سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: «**وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ**»[٧] حتَّى قال السَّفاريني بأنَّ هذا وإن كان قد يُحمل على النَّفقة إلَّا أنَّه في كلِّ شيءٍ يُنفق ومنه العلم[٨]، فإذا أنفقتَ مِنَ العلم أنفقَ الله عليك في هذا العلم.

---

[١] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني رحمه الله؛ ج١، ص:٨٠.

[٢] "فتح المغيث" للسخاوي رحمه الله؛ ج٣، ص:٢٨٣.

[٣] قال السفاريني رحمه الله: (اعْلَمْ أَنَّ لِلتَّعَلُّمِ سِتَّ مَرَاتِب: أَوَّلُهَا: حُسْنُ السُّؤَالِ، ثَانِيهَا: حُسْنُ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ، ثَالِثُهَا: حُسْنُ الْفَهْمِ، رَابِعُهَا: الْحِفْظُ، خَامِسُهَا: التَّعْلِيمُ، سَادِسُهَا وَهِيَ الثَّمَرَةُ: الْعَمَلُ بِهِ وَمُرَاعَاةُ حُدُودِهِ. وَحِرْمَانُ الْعِلْمِ يَكُونُ بِسِتَّةِ أَوْجُهٍ: أَحَدُهَا: تَرْكُ السُّؤَالِ، الثَّانِي: سُوءُ الْإِنْصَاتِ وَعَدَمُ إِلْقَاءِ السَّمْعِ، الثَّالِثُ: سُوءُ الْفَهْمِ، الرَّابِعُ: عَدَمُ الْحِفْظِ، الْخَامِسُ: عَدَمُ نَشْرِهِ وَتَعْلِيمِهِ، فَمَنْ خَزَّنَ عِلْمَهُ وَلَمْ يَنْشُرْهُ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِنِسْيَانِهِ جَزَاءً وِفَاقًا، السَّادِسُ: عَدَمُ الْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ بِهِ يُوجِبُ تَذَكُّرَهُ وَتَدَبُّرَهُ وَمُرَاعَاتَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ، فَإِذَا أَهْمَلَ الْعَمَلَ بِهِ نَسِيَهُ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ بِالْعَمَلِ بِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ؛ فَمَا اسْتَدَرَّ الْعِلْمُ وَاسْتُجْلِبَ بِمِثْلِ الْعَمَلِ بِهِ) "غداء الألباب"؛ ج١، ص:٣٢.

[٤] قال السفاريني رحمه الله: (وَرُبَّمَا تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ مَكْشُوفَةٍ وَلَا خَارِجَةٍ مِنْ حَيِّزِ الإِشْكَالِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ بِهَا وَعَلَّمَهَا اتَّضَحَتْ لَهُ وَأَضَاءَتْ وَانْفَتَحَ لَهُ مِنْهَا عُلُومٌ أُخَرُ) "غداء الألباب" ج١، ص:٣٧.

[٥] من باب مَزيد فَائدَة: قال شيخُنا مُصْطفى مَبْرَمُ حفظه الله -منبِّهًا على أهمِّية تدريس العلم ونشره-: (قَدْ كَانَ شَيْخُنَا مُقْبِل عَلَيْهِ رَحْمَةُ الله يَذْكُرُ لَنَا بِأَنَّه اسْتَفَادَ فِي حَالِ تَدْرِيسِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَبَحْثِهِ أَكْثَر مِنِ اسْتِفَادَتِهِ مِنَ الدِّرَاسَةِ فِي الْجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَة؛ بَلْ سَمِعْتُهُ أَيْضًا يَقُولُ رَحْمَةُ الله عَلَيْهِ بِأَنَّ الطَّالِبَ إِذَا دَرَسَ الْكِتَابَ ثُمَّ دَرَّسَهُ لِإِخْوَانِهِ فَإِنَّ هَذَا أَكْثَر مِنْ أَنْ يُذَاكِرَهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ، يَعْنِي أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُذَاكِرَهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَكَانَ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ زَيْد بْن هَادِي المِدْخَلِي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ بِأَنَّ التَّأْلِيفَ وَالْبَحْثَ مِمَّا يُرَسِّخُ العِلْم، وَهَكَذَا قَالَ لِي شَيْخُنَا العَلَّامَةُ رَبِيع بْن هَادِي الْمَدْخَلِي حَفِظَهُ الله تَعَالَى -وَقَدْ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَذْهَبَ لِلتَّدْرِيسِ فِي بَعْضِ الأَمَاكِنِ فَاعْتَذَرْتُ لَهُ بِأَشْيَاء- فَقَالَ: التَّدْرِيسُ هَذَا مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَحْرِيرِ الْعِلْمِ وَتَحْقِيقِ الْعِلْمِ) اهـ.

[٦] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٤، ص:٣٢٦.

[٧] رواه مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

[٨] قال السفاريني رحمه الله: (وَأَيْضًا فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا عَلَّمَ الْخَلْقَ وَهَدَاهُمْ مِنْ جَهَالَتِهِمْ جَازَاهُ اللهُ بِأَنْ عَلَّمَهُ وَهَدَاهُ مِنْ جَهَالَتِهِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاض بْنِ حَمَّاد عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ:"وَإِنَّ اللهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ") "غداء الألباب" ج١، ص:٣٧.

* * *

فَضْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ «٢»

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

جَعَلْتَ الْمَـالَ فَـوْقَ العِلْمِ جَهْـلاً ... لَعَمْـرُكَ فِـي القَضِيَّةِ مَـا عَدَلْتَـا

هنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمّا ذكر المال حطَّ منه، لكن متى حطَّ منه؟ في مُقابل أن يُقارَنَ بالعلم -كما سيأتي معنا بعد قليل إن شاء الله تعالى-.

عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أيضًا قال في وصيَّته لكُمَيل بن زياد: (الْعِلْمُ حَاكِمٌ، والْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ)[1] وهذه مِنَ المقارنات الَّتي قارن بها عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بين العلم وبين المال، وابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى له في «مفتاح دار السَّعادة» كلامٌ في مسألة المقارنة بين العلم وبين المال تراجعونها في هذا الموضع[2].

أيضًا السَّفاريني أطال وإن كان قد تجاوز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض المواضع في مسألة الحظِّ مِنَ المال والزُّهد في الدُّنيا -وما أشبه ذلك-، أقصد في شرحه لأثر عليّ ابن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُوَأَرْضَاهُ.

جَعَلْتَ الْمَـالَ فَـوْقَ العِلْمِ جَهْـلاً ... لَعَمْـرُكَ فِـي القَضِيَّةِ مَـا عَدَلْتَـا
وَبَيْنَهُمَـا بِنَـصِّ الوَحْـيِ بَـوْنٌ ... سَـتَعْلَمُـهُ إِذَا طَـهَ قَـرَأْتَـا

[1] "تاريخ دمشق" للحافظ ابن عساكر، ص:٢٥٥

[2] قال ابن القيّم رحمه الله: (وَفَضْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ يُعْلَمُ مِنْ وُجُوهٍ: إِحْدَهَا: أَنَّ الْعِلْمَ مِيرَاثُ الأَنْبِيَاءِ، وَالْمَالُ مِيرَاثُ الْمُلُوكِ وَالأَغْنِيَاءِ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْعِلْمَ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ، وَصَاحِبُ الْمَالِ يَحْرُسُ مَالَهُ. وَالثَّالِثُ: أَنَّ الْمَالَ تُذْهِبُهُ النَّفَقَاتُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى النَّفَقَةِ. الرَّابِعُ: أَنَّ صَاحِبَ الْمَالِ إِذَا مَاتَ فَارَقَهُ مَالُهُ، وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ مَعَهُ قَبْرَهُ. الْخَامِسُ: أَنَّ الْعِلْمَ حَاكِمٌ عَلَى الْمَالِ، وَالْمَالُ لَا يَحْكُمُ عَلَى الْعِلْمِ. السَّادِسُ: أَنَّ الْمَالَ يَحْصُلُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْعِلْمُ النَّافِعُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ. السَّابِعُ: أَنَّ الْعَالِمَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَصَاحِبُ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْعَدَمِ وَالْفَاقَةِ. الثَّامِنُ: أَنَّ النَّفْسَ تَشْرُفُ وَتَزْكُو بِجَمْعِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ وَذَلِكَ مِنْ كَمَالِهَا وَشَرَفِهَا، وَالْمَالُ يُزَكِّيهَا وَلَا يُكَمِّلُهَا وَلَا يَزِيدُهَا صِفَةَ كَمَالٍ بَلِ النَّفْسُ تَنْقُصُ وَتَشِحُّ وَتَبْخَلُ بِجَمْعِهِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ، فَحِرْصُهَا عَلَى الْعِلْمِ عَيْنُ كَمَالِهَا وَحِرْصُهَا عَلَى الْمَالِ عَيْنُ نَقْصِهَا. التَّاسِعُ: أَنَّ الْمَالَ يَدْعُوهَا إِلَى الطُّغْيَانِ وَالْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ، وَالْعِلْمُ يَدْعُوهَا إِلَى التَّوَاضُعِ وَالْقِيَامِ بِالْعُبُودِيَّةِ، فَالْمَالُ يَدْعُوهَا إِلَى صِفَاتِ الْمُلُوكِ، وَالْعِلْمُ يَدْعُوهَا إِلَى صِفَاتِ الْعَبِيدِ. الْعَاشِرُ: أَنَّ الْعِلْمَ جَاذِبٌ مُوصِلٌ لَهَا إِلَى سَعَادَتِهَا الَّتِي خُلِقَتْ لَهَا، وَالْمَالُ حِجَابٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا...) للاطلاع على كلامه كاملاً انظر: "مفتاح دار السعادة" ج١؛ ص: ١٢٩-١٣٠.

«بَوْنٌ» البون هو الفرق الشَّاسع، الكبير، مِنْ بان الشَّيء، ومنه البينونة في الطَّلاق، ومنه قول علماء الاعتقاد: (بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ)، ويُقال: (بَوْنٌ شَاسِعٌ) إذا أكَّدوا على أنَّه كبير.

«وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ.. سَتَعْلَمُهُ» متى؟ «إِذَا طَهَ قَرَأْتَا» وأشرنا إلى أنَّه أراد بها قوله تعالى:﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وقد جاء في «الأدب المفرد» للبخاري بإسنادٍ صحيح عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[1].

والمال كما قال أيضًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -عند البخاري ومسلم-:«**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ**»[2]، وأيضًا قول النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -يرويه عن ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّه قال:«**إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ**»[3] وأصل الحديث أيضًا له ألفاظ في الصَّحيحين في حديث أبي موسى[4] وغيره[5].

إلَّا أنَّ المال مِنْ أعظم الفتن الصَّارفة عن العلم إذا لَم يعدل فيه صاحبه، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند أبي داود والتِّرمذي مِنْ حديث كعب بن عياض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وفِتْنَةُ أُمَّتِي: الْمَالُ**»[6]، ولا شكَّ أنَّ أكثر مَنْ يُفتن بالمال: حملة العلم إذا صرفهم عن العلم وطلبهِ وتحصيلِهِ، ولهذا جاء في حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود والتِّرمذي أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[7] وهذا الحديث شرحه الحافظ ابن رجب في كتابٍ حافل مطبوع «شـرح حديث: **مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ**».

«**أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ**» المثال هذا عجيبٌ، أنتَ تحبس ذئبين اثنين -انظر إلى القلَّة-، وتُرسلهما بعد ذلك في قطيعٍ مِنَ الغنم

---

[1] صحَّحه الشَّيخ الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (٢٢٩)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

[2] مُتَّفق عليه؛ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

[3] (إِنَّا أَنْزَلْنا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ، لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "السِّلسلة الصَّحيحة" (١٦٣٩) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

[4] يُشير شيخُنا حَفِظَهُ الله إِلَى مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسلم (١٠٥٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: (وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ).

[5] جَاءَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عِنْدَ الْبُخَارِي (٦٤٣٦)، وَمِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه عِنْدَ مُسْلِم (١٠٤٨).

[6] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٣٦)، من حديث كعب بن عياض رضي الله عنه.

[7] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٧٦)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

-عدد هائل مِنَ الغنم-، فيُفْسِد هذا القطيع، لماذا؟ لأنَّه يتصرَّف تصرُّفات الأعمى، فمِنْ شدَّة الجوع والهلع على أن يذهب شيءٌ مِنَ القطيع يُفسدُه كلَّه، على أنَّ الذِّئبين لو أخذا شاة واحدة مِنْ هذا القطيع لكفاهما وزيادة، كبشٌ واحد سيكفيهما بلا شكٍّ، ولكن مع هذا يفسدان هذا القطيع مِنْ جنون الجوع، وهكذا يُفسِد المرءَ الحرص على الزِّيادة مِنَ المال والدُّنيا على ما يكفيه وخصوصًا إذا كان معه حرص على الجاه والشَّرف فيُفسِدُ دينه بمثل هذا، وهذا المثل مَثَلٌ عجيبٌ منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أوتيَ جوامع الكلم.

ومَنْ نظر إلى الدُّنيا وما أفسدته ومَنْ أفسدته مِنْ حملة العلم وطُلاَّب العلم رأى شيئًا كثيرًا جدًّا -نسأل الله العافية والسَّلامة- «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ وَفِتْنَةُ أُمَّتِي: الْمَالُ**»[1].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلاً ... لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا

وتذكَّروا قول النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[2]، ليسَ معنى هذا أنَّ الإنسان يترك المال، لأنَّه لا تقوم مصالحه في دينه وفي لا دنياه إلَّا بالمال، ومَنْ نَظر في تراجم أئمَّة السَّلف -كما سيأتي معنا، إن شاء الله سنذكره في قول النَّاظم-:

وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ شَيْئًا ... إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا

وهنا يقول: «سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا».

❋ ❋ ❋

مُقَارَنَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الْمَالِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ

ثمَّ يذكر جُملاً مِنَ المقارنات بين أهل المال وأهل العلم، فقال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ... لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

---

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٣٦)، من حديث كعب بن عياض ﷺ.

[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الأدب المفرد" (٢٢٩)، من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

«لَئِنْ» اللاَّم هنا هي الموطِّئة للقسم، يعني نائبة عن القسم كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٣٩]، يعني: والله لَئن رفع الغني لواء مالٍ.

«لِوَاءَ» اللِّواء: الرَّاية، يرفع لواء المال، عنده الأرصدة، وعنده العمارات، وعنده البنايات، وعنده الشَّركات، وعنده الإدارات، وعنده العُمَّال، وعنده الموظَّفون -إلى آخره-، فهذا لواءٌ، وتحت هذا اللِّواء مِنَ الجنود والجيوش والعُمَّال الشَّيء الكثير؛ يقول: «لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا» فرفعتَ لواء العلم ونفعِ النَّاس ودعوتَ النَّاس إلى الخير وبيان ما أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لَئِـنْ رَفَـــعَ الْغَنِــيُّ لِــوَاءَ مَــالٍ ... لَأَنْـتَ لِـوَاءَ عِلْمِـكَ قَــدْ رَفَعْتَــا

وأين يكون لواء العلم مع لواء المال؟ لواءُ المال يحمله مَنْ دَبَّ ودَرَج، ما معنى هذا المثال؟ (مَنْ دَبَّ) معروفٌ، ما معنى (دَرَجَ)؟ الدَّبُّ مِنَ الدَّبيب، قالوا: (وَدَرَجَ: الَّذِي أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ، فَدَخَلَ قَبْرَهُ) مِنَ الإدراج، إدراجٌ في الكفن ثمَّ إدراجٌ في القبر، فهذا المال يحمله مَنْ دبَّ ودرج، ومَنْ آمن وكفر، ومَنْ عصى وأطاع، كلُّ النَّاس يشتركون في هذا المال، وربَّما يكون أهل الكفر أكثر مالًا -وهذا كثيرٌ- فيحملون هذا اللِّواء بكثرةٍ، أمَّا لواء العلم فإنَّ حملته قلَّة مِنَ النَّاس، ولو كثروا فالعاملون به قلَّة قليلة أيضًا.

لَئِـنْ رَفَـــعَ الْغَنِــيُّ لِــوَاءَ مَــالٍ ... لَأَنْـتَ لِـوَاءَ عِلْمِـكَ قَــدْ رَفَعْتَــا
وَإِنْ جَلَـسَ الْغَنِـيُّ عَلَـى الْحَشَايَـا ... لَأَنْتَ عَلَـى الكَوَاكِـبِ قَــدْ جَلَسْتَـا

فمهما ارتفع ورَكِب الأشياء المحشوَّة، «الْحَشَايَا» مِنَ الحشية وهي الشَّيء المحشوُّ بالحرير أو بأيِّ شيءٍ حُشيَ هذا الأريك أو هذه الوسائد؛ فيقول:

وَإِنْ جَلَـسَ الْغَنِـيُّ عَلَـى الْحَشَايَـا ... لَأَنْتَ عَلَـى الكَوَاكِـبِ قَــدْ جَلَسْتَـا

وذلك مرَّ معنا في أنَّ العلم رِفعةٌ لأهله.

ومِنْ أعظم آثار العلم على أصحابه: الرِّفعةُ الَّتي يرزقهم الله إيَّاها ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقول النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[1].

[1] رواه مسلم (٨١٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومحلُّ أهل العلم الكواكب، بل شبَّههم النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالكواكب نفسها، والحديث حسَّنه جمعٌ مِنْ أهل العلم وهو قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**»[1] فمحلُّ هذا العالِم بعلمه هذه الكواكب في الرِّفعة والجلوس عليها.

وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ   لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا

«رَكِبَ الْجِيَادَ» الجياد مِنَ الخيل، أجاودها وأفضلها، وهي «مُسَوَّمَاتٍ» يعني موسومة، مُعْلمة، لها علامة بسبب جودتها وما تتميَّز به عن غيرها.

يقُول: «لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا» فصار لك الذِّكرُ الحسن، والذِّكر الجميل، -إلى آخر ما يترتَّب على العلم وعلى حَمْلِه-.

وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ   لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا

وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي   فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكَمِ افْتَضَضْتَا

يقول: «مَهْمَا» للكثرة والتَّعجب «افْتَضَّ أَبْكَارَ الغَوَانِي» الغواني جمع غانية، وهي المرأة الشَّديدة الجمال، الحسناء، يُقال: (هَذِهِ امْرَأَةٌ غَانِيَةٌ) ليش؟ لجمالها وحُسنها، فهو يقول بسبب ما يملكه مِنَ المال يملك الجواري، ويتزوَّج النِّساء، وقد يكون مِزواجًا مطلاقًا، يُطلِّق هذه ويتزوَّج هذه -كما يعبث بعض النَّاس بمثل هذا-.

فيقُول: «وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي» النِّساء الجميلات، «فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكَمِ افْتَضَضْتَا» ولذَّة افتضاض أبكار العلم أشدُّ مِنْ افتضاض أبكار الغواني على ما أراده النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهذا المعنى مرَّ معنا عندما ذكرنا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ خِدْرٍ   أَبَتَّ طَلَاقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق هذا المعنى:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْمًا   لَآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

❁ ❁ ❁

[1] صححه الألباني في "صحيح ابن ماجه" (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

هَلْ ثَبَتَ عَنِ الشَّافِعِيِّ جَوَازُ زَوَاجِ الأَبِ ابْنَتَهُ مِنَ الزِّنَا؟

كُنَّا عند شيخنا مُقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أحيانًا يأمرنا بالحفظ، ولكن الأشياء الغريبة حتَّى وإن لَم يأمر، الأبيات مِثل أبيات الزَّمخشري هذه، فهذه ممَّا كان يُكرِّرها علينا ويُحفِّظنا إيَّاها بدرس الظُّهر أو ما بعد الظُّهر، وهيَ قول الزمخشري:

إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي لَمْ أَبُحْ بِهِ ... وَأَكْتُمُهُ، كِتْمَانُهُ لِيَ أَسْلَمُ
فَإِنْ حَنَفِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ الطِّلاَ وَهُوَ الشَّرَابُ الْمُحَرَّمُ
وَإِنْ مَالِكِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ لُحُومَ الْكِلاَبِ وَالْكَلْبُ يَحْرُمُ
وَإِنْ شَافِعِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ نِكَاحَ الْبِنْتِ وَالْبِنْتُ تَحْرُمُ
وَإِنْ حَنْبَلِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنَّنِي ... ثَقِيلٌ حُلُولِيٌّ بَغِيضٌ مُجَسِّمُ
تَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ... فَمَا أَحَدٌ مِنْ أَلْسُنِ النَّاسِ يَسْلَمُ

طبعًا هذا يحتاج إلى تعليق فيما نُسب إلى مالكٍ وما نُسب إلى الشَّافعيِّ وما نُسب إلى أحمد وما نُسب إلى أبي حنيفة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

_ يقصد (الطِّلا) وهو النَّبيذ، مشهورٌ مذهب أهلِ الكوفة أنَّهم يُجيزون شرب النَّبيذ، لا شُرب الخمر، ولكنَّهم لا يُفرِّقون بين ما اشتد وما لَم يشتد.

_ وعلى القول عند المالكية في أنَّهم يَرَوْنَ طهارة الكلب، هذا مِنْ باب الإلزام أنَّهم يَلْزَمُهُمْ أن يكونَ أكلُ لحمه مُباحًا، وقد قال به بعض المالكية.

_ وقول الشَّافعيِّ: (أُبِيحُ نِكَاحَ الْبِنْتِ وَالْبِنْتُ تَحْرُمُ) هذا ما نُسب إلى الشَّافعي أنَّه قال: (أَكْرَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا)[1] – أي البنت مِنْ ماء الزِّنا–؛ هذه المسألة خلافية بين أهل العلم وهي أنَّه إذا زنى بامرأة وأنجبت بنتًا، هذه البنت غير شرعيَّة، هل هيَ مَحْرَمٌ له؟ ليست مَحرمًا له ولا يدخل عليها ولا يُقابلها، فإذا كبرت وأراد أن يتزوَّج بها، هذا المنسوب إلى الشَّافعي باعتبار قوله: (أَكْرَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا)[2] وإن كان المحقِّقون حملوا قوله هذا على التَّحريم –على أنَّه يُحرِّمُ ذلك–[3].

---

[1] "المهذب" للشيرازي رحمه الله، ص: ٤٤٠.

[2] "المهذب" للشيرازي رحمه الله، ص: ٤٤٠

[3] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَمِنْ هَذَا أَيْضًا أَنَّهُ نَصَّ –أي الشَّافعي– عَلَى كَرَاهَةِ تَزَوُّجِ الرَّجُلِ بِنْتَهُ مِنْ مَاءِ الزِّنَا، وَلَمْ يَقُلْ قَطُّ إنَّهُ مُبَاحٌ وَلَا جَائِزٌ، وَالَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالَتِهِ وَإِمَامَتِهِ وَمَنْصِبِهِ الَّذِي أَجَلَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ أَنَّ هَذِهِ الْكَرَاهَةَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْرِيمِ، وَأَطْلَقَ لَفْظَ الْكَرَاهَةِ لِأَنَّ الْحَرَامَ يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) من كتابه "إعلام الموقعين"، ص: ٣٥.

_ وأمَّا قول الإمام أحمد فإنَّه مِنْ أظهر ما يكون لأنَّه يُثبت الأسماء والصِّفات، وهذا ليس وصفًا انفرد به الإمام أحمد فإنَّ الأئمَّة يُشاركونه فيه.

❋ ❋ ❋

مَنْ عَرَفَ الْخَلَّاق فَلَا يَضُرُّهُ الْإِمْلَاق

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك:

وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ شَيْئًا ... إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا
فَمَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ ... إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا

هنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ينتقل بعدما سبق الكلام على المقارنة بين المال والعلم، يظلُّ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يُؤكِّد على ذلك لأنَّه لا مُقارنة إذا تعارض جمع المال مع جمع العلم فإنَّ المقارنة هنا بعيدةٌ جدًّا، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأبيات الَّتي تقدَّمت:

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلاً ... لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الوَحْيِ بَوْنٌ ... سَتَعْلَمُهُ إِذَا طَهَ قَرَأْتَا

فقال:«وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقتارُ شَيئًا» وشرَطَ ذلك بقوله:«إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا» وكما سيأتي معنا أنَّ المقارنة بين الغِنى والفقر في معزلٍ عن الإيمان ليست مُرادةً لأهل العلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا:«وَلَيْسَ يَضُرُّكَ» مِنَ الضَّرر، والضَّررُ ما يلحق الإنسان إمَّا في ذاته أو في معناه، يعني إمَّا في عرضه أو في ذاته.

فأنتَ لن تتضرَّر متى؟ إذا كنتَ قد أصابك الإقتار «وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ» والإقتار مِنَ القَتْرِ أو القَتَرِ، والصَّواب الأوَّل: مِنَ القَتْرِ، و(قتر) هذه المادَّة مدارها على الجمع والقِلَّة -كما يقول ابن فارس[1]-.

---

[1] قال الإمام الذَّهبي رحمه الله: (الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ، اللُّغَوِيُّ الْمُحَدِّثُ، أَبُو الْحُسَيْنِ، أَحْمَدُ بْنُ فَارِسِ بْنِ زَكَرِيَّا بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَبِيبٍ الْقَزْوِينِيُّ، الْمَعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ، الْمَالِكِيُّ، اللُّغَوِيُّ، نَزِيلُ هَمَذَانَ، وَصَاحِبُ كِتَابِ:"الْمُجْمَلِ") "سير أعلام النبلاء"؛ ج١٧، ص:١٠٣.

_ الجمع الَّذي هو أخو البخل، بمعنى أنَّه جَمَع فأَوعَى، يجمع المال، فيُسمَّى هذا قَتُورًا، ومنه قوله تعالى:﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾[الإسراء:١٠٠] يعني مانعًا بخيلاً، فيجمع المال ويبخل به.

_ وتأتي أيضًا بمعنى: القِلَّة، ومنه قوله تعالى:﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[البقرة:٢٣٦] المراد هنا به: القِلَّة، يعني أنَّه قد قلَّ ماله كما في قوله تعالى:﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[الطَّلاق:٧].

فمراد النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا القِلَّة، وجاء أيضًا لفظ التَّقتير في قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ [الفرقان:٦٧] يعني يجمعوا المال ويمنعوه، وإنَّما هم متوسِّطون.

فهنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول بأنَّه لا تضرُّك قلَّة المال إذا عرفتَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولا يُعرَفُ الله إلَّا بالعلم، لأنَّ سبيل معرفة الله جَلَّ جَلَالُهُ هي العلم، ومَنْ لَم يتعلَّم لَم يعرف الله وما له مِنْ أسماء، وما له مِنْ صفات، وما له مِنْ حِكَم في شرعه وقدَره، وما يترتَّب على معرفة العلم بالله، ومعرفة العلم بدينه -إلى غير ذلك-.

فهو يقول: إذا عرفت الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فالإقتار لا يضرُّك لأنَّه مُتعلِّق بأمر الدُّنيا، وكانوا يقولون:

مَا أَحْسَنَ الدِّيـنَ وَالدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَـا ... لَا بَـارَكَ اللهُ فِـي دُنْيَـا بِـلاَ دِيـنِ

• الفقرُ شعارُ الطَّلب -هذا الغالبُ أنَّ الفقر شعار الطَّالِب-، ولهذا قال شُعبة بن الحجَّاج -أبو بسطام- رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (إِذَا رَأَيْتَ الْمِحْبَرَةَ فِي بَيْتِ إِنْسَانٍ فَارْحَمْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي كُمِّكَ شَيْءٌ فَأَطْعِمْهُ)[١].

وكان شُعبة أيضًا كما رَوَى عنه سُفيان بن عُيينة -وهذا جاء عَنْ غير شُعبة أيضًا- كان يقول: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ)[٢].

وكذلك ثبت عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه باع سَقف بيتِهِ أو بيت أُمِّه في طلب العلم[٣].

وهذا شيءٌ كثير في كلام أئمَّة السَّلف في رحلتهم في الطَّلب، حتَّى أنَّ ابن أبي حاتم حدَّث عن أبيه في رحلته إلى

[١] "سير أعلام النُّبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٧، ص:٢٢٥.

[٢] قال شُعبة رحمه الله: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ، بِعْتُ طَسْتَ أُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ) "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٧، ص:٢٢١.

[٣] قال ابن القاسم: (أَفْضَى بِمَالِكٍ طَلَبُ الْعِلْمِ إِلَى أَنْ نَقَضَ سَقْفَ بَيْتِهِ فَبَاعَ خَشَبَهُ) "ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله؛ ج١، ص:١٣٠.

البصرة لمّا عزم على المكث سنة ثمَّ مكث ثمانية أشهر فنفدت نفقته، وكان له زميل -وهذا الغالب فيهم أنَّهم يخرجون في الطَّلب وهم يُزاملون-، فلمّا نفدت نفقته حاول أن يصبر، ففي اليوم الأوَّل ذهب إلى مجالس الشُّيوخ، وأخذه معه صاحبه ثمَّ يفترقان عند الغرفة ثمَّ يلتقيان في اليومِ الثَّاني، فلمّا كان اليوم الثَّالث -وكان لا يجد إلَّا الماء-، لمّا كان في اليوم الثَّالث قال: (أَنَا ضَعِيفٌ لَا يُمْكِنُنِي) قال له: (مَا ضَعْفُكَ؟) قال له: (لَا أَكْتُمُكَ أَمْرِي، قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مَا طَعِمْتُ فِيهِمَا شَيْئًا)، فكان عنده دينار قال: (قَدْ بَقِيَ مَعِي دِينَارٌ، فَنِصْفُهُ لَكَ) ثمَّ قطع الرِّحلة ورجع[1].

هذا إذا نظرت في تراجم الأئمَّة وفيما ذكروه -أقل مرجع ترجع إليه ما ذكره الخطيب البغدادي في كتاب «الجامع» له رَحِمَهُ اللَّهُ- تجد مِنْ هذا الكثير، ارجع لِمُقدّمة ابن أبي حاتم أيضًا «الجرح والتَّعديل» وغيرها مِنَ الكتب الكثيرة.

النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:«وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ» الفقر لا يضرُّ مع العلم ومع الإيمان، ولهذا جاء في سُنن أبي داود في حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«**اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ**»[2]، كذلك جاء في حديث كعب بن عياض قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -عند التِّرمذي-:«**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ وَفِتْنَةُ أُمَّتِي: الْمَالُ**»[3].

وكذلك جاء في سُنن أبي داود والتِّرمذي حديث كعب بن مالك أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[4] يعني حرصه على المال وحرصه على الرِّئاسة، «**لِدِينِهِ**» بمعنى أنَّ الحرص على المال وعلى الدُّنيا الَّذي يتعارض مع الدِّين ومع أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُفسد دين المرء ما لا يُفسد الذِّئب في قطيع الغنم.

«**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ**» وهذا الحديث عظيمٌ وقد شرحه الحافظ ابن رجب في كتابٍ مستقلٍّ مطبوع «شرح

[1] قال ابن أبي حاتم: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: (بَقِيتُ فِي سَنَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ بِالْبَصْرَةِ، وَكَانَ فِي نَفْسِي أَنْ أُقِيمَ سَنَةً، فَانْقَطَعَتْ نَفَقَتِي، فَجَعَلْتُ أَبِيعُ ثِيَابِي حَتَّى نَفِدَتْ، وَبَقِيتُ بِلَا نَفَقَةٍ، وَمَضَيْتُ أَطُوفُ مَعَ صَدِيقٍ لِي إِلَى الْمَشْيَخَةِ، وَأَسْمَعُ إِلَى الْمَسَاءِ، فَانْصَرَفَ رَفِيقِي، وَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، فَجَعَلْتُ أَشْرَبُ الْمَاءَ مِنَ الْجُوعِ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَغَدَا عَلَيَّ رَفِيقِي، فَجَعَلْتُ أَطُوفُ مَعَهُ فِي سَمَاعِ الْحَدِيثِ عَلَى جُوعٍ شَدِيدٍ، وَانْصَرَفْتُ جَائِعًا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، غَدَا عَلَيَّ، فَقَالَ: مُرَّ بِنَا إِلَى الْمَشَايِخِ؛ قُلْتُ: أَنَا ضَعِيفٌ لَا يُمْكِنُنِي، قَالَ: مَا ضَعْفُكَ؟ قُلْتُ: لَا أَكْتُمُكَ أَمْرِي، قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مَا طَعِمْتُ فِيهِمَا شَيْئًا، فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ مَعِي دِينَارٌ، فَنِصْفُهُ لَكَ، وَنَجْعَلُ النِّصْفَ الْآخَرَ فِي الْكِرَاءِ، فَخَرَجْنَا مِنَ الْبَصْرَةِ، وَأَخَذْتُ مِنْهُ النِّصْفَ دِينَارٍ) "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١٣، ص:٢٥٧.

[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (١٣٩)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

[3] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٣٦)، من حديث كعب بن عياض رضي الله عنه.

[4] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٧٦)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

حديث: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ**» لكثرة ما فيه مِنَ الفوائد.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَجْمَعَ عُقَلاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ)[1] مَنْ أراد نعيم الآخرة فلا بُدَّ أن يتقلَّل مِنْ نعيم الدُّنيا وخصوصًا إذا مُنع منها كما ثبت عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ**»[2] يعني يجعل له حِمية منه.

❊ ❊ ❊

طَلَبُ الفقرِ لَيْسَ مَقْصُودًا في الشَّرِيعَةِ

ليس طلبُ الفقرِ مقصودًا في الشَّريعة، ولهذا جاء في الصَّحيحين أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تعوَّذ مِنَ الفقر[3]، إنَّما الكلام -الَّذي هو كلام النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكلام غيره مِنْ أهل العلم-: حيثُ لا وُجود للغنى مع بذل الأسباب، فإذا لم يكن عند الإنسان ما يكفيه مِنَ المال يظنُّ أنَّه إذا ترك العلم أو ترك الطَّلب سيكون ذلك أوفر وأدعى لغناه فقد أُصيب في مقتل.

ومَنْ نظر في سِيَر القوم عَلِم ما كانوا عليه مِنَ القِلَّة والحاجة، فالنَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ استعاذَ مِنَ الفقر، وبوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى في صحيحه: (بَابُ التَّعَوُّذِ مِنَ الْفَقْرِ).

وهنا العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ومع وجود في تراجم الأئمَّة -وهذا الأكثر الغالب- القِلَّة وعدم الغنى وإنَّما وجود الفقر؛ أيضًا وُجد في تراجم الأئمَّة مَنْ بسط الله عليه في الأمرين، وعلى رأسِ هؤلاء: الإمام اللَّيث بن سَعد -أبو الحارث الفَهْمي- إمام مصر وقاضيها، وقرين مالك رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، بل قال الشَّافعي: (اللَّيْثُ أَفْقَهُ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا أَنَّ أَصْحَابَهُ لَمْ يَقُومُوا بِهِ)[4]، إذا قرأت ترجمة اللَّيث بن سعد رأيت أمرًا عَجبًا ممَّا بسط الله عليه به في الرِّزق، ورأيت أعجب مِنْ ذلك أنَّ ما بسط الله عليه بالرِّزق -قد تقول- لا يعدل ما أنفقه على أهل العلم وطلاَّبه ومنهم مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولو

---

[1] "قاعدة في المحبة" لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ص: ٧٢

[2] صححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٨١٤)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

[3] قال ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى **وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ**، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ) متَّفق عليه من حديث عائشة ﷺ، واللفظ للبخاري (٦٣٧٧).

[4] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٨، ص:١٥٦.

حسبت بالدَّنانير الذَّهبية وحوَّلتها لرأيت شيئًا عجبًا ممَّا أنفقه الإمام اللَّيث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى.

كذلك في ضمن هذا المضمار يُذكر أنَّ الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مِنْ أهل الوجاهة وكثرة المال، حتَّى ذكروا في ترجمته أنَّه مرَّ على يهوديٍّ، وكان هذا اليهوديُّ يبيع الزَّيت الحار وأثوابه مُلطَّخة بالزَّيت وهو في غاية الرَّثاثة والشَّناعة، وكان الحافظ ابن حجر في زينته وفي مركبه والطُّلاَّب يُحيطون به، فاستوقفه اليهودي فقال له: (يَا شَيْخَ الإِسْلاَمِ تَزْعُمُ أَنَّ نَبِيَّكُمْ) -عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- (قَالَ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُـؤْمِنِ وَجَنَّـةُ الْكَافِـرِ**» فَأَيُّ سِجْنٍ أَنْتَ فِيهِ وَأَيُّ جَنَّةٍ أَنَا فِيهَا؟) هو يتكلَّم مع مَنْ؟ مع الحافظ ابن حجر، فوقف الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال له: (أَنَا بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعَدَّ اللهُ لِي فِي الآخِرَةِ مِنَ النَّعِيمِ كَأَنِّي الآنَ فِي السِّجْنِ، وَأَنْتَ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعَدَّ لَكَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الأَلِيمِ كَأَنَّكَ فِي جَنَّةٍ)[1] فأسلم -كما ذكروا ذلك في ترجمة الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

* * *

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ وَالْفَقِيرِ الصَّابِرِ

وهنا قد تُثار مسألة في هذا المضمار -وإن كان لم يقصدها الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى- وهي مسألةُ المفاضلة بين الغنيِّ والفقيرِ، وهذه مبحوثة في كثيرٍ مِنْ كُتب العلم، وأطالوا فيها، وفي «عِدَّة الصَّابرين» أو «عِدَة الصَّابرين» أو «عُدَّة الصَّابرين» -على الخلاف في ضبط اسمه- لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبحثٌ في هذا أطال فيه[2]، كذلك في «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسَّفاريني في مسألة التَّفاضل بين الغِنى والفقر[3].

لكن لا بدَّ أن نضع أصلاً وهو أنَّ التَّفاضل هذا باتِّفاق العلماء ليس مطلقًا، يعني لا يقولون: (فَضْلُ الْغَنِيِّ عَلَى الْفَقِيرِ) هذا اتِّفاقٌ مِنْ أهل العلم، وإنَّما يُفاضلُون بين الغنيِّ الشَّاكر والفقير الصَّابر، يعني صُورة المسألة في هذا التَّفضيل: التَّفضيل بين الغنيِّ الشَّاكر والفقير الصَّابر.

البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى بوَّب في صحيحه بابين على هذا:

_ بوَّب: (بَابٌ: فَضْلُ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ).

[1] "فيض القدير" للمناوي رحمه الله؛ ج٣ ص: ٥٤٦

[2] انظر "عدة الصابرين" ص٢١٠.

[3] انظر "غداء الألباب" ج٢، ص٤٢٧.

_ وبوَّب: (بَابٌ: فَضْلُ الْفَقِيرِ الصَّابِرِ).

والتَّفضيل هذا روايتان عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مرَّةً فضَّل الغنيَّ الشَّاكر، ومرَّةً فضَّل الفقير الصَّابر، فهُما روايتان عن الإمام أحمد، ومِنْ ثمَّ اختلف أصحابه كما اختلف غيرهم مِنْ أهل العلم.

_ والَّذي رجَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه لا يُطلق القول في هذا وإنَّما حيث استويَا فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣].

_ ورجَّح آخرون ومنهم الشَّيخ ابن باز والشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ وغيرهم مِنْ أهل العلم أنَّ الغنيَّ الشَّاكر أفضل مِنَ الفقير الصَّابر، لماذا؟ قالوا: (للنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي) لأنَّ نفعه مُتعدٍّ لغيره، لأنَّهم عندما يقولون: (شاكرٌ) الشُّكر تعرفون أنَّه لا يكون الإنسان شاكرًا إلَّا بأركان الشُّكر الثَّلاثة، وهي:

_ اعترافُ القلبِ.

_ نُطقُ اللِّسانِ.

_ عملُ الجوارحِ.

فهو عاملٌ بمقتضى الشُّكر، قالوا هنا: (هَذَا النَّفْعُ مُتَعَدٍّ إِلَى غَيْرِهِ) فينفع النَّاس، ويدلُّ على هذا التَّرجيح ما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هُريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلا)[١] حتَّى جاء في روايةٍ أنَّه جاء الفقراء إلى النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ذلك أنَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال في آخر الحديث: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[الجمعة:٤][٢]، ولا شكَّ في صبر هؤلاء الفقراء مِنَ الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وإنَّما كان همُّهم هو التَّنافس على أمر الآخرة، ولهذا قالوا: (يَا رَسُولَ اللهِ: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ)[٣] فأمرهم النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالتَّسبيح والتَّكبير والتَّحميد، فسمع الأغنياء ففعلوا مثلما فعلوا، فإذًا فضلوا عليهم، فجاءوا إلى النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مرَّة ثانية فقال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[الجمعة:٤] وقد يُستدل بهذا القول -وفيه قُوَّةٌ- على هذا الأمر، بأنَّ هذا الصَّابر صابرٌ لنفسه، لكن هذا الغني الَّذي وسَّع الله عليه ومع تَوْسِعَةِ الله جَلَّ وَعَلَا عليه قام بحقِّ الله جَلَّ وَعَلَا الواجب، وزاد على الواجب بالتَّنفُّل والتَّصدق والإنفاق في وجوه الخير: فيُجهِّز غازيًا، يكفل يتيمًا، ويفعل أفعال الخير الَّتي تتعدَّى إلى غيره.

---

[١] متفق عليه، واللفظ لمسلم (٥٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] (فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَن يَشَاء﴾) اللَّفظ لمسلم (٥٩٥).

[٣] رواه مسلم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

على كلِّ حالٍ هذا إشارةٌ، وإلَّا فالخلاف أكثر مِنْ هذا، يعني:

_ مِنْهُم مَنْ يقول: (لَا تَفَاضُلَ) كما يُشير إليه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنَّما نُرجِع الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣].

_ ومِنْهُم مَنْ يُفضِّل الغنِيَّ الشَّاكر مُطلقًا.

_ ومِنْهُم مَنْ يُفضِّل الفقير الصَّابر مُطلقًا.

على كلِّ حالٍ هذا إشارةٌ.

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يشير على طالب العلم أنَّ أمر الدُّنيا مهما عَظُم فإنَّه حقير، وأنَّه «لَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ» وهو القِلَّة بأن لا تجد ما يجدهُ النَّاس، وهذا الأصل في الطَّلب؛ فإنَّ طالب العلم لا يُمكن أن يجد ما يجده غيره.

❊ ❊ ❊

مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِين

هنَا يقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الإِقْتَارُ شَيْئًا» وذلك مشروط:«إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَا».

ومِنْ معرفته لربِّه الَّتي أرادها الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّه قال: «فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ» يعني مِنْ ضِمن ما تتعرَّف به على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تتعرَّف على ما أعدَّه لك مِنَ الجميل «فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ»، أيضًا شرط لهذا شرطًا فقال:«إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا» وإناخةُ البعير: بروكُه وثباته، «بِفِنَاءِ» الفناء هو السَّاحة الواسعة الَّتي تكون قبل المكان المقصود، فإذا أنخت بهذه السَّاحة ولزمتَ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولزمتَ مقام العبودية الَّذي هو الاستقامة والَّذي هو حقيقة الكرامة كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه «قاعدة في المحبَّة».

✷ وهذا الكتاب مِنْ أجلِّ وأنفس كتبِ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مع الأسف الشَّديد فإنَّ الملاحَظ الإعراض مِنْ طلبة العلم عن مِثل هذه الكُتب، ومَن كان له نَهمة في القراءة إذا أمسك الصَّفحة الأُولى فلن يترك الكتاب حتَّى يُنهيه. مطبوعٌ في مُجلَّدٍ، له طبعتان:

_ طبعةٌ للشَّيخ مُحمَّد رشاد سالمٍ.

_ وطبعةُ فوَّاز زَمْرلي.

وطبعةُ الشَّيخ محمَّد رشاد أتقن وأقدم -فيها ميزة الحواشي-.

على كلِّ حال هذا الكتاب مِنْ أنفس كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كتابٌ عظيم، وفيه فوائدُ عظيمةٌ؛ مِنْ ضمنها أنَّه قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الاسْتِقَامَةِ)[1] هذا إذَا نظرتَ إلى كُتب شيخ الإسلام ابن تيمية -فيما أعلم- لا تجد هذه الكلمة إلَّا نقلاً عن تلميذه ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللَّهُ تَعَالَى رُوحَهُ- يَقُولُ: أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الاسْتِقَامَةِ)[2].

فهنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

فَمَــــاذَا عِنْـــدَهُ لَــكَ مِـــنْ جَمِيـــلٍ إِذَا بِـــفِنَـــــاءِ طَاعَتِـــــهِ أَنَخْتَـــــا

«أَنَخْتَا» بركتَ ولزمت، بمعنى اللُّزوم.

«فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ» يكفي أن تَسمع قول النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الصَّحيحين -مِنْ حديث أبي هُريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- في ما يرويه عن ربِّه، أنَّه تعالى قال:«**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ: مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[3] ثُمَّ قال:«**فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُم**: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[السَّجدة:١٧]»[4].

وكذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت:٣٢]، وهذه الآية مَنْ أراد أن يتفكَّر في كلِّ ما في القرآن والسُّنَّة مِنَ النَّعيم تَكْفِيه، كيف؟ ﴿نُزُلًا﴾ ما معنى النُّزل؟ الضِّيافة، والضِّيافة ممَّن؟ ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ فإذًا الضِّيافة مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ ودارها جنَّةٌ عرضها السَّماوات والأرض، كيف سيكون هذا النَّعيم؟ هذا نعيمٌ عظيمٌ بلا شكٍّ، ولهذا يحتاج العبد المؤمن إلى أن يتفكَّر في مثل هذه المقامات.

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:«فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ» مَاذَا: استفهامٌ، تُفيد التَّعظيم.

[1] جاء في "مدارج السَّالكين" (١٠٦/٢) بهذا اللَّفظ، وفي كتاب "قاعدة في المحبة" بلفظ: (الْكَرَامَةُ هِيَ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ) ص٥٩.

[2] "مدارج السَّالكين" لابن القيِّم رحمه الله؛ ج٢، ص١٠٦.

[3] مُتَّفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[4] اللفظ للبخاري (٤٧٧٩).

فَمَـــاذَا عِنْـدَهُ لَـكَ مِـــنْ جَمِيـلٍ　　　إِذَا بِـفِنَـــاءِ طَاعَتِـــهِ أَنَخْتَــــا

* * *

الدِّينُ النَّصِيحَةُ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

فَقَابِــلْ بِالْقَبُــولِ لِنُصْــحِ قَوْلِـي　　　فَإِنْ أَعْرَضْــتَ عَنْــهُ فَقَــدْ خَسِرْتَـا

وَإِنْ رَاعَيْتَــهُ قَــوْلاً وَفِعْــلاً　　　وَتَاجَــرْتَ الإِلَــهَ بِـــهِ رَبِحْتَــا

فَلَيْسَــتْ هَــذِهِ الدُّنْيَـا بِشَــيْءٍ　　　تَسُـــوؤُكَ حِقْبَــةً وَتَسُــرُّ وَقْتَـا

وَغَـــايَتُهَــا إِذَا فَكَّــرْتَ فِيهَــا　　　كَفَيْئِــكَ أَوْ كَحُلْمِــكَ إِذْ حَلُمْتَـا

عبَّر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بأنَّ هذه نَصَائِحُ، وأنَّ الواجب في النَّصيحةِ أن يقبلها مَنْ أُسْدِيَتْ إليه لأنَّها ممَّا أمر الله به ورسوله، بل إنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ بيَّن أنَّ هذا الدِّين قائمٌ على هذا النُّصح، وأنَّ دعوة جميع الأنبياء -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قائمة على النُّصح، كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكاية عن صالح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف:٧٩]، وقال عن هود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٨]، فالأنبياء كلُّهم -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- نَصَحَة.

والألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يُذكِّر في هذا النَّظم بأنَّ ما قاله وسيقوله هو نُصْحٌ، ولهذا فيما نستقبل من الأبيات أيضًا قال الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

جَمَعْــتُ لَكَ النَّصَائِـحَ فَامْتَثِلْهَـا　　　حَيَاتَكَ فَهِـيَ أَفْضَلُ مَـــا امْتَثَلْتَـا

وَطَوَّلْــتُ الْعِــتَــابَ وَزِدْتُ فِيـــهِ　　　لِأَنَّــكَ فِــي الْبَطَالَــةِ قَـــدْ أَطَلْتَــا

وأيضًا يقول الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بأنَّه وإن كان نَصَحَ في هذه الأبيات فإنَّه هو أيضًا يحتاج إلى النُّصح، ويحتاج إلى مَنْ يَنصحه كما سيأتي أيضًا فيما قرَّره أو ما قاله النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

هنَا قال:«فَقَابِلْ بِالْقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي» وفي بعض النُّسخ:«صَحِيحَ نُصْحِي».

«لِنُصْحِ قَوْلِي» النُّصح مأخوذٌ مِنَ التَّصفية، تصفية الشَّيء مِنْ شوائبه، ولذلك تقول العرب: (نَصَحَ الْعَسَلَ) أو (نَصَحَ الْحَلِيبَ) إذَا صفَّاه ونقَّاه.

«فَقَابِلْ بِالقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي... فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ» أي عَنْ هذا القول وعَنْ هذا النُّصح «فَقَدْ خَسِرْتَا» قُلنا بأنَّ الواجب في حقِّ النَّصيحة قبولها، قال بعض العلماء: (النَّصِيحَةُ سَهْلَةٌ، ولَكِنَّ الصَّعْبَ قَبُولُهَا) القيام بالنَّصيحة هو الصَّعب، أمَّا مُجرَّد سماعها أو إسدائِها هذا يسهل على كلِّ أحدٍ.

❋ ❋ ❋

أُنْمُوذَجٌ مِنْ تَطْبِيقِ السَّلَفِ لِحَدِيثِ النَّصِيحَةِ

النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بايع أصحابه على النُّصحِ لكلِّ مُسلم كما في الصَّحيحين في حديث جرير بن عبد الله البَجليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا بايع النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: (وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[1] فكلُّ مَنْ صَدَقَ فيه اسم الإسلام وَجب النُّصح له، حتَّى أنَّ الطَّبراني وغيره -وهذا ذكره كثيرٌ مِنَ الشُّرَّاح- ذكروا قصَّة حصلت لجرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -لننظر كيف كانوا يتعاملون مع النُّصوص وكيف كانوا يتفاعلون معها كما يُقال-: (أَنَّ جَرِيرًا أَمَرَ مَوْلَاهُ أَنْ يَشْتَرِيَ لَهُ فَرَسًا، فَاشْتَرَى لَهُ فَرَسًا بِثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَجَاءَ بِهِ وَبِصَاحِبِهِ لِيَنْقُدَهُ الثَّمَنَ، فَقَالَ جَرِيرٌ لِصَاحِبِ الْفَرَسِ: فَرَسُكَ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ، أَتَبِيعُهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: ذَلِكَ إِلَيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: فَرَسُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، أَتَبِيعُهُ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ؟ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُهُ مِائَةً، فَمِائَةً، وَصَاحِبُهُ يَرْضَى، وَجَرِيرٌ يَقُولُ: فَرَسُكَ خَيْرٌ، إِلَى أَنْ بَلَغَ ثَمَانِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَاشْتَرَاهُ بِهَا. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)[2] فالنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَايع أصحابه على النُّصح لكلِّ مُسلم، بل حصَر النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدِّين في النَّصيحة كما جاء في صحيح مُسلم في حديث أبي رُقيَّة تميم بن أوس الدَّاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«الدِّينُ النَّصِيحَةُ» ما وجه الحصر؟ تعريف الجزأين -المبتدأ والخبر- «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، «الْحَجُّ عَرَفَةٌ»[3]، ﴿هُمُ

[1] عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ) مُتفق عليه.

[2] "المعجم الكبير" للطبراني رحمه الله (٢/٣٣٤) ج٢، ص: ٣٣٤.

[3] صحَّحه الألباني رحمه الله في "إرواء الغليل" (١٠٦٤)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي ﷺ.

﴿الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[المنافقون:٤] تعريفُ الجُزأين حصرٌ[1]، فالنَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال:«الدِّينُ النَّصِيحَةُ»[2] هذا مِنَ الواجباتِ الشَّرعيَّة وممَّا بايع عليه النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه.

وهنا الألبيري يُلفت نظره إلى أنَّه ليس مُعيِّرًا ولا مُعاقبًا ولا مُشهِّرًا بل هو ناصح، وحقُّ النَّصيحة أن تُقْبل، فقال في آخر النَّظم:

جَمَعْــــتُ لَكَ النَّصَائِــحَ فَامْتَثِلْهَــا   حَيَاتَكَ فَهْــيَ أَفْضَــلُ مَـــا امْتَثَلْتَــا

وهنا قال:«فَقَابِل بِالْقَبُولِ» يعني واجه نصيحتي بأن تقْبَلها.

***

ذَهَابُ آدَابِ النَّصِيحَةِ لَيْسَ عُذْرًا لِرَدِّهَا

والنَّصيحة لها آدابٌ، لكن ذهاب هذه الآداب ليس عذرًا لردِّها -انتبه لهذا- وخصوصًا إذا كانت مِنْ واجباتِ الشَّرعِ، لأنَّ بعض النَّاس إذا نصحتَهُ بشيءٍ ممَّا أوجبه الله عليه يقول: (لَمْ يَسْتَعْمِلِ الأُسْلُوبَ الحَسَنَ فِيهَا) رُدَّ على أُسلوبه واقْبَل الواجب الَّذي أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السَّلف كانوا يُعلِّموا آداب النَّصيحة كما جاء أيضًا في كثيرٍ منَ النُّصوص الشَّرعية، وكان بعض السَّلف يقول -ومنهم الفُضيل بن عياض-: (الْمُؤْمِنُ يَسْتُرُ وَيَنْصَحُ، وَالْفَاجِرُ يَهْتِكُ وَيُعَيِّرُ)[3]، فمن قصد النَّصيحة فإنَّه يُوصلها إلى صاحبها، والسِّتر كان مِنْ أهمِّ مقاصد السَّلف في النُّصح والحثِّ عليه والحضِّ عليه، أنَّهم يُوصلون النَّصيحة بقدر المستطاع إلى صاحبها على مقام السِّتر، ولهذا قال الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَعَمَّدْنِــي بِنُصْحِــكَ فِـــي انْفِرَادِي   وَجَنِّبْنِــي النَّصِيحَــةَ فِــي الْجَمَاعَــهْ

---

[1] مِنْ بَابِ مَزِيدِ فَائِدَةٍ: نَظَمَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفِظَهُ الله أَسَالِيبَ الْحَصْرِ الأَرْبَعَة الْمَشْهُورَة، فقالَ:

بِإِنَّمَـا وَالنَّفْــيِ مَــعْ إِثْبَــاتِ   مُعَـرَّفُ الْجُـزْأَيْـنِ حَصْـرٌ يَاتِــي
كَــذَاكَ تَقْدِيـمٌ لِعَامِــلٍ فُهِــمْ   وَذِي هِـيَ الْمَشْهُـورُ مِنْهَا يَا فَهِـمْ

[2] رواه مسلم (٥٥)، من حديث تميم بن أوس الداري ﷺ.

[3] "مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي"؛ ج١، ص:٤١٠

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ
وَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي ... فَلاَ تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ

وأيضًا السَّلف كانوا يُعظِّمون مِنْ أمرِ النَّصيحةِ حتَّى قال بعضهم: (مَنْ نَاصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّكَ)، وبناء النَّاس اليوم في علاقاتهم -إلَّا مَنْ رحمهُ الله جَلَّوَعَلَا- على التَّغطية لا على السِّتر.

_ السِّتر مستلزمٌ للنُّصحِ.

_ والتَّغطية حتَّى أنَّه ربَّما غطَّى على صاحبه أنَّه مخطئٌ أصلاً في هذا المقام، خصوصًا إذا تعلَّق الأمر بالدِّين وما يقع مِن الأخطاء في المقالات.

وهناك كتاب -رسالة صغيرة- نافعةٌ جدًّا في هذا الباب للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير».

وكلامُ أهل العلم مِنَ السَّلف في هذا كثيرٌ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى، لكن الشَّاهد مِنْ هذا أنَّ الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُعلِّمك الأدب في وصول النَّصيحة، يقول:«فَقَابِلْ بِالْقَبُولِ لِنُصْحِ قَوْلِي» أنا نصحتك بكلِّ هذه النَّصائح وبما سيأتي، «فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا» مِنْ أين أخذ الخسارة؟ مِنَ الإعراض عن الله، مِنَ الإعراض عن دينه، مِن الإعراض عن العِلم، مِن الإعراض عن الخير، مِن الإعراض عن الصَّلاح، لأنَّ ما ضمَّنه الألبيري في منظومته مِنَ النَّصائح مِن أينَ أخذه؟ مِنَ الكتاب والسُّنة، حتَّى لا يأتينا مُتقوِّل ويقول: (كَيْفَ يَتَقَوَّلُ الأَلْبِيرِي عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ نُصْحَهُ فَهُوَ خَاسِرٌ!) خُسرانه ليس لأنَّه ردَّ قول الألبيري أو نظمه أو كلامه، وإنَّما الخسران راجعٌ إلى ما تضمَّنه هذا النُّصح، إلى ما تضمَّنه هذا الأمر، هذا مرَّ معنا في أكثر مِنْ مناسبة أنَّ ابن بطَّة والآجري وابن القيِّم نصُّوا على أنَّ طاعة العُلماء واجبة ومعصيتهم محرَّمة، بل قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَطَاعَتُهُمْ أَفْرَض عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ بِنَصِّ الْكِتَابِ)[1] ثمَّ ذكر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:٨٣].

الألبيري لمَّا قال:«فَإِنْ أَعْرَضْتَ» عن هذا النُّصح «فَقَدْ خَسِرْتَا» لأنَّ هذه الخسارة مأخوذةٌ ممَّا نَصِح به ممَّا أمر الله به ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.



[1] "إعلام الموقعين"؛ ج١، ص: ٨

المُتاجَرةُ مَعَ الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ رَاعَيْتَــهُ قَــوْلًا وَفِعْــلاً وَتَاجَــرْتَ الإِلَــهَ بِــهِ رَبِحْتَــا

«وَإِنْ رَاعَيْتَهُ» أي النُّصح «قَوْلًا» في قولك على ما نصحتك في هذه النَّصائح -الَّتي مرَّت معنا وسنستقبل غيرها-، «وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلاً» عملت بما سمعتَ وبما نُصِحْتَ، «وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا» تاجَرْتَ مِنَ المفاعلة يعني عقدتَ تجارة مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولفظ التِّجارة والاتِّجار فيما يتعلَّق بالأُمور الشَّرعية واردٌ في الكتاب ووارِدٌ في السُّنَّة، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال في أهل القرآن التَّالِين له المتَّبعين له: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[فاطر:٢٩]، كذلك قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[الصف :١٠-١١] الآيات، وكذلك قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في غير لفظ التِّجارة بما يفيده ويدلُّ عليه هذا اللَّفظ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[التوبة:١١١]، فهو الَّذي أعطاهم هذه الأنفس ووهبها لهم ومكَّنهم مِن إصلاحها ثمَّ اشتراها نقيَّةً مُهذَّبةً جاهزةً لِأَنْ تُقتل في سبيل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فَلَــوْ كَانَ يُرْضِي اللهَ نَحْــرُ نُفُوسِهِمْ لَدَانُوا بِــهِ طَوْعًــا وَلِلأَمْــرِ سَلَّمُــوا[١]

في ماذا يقول هذا الحافظ ابن القيِّم في «ميميته»؟ لـمَّا ذكر الحجيج وذكر موقفهم وذكر رَميهم للجمار ونحرهم وذبحهم للهدي، قال: (فَلَوْ كَانَ يُرْضِي اللهَ) في هذا المقام، لأنَّها نفوسٌ قد هُذِّبت، تربَّت وطابت بأن تتخلَّى عن نفسها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فقال: (فَلَوْ كَانَ يُرْضِي اللهَ نَحْرُ نُفُوسِهِمْ... لَدَانُوا بِهِ) لجعلوهُ دِينًا يدينون به (وَلِلأَمْرِ سَلَّمُوا)، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بعباده فلم يأمرهم بهذا.

وهنا الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول: «وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا» وما قلناه في قوله: «خَسِرْتَا» نقوله في قوله: «رَبِحْتَا» لأنَّ الجزم بأنَّ هذه خسارةٌ وهذا ربحٌ مِنْ أين أخذه الألبيري؟ مِنْ نُصوص الكتاب والسُّنَّة، هو لَم يقلْ بشيءٍ مِنْ عنده وأنَّ مَنْ لَم يفعله -كما هو حال أئمَّة الضَّلال وكما هو حال رُؤساء الجماعات والفِرَق الَّذين يجعلون أصولًا وقواعد يسيرون عليها ويُقعِّدونها لأصحابهم ويُرتِّبون على فعلها الفوز والرِّبح وعلى تركها الخسران والهلاك-، هذا ليس في كلام أئمَّة العلم وأئمَّة الدِّين وإنَّما هو في كلام أهل الأهواء.

---

[١] ميمية ابن القيِّم رحمه الله.

«وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا» فهناك تجارةٌ مع الله، الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كلامٌ جميلٌ في هذا المقام في «مفتاح دار السَّعادة» وفي «طريق الهجرتين» وفي مواضع مِنْ كتبه وخصوصًا على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾، مع أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي وَهب لهم هذه الأنفس وأعطاهم إيَّاها وخلقهم ومع هذا يشتريها منهم إكرامًا لهم وتعظيمًا لهذا الأمر الَّذي سيقومون به وهو الجهاد في سبيل الله «وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا».

❋ ❋ ❋

هل تتعارض الدُّنيا مع الدِّين؟

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ... تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا

يقول لك: أعرضتَ عن هذه النَّصائح، تولَّيت عنها، إلى أين سترْكَن؟ لا شكَّ أنَّ مَنْ أعرض عن الآخرة رَكن إلى الدُّنيا كما قال النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ هَمُّهُ الآخِرَةُ جَمَعَ اللهُ لَهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا رَاغِمَةً، وَمَنْ كَانَتْ هَمُّهُ الدُّنْيَا فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ**»[١] فمن أراد أن يُعارض بين الدُّنيا والآخرة أو يفتعل هذه المعارضة بأنَّه لن يحصل على الدُّنيا إلَّا إذا تخلَّى عن الآخرة فهذا هو الخسران المُبين، وإلَّا فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأعراف:٣٢] ولهذا خلق لنا ما في الأرض جميعًا.

افتعالُ المعارضة والمناقضة والمخالفة بين إمَّا أن تكون على الدُّنيا وإمَّا أن تكون مِنْ أهل الآخرة هذا لا يقوله إلَّا أحد الرَّجلين: إمَّا صوفيٌّ مُتزندقٌ مُعرض عن الله وعن الآخرة أصلاً، كما يقوله أصحاب الغلو في التَّزهد وأنَّه لن يحصل على الآخرة إلَّا إذا انسلخَ انسلاخًا كُلِّيا مِنَ الدُّنيا؛ هذا ليس بصحيحٍ، ما زال الأنبياء يأكلون ويشربون ويناكحون ويفعلون ما يفعله البشر وهم ساداتُ الزُّهاد، ساداتُ الصَّالحين، ولهذا الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يقول: «فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا» هو يُفسِّر لك معنى الزُّهد كما سيأتي البيت هذا، وسنشرح إن شاء الله معنى الزُّهد عند السَّلف.

---

[١] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٦٥١٦)، من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

أحيانًا -كما قلتُ لكم- افتعال المعارضة والمناقضة بين أمر الدُّنيا وأمر الآخرة هذا غلطٌ، ولهذا جاء التَّوسط في أمر هذا الدِّين، جاء الاعتدال في أمر هذا الدِّين، إلى آخر ما هو معلوم.

«فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ» بِشَيءٍ هذه نكرة جاءت في سياق النَّفي، قد يقول قائل: (هُوَ يَقُولُ لَكَ أَنَّها لَيْسَتْ بِشَيْءٍ!) نعم ليستْ بشيءٍ إذَا عارضت الآخرة وناقضتها واشترى المرء دينه بدُنياه.

❊ ❊ ❊

نَماذِجٌ مِنْ مُتَاجَرَةِ السَّلَفِ مَعَ اللهِ

الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا ذكر التِّجارة هذه مسألة فيها مُعاوَضةٌ، فيها ربحٌ، ولهذا جاء في مستدرك الحاكم بإسناد حسَّنه أو صحَّحه شيخنا مُقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصَّحيح المسند»[1] في قصَّة خروج أبي يحيى صُهَيب بن سِنَان الرُّومي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مِنْ مكَّة لَمَّا خرج مهاجرًا فتبعه المشركون، فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهمًا، وقال: (لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَضَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَهْمًا، ثُمَّ أَصِيرَ بَعْدَهُ إِلَى السَّيْفِ فَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَجُلٌ وَقَدْ خَلَّفْتُ بِمَكَّةَ قَيْنَتَيْنِ فَهُمَا لَكُمْ) فتركوه، فلمَّا جاء إلى النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأُخبِر خبره قال:«**أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعُ**»[2] يعني معناه أنَّك الآن هذه البيعة وهذه التِّجارة وهذه الصَّفقة الَّتي عقدتها مع الله ربحت، فهو هنا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ تاجر مع الله وأعرض عن الدُّنيا مِنْ أجل الآخرة.

كذلك في قصَّة أبي الدَّحداح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لـمَّا اختلف رجلٌ مع رجلٍ على نخلةٍ فقال النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:«**أَعْطِهِ إِيَّاهَا بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ**» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي، فَفَعَلَ. فَأَتَى أَبُو الدَّحْدَاحِ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي قَدِ ابْتَعتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي، فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«**كَمْ مِنْ عَذَقٍ دَوَّاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ**»[3].

❊ ❊ ❊

---

[1] قال الشَّيخ مُقبل الوَادْعِي رَحِمه الله في "الصَّحيح المسْند مِن أسباب النزول": (الْحَدِيثُ لَهُ طُرُق أُخْرَى أَغْلَبُهَا مَرَاسِيلٌ، كَمَا فِي الإِصَابَةِ (٢/١٨٨) وَفِي الطَّبَقَاتِ لابْنِ سَعْدٍ (٣/١٦٣) مِنَ القِسْمِ الأَوَّلِ، وَهِي بِمَجْمُوعِهَا تَزِيدُ الْحَدِيثَ قُوَّةً وَتَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِهِ) اهـ (ص:٣٨).

[2] قال الشَّيخ مُقبل الوَادْعِي رَحِمه الله في "الصَّحيح المسْند مِن أسباب النزول": (الْحَدِيثُ لَهُ طُرُق أُخْرَى أَغْلَبُهَا مَرَاسِيلٌ، كَمَا فِي الإِصَابَةِ (٢/١٨٨) وَفِي الطَّبَقَاتِ لابْنِ سَعْدٍ (٣/١٦٣) مِنَ القِسْمِ الأَوَّلِ، وَهِي بِمَجْمُوعِهَا تَزِيدُ الْحَدِيثَ قُوَّةً وَتَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِهِ) اهـ (ص:٣٨).

[3] "صحيح موارد الظمآن" للألباني رحمه الله (١٩٢٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أَحْـوَالُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَاتُهَا

قال النَّاظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَيْسَـــتْ هَـــذِهِ الدُّنْيَـــا بِشَـيْءٍ   تَسُـــوؤُكَ حِقْبَـــةً وَتَسُـــرُّ وَقْتَـــا

«فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ» إذا ما كانت قاطعةً للعبد عن الآخرة، لأنَّ حالها:«تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا» هيَ مُتقلِّبة بين هذا السُّرور وبين هذا السُّوء، فلا يثبت لها مقام، وهذا مِنْ رحمة الله جَلَّوَعَلَا بالمؤمنين، لِمَ؟ لأنَّه لو ثبت لها مقام النَّعيم لأعرض النَّاس عن تذكُّر الآخرة والنَّعيم، كما ذكر الحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «زاد المعاد» ذَكر أنَّ مِنْ رحمة الله تعالى ما يجعله مِنَ المُنغّصات في هذه الحياة الدُّنيا والمكدّرات[1] -مِنَ المرض والفقر والحاجة، إلى ما أشبه ذلك-، لأنَّ الجنَّة هي الَّتي قال الله عَزَّوَجَلَّ عنها:﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾[الحجر:٤٨] فإذا كان المرء لا يمسُّه نصبٌ في هذه الحياة الدُّنيا ما الَّذي يريده مِنَ الجنَّة؟ وما الَّذي يُريده مِنَ الآخرة؟ فالمنغّصات الَّتي تكون في هذه الدُّنيا -وتسوؤُك مرَّة وتسرُّك أُخرى- هذا حالها حتَّى لا يركن إليها الإنسان، والواجب عليك ما أخبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[الحديد:٢٣] هذا واجب المرء، والعلاج لهذا ما جاء في صحيح مُسلم في حديث أبي يحيى صُهيب بن سنان الرُّومي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال:«**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2].

«تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا» الحِقْبَةُ هي الفترة مِنَ الزَّمان، حدَّدها بعض أهل اللُّغة بالثَّمانين، وقد تزيد، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾[النبأ:٢٣] يعني أزمنةً مديدةً، مهما كانت هذه المدَّة -قليلة أو قصيرة- فإنَّ العبد يتنوَّع في أمر هذه الحياة الدُّنيا، فلا تدوم على حالٍ لأحد أبدًا، لا تدوم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران:٢٦] فكَمْ ذَلَّ مِنْ عزيزٍ، وعزَّ مِنْ ذليلٍ، واغتنى مِنْ فقيرٍ، وفقر مِنْ غَنيٍّ، فلا تدوم لها حال، فعلى ما يركن إليها الإنسان إذا عارضت أمر الله وأمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

---

[1] قال ابن القيم رحمه الله: (لَوْلَا مِحَنُ الدُّنْيَا وَمَصَائِبُهَا لَأَصَابَ الْعَبْدَ مِنْ أَدْوَاءِ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالْفَرْعَنَةِ وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ مَا هُوَ سَبَبُ هَلَاكِهِ عَاجِلًا وَآجِلًا فَمِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَنْ يَتَفَقَّدَهُ فِي الأَحْيَانِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ أَدْوِيَةِ الْمَصَائِبِ، تَكُونُ حَمِيَّةً لَهُ مِنْ هَذِهِ الأَدْوَاءِ، وَحِفْظًا لِصِحَّةِ عُبُودِيَّتِهِ، وَاسْتِفْرَاغًا لِلْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ الرَّدِيئَةِ الْمُهْلِكَةِ مِنْهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَرْحَمُ بِبَلَائِهِ، وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ) "زاد المعاد" (١٩٤/٤). وقال أيضًا: (وَضَعَ اللهُ الْمَصَائِبَ وَالبَلَايَا وَالْمِحَنَ رَحْمَةً بَيْنَ عِبَادِهِ يُكَفِّرُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَرِهَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، وَلَا يَدْرِي الْعَبْدُ أَيَّ النِّعْمَتَيْنِ عَلَيْهِ أَعْظَم، نِعْمَتهُ عَلَيْهِ فِيمَا يَكْرَهُ أَوْ نِعْمَتهُ عَلَيْهِ فِيمَا يُحِبُّ...) "مفتاح دار السعادة" (٣٩٤/٢).

[2] رواه مسلم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب بن سنان الرومي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤]

هذا التَّعارض، لكن ينبغي على طالب العلم، ينبغي على المسلم أن لا يفتعل المعارضة بين أمر الدِّين وأمر الدُّنيا، مازال في العلماء الصُّنَّاع والتُّجَّار، ما زال فيهم -في العلماء، لا نتكلَّم عن آحاد النَّاس- مَنْ نُسب إلى صنعةٍ، مَنْ نُسب إلى تجارةٍ، مَنْ نُسب إلى حِرفة، وهذا صُنِّفت فيه كتبٌ، وقد طُبع في مجلَّدٍ مَنْ نُسب مِنَ العلماء إلى مِهنةٍ أو حرفةٍ، -الحذَّاء، الإسكافي، الزيَّات، إلى آخره-، والخلاَّل له كتاب في طلب الرِّزق، كتاب نافع في هذا الباب[1].

فالشَّاهد مِنْ هذا أنَّ العبد يكون فقيهًا في مثل هذه الأمور، الألبيري أراد هذا.

❋ ❋ ❋

الدُّنيا أَحلامُ نَومٍ وَظِلٌّ زائِلٌ

قال النَّاظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا ... كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلُمْتَا

«وَغَايَتُهَا» غاية الحياة الدُّنيا هذه بجميع ما فيها مِنَ النَّعيم وجميع ما فيها مِنَ اللَّذات، «وَغَايَتُهَا» نهايتها «إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا... كَفَيْئِكَ» الفيء: الظِّل كما جاء في الأحاديث[2]، (فِيءُ الزَّوال) الفيءُ هو ظلُّ الشَّيء، هل يبقى هذا الظِّل؟ إن بقيَ الإنسان أو مشى أو جرى أو فعل أيَّ شيءٍ لا بُدَّ وأن يزول هذا الظِّل، إمَّا بزواله أو بزوال الشَّمس، فالحياة الدُّنيا كالفيء، يُمثِّلها لك الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول:«كَفَيْئِكَ» كظلِّك، هذا الظِّل الَّذي يزول، ولا ظِلَّ إلَّا وهو يزول -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

«كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ» لن يكون الحلم أَطول مِنَ النَّوم، والنَّوم ينقضي، فكيف لا ينقضي الحلم؟ فإذا كان المرء في حلمٍ مهما كان فيه مِنَ الجمال والرَّوعة.

وإن كان الحلمُ في الغالب يُستعمل فيما يكرهه الإنسان، والرُّؤيا فيما يلتذُّ به، لكن النَّظم أحيانًا يصعب على الإنسان أن يتفاداه -يتفادى بعض الألفاظ-، النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال:«**الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[3]، فالشَّاهد

---

[1] يُشير شيخنا حفظه الله إلى كتاب:"الحث على التِّجارة والصِّناعة والعمل" لأبي بكرٍ الخلال رحمه الله.

[2] عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: (أَذَّنَ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالظُّهْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَبْرِدْ، أَبْرِدْ، أَوْ قَالَ: انْتَظِرْ، انْتَظِرْ، وَقَالَ: إِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: حَتَّى رَأَيْنَا فَيْءَ التُّلُولِ) متفق عليه، واللفظ لمسلم (٦١٦).

[3] متفق عليه، من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

أنَّ الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد التَّحذير مِنْ مثل هذا المقام وهو الرُّكون إلى الدُّنيا.

* * *

شَرْحُ حَدِيثِ:
«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سُجِنتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ ... فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا
وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ ... سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَا
وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَابًا ... وَتُكْسَى إِنْ مَلاَبِسَهَا خَلَعْتَا
وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ ... كَأَنَّكَ لَا تُرَادُ لِمَا شَهِدْتَا

لا يزال النَّاظم -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاهُ- في معرض الحديث عن الدُّنيا وما يتعلَّق بها في حال ما عارضت الآخرة ودفعت الأمر عَنِ العمل إلى الآخرة، وأنَّ المسلم -وعلى الخصوص طالب العلم- ينبغي له أن يكون حذرًا منها.

فبيَّن هنا في هذا البيت أنَّ الدُّنيا سجنٌ للمؤمن، والسِّجن معناه الحبس كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصَّة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢] فمعناه وحقيقتهُ: الحبس، المنع عن الشَّيء، سُجِنَ عن الشَّيء أو حُبس عنه.

«سُجِنْتَ بِهَا» فهي سجنٌ له، وهو محبوس فيها؛ «وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ» مع كونها سجن فأنتَ تُحبُّها.

ثمَّ يتعجَّب النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فيقول: «فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا!» لأنَّ الله فطر العبد على أن لا يُحب السِّجن وأن لا يُحب الحبس وأن يكون مُنطلقًا غير محبوس، والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا يُشير إلى ما رواه الإمام مُسلم في صحيحه مِنْ حديث العلاء بن عبد الرَّحمن عن أبيه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»[1] وهذا الحديث -كما قُلت لكم- خرَّجه مُسلم في صحيحه، فلا مَطعن في إسناده، ولَم يعترض عليه أحدٌ مِنْ أهل العلم، ولكن وقع الاعتراض، والاعتراض قديمٌ جدًّا -كما سأذكر لكم-، وزاد وطالت

[1] رواه مسلم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

حِباله عند بعض العصريين المُنفتِحين على الدُّنيا الَّذين يُريدون أن يُشكِّكوا في مقاصد الشَّريعة ويُريدون أن يُثيروا عليها ما يزعمون أنَّه نوعٌ مِنَ التَّناقض.

فمِن أوَّل هذه الإشكالات وهذا منقولٌ عند بعض المعاصرين في ترجمة الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قد ذكرتُ هذا في بعض المجالس اغترارًا بقولهم، ثمَّ راجعتُ في التَّراجم فلم أجد هذا عن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنَّما وجدته عن الإمام سهل الصّعلوكي وهو إمامٌ كبيرٌ مُتقِّدم توفي في الأربعمائة وأربعة، نُسب إلى الشَّافعية ونُسب إلى الحنفية ومذكور هذا في ترجمته، وكان بعض الأئمَّة يصفه فيقول: (جَمَعَ رِئَاسَةَ الدِّينِ وَالدُّنيَا)[1] بمعنى أنَّه كان لهُ مقامٌ في الدِّين بالعلم، تتلمذ عليه كثيرٌ مِنْ أئمَّة الإسلام، وهو تتلمذ قبلهم على أئمَّة كبار، فقالوا إنَّه خرج يومًا وكان في أُبَّهته فأحاط به بعض النَّاس، فرآه رجلٌ يهوديٌّ -وكان في حالةٍ رثَّة- فلمَّا رأى الصّعلوكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال له: (أَلَسْتُمْ تَرْوُونَ عَنْ نَبِيِّكُمْ) -ونحن نقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ- (أَنَّ «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُـؤْمِنِ وَجَنَّـةُ الْكَافِـرِ**» وَأَنَا عَبْدٌ كَافِرٌ وَتَرَى حَالِي، وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ وَتَرَى حَالَكَ!) قال له -سهل الصعلوكيّ- بديهةً: (إِذَا أَنْتَ صِرْتَ غَدًا إِلَى عَذَابِ اللهِ كَانَتْ هَذِهِ جَنَّتُكَ، وَإِذَا صِرْتُ أَنَا إِلَى نَعِيمِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ كَانَ هَذَا سِجْنِي)[2] فشهد أن لا إله إلَّا الله وأسلم الرَّجل، لأنَّه فَطِن للمراد.

وهُنا الأمر نسبيٌّ، فهي سجنٌ باعتبار ما ينتظر المؤمن مِنْ أمر الآخرة، فمهما اتَّسعت ومهما توسَّع المرء في ملاذِّها ومهما وُسِّع له في خيراتها فإنَّها لا تعدل شيئًا مِنْ أمر الجنَّة، كما أنَّ الكافر مهما ضُيِّق عليه ومهما حصَل له مِنَ الضِّيق والضَّنك فإنَّ هذا لا يعدل شيئًا باعتبار ما أعدَّه الله له في النَّار في الآخرة إن مات على كفره.

ويدلُّ على هذا الَّذي ذكره الصّعلوكي وغيره -وإن كانوا لَم يذكروا هذا الحديث- يدلُّ عليه ما رواه الإمام مسلم في صحيحه مِنْ حديث أنس بن مالك أنَّ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«**وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ**» يعني يدخل في الجنَّة فقط دخولًا أوَّليا «**فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**» والحديث في صحيح مُسلم مِنْ حديث أنس-، «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» -مِنْ أهل الكفر يعني- «**فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ**»[3] وهذا الحديث يُوضِّح هذا المعنى.

[1] "قمع الحرص بالزُّهد والقناعة" للقرطبي رحمه الله، ص: ١٩٩

[2] "قمع الحرص بالزُّهد والقناعة" للقرطبي رحمه الله، ص: ١٩٩

[3] رواه مسلم (٢٨٠٧)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

وبعضهم استشكل هذا الحديث حتَّى في حقِّ المؤمن: كيف نقول بأنَّ الدُّنيا سجنٌ للمؤمن وجنَّة للكافر مع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الأعراف:٣٢] -وآيات كثيرة- ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩]؟ هذا يُجاب عنه بما أُجيب عليه ابتداء: أنَّ هذا ليس معناه أنَّ العبد المؤمن ينقطع عن الدُّنيا وعمَّا أحلَّه الله فيها، ولكنَّه مسجون محبوس عن شُبهاتها، وهذا جاء عند أبي بكر البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الزُّهد الكبير» عن أبي عليٍّ الفُضَيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أنَّه قال: (هِيَ سِجْنُ مَنْ تَرَكَ لَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا)[1] شهواتها المحرَّمة، وهذا المعنى مِنْ أوضح الواضحات، فالدُّنيا سجنُ المؤمن بهذا الاعتبار وبهذا المعنى، وجنَّة للكافر أيضًا بهذا الاعتبار وبهذا المعنى، فهي مِنْ جهة النِّسبة.

_ مِنْ جهة نسبتها إلى الآخرة سجنٌ للمؤمن مهما طال نعيمه فيها -يعني الدَّنيا-.

_ ومِنْ جهة ما أعدَّه الله للكافر في الآخرة مِنْ جهة النِّسبة كذلك لا تَعْدِل شيئًا باعتبار ما أعدَّه الله للكافر في نار جهنَّم.

النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «سُجِنْتَ بِهَا» يدلُّ على هذا المعنى الَّذي أراده النَّاظم والَّذي قاله أيضًا الفُضيل بن عياض والَّذي لا مناص عن معرفة معناه مِنَ الحديث وهو أنَّها سجنٌ للمؤمن باعتبار أنَّه لا ينطلق فيها بشهواته وملاذِّه لا يحبسه شيء كما قال عمر بن عبد العزيز -رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ- لمَّا قال: (التَّقِيُّ مُلْجَمٌ لَا يَفْعَلُ كُلَّ مَا يُرِيدُ)[2].

يدلُّ على هذا -كما ذكرتُ لكم الَّذي قاله الفضيل بن عياض-: ما جاء في الصَّحيحين أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**حُفَّتِ**»[3] وفي رواية: «**حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»[4] هذه المعاني تُوضِّح ما أراده النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فليس معنى أنَّها سجنٌ للمؤمن بمعنى أنَّه ممنوع فيها عن كلِّ شيءٍ، وإنَّما هو ممنوعٌ عمَّا يقطعه عن الآخرة، وهو مع هذا أيضًا لا ينبغي له أن يركن إليها وأن يُحبَّها الحبَّ الجمّ الَّذي يقطعه عن عمل الآخرة.

❋ ❋ ❋

[1] عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ -فِي مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ- قَالَ: (هِيَ سِجْنُ مَنْ تَرَكَ لَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَأَمَّا الَّذِي لَا يَتْرُكُ لَذَّاتِهَا وَلَا شَهَوَاتِهَا فَأَيُّ سِجْنٍ هِيَ عَلَيْهِ!) "الزهد الكبير" للبيهقي رحمه الله؛ ص:١٥٥.

[2] "شرح السُّنَّة" للإمام البغوي رحمه الله؛ ج١٤، ص:٣٤١.

[3] رواه مسلم (٢٨٢٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[4] رواه البخاري (٦٤٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تقلُّب الدُّنيا بِأَهْلِهَا

ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَا

«تُطْعِمُكَ الطَّعَامَ» هذا ما يُحصِّله العبد -المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، وتشترك فيه بهيمة الأنعام معهم- مِنْ أنَّهم يأكلون ويشربون، فيطعمون.

_ ولكن حال المؤمن أنَّه كما ذكرنا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الأعراف:٣٢].

_ والكافر قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[محمد:١٢].

فالجميع يطعمون ويأكلون ويشربون، وهذا الَّذي يطعمونه ويأكلونه ويشربونه إنَّما يبني ذواتًا، يبني أجسادًا، وهذه الأجساد تَبلى وتأكلها الأرض كما جاء في الصَّحيحين -وغيرهما- عن النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال: «**وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُو عَجْبُ الذَّنَبِ**»[1] تأكله الأرض، فالنَّاظم يقول الَّذي تأكله وتتمتَّع به وتلتذُّ به وتَطعمه مِنَ الدُّنيا إذا نظرتَ إلى حقارته فإنَّها: «سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَا»

فَمَرَدُّكَ إليها، فكيف تركن إليها؟ هو أراد أن يُزهِّد في أمر الدُّنيا على مُقتضى المنهج الشَّرعيِّ، لأنَّ النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لم يكن صُوفيًّا داعيًا إلى التَّصوف، لهذا كلامه مِنْ أوضح الواضحات، حتَّى قال: «فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا» وهذا البيت سيأتي في الكلام على الزُّهد عند أهل السُّنَّة والزُّهد عند المتصوِّفة -إن شاء الله-.

فهُو يقُول: «سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَا».

نَادَاهُم صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا دُفِنُوا أَيْنَ الأَسِرَّةُ وَالتِّيجَانُ وَالحُلَلُ
أَيْنَ الوُجُوهُ الَّتِي كَانَتْ مُحَجَّبَةً مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الأَسْتَارُ وَالكُلَلُ
فَأَفْصَحَ القَبْرُ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَلَهُمْ تِلْكَ الوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا فَأَصْبَحُوا بَعْدَ ذَاكَ الأَكْلِ قَدْ أُكِلُوا

[1] متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا حال الدُّنيا، النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبَّر بالبلَى وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنَّ الأرض تأكل جميع الأجساد إلَّا أجساد الأنبياء -أو كما قال نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-[1]، مُراد النَّاظم أنَّ الإنسان ينظر إلى حال الدُّنيا وإلى ما ستؤُول إليه هذه الدُّنيا «سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَا».

ولمَّا ذكر الطَّعام -وهو مِنْ أهمِّ ما يُقَوِّم بدن المرء- ذكر اللِّباس وهو أهم ما يستر بدن المرء، فقال:

وَتَعْـرَى إِنْ لَبِسْـتَ بِهَـا ثِيَـابًـا   وَتُكْسَـى إِنْ مَـلَابِسَهَـا خَلَعْتَـا

هذا البيت عندي فيه إشكالٌ، وذكرتُ لكم مِنْ قبل أنَّ هذه المنظومة لَم يتناولها العلماء بالشَّرح، هذا في كثيرٍ من الكتب، وإن كان العلماء اعتنوا بها وتناقلوها رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، هذا الإشكال مِنْ جهة الباء في قوله:«بِهَا» والمُرَاجَعُ مِنَ المخطوطات وهي ثلاث نُسخ الَّتي بين يديَّ الآن -والمطبوع أيضًا- كلُّها بـ «الباء»، مِنْ جهة ماذا؟ مِنْ جهة أنَّ الباء هنا حقيقتها ومعناها: المصاحبة أو الملاصقة، بمعنى أنَّه ملاصقٌ في لُبسه لعيشه في الدُّنيا، والَّذي يظهر من قول النَّاظم أنَّه أراد المعنى الَّذي تتضمَّنه اللاَّم: وهو الملكية أو التَّعليلية، فلو قيل:

وَتَعْـرَى إِنْ لَبِسْـتَ لَهَـا ثِيَـابًـا   وَتُكْسَـى إِنْ مَـلَابِسَهَـا خَلَعْتَـا

كان المعنى قويمًا، ولكن إذا قُلنا بأنَّ الباء هُنا أو بأنَّ هناك نسخةٌ يُحتاج أن تُراجع فيها اللاَّم[2]، والنُّسخ الَّتي بين يديَّ كلُّها بالخط المغربيِّ، والخطُّ المغربيُّ فيه -كما تعرفون- نوعٌ مِنَ الاختلاف عن خطِّ المشارقة، قد تدخل بعض الحروف وقد تُقْصَر وقد تُنقص -على حسب ما ألفوه مِنَ الخطِّ-، على كلِّ حالٍ هنا قال:«وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَابًا» والعبد لا بُدَّ أن يلبس ثيابًا في هذه الحياة الدُّنيا.

أو نقول بأنَّ الباء هنا تتضمَّن معنى «في الظَّرفية» بمعنى أنَّها متضمِّنة للظَّرفية:«فِيهَا ثِيَابًا» أو بمعنى الملاصقة والمصاحبة، يحتمل هذا ويحتمل هذا، ولكن النَّاظم الَّذي يظهر مِنْ سياق كلامه أنَّه أراد أن لا تجعل الدُّنيا هي الهمَّ الوحيد.

❊ ❊ ❊

[1] قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ) صحَّحه الألباني في "سنن أبي داود" (١٠٤٧)، من حديث أوس بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

[2] مِن بَابِ مَزِيدِ فائدَةٍ، ضَبطهَا بعضُ المحقِّقين باللَّامِ (لهَا)، والْمَخطُوطَات الَّتي اعتمَدوهَا -وإنْ كُنتُ لَا أدْرِي فِي أيِّ نسخةٍ بِالتَّحدِيد جَاءت باللَّام- سَبْع وهي: **الأُولى**: نُسخة خَطِّيةٌ لِدِيوان أبِي إسحَاقَ الألبِيرِي بِمَكتبَة دِيرِ الأسْكُوريَال -إسْبانيَا- برَقمِ (٢/٤٠٤) تَاريخُ نسْخِها: ٦٧٦هـ. **الثَّانية**: نُسْخةٌ خطِّية بمَركزِ الملكِ فَيصَل -السَّعودِيَّة- بِرقمِ (٤٤٧/١٤). **الثَّالثة**: نُسْخةٌ خطِّية بمَركزِ الملكِ فيصَل -السَّعودِيَّة- بِرقمِ (٢٩٤٢/١٦/ف). **الرَّابعة**: نُسخةٌ خَطِّيةٌ بِالمِكتبةِ الحسنِيَّة -المِغرب- برَقم (٤٩٢). **الخامسة**: نُسخةٌ خطيَّة بالمِكتبةِ الحسنيَّةِ -المِغرب- برَقم (٢٣٤٩). **السَّادسة**: نُسخةٌ خطيَّة بِالمكْتبةِ القَاسميةِ بزَاويَة الهَامل -الجَزائِر- برقْم (١٢٠). **السَّابعة**: نُسخةٌ خطيَّة بمُؤسَّسة المِلك عَبدالعَزيز آل سعُود للدِّراسَات الإسْلامِية بالدَّار البَيضاء -المِغرب- برقْم (٣٠٩).

نِعمَةُ السِّترِ

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتَعْـرَى إِنْ لَبِسْـتَ بِهَـا ثِيَـابًـا وَتُكْسَـى إِنْ مَـلاَبِسَهَـا خَلَعْتَـا

وهذا مِنْ أعظم النِّعم الَّتي مَنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بها على عباده وهي نعمة السِّتر، كما قال سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١] والزِّينة تكون باللِّباس، وقبلها قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾[الأعراف:٢٦] فجمعت هذه الآية بين اللِّباسين: لباس الظَّاهر ولباس الباطن، وقدَّم لباس الباطن ألا وهو تقوى الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فاللِّباس نِعمةٌ، ولهذا كانت مِنْ أوَّل الفتن الَّتي تعرَّض لها ابن آدم هي فتنة اللِّباس في قصَّة آدم وحوَّاء عَلَيْهِمَا ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾[الأعراف:٢٢]، بعدها ماذا قال ربُّنا سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في حقِّ بني آدم؟ ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف:٢٧] هذا محض ما أراده الشَّيطان، ولهذا الشَّيطان الآن في هذا العصر -خصوصًا مع هذه التِّقنيات وهذه الوسائل- مِنْ أكثر الأشياء الَّتي يقوم فيها بإغواء بني آدم: فتنة التَّعرِّي، وهي مِنْ أوَّل الفتن وأعظمها وأشرِّها وأشدِّها، أكان ذلك بين الرِّجال أو كان ذلك بين النِّساء -والله المستعان-.

فهنا يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا»، «بِهَا» سنبقى على ما بين أيدينا مِنَ النُّسخ المطبوعة والمخطوطة.

وَتَعْـرَى إِنْ لَبِسْـتَ بِهَـا ثِيَـابًـا وَتُكْسَـى إِنْ مَـلاَبِسَهَـا خَلَعْتَـا

تُكسى ماذا؟

_ تُكسى حقيقةَ ما ينبغي أن تُكسى بِهِ وهُوَ سِترُ الحال فلا يفضحك الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في رؤوس الأشهاد في هذه الحياة الدُّنيا.

_ كما أنَّ الإنسان أيضًا يُكسى جلال التَّقوى ومقامها.

وقد ذكرنا لكم أنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ ذكر اللِّباسين في موضع واحد: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف:٢٦]، واللِّباس يُطلق على ما يستعمله الإنسان، ما الَّذي يدلُّ على هذا؟ يدلُّ على هذا حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصَّحيحين: (فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ)[1] والحصير لا يُلبس وإنَّما يُستعمل في الجلوس أو في الصَّلاة -أو ما شابه ذلك-، كذلك في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة:١٨٧]، ولهذا ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ لمَّا تكلَّم على مسألة تحريم استعمال الحرير للرِّجال وأنَّه ليس مقصورًا على اللِّباس قال: (وَلَوْ لَمْ يَأْتِ النَّصُّ لَكَانَ النَّهْيُ عَنْ لُبْسِهِ مُتَنَاوِلًا لافْتِرَاشِهِ كَمَا هُوَ مُتَنَاوِلٌ لِلالْتِحَافِ بِهِ، وَذَلِكَ لُبْسٌ لُغَةً وَشَرْعًا كَمَا قَالَ أَنَسٌ: «قُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ»)[2].

فهنا يقول:

وَتَعْرَى إِنْ لَبِسْتَ بِهَا ثِيَابًا ... وَتُكْسَى إِنْ مَلابِسَهَا خَلَعْتَا

«إِنْ مَلابِسَهَا» هذا يُزيل نوعًا مِنَ الإشكال الَّذي قدَّمناه وهو أنَّ النَّاظم لَمْ يُرد اللِّباس الشَّرعيَّ -الَّذي نستطيع أن نفهمه مِنَ المعنى الظَّاهر- وهو كساء العورة، وإنَّما أراد لباس الباطن، فإذا لبستَ بها لباسًا يُخرجك عن لباس التَّقوى فإنَّك تعرى في الوقت الَّذي تُريد أن تكون فيه كاسيًا.

***

كفى بالموت واعظًا

ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُنبِّهًا إلى حال الموت والخروج مِنَ الدُّنيا:

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ ... كَأَنَّكَ لَا تُرَادُ بِمَا شَهِدْتَا

وهذا البيت تقريبًا شُرح بما لا نستطيع أن نزيد عليه في أوَّل مجلسٍ عند قول النَّاظم:

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتًّا ... وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا

[1] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ ثُمَّ قَالَ: قُومُوا فَأُصَلِّيَ لَكُمْ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ فَنَضَحْتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ) متفق عليه، واللفظ لمسلم (٦٥٨).

[2] "إعلام الموقعين" لابن القيّم رحمه الله؛ ج١، ص:٥٤٦.

وَتَدْعُــوكَ الْمَنُــونُ دُعَـاءَ صِـدْقٍ أَلَا يَـا صَــاحِ أَنْـتَ أُرِيـدُ أَنْتَـا

إلَّا أنَّه أعاد هنا إلى مسألة الاعتبار، بأن تعتبر بغيرك فإنَّ السَّعيد مَن وُعِظَ بغيرِه؛ فقال: «وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ».

«خِلٍّ» الخِلُّ: المقصود به الخليل، وهو مَنْ تخلَّلت محبَّته قلبك. والخُلَّة ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ، ولَم يتَّخذ الله مِنَ الخلق إلَّا إبراهيم ومُحمَّدًا عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الخُلَّة، وهي أعلى مراتب المحبَّة[١].

وهنا يقول: «وَتَشْهَدُ» تشهد يعني تحضر أو تَرى، لفظ (شَهِدَ) يُطلق على هذا وعلى هذا.

وَتَشْهَــدُ كُـلَّ يَـوْمٍ دَفْـنَ خِـلٍّ كَأَنَّــكَ لَا تُــرَادُ بِمَـا شَهِدْتَـا

أنتَ تعلمُ أنَّ هذا المدفون: يُغسَّل، يُصلَّى عليه، يُحمَلُ، يُدفن، فهل أنتَ تُغيِّب عن ذهنك وعن بالك وعن علمك وحقيقتك أنَّ الَّذي هو حاصل لهذا سيحصل لك في يوم مِنَ الأيَّام! النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا رأى جنازة قال: «**إِنَّ لِلْمَوْتِ فَزَعًا**»[٢]، فالموت له فزع مِنْ أوَّلِ أحواله: مِنْ سكرة الموت، مِنْ تغسيل الميت، تحنيطه، تكفينه، حمله، الصَّلاة عليه، حمله، دفنه، إلى آخر ما يتعلَّق به ممَّا لا يعلم مِنْ حال العبد بعد دخوله في قبره إلَّا الله جَلَّجَلَالُهُ.

فهو يقُول:

وَتَشْهَــدُ كُـلَّ يَـوْمٍ دَفْـنَ خِـلٍّ كَأَنَّــكَ لَا تُــرَادُ بِمَـا شَهِدْتَـا

كأنَّك تُغسِّل ولا تظن أنَّك ستُغسَّل، تَحْمِل ولا تظن أنَّك ستُحْمَل، وتُصلِّي على النَّاس ولا تظنُّ أنَّك يُصلَّى عليك، وتَحمِل ولا تظنُّ أنَّك تُحمل، تَدْفِن ولا تظنُّ أنَّك تُدفَن، هذا كلُّه تَغْييبٌ لحقيقة الموت الَّتي لا يختلف فيها اثنان على الإطلاق.

الْمَوْتُ بَــابٌ وَكُــلُّ النَّاسِ دَاخِلُـهُ يَــا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ الْبَابِ مَـا الدَّارُ

---

[١] مِنْ بَابِ مَزِيد فَائِدَة: نَظَمَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم -حَفِظَهُ الله- مَرَاتِبَ الْمَحبَّةِ، وَمَا يَثْبُتُ مِنْهَا للهِ وَمَا لَا يَثْبُتُ، فَقَالَ:

مَرَاتِبُ الْمَحبَّـةِ احْفَظْهَـا وَهِـي عَشْـرٌ عَلَـى التَّرْتِيـبِ ذِكْرهَـا يَلِي
عَــلَاقَــةٌ، إِرَادَةٌ، صَبَــابَــــهْ كَـذَا الْغَـرَامُ فَادْرِ مَـا أَصَابَـهْ
مَـوَدَّةٌ، وَسَـادِسٌ مِنْهَـا الشَّغَـفْ عِشْقٌ ومَـنْ يُصِيبُهُ العِشْقُ ارْتَجَـفْ
تَتَيُّــمٌ، تَعَبُّــدٌ، وَالْخُلَّــهْ ثَــابِتَــةٌ للهِ فَـادْرِ الْــمِلَــهْ
إِرَادَةٌ، مَــــوَدَّةٌ كَــــذَلِكْ لَا تُثْبِـتِ الْبَاقِـي فَأَنْـتَ هَالِكْ
مِـنْ رَوْضَـةِ ابْـنِ قَيِّـمٍ نَظَمْـتُ ذَا مَـعَ ابْن عِـزٍّ فَاعْرِضَـنْ عَـنِ الْقَـذَا

[٢] عَن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِجَنَازَةٍ فَقَامَ، وَقَالَ: قُومُوا، فَإِنَّ لِلْمَوْتِ فَزَعًا) صححه الألباني رحمه الله في "صحيح ابن ماجه" (١٢٦٣).

الدَّارُ دَارُ نَعِيمٍ إِنْ عَمِلْتَ بِمَا　　يُرْضِي الإِلَـهَ، وَإِنْ خَالَفْتَ فَالنَّارُ
هُمَا طَرِيقَانِ مَا لِلْمَرْءِ غَيْرُهُمَا　　فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ مَاذَا أَنْتَ تَخْتَارُ[١]

***

الدُّنيا دارُ ممرٍّ لا دارُ مقرٍّ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ　　لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا

لا يزال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في بيان حال الدُّنيا مع طالب العلم ومَنْ أقبل على العِلم.

وتقدَّم معنا أنَّه قد يكون هناك نوعٌ مِنَ الافتعال للمُصادمة بين السَّعيِ في الرِّزق وطلبه وبين طلب العلم وتحصيله، وإلَّا فإنَّ مَنْ حَكَّم الشَّريعة بمُجملها ومُفصَّلها وبقواعدها وفُروعها لا يظهر عنده هذا التَّعارض بأيِّ وجهٍ مِنَ الوجوه، ولكن النَّاظم كأمثاله ممَّن ساروا على طريقة السَّلف في باب الزُّهد والورع يرَوْنَ أنَّه لا يصلُحُ لمن أراد الآخرة أن يتوسَّع في أمر الدُّنيا إذا كان ذلك سيغلب عليه وسيمنعه مِنَ الوصول إلى الآخرة، ولهذا قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فيما سنستقبل من الأبيات:

فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ مِنْهَا　　مِنَ الفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا

فهو يُريد أن يُقرِّر على أنَّه لا نفع ولا فائدة في الفاني إذا قد حُرِمتَ الباقي.

وهنا يُقرِّر النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا البيت الغاية الَّتي خُلق الخلق لأجلها عمومًا، مُستفادًا مِنْ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذَّاريات:٥٦]، ومِنْ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[ص:٣٨]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦] إلى غير ذلك مِنَ الآيات الَّتي يُبيِّن الرَّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها أنَّ الغاية الَّتي خَلق الخلق لأجلها هي القيام بعبادته.

ومِنَ المتقرِّر في الشَّريعة أنَّ هذه العبادة لها مقاصد ولها وسائل، ومِنَ الوسائل: أن يكون عند المرء مِنَ الدُّنيا ما يُعينه

[١] لأبي العتاهية.

على الوصول إلى الآخرة، قد تقدَّم معنا في مناسبةٍ مِنَ المناسبات -في هذا الشَّرح- ذِكر قول النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدسي -وقد كان يُتلى-: «**إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ**»[1] فالله أنزل هذا المال وخَلَق هذا الخلق كلَّه بسمائه وأرضه ليكون وسيلة للعبد للوصول إلى عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فقول النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ هنا:

وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقتَا

يعني أنَّ الغاية الَّتي خُلقتَ مِنْ أجلها هي العبادة، وهذه العبادة لها وسيلة.

ولكن إذا كان الإنسان ليس له غايةٌ في هذه الحياة الدُّنيا إلَّا أن يعمرها فإنَّ هذا مذموم، وأمَّا مُجرد العمران والبناء أكان هذا العمران مِنْ جهة البناء أو مِنْ أيِّ جهة مِنَ الجهات هذا مطلبٌ شرعيٌّ وممَّا جاءت به الشَّريعة وممَّا قصده الأنبياء والرُّسل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا مُتقرِّر في كلِّ شريعة أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والنَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ يُريد أن يُقرِّر أنَّ هذه الدُّنيا ليست قرارًا لأحد وأنَّ عمرانها بما يُوصل إلى الآخرة، ولهذا ابْتَنَى الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتزوَّجوا وكفلوا نساءً وأطفالًا، إلى غير ذلك ممَّا كان مِنْ أعمالهم عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وسار على طريقهم أتباعهم.

وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقتَا

لأنَّ هذه الدُّنيا معبر اعتبار، جُعلت وسيلة للوصول إلى الآخرة، فأنتَ مِنْ أَجلِ أن تعبرها لا بدَّ وأن تعمرها، وهذا العمران لا يكون سبيلاً ولا سببًا لتخريب آخرتك.

«وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا» فقط؛ هكذا يُفهم البيت: لَم تُخلَق لِتعمُرها فقط، ولكن: «لِتَعْبُرَهَا فَجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا» هذا يُوضِّحه البيت الَّذي بعده، ولهذا قال:

وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

هذا البيت الَّذي يليه: «وَإِنْ هُدِمَتْ» هذه الدُّنيا الَّتي أردت عمارتها، «وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا» متى؟ إذا كانت

[1] (إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ، لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "السِّلسلة الصَّحيحة" (١٦٣٩) من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ستصل إلى تحطيم الحصن الَّذي حصَّنت به دينك «وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا» والحصن هو السُّور الَّذي يتَّخذه الإنسان ليستر أملاكه أو ليحفظ به أملاكه، ولهذا تُسمَّى الأذكار عند كثير من العلماء بـ: «الحِصْن»، وقد سمَّى كثيرٌ مِنْ أهل العلم كتبهم الَّتي صنَّفوها في الأذكار بـ: «الحصن»، كـ: «الحصن الحصين» لابن الجزري، وغيرها، وهنا قَال:«وَحَصِّن أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا».

«وَإِنْ هُدِمَتْ» بمعنى أنَّك سعيتَ لطلبها ولَم تُحصِّل منها غايتك وكان في تحصيلك لها ما يؤخِّرك عن العمل لآخرتك «فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا» ولا تلتفت إليها، ولهذا مَنْ نظرَ إلى سيرة السَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ –وذكرنا طرفًا مِنْ هذا– أنَّهم عندما تعارض معهم –أو عندهم– طلبهم للعلم مع بقاء ما يملكون فضلاً عن طلب ما لا يملكون تخلّوا عمَّا يملكون حتَّى باع مالك –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَحِمَهُ– سقف بيته في طلب العلم[1]، وكان شُعبة يقول –وغير شُعبة ممَّن هو أعلى مِنْ طبقته– يقول: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ)[2]، وهكذا كان أئمَّة السَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فحيث كانت الدُّنيا قاطعة عن العلم وعن الآخرة فلا خير فيها، لا خير فيها للإنسان.

وهنـا قـال:

وَإِنْ هُدِمَـتْ فَزِدْهَـا أَنْـتَ هَدْمًـا	وَحَصِّـنْ أَمْـرَ دِينِـكَ مَـا اسْتَطَعْتَـا

وكان بعض السَّلف يقول: (مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا، تِلْكُمُ الدُّنْيَا فَلاَ تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا)[3]، والآخر يقـول:

دُنْيَـا تُجَـدِّدُ كُـلَّ يَـوْمٍ غَدْرَهَا	وَالنَّـاسُ مِنْهَـا فِـي عَنِيـفِ صِـرَاعِ
يَتَنَازَعُـونَ عَلَـى رَخِيـصِ مَتَاعِهَا	وَغَـدًا يَفُـضُّ الْمَوْتُ كُـلَّ نِـزَاعِ

هذا حال الدُّنيا كما يُصوِّره لنا القرآن وكما صوَّره لنا النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في سُنَّته أنَّها مآلها إلى الهدم، ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤] بمعنى أنَّهُ مهما أعمرها الإنسان فإنَّها لا بدَّ وأن تنتهي، كذلك في قول ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ

---

[1] قال ابن القاسم: (أَفْضَى بِمَالِكٍ طَلَبُ الْعِلْمِ إِلَى أَنْ نَقَضَ سَقْفَ بَيْتِهِ فَبَاعَ خَشَبَهُ) "ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله؛ ج١، ص:١٣٠.

[2] قال شُعبة رحمه الله: (مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ، لَقَدْ أَفْلَسْتُ حَتَّى بِعْتُ طِسْتًا لِأُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ) "الجامع لأخلاق الراوي" للخطيب البغدادي رحمه الله، ص٢٢.

[3] "الزهد" للإمام أحمد؛ ص:٧٨، عن المسيح بن مريم ﷺ.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[الكهف:٤٥]

ثمَّ قال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦] لأنَّ الأرض أصلها خرِبة ولا يُزيِّنها إلَّا المال والبنون، فإنَّها لا تَظْهر زينتها إلَّا بهذين الأمرين: بالمال وبالبنين.

«وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا» واسعَ إلى تحصين أمر دينك.

قد تقدَّم كثيرٌ مِنَ الأحاديث الَّتي ذكرناها مِنْ قول النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[1]، وقول النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي: الْمَالُ**»[2] وغيرها مِنَ النُّصوص، فقد تكون الدُّنيا سببًا لزوال الدِّين ولهذا جاء في صحيح مسلم قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[3] وهذا لفظ مُسلم، وجاءت زيادة عند أحمد: «**قَلِيلٌ**»[4]، هذا البيع أو الشِّراء للدُّنيا بالدِّين هو الَّذي عناه النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فحيث كان بناء الدُّنيا بخراب الآخرة فاهدم بناء الدُّنيا، وعليك ببناء الآخرة.

جاء رجل إلى أحد السَّلف فقال: (مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟) -أحد الملوك والأمراء-، فقال له: (لِأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ، وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ، فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ)[5]، فهذا هو الَّذي أراده الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، نظرة السَّلف إلى الزُّهد وطلب الدُّنيا ليست فلسفية صُوفيةً، وسيأتي التَّنبيه عند قوله رَحِمَهُ اللَّهُ لأنَّه وضَّح معالم في طريق الزُّهد حتَّى قال:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ... لَأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَا

وهنا يقول:

وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْمًا ... وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا ... إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا

---

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٧٦)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٣٦)، من حديث كعب بن عياض رضي الله عنه.

[3] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا) رواه مسلم (١١٨).

[4] (يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ) "مسند الإمام أحمد" (٨٠١٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[5] "المجالسة وجواهر العلم" للدينوري رحمه الله؛ ج٨، ص: ١٥١؛ عن أبي حازم رحمه الله.

الحَظْ إلى الصِّياغة في فهم الأبيات، لأنَّه لا يدعو إلى زُهدٍ صُوفيٍّ فلسفيٍّ يقطع المرء عن الدُّنيا، بل بعض الفلسفة الصُّوفية في الزُّهد قطعتهم حتَّى عن الآخرة فعاشوا حياة ما يُسمُّونه بـ:«البُله»، وأيضًا قالوا: (نَحْنُ لَا نَعْبُدُ اللهَ رَغْبَةً فِي جَنَّتِهِ) كما صرَّح بهذا الغزَّالي في «إحياء علوم الدِّين» وصرَّح به غيره، حتَّى وضعوا حديثًا على النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنَّه قال:«أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ البُلْهُ»[1] ووضعوا عليه أحاديث بأنَّنا:«مَا عَبَدْنَاكَ طَلَبًا فِي جَنَّتِكَ وَلَا خَوْفًا مِنْ نَارِكَ»، كما يحكونه عن رابعة وعن غيرها مِنَ المنتسبين إلى تلك النِّحلة الباطلة، وهذا سيقرِّره النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ كما قلتُ لكم في هذا البيت:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا   لَأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَا

* * *

الْمُؤْمِنُ لَا يَحْزَنُ عَلَى فَوَاتِ الدُّنْيَا

وهنَا قَال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا   إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا

لا بدَّ لطالب الآخرة أن يفوته شيءٌ مِنَ الدُّنيا، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ في آخر كتابه «قاعدة في المحبَّة»: (أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ)[2] بمعنى أنَّ الإنسان إذا أقبل على الآخرة فإنَّه سيفوته ما يفوته مِنْ أمر الدُّنيا.

فهنَا يقُول:«وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا» متَى؟ «إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا» لا تحزن، لا يُصيبك الحزن والأسى والتَّوجع على ما فات مِنْ أمر الدُّنيا، لِمَ؟ لأنَّك فُزتَ بأمر الآخرة، والعبد في الآخرة بين فائزٍ وخاسرٍ، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كتاب الكريم:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] معناهُ؟ مفهومُهُ؟ أنَّ مَنْ لَمْ يدخل الجنَّة فإنَّ مآله إلى النَّار وبئس القرار -نسأل الله العافية والسَّلامة-، وهذا مُقرَّر في كثيرٍ مِنَ الآيات:﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

[1] "العلل المتناهية في الأحاديث الواهية" لابن الجوزي رحمه الله (١٥٥٨).

[2] "قاعدة في المحبة" ص:٧٢.

[الزمر:١٥]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الحج:١١]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف:٩] وهنا هذا الَّذي يُقرِّره النَّاظم.

وتقدَّم معنا أيضًا ذِكرُ قوله تعالى -في بعض الأبيات الَّتي ذكرها النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد:٢٣] الحزن على ما فات مِنْ أمر الدُّنيا يُورث الهمَّ والغمَّ ولهذا النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أرشدنا إلى ترك ذلك حتَّى إذا كان في بعض الأُمور الشَّرعية الَّتي تُوصلنا إلى رضا الله وقد بذلنا فيها جُهدنا أن لا نُتبع أنفسنا حسرةً عليها كما في صحيح مسلم في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ**[١] **اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»[٢] بمعنى أنَّك قد بذلت جُهدك فلم تصل إلى غايتك ومُرادك فإنَّك تقول: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**» فتستريح مِنْ هذا؛ ولهذا النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وضَّح هذه الحقيقة أكثر وأكثر فقال كما في صحيح مسلم في حديث أبي يَحيى صُهيب بن سنان الرُّومي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٣] لاحظ إلى هذا المعنى، فالمؤمن لا يُتبع نفسه ما فاته.

❊ ❊ ❊

مَا لَا تَبْلُغُهُ نَفْسُكَ لَا تُتْبِعهُ عَيْنَكَ

وأيضًا ما لا تبلغه نفسك فلا تتبعه عينك، لماذا؟ لأنَّ الرُّوح تتبع البصر، فإذا أطلق الإنسان لعينه العنان تبعتها الرُّوح فتفسد، فقد لا تبلغ هذه المنازل الَّتي يُريد أن يصل إليها أو أن يُحصِّلها فيقع في الحسرات والنَّدم والأسف

[١] مِنْ بَاب مَزِيدِ فَائِدَة: قَال شَيْخُنَا مُصطَفى مَبْرَم حَفِظَهُ الله: (**قَدَرُ** اللهِ) هَذِهِ ضُبِطَتْ بِالْوَجْهَيْنِ، كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَلْفِظُهَا: (**قَدَّرَ** اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَل)، وَالأَفْصَحُ فِيهَا: (**قَدَرُ** اللهِ)، وَهَكَذَا ضَبَطَهَا لَنَا شَيْخُنَا العَلَّامَة ابْن عَقِيل عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ، وَهَكَذَا أَخْبَرَنِي بِأَنَّهُ ضَبَطَهَا الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ). اهـ (باختصار يسير).

[٢] رواه مسلم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣] رواه مسلم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه.

على ما يفوته مِنْ أمر الدُّنيا؛ وهكذا إذا ربَّى المسلم نفسه على مثل هذه النُّصوص ومثل هذه الأخبار استراح -كما يسمُّونه اليوم- مِنْ داء القلق والأمراض النَّفسية والهموم والغُموم، وإلَّا فإنَّه يتبع نفسه فتضيع، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[الحجر:٨٨] لا تمدَّنَّ عينيك، انقطع؛ والنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»[1] كان يدعو بهذا الدُّعاء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا كان حاله وحال أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

«وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا» متى؟ «إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا» كانوا يقولون:

مَـــا أَجْمَلَ الدِّيـنَ وَالدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا ... لَا بَـــارَكَ اللهُ فِـــي دُنْيَا بِـلاَ دِيـنِ

العاقل الَّذي عَلِم لماذا خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم أنَّه مهما استطال بالبنيان، مهما حصَّل مِنَ الأرصدة لا يُمكن أن يُحصِّل الدُّنيا بأسرها ولا يمكن أن يُحصِّل ما أرادته نفسه لأنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ**»[2].

❋ ❋ ❋

لا ينفع تحصيل الدُّنيا إن خسرت الآخرة

قَال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَا تَحْـــزَنْ عَلَـى مَـــا فَاتَ مِنْهَـــا ... إِذَا مَـــا أَنْتَ فِـــي أُخْـــرَاكَ فُزْتَـــا

فَلَيْـسَ بِنَافِـعٍ مَـــا نِلْـــتَ مِنْهَـا ... مِـنَ الفَانِـي إِذَا الْبَاقِـي حُرِمْتَـا

هذا البيت هو الَّذي يوضِّح ما سبق ويُوضِّع المواطِنَ المُشكِلَةَ الَّتي قد تقع في بعض آثار السَّلف، ويُوضِّح ما جاء في مسند الإمام أحمد وفي سُنن التِّرمذي بسندٍ صحَّحه جمعٌ مِنَ الأئمَّة -الأعمش صرَّح فيه بالتَّحديث- مِنْ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مرَّ عليه هو وأُمّه وهما يُصلحان خُصًّا لهم -بيتٌ

[1] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لمسلم (١٠٥٥).

[2] متَّفقٌ عليه، من حديث أنس بن مالك ﷺ، واللفظ لمسلم (١٠٤٧).

مِنَ النَّخل وسعفه فيصلحونه بالطِّين، يُطيِّنونه-، فلمَّا رآه قال:«مَا هَذَا؟» قال: (فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ) قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:«مَا أَرَى الأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ»[1]، وجاء في سنن التِّرمذي في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جلس على حصيرٍ فأثَّر في جنبه، فقال له ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟) فقال:«مَالِي وَلِلدُّنْيَا»[2] هذه الأحاديث يُبيِّنها مثل هذا الفهم، وإلَّا فإنَّ هذه الشَّريعة لا تدعو -كما قلتُ لكم مرارًا وكما سيأتي أيضًا في الكلام على الزُّهد عند النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ- لا تدعو إلى زهدٍ فلسفيٍّ صوفيٍّ يقطع الإنسان عن الدُّنيا حتَّى -كما قلتُ لكم- أنَّ بعض المتصوِّفة الَّذين بلغ بهم التَّصوُّف إلى حدٍّ كبيرٍ في الزَّندقة أنَّه قطع نفسه عن الدُّنيا وعن الآخرة وصرَّحوا بأنَّهم لا يعبدون الله لأجل الجنَّة، والمسلم يُعْمِل هذه النُّصوص في محلِّها.

وهنا قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:«فَلَيْسَ بِنَافِعِ مَا نِلْتَ مِنْهَا» يعني لا ينفعك الَّذي تناله مهما نِلتَ وإن تطاولتَ في البنيان كما في حديث أشراط السَّاعة[3]، «مِنَ الفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا» ما الفاني؟ الدُّنيا. وما الباقي؟ الآخرة، وهي دار الخلود ودار البقاء ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣].

❁ ❁ ❁

بَيَانُ الضَّحِكِ الْمَذْمُومِ وَالضَّحِكِ الْمَحْمُودِ «١»

لا يزال الكلام موصولًا على ما ذكره النَّاظم -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاهُ- مِنَ الكلام على التَّحذير مِنَ الدُّنيا وأنَّها مِنْ أعظم العوائق الَّتي تقطع طالب العلم عن طلبه للعلم وتقطع كلَّ سائرٍ إلى الآخرة عن سَيره.

و«الدُّنيا» هذا اللَّفظ عامٌ يدخل فيه أفرادُ وأجزاء ما يقع في هذه الحياة الدُّنيا، ومِنْ هذا الأمر الَّذي يقطع العبد عن صلاحه وعن سيره: مُصاحبة السَّيئين أو الأشرار أو الفاسدين أو السُّفهاء؛ فإنَّ مِنْ أعظم العوائق الَّتي تقطع العبد عن سيره: رفقاء السُّوء، ولهذا قال النَّاظم هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا ... فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا

[1] صححه الألباني رحمه الله في "صحيح ابن ماجه" (٤١٦٠)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[2] قال ﷺ:(مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) صححه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٥٦٦٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[3] قال ﷺ:(...وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ) رواه مسلم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَمَـنْ لَكَ بِالسُّـرُورِ وَأَنْـتَ رَهْـنٌ ... وَمَـا تَـدْرِي أَتُفْـدَى أَمْ غُلِلْتَـا؟
وَسَـلْ مِـنْ رَبِّـكَ التَّوْفِيـقَ فِيهَـا ... وَأَخْلِصْ فِـي السُّـؤَالِ إِذَا سَأَلْتَـا
وَنَـادِ إِذَا سَجَـدْتَ لَـهُ اعْتِرَافًـا ... بِمَا نَـادَاهُ ذُو النُّـونِ بْـنُ مَتَّـى

إلى آخر ما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، فهو هنا يُحذِّر مِنْ رفقاء السُّوء لأنَّهم مِنْ أعظم الأسباب القاطعة عن السَّير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكنَّه حذَّر هنا -مع التَّحذير من رفقاء السُّوء- مِنْ صفةٍ مذمومةٍ لهم وهي: الضَّحك في الباطل.

والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا نهى عن الضَّحك، والضحكُ فطرةٌ فطر النَّاس عليها وغريزةٌ غرزها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الإنسان كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾[النجم:٤٣] يعني خلق الأسباب الموجبة للضَّحك وخلق الأسباب الموجبة للبكاء، ومِنْ أهل العلم مَنْ قال إنَّ المراد -وهذا ظاهر اختيار الحافظ ابن جرير الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «تفسيره» عند هذه الآية[١]- مَنْ قال أنَّ المقصود بها: (أَضْحَكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبْكَى أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ)[٢]، مثل هذا النَّوع مِنَ التَّفسير إنَّما هو التَّفسير بالمثال أو التَّفسير بالنَّوع، لا يقصدون تفسير اللَّفظ كما هو، وإلَّا فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذي يُضحكهم في الآخرة كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾[المطففين:٣٤] هو الَّذي أيضًا أضحكهم في هذه الحياة الدُّنيا، خلق هذه الأسباب الموجبة للضَّحك وخلق الأسباب الموجبة للبكاء.

والضَّحك ليس مذمومًا على الإطلاق، والنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كان فقيهًا عالمًا فهو لَم ينهَ عن الضَّحك مُطلقًا لأنَّ هذا لا يُنهى عنه نهيًا مُطلقًا باعتبار ما دلَّت عليه نصوص الشَّريعة، ولهذا قيَّد الضَّحك بقوله:«وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا» لأنَّ السُّفهاء لا يضحكون إلَّا على ما يُؤيِّد سَفههم أو ما ينطلق به سَفههم -هذا أمرٌ معلوم-، فالكفَّار يضحكون والمؤمنون يضحكون، الصَّالحون يضحكون والفاسدون أيضًا يضحكون، لكنَّ الموجب للضَّحك ليس واحدًا، فهؤلاء يضحكون لموجبٍ للضَّحك وهؤلاء يضحكون لمُوجِبٍ للضَّحك، والله جَلَّ وَعَلَا فطر النَّاس -كما قلتُ لكم- على هذه الصِّفة: أنَّهم يضحكون إذا حصل مُوجبٌ للضَّحك وأنَّهم يبكون، والله جَلَّ وَعَلَا ذكر هذا في أُمور الدُّنيا وفي أُمور الآخرة، ذكرهُ عن أنبيائِه ورسله والصَّالحين مِنَ الأُمَم:

_ كما قال جَلَّ وَعَلَا في قصَّة سُليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا مرَّ على ذلك الواد فكان فيه النَّمل ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾[النمل:١٨-١٩] -أي أنَّه ضحك مُتبسِّما-

[١] قال الطبري رحمه الله: (وَقَوْلُهُ:﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَأَنَّ رَبَّكَ هُوَ أَضْحَكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ بِدُخُولِهِمْ إِيَّاهَا، وَأَبْكَى أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ بِدُخُولِهِمُوهَا، وَأَضْحَكَ مَنْ شَاءَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأَبْكَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْكِيَهُ مِنْهُمْ) "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" ج٧، ص:١٥٥.

[٢] جاء عن جماعة مِنَ السَّلف، منهم: مجاهد، والكلبي، والحسن... وغيرهم. انظر "تفسير البغوي" (٧/٤١٨). وأيضًا "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي رحمه الله (١٧/١٠٩).

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[النمل:١٩]، سارة لمَّا بُشِّرت بالغلام قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:٧١].

_ وهكذا أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يتعلَّق بأمر الآخرة في حال المؤمنين وفي حال الكافرين، كذلك في الدُّنيا بالنِّسبة لحال الكافرين كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[المطففين:٢٩-٣٠] ذكر بعد ذلك ضحك المؤمنين لأنَّه بمُقابلة ضحك الكافرين في الحياة الدُّنيا: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[المطففين:٣٤] بعد أن كان الكُفَّار يضحكون منهم في الدُّنيا، وهكذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[المؤمنون:١١١] في هذا الموضع مِنْ سورة المؤمنون ذكر الله جَلَّ وَعَلَا أنَّ من صفاتهم أنَّهم كانوا يضحكون على المؤمنين[١]؛ فالضَّحك واقعٌ أيضًا للمؤمنين في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[عبس:٣٨-٣٩].

مُوجب الضَّحك هو الَّذي ينبغي أن يَنظر فيه العبد، كَونه لا يضحك أحد هذا نوعٌ مِنَ الغلط، نعم نُقل عن جماعة مِنَ السَّلف كالحسن البصريِّ وغيره أنَّهم كانوا لا يضحكون، حتَّى أنَّ ابن سيرين كان يضحك ويحتج على الحسن ويقول: (اللهُ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَضْحَكُونَ)[٢].

والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقعت له مواقف كثيرة ضحك فيها صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضحك فيها أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، إلَّا أنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تقول كان ضحكه التَّبسُّم، قالت: (مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ)[٣].

وضحك صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم الخندق حتَّى بَدت نواجذُه[٤]، وجاء في الصَّحيحين لمَّا حصل الإيلاء -لمَّا آلى مِنْ نسائِه- فاستأذن أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأذن له -وقد كان لا يُؤذن لأحدٍ-، ثمَّ استأذن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأذن له فقال: (لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[٥] فذكر مِنْ حاله وحال امراته فضحك النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على

---

[١] يُشِيرُ شَيْخُنَا حَفِظَهُ اللهُ إِلَى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي **وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ** إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[المؤمنون:١٠٩-١١١].

[٢] (كَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ مِمَّنْ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْحُزْنُ فَكَانَ لَا يَضْحَكُ، وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ يَضْحَكُ وَيَحْتَجُّ عَلَى الْحَسَنِ وَيَقُولُ: اللهُ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَضْحَكُونَ) "الجامع لأحكام القرآن" للإمام القرطبي؛ ج١٠، ص:٣١٨.

[٣] متفق عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري (٦٠٩٢).

[٤] قالَ سَعْد بْنُ أَبِي وَقَّاص رضي الله عنه: (لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ضَحِكَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) ضعَّفه الألباني رحمه الله في "مختصر الشمائل" (١٩٩).

[٥] اللفظ لمسلم (١٤٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ذلك[1]، وضحكَ أيضًا لمَّا جاءه اليهوديُّ فقال: (إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ)[2] - والحديث أيضًا في الصَّحيحين-، وهكذا مواقف حصلت له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضحك فيها.

والتَّبسُّم نوعٌ مِنَ الضَّحك، ذكر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ «**تَبَسُّمَكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[3]، «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِقٍ**»[4]، حتَّى أنَّه ثبت عن بعض أصحابه في محضره أنَّه ضحك حتَّى وقع على الأرض كما جاء ذلك في صحيح مسلم في حديث أبي معبد المقداد بن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ قال: (ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلَى الْأَرْضِ)[5] فقال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِحْدَى سَوْآتِك يَا مِقْدَادُ**»[6] يعني كأنَّه انكشف منه شيءٌ، في قصَّة الحليب لمَّا شربه المقداد بن الأسود فجاء النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فأراد طعامًا، فقال: «**اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي وَاسْقِ مَنْ أَسْقَانِي**»[7] والحديث في مسلم -حديث المقداد بن الأسود-.

وأيضًا جاء في البزَّار أنَّ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا كانت في مجلسٍ مع النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فدعا دعاء وقال شيئًا فضحكت حتَّى سقط رأسها في حجره[8].

فالضَّحك إذَا لَم يكن عادةً غالبة في الإنسان أو كان بسببِ مُوجبٍ مِنَ البطر والأشر فإنَّه لا يكون مذمومًا، النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضحك وضحك أصحابه وضحك الأنبياء مِنْ قبله، فيُنظر إلى ما هيَّج هذا الضَّحك، ويُنظر أيضًا إلى جهة أُخرى وهو أنَّه لا يكون ديدنًا للإنسان، لا يكون الإنسان دائمًا عليه، لهذا جاء في سُنن التِّرمذي عن النَّبي

---

[1] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: (دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا. قَالَ: فَقَالَ: لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) اللفظ لمسلم (١٤٧٨).

[2] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: (جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ. **فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ تَصْدِيقًا لَهُ** ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾) متفق عليه، واللفظ لمسلم (٢٧٨٦).

[3] قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيح" (٥٧٢) : (حسن لغيره) اهـ، من حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

[4] رواه مسلم (٢٦٢٦)، من حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

[5] رواه مسلم (٢٠٥٥)، من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

[6] رواه مسلم (٢٠٥٥)، من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

[7] رواه مسلم (٢٠٥٥)، من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

[8] قالت عائشة رضي الله عنها: (لَمَّا رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طِيبَ النَّفْسِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ وَمَا أَسَرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ. **فَضَحِكَتْ عَائِشَةُ** حَتَّى سَقَطَ رَأْسُهَا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الضَّحِكِ. فَقَالَ: أَيَسُرُّكِ دُعَائِي؟ فَقَالَتْ: وَمَالِي لَا يَسُرُّنِي دُعَاؤُكَ. فَقَالَ: وَاللهِ إِنَّهَا لَدَعْوَتِي لِأُمَّتِي فِي كُلِّ صَلَاةٍ) قال الألباني رحمه الله في "السِّلسلة الصحيحة" (٢٢٥٤) : إسناده حسن.

عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث أبي هُريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ:«وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[1] والحديث حسَّنه الشَّيخ ناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

مرَّ الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وَرَحِمَهُ بشابٍ وهو يضحك فقال له: (يَا بُنَيَّ هَلْ جُزْتَ عَلَى الصِّرَاطِ؟ قَالَ: لَا؛ فَقَالَ: هَلْ تَبَيَّنَ لَكَ إِلَى الْجَنَّةِ تَصِيرُ أَمْ إِلَى النَّارِ؟ قَالَ: لَا؛ قَالَ: فَفِيمَ هَذَا الضَّحِكُ؟)[2]، يعني إذا كان الإنسان -كما يُقال-: (مَنْ أَكْثَرَ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ)[3].

والنَّبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيضًا مع ضحكه كانت تقع مواقف قد يطَّرد فيها الضَّحك بسبب أحد الصَّحابة كما جاء في قصَّة حمار مِنْ حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ في صحيح البخاري، حمار هذا رجلٌ مِنَ الصَّحابة واسمه عبد الله وكان يُسمَّى بهذا الاسم، وهو الَّذي كان جَلَده النَّبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الخمر، فَ: (كَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ)[4] -بهذا اللَّفظ-، فكان ربَّما جاء بشيءٍ للنَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِنْ طعامٍ كهدية ثمَّ يأتيه بشيءٍ آخر ثمَّ ثمَّ يأتِي بصاحب هذا الشَّيء الَّذي أهداهُ إليه فقال: (أَعْطِ هَذَا ثَمَنَ مَتَاعِهِ)[5] فيضحك النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مِنْ فعله ذلك، فجِيءَ به يومًا فجلده النَّبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الخمر فلعنه بعض الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ -والحديث مشهور- فقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:«لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»[6] عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فهذه الحال أيضًا كان مع النَّبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

_ فيُنظر كما قلتُ لكم -وأكرِّر هذا-: يُنظر إلى جهة مُوجب الضَّحك لأنَّ الكفَّار كانوا يضحكون على المؤمنين وربَّما يضحكون على ما يقع للمؤمنين مِنَ المساوئ والنَّكبات -وما أشبه ذلك- فيُسرُّون بها.

---

[1] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

[2] "تنبيه الغافلين" للسمرقندي، ص١٩٧.

[3] عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: (قَالَ عُمَرُ: يَا أَحْنَفُ، مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقْطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقْطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ) "مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب" لابن الجوزي رحمه الله، ص:١٧٠.

[4] عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: (أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) رواه البخاري (٦٧٨٠).

[5] قال ابن حجر رحمه الله: (أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى مِنْ طَرِيقِ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ بِسَنَدِ الْبَابِ: أَنَّ رَجُلا كَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُهْدِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الْعُكَّةَ مِنَ السَّمْنِ، وَالْعُكَّةَ مِنَ الْعَسَلِ، فَإِذَا جَاءَ صَاحِبُهُ يَتَقَاضَاهُ جَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَعْطِ هَذَا ثَمَنَ مَتَاعِهِ. فَمَا يَزِيدُ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْتَسِمَ وَيَأْمُرَ بِهِ فَيُعْطَى) "فتح الباري" ج١٢، ص٦٤.

[6] رواه البخاري (٦٧٨٠).

_ وكذلك يُنظر إلى جهةِ أن لا يكون هذا الأمر هو الغالب على الإنسان حتَّى يُعرف به.

❋ ❋ ❋

التَّحذِيرُ مِنْ مُجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ

هنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قال:

وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا ... فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا

«السُّفَهَاءِ» السُّفَهاء جمع سفيهٍ وهو الَّذي لا يُحسن التَّصرُّف ولا يكون على طريقٍ رَشَدٍ وإنَّما يَخبطُ خبط عشواء فلا يعتني بنفسه ولا بما يؤول إليه أمره.

«وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا» أيَّ يومٍ، لأنَّك لا تصحب هؤلاء السُّفهاء، وهذا مِنَ التَّحذير مِنْ رفقة السُّوء كما في الصَّحيحين في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ**»[1] ومثَّل له النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك، وكذلك في سُنن التِّرمذي من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[2] والآيات في هذا كثيرة؛ الإنسان يَشْرف بمن يصحب.

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ ... وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

المسلم يَشرف بصُحبة أهل العلم وحملة العلم وحملة السُّنَّة، إذا كان هذا في الحيوان فما خطبك بالإنسان؟ مِنَ الفوائد الَّتي ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصَّة أصحاب الكهف أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا ذكر الكلب لصحبته لهم[3]: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[الكهف:٢٢] فالمسلم ينظر إلى الصُّحبة (وَصُحْبَةُ الأَخْيَارِ لِلْقَلْبِ دَوَا).

كما قال المأمون كلمة -بنى عليها ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ مساحة كبيرة في كتبه منها في «مفتاح دار السَّعادة»- قال:

---

[1] متفق عليه، واللفظ لمسلم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

[2] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٣٥٤٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[3] قال ابن كثير رحمه الله: (وَشَمَلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكَتُهُمْ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَهَذَا فَائِدَةُ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ) من تفسيره؛ ج٩، ص: ١١٦.

(النَّاسُ ثَلاَثَةٌ: رَجُلٌ مِنْهُمْ مِثْلُ الْغِذَاءِ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَمِنْهُمْ كَالدَّوَاءِ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي حَالِ الْمَرَضِ، وَمِنْهُمْ كَالدَّاءِ مَكْرُوهٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ)[1] ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] ذكر أنَّ الطَّبقة الأولى: طبقة أهل العلم والصَّلاح والفضل الَّذين لا يأتيك مِنْ جهتهم إلَّا الخير، الطَّبقة الثَّانية: مَنْ يُصاحبك مِنَ النَّاس ممَّن فيه دَخَن ودَغَل وأشياء مِنْ هذه الأمور، الطَّبقة الثَّالثة: أهل الفسق والفجور والبدع -وما شابه ذلك-.

ومَنْ فَقه هذا المعنى استطاع أن يتعامل مع النَّاس، فالإنسان لا يستعمل الدَّواء في جميع الأحيان، ولا يُقْدِم على الدَّاء على الإطلاق، هذا يفعله كلُّ العقلاء، وكما قال الحُمَيْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيتين جليلين في هذا المعنى، يقول:

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا ... سِوَى الإِكْثَارِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا ... لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ[3]

لأخذ العلم أو إصلاح حال، أمَّا تكون الصُّحبة مُطلقة هكذا وفيها نوعٌ مِنَ الانفلات ويجلس الإنسان مع النَّاس كيفما تحدَّثوا، كيفما تصرَّفوا، كيفما فعلوا، كيفما كانوا، كيفما كانت حالتهم؛ كيف يفعل في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[الأنعام:٦٨]، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[النساء:١٤٠] إلى غيرها مِنَ النُّصوص، قال: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[الصافات:٥٦-٥٧]؟

❊ ❊ ❊

بَيَانُ الضَّحِكِ الْمَذْمُومِ وَالضَّحِكِ الْمَحْمُودِ «٢»

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ يَوْمًا» لِمَ؟ «فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا» لذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ عن المنافقين: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[التوبة:٨٢]، النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال كما في الحديث المتقدِّم: «وَلَا

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١٠، ص: ٢٨٢؛ عن المأمون.
[2] تجدون كلامه بالتَّفصيل في كتابه: "بدائع الفوائد"، ج٢، ص: ٢٧٣
[3] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١٩، ص:١٢٧.

تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[1]، وخَرج مرَّة على أصحابه وهم يضحكون فقال:«وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُعُدَاتِ تَجْأَرُونَ»[2] وهذا الحديث رواه أصحاب السُّنن أو بعض أصحاب السُّنن، وبنحوه في الصَّحيحين مِنْ حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لكن ليس فيه هذه الزِّيادة، حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الصَّحيحين أنَّه قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكتُم قَليلًا وَلَبَكَيْتُم كَثِيرًا»[3] قال: (فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومٌ أَشَدُّ مِنْهُ، غَطُّوا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ)[4].

«فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا» إذَا استمرأت الضَّحك وكان هذا هو عادتك الَّتي تعيش لأَجلها وتصحب النَّاس لأجلها وربَّما بعضهم يترصَّد المجالس الَّتي لا يكون فيها إلَّا الضَّحك وربَّما بعض النَّاس يستأجر مَنْ يُضحكه كحالة أهل التَّرف والفُسوق -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

❋ ❋ ❋

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ

ثمَّ قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ ... وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا؟

كيف للإنسان أن يكون بهذا الحال وهو لا يدري ما غُيِّب عنه مِنْ مآله ومصيره؟

«وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ» كيف تُسرُّ وكيف تضحك وكيف تكون في حبور ومسرَّة؟ «وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ» حتَّى تستمرئ الضَّحك، وحتَّى تكون حياتك في غالبها مبناها على الضَّحك وعلى الرُّكون إلى السُّرور!

[1] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٣٠٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[2] قال ﷺ:(إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا مَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ) حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٣٣٨٠)، من حديث أبي ذر ﷺ.

[3] متفق عليه، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

[4] متفق عليه، من حديث أنس بن مالك ﷺ، واللفظ لمسلم (٢٣٥٩).

«وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ» مرهونٌ، هذا حال الإنسان هو مرهون عند الدُّنيا كأنَّما تاجرٌ رهنه في هذه الحياة الدُّنيا، فهو مُرتَهن فيزيد ارتهانه إلى الدُّنيا بارتهانه بذنوبه، «وَمَنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْتَ رَهْنٌ» مُرتَهَن، ودائمًا الرَّهن يُسعى إلى فكِّه.

وَمَـــنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْـــتَ رَهْـــنٌ وَمَـــا تَـــدْرِي أَتُفْـــدَى أَمْ غُلِلْتَـــا؟

يعني لا تدري هل أنتَ ممَّن يُفدى أم أنتَ ممَّن غُلَّ، النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا يُشير إلى ما في صحيح الإمام مُسلم مِنْ حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال:«**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ**»[1] هذا نوعٌ مِنْ أنواع المجاوزة والشَّفاعة، بمعنى أنَّه يكون له مكان في النَّار ولكنَّه يُفدى برجلٍ مِنَ اليهود أو برجل مِنَ النَّصارى، والحديث في صحيح مُسلم، فهو يقول: ما تدري أأنت مِنْ هذا الصِّنف الَّذين يجعل الله لهم فداء في الآخرة؟

«أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا» والغُلُّ هو الطُّوق الَّذي يُوضع على رقبة الأسير مِنْ أجل جرِّه به، هذا الغلُّ ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا﴾ [المائدة:٦٤]، ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾[غافر:٧١] فهو يقول لك:«وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا؟».

الْمَوْتُ بَــابٌ وَكُــلُّ النَّاسِ دَاخِلُـهُ يَــا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ الْبَابِ مَـا الدَّارُ

الدَّارُ دَارُ نَعِيـمٍ إِنْ عَمِلَــتَ بِمَـا يُرْضِي الإِلَـــهَ، وَإِنْ خَالَفْــتَ فَالنَّـارُ[2]

في سُنن التِّرمذي أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال:«**مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا**»[3] والحديث حسَّنه الشَّيخ ناصر في جُملةٍ مِنْ كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

«وَمَا تَدْرِي أَتُفْدَى أَمْ غُلِلْتَا؟» هل أنتَ ممَّن يُفدى؟ هل عرفتَ مصيرك؟ إلى أين يكون مآلك؟ هل أنت مِنَ السَّبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب؟ -نسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم وسائر المسلمين منهم-، أَم أنتَ مِنَ الَّذين أَوبقتهم سيِّئاتهم ورَجُحت سيِّئاتهم على حسناتهم؟ لا بدَّ للإنسان أن يتفكَّر في مثل هذا الأمر، يضع نفسه في مقام السُّؤال وفي مقام الحساب عندما يقف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هل يُتجاوَزُ عنه؟ هل تُوبقهُ سيِّئاته؟ دائمًا كن سؤُولًا عن نفسك كما تسأل النَّاس عن أحوالهم وعن أخبارهم إذا افترقتَ عنهم ثمَّ لقيتهم، دائمًا

---

[1] رواه مسلم (٢٧٦٧)، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

[2] لأبي العتاهية.

[3] حسَّنه الألباني رحمه الله في " صحيح التِّرمذي" (٢٦٠١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

إذا انفلَتَتْ نفسك اسألها: إلى أين؟ وإلى متَى؟ -وما أشبه هذا مِنْ هذا السُّؤال-، وأينَ يكون المنزل؟ وأين تكون الرَّاحة؟ وأين يكون محطُّ الرِّحلة؟ ومتى سينتهي هذا المقام؟ اسألها كما تسأل الغائب عنك غاب زمنًا، والنَّفس تغيب عن صاحبها ويستنكرها ولا يدري ما تُريده منه ولا يدري هو ما يُريده منها.

ولذلك قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[الحشر:١٩] ما معنى أنساهم أنفسهم؟ لَا تظن أنَّ معنى ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّهم نسوا أسماءهم وأنسابهم وما لَهم مِنَ الأرصدة والأموال والأبناء والزَّوجات! لا؛ ليس هذا هو معنى نسيان النَّفس.

_ ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: أنساهم مصالِحها فلا يصِلُون معها إلى خير يُريدونه منها.

_ ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: فلا يقفون عندها، لا يتخاطبون معها، ناسي نفسه، مُنهمك -كما يُقال-، مُنشغل بكلِّ شيءٍ إلَّا بنفسه، هذا معنى قوله تعالى.

_ ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: أنساهم أن يقفوا عند مصالحها، عند ما يُصلحها، عند ما يُزكِّيها، عند ما يُهذِّبها، عند ما يحملها على طاعة الله، على رضا الله جَلَّوَعَلَا.

إلى آخر ذلك، هذا مِنْ أعظم العقوبات، أن تكون لك نفسٌ ولا تدري ما هي هذه النَّفس: هل هي مُطمئنَّة؟ هل هي مُضطربة؟ قلقة؟ ما مآلها في الآخرة؟ لا بدَّ مثلما تسأل الغائب يغيبُ عنك أن تسأل نفسك إذا أحْسَسْتَ بوحشتها، بنُفرتها واستنكارها.

وهنا يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

وَمَـــنْ لَكَ بِالسُّرُورِ وَأَنْـــتَ رَهْـــنٌ وَمَـــا تَـــدْرِي أَتُفْـــدَى أَمْ غُلِلْتَـــا؟

هل أنتَ ممَّن يُفدى بيهوديٍّ أو نصرانيٍّ؟ «أَمْ غُلِلْتَا» غُللتَ مثل الأسير الَّذي يُوضع الغلُّ أو الطَّوقُ في رقبته مِنْ أَجْل أن يُجرَّ إلى نار جهنَّم -عياذًا بالله-.

* * *

لا تسأل إلا الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَسَـــلْ مِـــنْ رَبِّــكَ التَّوْفِيــقَ فِيهَــا	وَأَخْلِصْ فِـــي السُّـــؤَالِ إِذَا سَأَلْتَــا
وَنَـــادِ إِذَا سَجَــدْتَ لَــهُ اعْتِرَافًــا	بِمَا نَــادَاهُ ذُو النُّــونِ بْــنُ مَتَّــى
وَلَازِمْ بَابَــــهُ قَــرْعًـــا عَــسَـــاهُ	سَيُفْتَـــحُ بَابُــهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَـــا
وَأَكْثِرْ ذِكْــرَهُ فِـــي الأَرْضِ دَأْبًـــا	لِتُذْكَـــرَ فِـــــي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرَتَـــا

هـذه النَّصـائح وهـذه المـواعظ ممَّـا تُسـمَّى عنـد كثـيرٍ مـن المصـنِّفين بــ: «المنـازل»؛ يعنـي منـازل السَّـائرين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكـلُّ هـذه المنظومـة تُحـاكي هـذا المعنـى، لأنَّ العبـد لا بـدَّ لـهُ في سيره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإلى الـدَّار الآخرة لا بدَّ له مِنْ زادٍ ولا بدَّ له مِنْ أسبابٍ تُوصله إلى الغاية الَّتي يُريدها، ومِنْ أعظمها: الدُّعاء والإخلاص.

النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ هنا يقول:«وَسَلْ» أي: اطلب، «سَلْ» هنا فعلُ أمرٍ وهو مجزوم بفعل الطَّلب على قولٍ وهو المشهور، أو بحرفٍ محذوفٍ (لِتَسَلْ).

«وَسَلْ» أي اطلب «مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» والسُّؤال لا يكون إلَّا مِنَ الله جَلَّ وَعَلَا لأنَّ السَّائل ذليلٌ، والذُّل لا يكون على الحقيقة إلَّا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لهذا جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا –المشهور– عند التِّرمذي وغيره لـمَّا قال له النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:«**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ**» قال:«**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِن بِاللَّهِ**»[1] وذلك أنَّ العبد فقيرٌ وإنْ كان قد وصل في الغِنى الآدميِّ أو البشريِّ المنتهى، يظلُّ فقيرَ النَّفسِ، يظلُّ مُحتاجًا، لا يُشبع فقره إلَّا أن يتعلَّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويعلم أنَّ ما عند الله هو خير له، وهذه هنا تأتي القناعة فيقنع بما قسَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له.

والله جَلَّ وَعَلَا علَّمنا سؤاله ودعاءه وطلبه والرَّغبة إليه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة:١٨٦]، وبيَّن ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ مِنْ أسباب هذا السُّؤال –هو ما

---

[1] قال ﷺ:(يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٥١٦)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ذكرته لكم-: أنَّ العبد فقيرٌ، شاءَ هذا أم أَبى، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾ -وهذا خطابٌ عامٌّ- ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥] فكما أنَّ غِنى الله جَلَّوَعَلَا ذاتيٌّ فإنَّ العبد يكون فقيرًا لا يملأ جوفه إلَّا التُّراب.

«وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» خصَّ السُّؤال هنا بالتَّوفيق، وإلَّا فإنَّ العبد يسأل الله جَلَّوَعَلَا كلَّ شيءٍ كما جاء في الأحاديث عن النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ حتَّى يَسأل شسع نعله ومِلح طعامه[١]، فكلُّ شيء العبد يسأله من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- ولهذا جاء في صحيح مسلم في حديث أبي ذرٍّ الغفاري المشهور الَّذي هو أشرف حديث أهل الشَّام -أو الشَّأم- كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]، وهو قول النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربِّه: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»[٣] قال فيه الرَّب جَلَّوَعَلَا: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»، وقال الرَّب جَلَّوَعَلَا أيضًا في هذا الحديث: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**»[٤]، فكلُّ شيءٍ يُسأل مِنَ الله جَلَّوَعَلَا أكان الأمرُ عظيمًا أم كان يسيرًا، ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -كما في صحيح مسلم-: «**فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ**»[٥] فالرَّب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتعاظمه شيءٌ، فالعبد يسأل الله جَلَّوَعَلَا.

❋ ❋ ❋

مَعْنَى «التَّوْفِيق»

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

---

[١] قال ﷺ: (لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ) "السلسلة الضعيفة" للألباني رحمه الله (١٣٦٣)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

[٢] قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد: هُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ لِأَهْلِ الشَّامِ) من كتابه "جامع العلوم والحِكم"، ص: ٢٨٢.

[٣] رواه مسلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر ﷺ.

[٤] رواه مسلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر ﷺ.

[٥] رواه مسلم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَسَــلْ مِــنْ رَبِّــكَ التَّوْفِيــقَ فِيهَــا   وَأَخْلِـصْ فِــي السُّــؤَالِ إِذَا سَأَلْتَــا

إنَّما خصَّ النَّاظم -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاهُ- هنا في هذا المقام سُؤالَ التَّوفيقِ لأنَّ التَّوفيق هو المعنى الجامع لكلِّ مطالب العبد، بمعنى أنَّه إعانة العبد على فعل المطلوب، فهو ليس دعاءً خاصًّا، وإنَّما هذا الدُّعاء بالتَّوفيق عامٌّ بأنْ يُوفِّقه لخير الدُّنيا والآخرة.

«وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» والتَّوفيق مِنَ الألفاظِ الَّتي جاءت في الكتاب وفي السُّنَّة بقلَّة ولكنَّها جاءت في مواضع دَقِيقة:

_ فالله جَلَّ وَعَلَا قال في سورة هود في قصَّة شُعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾[هود:٨٨].

_ وقال في الحَكَمَيْن عند اختصام الزَّوجين: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء:٣٥].

فالتَّوفيق هو الإعانة في حقيقة الأمر والتَّسديد للفعل، إذا أراد العبد فعل شيء فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُوفِّقه إليه.

جاءت الأحاديث -كما قلتُ لكم- بقلَّة عن النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ربَّما يسأله بعض أصحابه فيقول: «**لَقَدْ وُفِّقَ**» لـمَّا سأله عن أكثر ما يُدخله الجنَّة ويباعده عن النَّار، فقال: «**لَقَدْ وُفِّقَ**»[1] وجاء في أحاديث جملة.

فإذا سأل العبد ربَّه التَّوفيق فقد جُمع له الخير كلَّه، لأنَّ التَّوفيق وإن كان في لفظه مفردًا في مثل هذا المقام فإنَّه آخذٌ بمجامع المسائل: التَّوفيق لدخول الجنَّة، التَّوفيق للنَّجاة مِنَ النَّار، التَّوفيق لفعل العبادة، التَّوفيق لطلب العلم، التَّوفيق للذِّكر، التَّوفيق للإحسان إلى النَّاس... إلى آخره.

وهنَا يقُول: «وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» أي في الدُّنيا، لماذا؟ لأنَّ الدُّنيا هي محلُّ العَمل والعِبادة، والجنَّة محلُّ القرار والجزاء، فمَنْ وفَّقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدُّنيا فقد وُفِّق لسلوك الطَّريق والسَّبيل، وأمَّا في الآخرة فإنَّ النَّاس لا يحتاجون أن يسألوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا دخلوا جنَّة الخلد، وإنَّما يُلهمون التَّسبيح كما يُلهمون النَّفس كما بيَّن النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

---

[1] عن أبي أيُّوب الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ، قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: فَأَعَادَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ) رواه مسلم (١٣).

[2] قال ﷺ: (يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَاكَ جُشَاءٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**) رواه مسلم (٢٨٣٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فهُو يقُول: «وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» أي في هذه الحياة الدُّنيا، لأنَّه إذا انقطَعَت بك الدُّنيا فلم يبقَ لكَ فيها عملٌ، ماذا تفعل إذا جاءك الموت؟ إذا جاءتك الآخرة؟ لا ينفعك شيءٌ.

فهنَا يقُول: «وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» أي ما دمتَ في هذه الحياة الدُّنيا، ما دمتَ تتنفَّس، ما دمتَ تعيش، ما دمتَ تَقْدر على الكلام، على العِلم، على العمل، على الطَّاعة.

❋ ❋ ❋

مَنْزِلَةُ الإِخْلَاصِ

يقول: «وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» ومع سؤالك التَّوفيق قال: «وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا» وهذا هو منزلة الإخلاص، وهي مِنْ أهمِّ المنازل الَّتي يذكرها المصنِّفون في منازل السَّير إلى الله والدَّار الآخرة كأبي طالب المكي في «قوت القلوب»، وكأبي إسماعيل الهروي في «منازل السَّائرين»، وكانت في كتب المتقدِّمين تُذكر في ما يُسمَّى بكتب الزُّهد والورع، ثمَّ جَنح بعض المصنِّفين إلى هذا فصار هذا شعارًا يُسمُّونه: «منازل الطَّريق»، «منازل السَّائرين»، إلى آخره مِنْ هذه الألفاظ.

فهو يقول: «وَأَخْلِصْ» صَفِّ، بمعنى أنَّه لا يكون عند مسألتك التفاتٌ إلى نفسك أو اتِّكال عليها فضلاً عن الخلق، لماذا نقول في نفسك؟ لأنَّ الإنسان أحرص ما يكون على نفسه، فإذا لَم يلتفت إلى نفسه كيف تُطاوعه نفسه إلى أن يلتفت إلى غيرها؟ فهو لا يحتاج إلى أن يلتفت في سؤاله إلى أحد؛ فإذا رفعتَ يديك إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تستحضر إلَّا كرمه -وإن كان النَّاس قد يكونون سببًا ولكن هذا السَّبب ينبغي أن ينقطع ذكره في هذا المقام-، لا تكون الصِّلة إلَّا فيما بينك وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

«وَأَخْلِصْ» تخليص، تَصْفية، ولهذا يقولون: (خَلصَ العسل) بمعنى أنَّه صُفِّي، وهكذا في الحليب.

والله جَلَّوَعَلَا ذكر الإخلاص في الدُّعاء حتَّى مع أهل الشِّرك في المقامات الَّتي لا مَنجى ولا ملجأ ولا مهرب إلَّا إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يعلمون أنَّه لا يُنْجِيهم إلَّا الإخلاص كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥] حال، يعني حال كونهم مخلصين له الدِّين -حال مِنَ الضَّمير-، فلا ينفعهم إلَّا أن تكون هذه

الحال ملابسة لهم، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر:١٤] -والآيات في هذا كثيرة-، مُخلصين له التَّوحيد.

«وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا» أخلص نيَّتك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

* ليس معنى الإخلاص -كما يَظنُّه البعض- أنَّك لا تُرائي في الدُّعاء، يظنُّ البعض أنَّه يدعو في مكانٍ لا يراه فيه النَّاس، هذا نوعٌ مِنَ الإخلاص؛ لكنَّ حقيقة الإخلاص أن تُخَلِّص هذا القلب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ظُلمه، بمعنى أنَّه لا يكون في قلبك التفاتٌ إلى الأسباب أبدًا في حال الدُّعاء؛ لماذا نقول حتَّى للأسباب؟ لأنَّه لا يَعلم هذه الأسباب وما حالها ومتَى ستكون ومَنْ الَّذي يُقدِّرها إلَّا الله جَلَّ وَعَلَا، فقد تعتقد في زيدٍ مِنَ النَّاس أنَّه هو السَّبب ويكون السَّببُ في عَمرو! ولهذا الإخلاص ليس حقيقتهُ أن تدعو في مكانٍ لا يراك فيه أحد، وإنَّما حقيقة الإخلاص أن تدعو وإن كنت في وضح النَّهار بقلبٍ لا يلتفت إلى غير الله جَلَّ وَعَلَا.

❋ ❋ ❋

العِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

ثمَّ يُعطيك أُنمُوذجًا، عيِّنَةً، حال مِنْ حالات الأنبياء عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهي الحال الَّتي عظُم فيها الكرب واشتد، وهي حالةُ نبيِّ الله يُونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا قال:

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا ... بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بْنُ مَتَّى

«وَنَادِ» مِنَ النِّداء وهو الدُّعاء، المراد به هنا: ادعو.

«وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا» اعترافًا بأيِّ شيءٍ؟ «بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بْنُ مَتَّى» أيْ تعترف بما اعترف به ذُو النُّون بن متَّى، وذُو النُّون هو صاحب النُّون كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾[الأنبياء:٨٧] فُسِّرت في سورة القلم: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[القلم:٤٨]: فـ «ذو» فُسِّرت بـ: صاحب، و «النُّون» فُسِّرت بـ: الحوت. ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[الأنبياء:٨٧] -هذه الدَّعوة الَّتي أرادها-: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧] يقولها نبيٌّ مِنْ أنبياء الله عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولهذا يقول نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا

يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[1].

«وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا» بأيِّ شيءٍ؟ «بِمَا» أيْ بالَّذي «بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بْنُ مَتَّى» ما هو نداء ذو النُّون؟ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨]، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السَّبب الرَّئيس الَّذي كان سبيلاً لإجابة نبيِّه يُونس: وهو ذكر الله سبحانه، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصَّافات:١٤٣-١٤٤] يعني للبث في هذه الظُّلمات، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظُلمات بطن الحوت، والبحر، واللَّيل، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ما السَّبب؟ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

ومِن دقَّة الألبيري أنَّه قال:

وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ ... سَيُفْتَحُ بَابُهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

سنرجع للبيت، ثمَّ قال:

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا ... لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا

فربط بين قصَّة يُونس وبين إكثار ذِكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنَّه قال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾.

❋ ❋ ❋

اعْتِرَافُ الْعَبْدِ بِظُلْمِ نَفْسِهِ

هنا قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا ... بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بْنُ مَتَّى

قد جاء في سُنن التِّرمذي وفي مسند الإمام أحمد وعند الحاكم مِنْ حديث سعد بن أبي وقَّاص أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ،

[1] متَّفق عليه، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»[1] لكن مع الحال الَّتي كان عليها يونس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والأوصاف الَّتي كان عليها، لا نقصد الحال الخاصة الدَّقيقة، لكن لا بدَّ أن يكون هناك إخلاصٌ، رَغبٌ، رَهبٌ، كثرةُ ذِكرٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الحديث سُئل عنه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ مسألةً دقيقة وأطال الكلام فيها، وله رسالة في شرح هذا الحديث «دعوة ذي النُّون» مطبوع في مجموع فتاوى ابن قاسم[2]، ومطبوع طبعتين مُفردتين في الهند، تكلَّم فيه على هذا الحديث وعلى مسألة الظُّلم واعتراف العبد بظلمه في حقِّ نفسه، ولابن القيم أيضًا كلامٌ طويل على هذا الحديث.

والله جَلَّ وَعَلَا قال عن الأبوين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣]، وقال عن موسى الكليم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[القصص:١٦]، هذا مُتكرِّر مع الأنبياء، وجاء في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ قال للنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي) قال له النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[3]، لو تأمَّل في المقام الَّذي تكلَّم عليه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ[4] عند قوله: «**مِنْ عِنْدِكَ**» لكان كافيًّا في أن يطرح الإنسان نفسه ولا ينظر إليها، الحديث نفسه قاضٍ بهذا، لكن تحتاج إلى إنارات أهل العلم في هذا المقام، كأنَّه يقول: أنا لستُ أهلاً لأنْ أَنزل هذا المقام ولكنَّ مغفرتك وعفوك ورحمتك تكون مِنْ عندك «**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**» هي تفضُّل منك عليَّ وإلَّا فإنِّي قد ظلمتُ نفسي.

إذَا كان النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُعلِّم هذا لصِدِّيق هذه الأُمَّة ومُقدَّمها بعده ولإمامها ولأفضل البشر بعد الأنبياء فمَنْ أنتَ؟! ومَنْ تكون إذا لَم تعترف لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بظُلمك وبسُوئِك!

ولهذا جاء أيضًا في صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث أبي يعلى شدَّاد بن أوس -حديث سيِّد الاستغفار- : «**اللَّهُمَّ**

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التِّرمذي" (٣٥٠٥)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

[2] انظر "مجموع الفتاوى" لابن قاسم؛ ج١٠، ص: ١٤٠

[3] متفق عليه، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[4] قال ابن القيِّم رحمه الله: (قَالَ:"فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ" أَيْ لَا يَنَالُهَا عَمَلِي وَلَا سَعْيِي، بَلْ عَمَلِي يَقْصُرُ عَنْهَا، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ لَا بِكَسْبِي وَلَا باسْتِغْفَارِي وَتَوْبَتِي، ثُمَّ قَالَ:"وَارْحَمْنِي" أَيْ لَيْسَ مُعَوَّلِي إِلَّا عَلَى مُجَرَّدِ رَحْمَتِكَ، فَإِنْ رَحِمْتَنِي وَإِلَّا فَالْهَلَاكُ لَازِمٌ لِي. فَلْيَتَدَبَّرِ اللَّبِيبُ هَذَا الدُّعَاءَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُبُودِيَّة، وَفِي ضِمْنِهِ: أَنَّهُ لَوْ عَذَّبْتَنِي لَعَدَلْتَ فِيَّ وَلَمْ تَظْلِمْنِي وَإِنِّي لَا أَنْجُو إِلَّا بِرَحْمَتِكَ وَمَغْفِرَتِكَ) من كتابه "طريق الهجرتين" ص: ٤٢٩.

أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ» -أعترف- «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[1] هذا لا يخلو منه العبد؛ فإذا ناجيتَ ناجيت بهذا الوصف.

❋ ❋ ❋

الْحَثُّ عَلَى الإِكْثَارِ مِنَ الدُّعَاءِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا ... بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بْنُ مَتَّى

«وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا» وأقرب ما يكون العبد مِنْ ربِّه وهو ساجدٌ كما في صحيح مُسلم: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[2].

«بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بْنُ مَتَّى» وهو يُونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وَلَازِمْ بَابَهُ قَرْعًا عَسَاهُ ... سَيُفْتَحُ بَابُهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

«لَازِمْ» مِنَ المُلازمة، وليست المسألة عندما تأتي الشِّدة أو يأتي الكرب فقط يذكر الإنسان فيها ربَّه، نعم بطبيعة الإنسان وبفطرته يفعل هذا، ولكن لا بدَّ أن يكون العبد ذا صلة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الدَّوام، ولهذا جاء في سُنن التِّرمذي مِنْ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»[3] والحديث حسَّنه الشَّيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في «صحيح الجامع».

وهنا يقول: «وَلَازِمْ بَابَهُ» الزم باب الرَّب جَلَّ وَعَلَا ولا تجعل هذا الباب آخر الأبواب الَّتي تطرقها، ولا تجعله مِنْ فُضول الأبواب، تذهب إلى كلِّ أحد: تطرق أبواب الأغنياء، وأبواب الأطبَّاء، وأبواب العُلماء، ثُمَّ تجعل هذا الباب آخر الأبواب! حتَّى في السَّبب إذا أردت شيئًا تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُوضِّح لك ويُبيِّن لك ما هو الطَّريق الَّذي

---

[1] رواه البخاري (٦٣٢٣)، من حديث شدَّاد بن أوس رضي الله عنه.

[2] رواه مسلم (٤٧٩)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

[3] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٦٢٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنتَ تسلكه.

«وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا» لاحظ كيف يقول هنا: «وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا».

وَنَــادِ إِذَا سَجَــدْتَ لَــهُ اعْتِرَافًــا بِمَا نَــادَاهُ ذُو النُّــونِ بْــنُ مَتَّــى
وَلَازِمْ بَابَــــهُ قَــرْعًـــا عَــسَـــاهُ سَيَفْتَـــحُ بَابَـــهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَـــا

الزم هذا الباب، الزم عتبة هذا الباب قارعًا، طارقًا.

جاء في مُصنَّف ابن أبي شيبة وفي الجامع لمعمر بن راشد وعند البيهقي وغيره عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ أنَّه قال: (جِدُّوا بِالدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُكْثِرُ قَرْعَ الْبَابِ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ)[1] -وسنده حسنٌ-، فإذَا لازم العبد قرع الباب يُنادي: (يَا رَبّ، يَا الله، يَا كَريم، يَا رَحيم) في كلِّ حاجاته: في صلاته، في غير صلاته، في مواطن إجابة الدُّعاء، في أعظم الأُمور وفي أقلِّها، لا يتعاظم الرَّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ.

وَلَازِمْ بَابَــــهُ قَــرْعًـــا عَــسَـــاهُ سَيَفْتَـــحُ بَابَـــهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَـــا

تجد ساعة إجابة، ساعة رضا مِنَ الرَّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليك، فتدعو فيفتح لك الباب، وإذا فُتح لك الباب مَنْ يُوصده؟ ومَنْ يردُّك عن هذا الباب؟

* * *

فَضْلُ الإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ

لا يزال الكلام موصولًا على ما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النَّصائح الَّتي وجَّهها لِمن كنى عنه بأبي بكر، وقد قال فيها تتميًا لقوله: «وَأَخلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا».

وَنَــادِ إِذَا سَجَــدْتَ لَــهُ اعْتِرَافًــا بِمَا نَــادَاهُ ذُو النُّــونِ بْــنُ مَتَّــى
وَلَازِمْ بَابَــــهُ قَــرْعًـــا عَــسَـــاهُ سَيَفْتَـــحُ بَابَـــهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَـــا

[1] "مصنف ابن أبي شيبة" (٢٩٦٦٣).

وَأَكْثِرْ ذِكْــرَهُ فِــي الأَرْضِ دَأْبًــا   لِتُذْكَــرَ فِــي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَــا

توقَّفنا عند هذا البيت، مع أنَّ المناسبة بين إكثار ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وذِكر قصَّة يُونس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قويَّة جدًّا، والنَّاظم -والله أعلم- أرادها لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذكر مِنْ أسباب نجاةِ يُونس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه كان مِنَ المسبِّحين، والتَّسبيح الَّذي هو التَّنزيه مِنْ أعظم وأجلِّ أنواع الذِّكر، حتَّى جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في صحيح الإمام مسلم أنَّه قال: («**أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ:«**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ**»)[1]، فالتَّسبيح مِنْ أعظم أنواع الذِّكر لأنَّه تنزيهٌ للرَّب جَلَّ وَعَلَا عن كلِّ النَّقائص الَّتي تستلزم إثبات الكمال المطلق، فالله جَلَّ وَعَلَا قال:﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾[الصَّافات:١٤٣].

وهنا النَّاظم قال:«وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ» أي ذِكر الرَّب جَلَّ وَعَلَا، والقاعدة عند العُقلاء والعلماء مِنْ كلِّ أُمَّة ومِلَّة أنَّ: (مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)[2] وهذا أمرٌ يُردِّده شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكره تلميذه ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)[3] وهذا في علاقات النَّاس ومعاملاتهم وما تتعلَّق به قلوبهم أنَّهم إذا أحبُّوا شيئًا أكثروا مِنْ ذِكره أكان ذلك في الأفراد أم في الجماعات إذا اجتمعوا، فتجد أنَّ طُلاَّب العلم يذكرون أهل العلم وأئمَّة الدِّين، وتجد المسلم على العمُوم أو على الخصوص يُكثر ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهنَا قَال:«وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ» لأنَّ هذه الأرض هي محلُّ عمل الإنسان.

«لِتُذْكَرَ» وهذه لام التَّعليل، يعني: لأجل أن تُذكر في السَّماء، ممَّن؟ مِنَ الرَّب جَلَّ وَعَلَا: بالثَّناء عليك، والتَّشريف، والتَّكريم.

«لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا» يُشير إلى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:١٥٢] وأيضًا إلى قول النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربِّه في الصَّحيح:«**فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[4].

---

[1] رواه مسلم (٢٦٩٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

[2] "طريق الهجرتين" لابن القيم رحمه الله؛ ص:١٩.

[3] "طريق الهجرتين" لابن القيم رحمه الله؛ ص:١٩.

[4] يقول اللهُ تعالَى:(أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُه فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري (٧٤٠٥).

وهنا قال:«وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ» والإكثار بأن يملأ المرء وقته بذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

_ أكان ذلك مِنَ الذِّكر المُطلق الَّذي لا يُقيَّد بصفةٍ ولا زمانٍ ولا مكانٍ، ذِكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على كلِّ الأحوال كما جاء في الصَّحيحين في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ)[1].

_ أو كان ذلك مِنَ الذِّكر المقيَّد الَّذي نصَّت الشَّريعة في الكتاب وفي السُّنَّة بيان ذلك بكثرة على المواطن المتعلِّقة بالأزمنة أو بالأمكنة الَّتي يَذكُر فيها المسلم ربَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: في مدخله ومخرجه، في دخوله إلى منزله، في خروجه منه، في دخوله إلى المسجد، في خروجه منه، في دخوله إلى الخلاء، في خروجه منه، في مواطن كثيرة... في نومه، فيه يقظته، بل حتَّى إذا تقلَّب في ليله مِنْ نومه «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ»[2] بمعنى أنَّه أصابه -كما يُعبِّر العصْريُّون- نوعٌ مِنَ الأرق وجفاء النَّوم شرع له النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ذكرًا مُعيَّنًا.

والأذكار الَّتي تُقال في الصَّلاة -وهي مِنْ أعظمها وأجلِّها لأنَّها مُتعلِّقة بفعل العبادة-، الأذكار الَّتي تُقال في الحج، في الصِّيام، الأذكار الَّتي يقولها المسلم عند العادات الَّتي أَلِف أن يقوم بها:

_ في الأكل بأن يقول:«بِسْمِ اللهِ»[3].

_ وإذا فرغ منه بأن يحمد الله[4].

_ حتَّى شرع النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ للرَّجل إذا أتى أهله أن يبدأ ذلك بالذِّكر كما في الصَّحيحين[5].

ولو استطردنا في ذكر هذا الباب لكان مجلَّدات كما هي مُصنَّفات أهل العلم في مثل هذا الباب ككتاب «الأذكار» للنَّووي، و«الحصن» لابن الجزري، وغيرها كثير الَّتي صنَّفها أهل العلم، ومِنْ أجلِّها وأحسنها كتاب: «الوابل الصَّيِّب» للحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ ومِنْ أهمِّ مُميِّزات هذا الكتاب أنَّه قَرن الذِّكر بفضائله بما لَا تجده في مكانٍ آخر، حتَّى ذكر في فوائد الذِّكر أكثر مِن مائة فائدة، أكثر مِنْ مائة استطرد الحافظ ابن القيِّم في ذكرها[6] فيما يُحصِّله العبد

[1] مُتفق عليه، من حديث عائشة ﷺ، واللَّفظ لمسلم (٣٧٣).

[2] قال ﷺ:(مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا؛ اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ) رواه البخاري (١١٥٤)، من حديث عُبادة بن الصَّامت ﷺ.

[3] قال ﷺ:(فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (١٣٢٣)، من حديث عائشة ﷺ.

[4] قال ﷺ:(إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا) رواه مسلم (٢٧٣٤)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

[5] قال ﷺ:(لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا) متفق عليه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري (٧٣٩٦).

[6] انظر "الوابل الصيب"، ص:٩٤.

المسلم في ذكره لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ليله ونهاره، هناك أذكار مُتعلِّقة بالصَّباح، أذكار مُتعلِّقة بالمساء، وباب الأذكار باب واسع.

ولهذا قال النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ: «وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا» أي على الدَّوام، كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[الأحزاب:٤١-٤٢]، وقال جَلَّوَعَلَا كما ذكرنا في الآية المتقدِّمة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:١٥٢]، وقال في آخر سورة الجمعة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠] متى؟ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[الجمعة:١٠] خرجتُم مِنَ الصَّلاة وقَضَيْتُم أذكاركم، أُذن لكم في الغفلة؟! لا؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠]، في دخول المرء إلى المسجد يقول: «**اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**»[١] لأنَّ الصَّلاة مِنْ أعظم ما يُدرِك به العبد الرَّحمة، فإذا دخلت المسجد تقول: «**اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**» لأنَّها الأصل، وإذا خرجت مِنَ المسجد تقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ**»[٢] والفضل ما هو؟ الفضل: الزِّيادة، شيءٌ زائدٌ على الأصل، فالأصل في دخولك إلى المسجد، وما تُحصِّله عند خروجك إنَّما هو مِنَ الفضل، الشَّيء الزَّائد الَّذي تقوم به مصالحك.

والنَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ -كما ذكرتُ لكم في الحديث المتقدِّم- كان يذكر الله على كلِّ أحيانه حتَّى استدلَّ أبو حاتم الرَّازي[٣] وجماعة مِنَ الأئمَّة -ولعلَّ هذا مذهب البُخاري فيما أذكر- أنَّه لا ينقطع عن الذِّكر حتَّى في الخلاء، فيَرَوْنَ أنَّه يذكر الله حتَّى في داخل الخلاء ولا يَرَوْنَ أنَّه مكروه فضلاً عن أن يقولوا بأنَّه مُحرَّم، الشَّاهد مِنْ هذا أنَّ باب الذِّكر بابٌ واسع.

والله جَلَّوَعَلَا عاب المنافقين بقلَّة ذكره، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[النساء:١٤٢]، أثبت لهم الذِّكر لكنَّه نفى كثرته، ولهذا النَّاظم ما قال: (اذْكُرُوا اللهَ) ولكن قال: «وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ» ذِكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بجميع أنواع الذِّكر، الذِّكر الَّذي يتواطأ فيه القلب مع اللِّسان، القلب يتفكَّر في معنى الذِّكر وسببه، واللِّسان ينطق به، هذه حقيقة الذِّكر، القلب يتفكَّر في معنى الذِّكر وفي سببه، مِنْ أين نأخذ هذا؟ الله جَلَّوَعَلَا لَمَّا قال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[الأعلى:١]، ماذا قال؟ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[الأعلى:٢-٥].

---

[١] قال ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ) رواه مسلم (٧١٣)، من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

[٢] رواه مسلم (٧١٣)، من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

[٣] يُشِير شيخُنا حَفِظَه اللهُ إِلَى قَوْل أبي حَاتِمٍ الرَّازي رَحِمَهُ الله: (الَّذِي أَرَى أَنْ يُذْكَرَ اللهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، عَلَى الْكَنِيفِ وَغَيْرِه، عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ) اهـ. "العلل لابن أبي حاتم" (١/٢٠٢). وقوله: (عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ) أي: قول عائشة رضي الله عنها: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ)، وقوله: (الكنيف) أي: الخلاء.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ مَنْ هو هذا الرَّب الأعلى؟ ما أفعاله؟ ما أوصافه؟ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾، وإذا نظرتَ إلى النُّصوص الواردة في الذِّكر تجدها أيضًا في كثير مِنَ المواضع يقع فيها تعليل الذِّكر: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[الروم:١٧] ما علاقة هذا؟ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ بماذا يكون مَمْساكم؟ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[الأنبياء:٤٢]، ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ فكلُّ هذا ممَّا يستحضره العبد في ذكره لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يعني يتأمَّل في هذه الألفاظ الَّتي يقولُها، ما معنى (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ)؟ ما معنى (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)؟ ما معنى (سُبْحَانَ اللهِ)؟ ما معنى (الْحَمْدُ للهِ)؟ إلى غيرها مِنْ هذه المعاني الَّتي يتطلَّبها المسلم في هذا.

هُنا يقُول:

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا ... لِتُذْكَرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا

«لِتُذْكَرَ» ذَكر لنا فضيلةً مِنْ فضائل الذِّكر وهي مِنْ أعظمها، بل هي أعظمها على الإطلاق وهي أنَّك إذا ذكرت الله جَلَّ وَعَلَا علمتَ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكركَ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة:١٥٢]. «لِتُذْكَرَ في السَّماءِ إذا ذَكَرتا».

* * *

اغْتَنِمْ أَيَّامَكَ وَلَا تَغْتَرَّ بِشَبَابِكَ

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَا تَقُلِ الصِّبَا» رجع الآن إلى مُخاطبة أبي بكر مخاطبةً صريحة، وبدأ في العتاب.

فرقٌ بين ما يذكره النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى مِنْ جهة مُطلق التَّوجيه مثلما قال: «وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ دَأْبًا» وبين ما يُقرِّره في باب العتاب.

يُوجِّه إليه العتاب بالخطاب يقول: «وَلَا تَقُلِ» هذا نهي ولذلك جزم الفعل بعده: لا تَقل أنتَ أيُّها المنصوح الَّذي كُنِّي عنك بأبي بكر -وكلُّنا ذلكَ المُخاطَب-:

وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ ... وَفَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا

لا تقل إنَّ الصِّبا وفترة الشَّباب والفُتُوَّة فيها امتهال وفيها تُؤَدة وفيها فُرصة وفيها مجالٌ وفيها فُسحة، ويُخاطب الإنسان نفسه بالتَّسويف وأنَّه ما زال في العُمر بقيَّة وما زال هناك مجال ومازالت هناك فُسحة وما زال هناك براحٌ في

الأمر، وإنَّما يقطع هذه الوسوسة وهذه الهلوسة وهذا التَّسويف بمُقتضى العمل.

«وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ» وتؤدة، «وَفَكِّرْ» وأنتَ على هذا الحال الَّذي تقول فيه بأنَّ الصِّبا فيه امتهال:«كَمْ صَغِيرٍ» و«كَمْ» هنا في كتب اللُّغة لَها معنيان، وعند النَّحويين لها عملان.

_ معناها الأوَّل في اللُّغة: الاستفهام، وضابطها أنَّه إذا انتصب ما بعدها فهي استفهام (كَمْ كِتَابًا قَرَأْتَ؟).

_ والمعنى الثَّاني: التَّكثير، إرادة الكثرة -تكثير الشَّيء-، وضابطها أن يأتي ما بعدها مجرورًا، والغالب في كلام العرب أنَّها يتبعها «مِنْ» كما في قوله تعالى:﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾[النَّجم:٢٦].

وهنا في قول النَّاظم:«كَمْ صَغِيرٍ» تُستخدم في التَّكثير مع «مِنْ» أو بدونها، فيُراد بها الكثرة، يعني هنا عندما قال الله جَلَّ وَعَلَا:﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ ليس هذا أسلوب استفهام لا تقريري استنكاري ولا استفهام على ظاهره، وإنَّما المُراد بها الإخبار، فإذا جرَّت فهي خبرية -فإذا جرَّت فهي مِنْ باب الخبر- ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ أي كثرة في العدد، وهنا يقول:«كَمْ صَغِيرٍ» كم الصِّغار الَّذين دفنتم وشاركتَ في دفنهم؟ كثير.

والشَّباب هو مرحلة الحياة بل هو لُبُّها وروحها ومدار حياة الإنسان عليها، ولهذا قال بعض السَّلف: (التَّعَلُّمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ)[1] كما جاء عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وعن غيره.

والله جَلَّ وَعَلَا ذكر لنا في قصَّة إبراهيم أنَّه كان فتى:﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[الأنبياء:٦٠]، وكذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ:﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم:١٢]، كذلك لَمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصحاب الكهف قال:﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[الكهف:١٣]، وغالب أصحاب النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذين آمنوا به في أوَّل الإسلام كانوا مِنَ الشَّبَبَة ولَم يُقاربه في العمر إلَّا أمثال أبي بكر وأمثال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ جميعًا؛ فالشَّباب هو روح الإنسان، يعني هو روح حياة الإنسان، محطَّة الجدِّ والاجتهاد، ولهذا النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في الصَّحيحين لَمَّا ذكر السَّبعة الَّذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، قال:«**وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**»[2] وجاء في مستدرك الحاكم وغيره في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ**» وكلُّ واحدةٍ من هذه الخمس يُقابلها وينقضها آخر:«**شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ**

---

[1] "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي؛ ج٢، ص:١٨١؛ عن الحسن البصري رحمه الله.

[2] قال ﷺ:(سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري (١٤٢٣).

قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[1] لماذا خصَّ الشَّباب مِنَ العمر مع أنَّه فرد مِنْ أفراده وجُزءٌ مِنْ أجزائِه -لأنَّه قال:«**حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**» والشَّبابُ مِنَ الحياة-؟ لأهمِّيته.

ولهذا جاء أيضًا في حديث ابن مسعود وحديث أبي برزة الأسلمي[2] عند أبي داود وغيره أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال:«**لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ...**» إلى أن قال:«**وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟**»[3].

وجاء في صحيح البخاري في حديث ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال:«**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[4] وقَلَّ أن يجتمع هذان الأمران في غير الشَّباب، الأصل أن تجتمع الصِّحَّة والفراغ مع الشَّباب وقلَّ أن يجتمعا مع غيرِ الشَّباب، فقد يأتي الفراغ في حال الكِبَرِ أو تجاوز مرحلة الشَّباب وقد لا يأتي، لأنَّ الإنسان إذا كان مشغولًا وهو في حال شبابه بنفسه وبمصالحها فكيف إذا ارتبط بآخرين فدخل في حياته الزَّوجة ثمَّ جاء الأولاد وجاءت العَيْلَة والحاجات الأُخرى! لا شكَّ أنَّه كما قيل -وهذا ليس حال كلِّ النَّاس-:

يُقْضَى عَلَــى المَــرْءِ فِــي أَيَّــامِ مِحْنَتِــهِ حَتَّى يَــرَى حَسَنًا مَــا لَيْــسَ بِالْحَسَــنِ

الشَّاهد مِنْ هذا أنَّه قلَّ أن يجتمع الصِّحة والفراغ في غير زمن الشَّباب، ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:«**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»[5]:

_ مغبون فيهما في حال الدُّنيا إذا كبِر وتجاوز مرحلة الشَّباب وانشغل بكثير مِنَ الأمور يبدأ يشعر بالغبن وهو زوال الخير وزوال المصلحة.

_ وأيضًا احتمال آخر أنَّه مغبون فيهما في حال الآخرة إذا لقيَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال:﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[الفجر:٢٤].

«وَلَا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ... وَفَكِّرْ» أيُّها العاقل -ولا يتفكَّر إلَّا العاقل- «كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا».

---

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٣٣٥٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[2] من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ بلفظ:(لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ)، قال الألباني رحمه الله في "اقتضاء العلم" (١) : إسناده صحيح اهـ.

[3] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٢٤١٦)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

[4] رواه البخاري (٦٤١٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[5] رواه البخاري (٦٤١٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيَّ مَفْسَدَهْ[1]

ولهذا الشَّباب هو الَّذي فيه النَّهَمة والقوَّة والقُدرة على الحفظ والجَلَد على البحث وعلى الدِّراسة، وما حصَّله المرء في حال شبابه هو المحصَّل الحقيقي.

وَلا تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ وَفَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا

* * *

مَنْ نَاصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ

هنا يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

وفي نسخة: «لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا».

«وَقُلْ» أنت يا أبا بكر أو يا أيُّها المنصُوح، «قُلْ يَا نَاصِحِي» يا مَنْ تتوجَّه إليَّ بالنُّصح الَّذي هو إخلاص القول أو تخليصه مِنَ الشَّوائب.

«وَقُلْ يَا نَاصِحِي» مَنْ توجَّهت إليَّ بالنَّصيحة «بَلْ أَنْتَ أَوْلَى» وتقدَّم الكلام على النَّصيحة وفضلها وأهميَّتها وأنَّ الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة:٩١]، قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في صحيح مسلم مِنْ حديث أبي رُقيَّة تميم بن أوس الدَّاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**؛ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: **لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[2]، ومِنْ محاسن المنقول مِنْ ألفاظ السَّلف قول أحد السَّلف: (مَنْ نَاصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّكَ) الَّذي يُماشيك على المداهنة: يرى الخطأ، يرى الانحراف، يرى الضَّياع فلا يُحرِّك

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي؛ ج١٠، ص:١٩٦، عن أبي العتاهية:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ
حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوتُ مَا أَكْثَرَ الْقُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ
هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلُمْنِي أَوْ فَذَرْ إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَا الْقَدَرْ

[2] رواه مسلم (٥٥)، من حديث تميم بن أوس الداري رضي الله عنه.

ساكنًا في نُصحك، هذا مِنَ الغشِّ في الصُّحبة، والمداهنةُ نوعٌ مِنَ الغشِّ، ومَنْ ناصحك وواجهك بالنَّصيحة - والبيت هذا تقريبًا قد شُرح عند قول النَّاظم-:

فَقَابِـــلْ بِالقَبُـــولِ لِنُصْـــحِ قَوْلِـــي　　　فَإِنْ أَعْرَضْـــتَ عَنْـــهُ فَقَـــدْ خَسِرْتَــا

هناك ذكرنا ما يتعلَّق بالنَّصيحة وبآدابها أو بعض آدابها لأنَّ الكلام فيها كثير عند أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

***

انْصَحْ وَلَوْ كُنْتَ مُقَصِّرًا

وهنَا يقول:«وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى» هو يُريد أن يوصل له نوعًا مِنَ الاعتذار غير المباشر، ويريد أن يُبرِّئ نفسه مِنْ أنَّه وإنْ نصح فإنَّه لم يدَّعِ لنفسه الكمال.

وليس مِنْ شرط النَّاصح أن يكون كاملاً، بل قد نصَّ طوائف مِنْ أهل العلم في المذاهب الأربعة بأنَّ أهل المنكر الَّذين يفعلونه يجب عليهم أن يُنكر بعضهم على بعض، وكما جاء عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ -بمعنى قوله - أنَّه لو لَمْ يَنصحْ إلَّا معصوم -أو غير عاصٍ- ما نَصَح أحدٌ -أو بهذا المعنى-[1]؛ فالنَّصيحة مِنْ أعظم كمالات الدِّين، بل حصر النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الدِّين فيها:«**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[2].

وهُـو يقُـول:

وَقُلْ: يَـــا نَاصِحِـــي بَـــلْ أَنْتَ أَوْلَـى　　　بِنُصْحِـكَ لَـوْ لِفِعْلِكَ قَـــدْ نَظَرْتَـــا

ووقع في نُسخة:«لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا».

«وَقُلْ» أنتَ أيُّها النَّاصح الَّذي توجَّهتَ إليَّ بالنَّصيحة، «يَا نَاصِحِي بَلْ» وهذا حرف إضراب للانتقال وليس للإلغاء، لأنَّه أراد أنَّ نُصحه حقٌّ ولكنَّه يُضرِب عن هذا إلى أن يتوجَّه هو إلى نفسه بالنَّصيحة، «وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ

[1] قَالَ مَالِك عَنْ رَبِيعَةَ: (سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ لَهُ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ، مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ. **قَالَ مَالِكٌ**: وَصَدَقَ، مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟) اهـ "تفسير ابن كثير" رحمه الله؛ ج١، ص:٢٤٧.

[2] رواه مسلم (٥٥)، من حديث تميم بن أوس الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَنْتَ أَوْلَى» أحقُّ بنُصحك الَّذي توجَّهت به إليَّ «لَوْ لِفِعْلِكَ» الَّذي أنتَ تفعله مِنْ جهة التَّقصير أو مِنْ جهة التَّفريط، أو على النُّسخة الأخرى: «لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا» أي تدبَّرت فيما تقوله.

✱ **وهذا البيت يُعتبر مِنْ أهمِّ أبيات تائية الألبيري؛ لِـمَ؟**

لأنَّه دخلت الشُّبهة على كثيرٍ مِنَ النَّاس الَّذين يأمرون بالمعروف ويَنهون عن المنكر أنَّهم إذا أَمرُوا بالمعروف أو نَهوا عن المنكر ولَم يأتُوا ما أَمَروا به ولم ينتهوا عمَّا نَهَوْا النَّاس عنه فإنَّهم يتركون هذا الأمر ويتركون هذا النَّهي، وهذه شُبهة -كما صرَّح بعض الأئمَّة- شيطانية؛ لِمَ؟ لأنَّ الشَّيطان إنَّما يريد مِنَ النَّاس أن يتركوا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، فإذا وقع لهم ذلك وقعت الفحشاء ووقع المنكرات وضُيِّعت الأوامر والواجبات.

السَّلف كانوا يستعملون مثل هذا الأُسلوب تواضعًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مهما بلغت أعمالهم، وأيضًا يستعملونه اعترافًا بحقيقة الأمر ليس فقط مِنْ باب التَّواضع بل يفعلونه اعترافًا بحقيقة الأمر لأنَّ العبد مهما عمل مِنَ الأعمال فإنَّه لن يقوم بحقِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الَّذي أمر به، لن يقوم بما أمر الله جَلَّوَعَلَا به، ولن يتمكن مِنْ أن ينتهي ممَّا نهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عنه.

جاء عن كثيرٍ مِنَ السَّلف -وسنرجع إلى جواب هذه الشُّبهة بعد أن نُبيِّن مقصود الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى-، ذكرتُ لكم أنَّ السَّلف يقولون الكثير مِنَ العبارات في هذا الباب:

_ اعترافًا بأنَّهم لن يقوموا بحقّ الله جَلَّوَعَلَا على الوجه الكامل التَّام.

_ ومِنْ جهةٍ أُخرى: أنَّهم يستعملون مثل هذه الألفاظ ليُبرِّروا أنَّ النَّاس إذا لَم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ضاعت الشَّرائع، وهذا الفهم مُهمٌّ جدًّا ولهذا نصَّ كثيرٌ مِنَ الأئمَّة -كما نستقبل- على أنَّ الفاعلين للمنكر في حال فعله يجب عليهم أن يتناهوا عنه، بل بعضهم مَثَّل بشرب الخمر: بأنَّهم إذا اجتمعوا على شربٍ فإنَّهم لا بدَّ وأن يتناهوْا عن هذا الشّرب الَّذي هم فيه[1].

❋ ❋ ❋

[1] قال القُرطبي رحمه الله: (قَالَ بَعْضُ الْأُصُولِيِّينَ: فُرِضَ عَلَى الَّذِينَ يَتَعَاطَوْنَ الْكُؤُوسَ أَنْ يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ، قَالُوا: لِأَنَّ قَوْلَهُ:﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ يَقْتَضِي اشْتِرَاكَهُمْ فِي الْفِعْلِ وَذَمَّهُمْ عَلَى تَرْكِ التَّنَاهِي) "الجامع لأحكام القرآن" ج٦، ص:١٨٨.

هَضْمُ السَّلَفِ لِلنَّفْس

هنا الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وَقُلْ: يَـا نَاصِحِـي بَـلْ أَنْتَ أَوْلَـى بِنُصْحِـكَ لَـوْ لِفِعْلِكَ قَـدْ نَظَرْتَـا

السَّلف كانوا ينظرون إلى هضم النَّفس، لأنَّ مَنْ عرف خالقه جَلَّ وَعَلَا على الحقيقة عَرف أنَّه لَم يُؤدِّ ما أُمر به ولم يجتنب ما نَهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه.

لهذا إذا تأمَّلت في الأنبياء عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كيف كانوا يتخاطبون مع الرَّب جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾[القصص:١٦]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣]، وكذلك نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هود:٤٧]، وهذا كثيرٌ لمن تأمَّل قصص الأنبياء كيف يتخاطبون مع الرَّب جَلَّ وَعَلَا.

أبو بكر الصِّديق -وهذا قد ذكرناه مِنْ قبل لأنَّ بعض الأبيات بعضها مع بعضٍ مُتشابهٌ، متناسبٌ، السِّياق الَّذي يذكره الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نوعٌ مِنَ التَّشابه-، النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا جاءه أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- وطلب منه أن يُعلِّمه دعاءً يدعو به في صلاته فقال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[1].

«**ظُلْمًا كَثِيرًا**»: المعلِّم هو النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو يعرف منزلة الصِّديق الأكبر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ويُعلِّمه هذا اللَّفظ، فكيف يكون حال غيره؟ «**ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي**»[2]. «**مِنْ عِنْدِكَ**»: بمعنى أنَّ هذه المغفرة الَّتي مِنْ أسبابها الذُّنوب الَّتي أنا فيها قد لا أكون أهلاً لها ولا أستحقُّها ولكنَّها فضلٌ مِنْ عندك، فهذا ما علَّمه النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

إبراهيم التَّيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ذكر البُخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، -نأتي بالباب لأنَّه بابٌ جليلٌ مِنْ أبواب صحيح الإمام البُخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: في كتاب الإيمان بوَّب البخاريُّ -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاهُ- بقوله: (بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا) أو قال: (مُكَذَّبًا) -

---

[1] متَّفق عليه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[2] متفق عليه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ضُبطت على الوجهين-، (وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ كُلُّهُمْ كَانَ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ)[١].

انتبه إلى قول إبراهيم التَّيمي، يقول: (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي) يقول: نحن نتكلَّم ونقول ونعِظ وندعو ونأمر وننهى، (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا) أو قال: (مُكَذَّبًا):

_ «مُكَذِّبًا»: على صيغة الفاعل (أَنا أَنَّني مُكَذِّبٌ).

_ أو «مُكَذَّبًا»: على صيغة المفعول، بمعنى أنَّه مُكَذَّبٌ مِنْ جهة الرَّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكذلك جاء عن بعض السَّلف رَحِمَهُمُ اللهُ أنَّه كان يقول: (أَعْرَبْنَا الْقَوْلَ وَلَحَنَّا الْعَمَلَ)[٢]، وهذا إذا نظرتَ في تراجم الأئمَّة وفي كتب الزُّهد تجد الكثير منه أكان ذلك في باب العمل أو في باب العِلم حتَّى قال إبراهيم بن يزيد النّخعي رَحِمَهُ اللهُ كما ذكر الخطَّابي البستي في كتاب «العزلة»[٣] وذكر هذا أيضًا الإمام الآجري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في كتابه «أخلاق العلماء»، أنَّ إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كان يقول -وهو يذكر المكانة الَّتي تبوَّأها وأنزله النَّاس فيها وهو أنَّه كان يُلقَّب بـ «فقيه أهل الكوفة» وهو كذلك؛ هو مِنْ أصحاب ابن مسعود ليس له لقاءٌ بابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولم يَرْوِ عنه، وإنَّما يُقال هو مِنْ أصحاب ابن مسعود باعتبار أنَّه تفقَّه على مذهبه وعلى قوله في الكوفة-، كان يقول: (وَإِنَّ زَمَانًا أَكُونُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الكُوفَةِ لَزَمَانُ سُوءٍ)[٤].

وإذا نظرتَ في كلامهم في الإخلاص لمَّا قال هشام الدّستوائي رَحِمَهُ اللهُ: (وَاللَّهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْمًا قَطُّ أَطْلُبُ الْحَدِيثَ أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[٥]، قال الذَّهبي: (قُلْتُ: وَاللَّهِ وَلَا أَنَا)[٦]، أحمد رَحِمَهُ اللهُ -وهذا الأثر مرَّ معكم مِنْ قبل- لمَّا قيل له: (هَذَا الْعِلْمُ تَعَلَّمْتَهُ لِلَّهِ؟) فَقال: (هَذَا شَرْطٌ شَدِيدٌ، وَلَكِنْ حُبِّبَ إِلَيَّ شَيْءٌ فَجَمَعْتُهُ)[٧] ما كانوا يُنزلون أنفسهم منزلة هم لا يعلمون عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أنزلهم فيها، ولهذا جاء في خُطبة عُتبة بن غَزوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وهي خُطبة جليلة القدر خرَّجها مسلم في صحيحه-، لمَّا مات المغيرة بن شعبة خَطب النَّاسَ فذكر لَهم

---

[١] صحيح البخاري.

[٢] بلفظ: (أَعْرَبْنَا فِي الْكَلامِ فَمَا نَلْحَنُ، وَلَحَنَّا فِي الأَعْمَالِ فَمَا نُعْرِبُ) "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر رحمه الله؛ ج٦، ص:٣١٣، عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله.

[٣] في كتاب "العزلة" للخطابي رحمه الله؛ بلفظ: عَن سُفْيَان الثَّورِيِّ، عَن أَبِيهِ قَالَ: (أَتَيْتُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ فِي شَيْءٍ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحَدٌ يَشْفِيكَ مِنْ هَذَا؟ احْتِيجَ إِلَيَّ! احْتِيجَ إِلَيَّ! إِنَّ دَهْرًا صِرْتُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَدَهْرُ سُوءٍ) ص:٧٠.

[٤] "أخلاق العلماء" للآجري رحمه الله، ص١٠٤.

[٥] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٧، ص:١٥٢.

[٦] "سير أعلام النبلاء" ج٧، ص:١٥٢.

[٧] "البداية والنهاية" لابن كثير رحمه الله؛ ج١٤، ص:٣٩٣.

حال الدُّنيا، وما هم فيه، والنِّعم الَّتي هم فيها، وما بقيَ مِنْ أمر الدُّنيا وما يؤولون إليه مِنْ أمر الآخرة[1]، ثمَّ ختم خطبته بقوله: (وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا) هذا في صحيح مسلم، وهم الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهذا عُتبة بن غزوان.

فالألبيري رَحِمَهُٱللَّهُ يقول مُخاطبًا لِمن نَصَحه -النَّاصح هو الألبيري-، يقول له:«قُلْ» ولو قُلتَ لصدقتَ «وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى... بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ» أو «بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا»، ولهذا الألبيري رَحِمَهُٱللَّهُ في الأبيات الَّتي سنستقبلها يرجع إلى هذا الكلام، فيقول:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا
فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا
وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي ... بِبَاطِنِهِ كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

سيأتي معنا فيما يُستقبل مِنْ قوله رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ.

* * *

شُبهةٌ حول الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ

هُنا يقول:«وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى» الشُّبهة الَّتي عَرَضت لكثير مِنَ النَّاس ويتراسلها طُلاَّب العلم هي شُبهة شيطانية حقيقة، وهي أنَّهم يقولون: (نَحْنُ عِنْدَنَا تَقْصِيرٌ فَكَيْفَ نَأْمُرُ؟ وَكَيْفَ نَنْهَى؟)، ولهذا مِن الكلمات المشهورة العظيمة للحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ أنَّه كان يقول: (لَوْ لَمْ يَعِظْ إِلَّا مَعْصُومٌ مِنَ الزَّلَلِ لَمْ يَعِظِ النَّاسَ

---

[1] عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ، قَالَ: (خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ، يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا، وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا، فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا) رواه مسلم (٢٩٦٧).

بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَحَدٌ)[1] وهذا قاله في «لطائف المعارف»، وذكر قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إخبارًا عن شُعيب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أنَّه قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود:٨٨].

فإذا تأمَّلت في مثل هذا الأمر لا تنس المنزلة الَّتي هي أعلى مِنْ هذا، ليس معنى هذا أنَّ الإنسان يُفرِّط في المأمور ويرتكب المنهي ثمَّ يقول: (أَنَا سَآمُرُ وَسَأَنْهَى لِأَنِّي لَسْتُ بِمَعْصُومٍ) لا؛ هذا المدخل أيضًا شيطانيٌّ، لهذا جاء في الصَّحيحين في حديث أُسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وقد مرَّ معنا-: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**»[2]، فهذا بابٌ وهذا بابٌ، حيث لا يستطيع الإنسان أن يأتيَ بمراتب الكمال فإنَّه لا يزيد النَّقص نقصًا لترك ما أُمر به مِنَ الأمر والنَّهي؛ نعم قال الأوَّل -أو قال بعضهم-:

مَوَاعِظُ الْوَاعِظِ لَنْ تُقْبَلاَ ... حَتَّى يَعِيهَا قَلْبُهُ أَوَّلَا
يَا قَوْمِ مَنْ أَظْلَمُ مِنْ وَاعِظٍ ... خَالَفَ مَا قَدْ قَالَهُ فِي الْمَلاَ!
أَظْهَرَ بَيْنَ النَّاسِ إِحْسَانَهُ ... وَبَارَزَ الرَّحْمَنَ لَمَّا خَلاَ[3]

انتبه إلى أنَّ هذا بابٌ وهذا بابٌ آخر، ولهذا ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ -كما قلتُ لكم هذه الكلمة- قال: (لَوْ لَمْ يَعِظْ إِلَّا مَعْصُومٌ مِنَ الزَّلَلِ لَمْ يَعِظِ النَّاسَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَحَدٌ لِأَنَّهُ لَا عِصْمَةَ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ:

لَئِنْ لَمْ يَعِظِ الْعَاصِينَ مَنْ هُوَ مُذْنِبُ ... فَمَنْ يَعِظُ الْعَاصِينَ بَعْدَ مُحَمَّدِ[4]

ثمَّ ذكر ما رواه ابن أبي الدُّنيا وقال[5]: (وَفِيهِ ضَعْفٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ كُلِّهِ**») وهذا الحديث ضعيف كما نبَّه عليه الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ[6].

---

[1] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:٥٥

[2] متفق عليه، من حديث أسامه بن زيد ﷺ، واللفظ للبخاري (٣٢٦٧).

[3] قال ابن رجب رحمه الله: (كَانَ يَحيَى بنُ مُعَاذ يُنشدُ في مَجَالِسِهِ...) -ثمَّ ذكر هذه الأبيات-، "لطائف المعارف" ص٥٣.

[4] ذكره الحافظ ابن رجب في كتابه "لطائف المعارف"، ص:٥٥.

[5] أي الحافظ ابن رجب رحمه الله.

[6] قال ابن رجب رحمه الله: (إسناده فيه ضعف) اهـ "لطائف المعارف"؛ ص:٥٥.

وقيل للحسن: (إِنَّ فُلاَنًا لَا يَعِظُ وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ) فقال الحسن: (وَأَيُّنَا يَفْعَلُ مَا يَقُولُ؟ وَدَّ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ ظَفِرَ بِهَذَا فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ)[1] هذا الَّذي قلتُ لكم بأنَّ بعض الأئمَّة كان يقول بأنَّها شُبهةٌ شيطانيةٌ، يُريد الشَّيطان هذا، قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ، مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ) قال مالك مُعلِّقًا على قول شيخه: (وَصَدَقَ، وَمَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ؟

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ ... وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ؟[2]

خطب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يومًا فقال في موعظته: (إِنِّي لَأَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَمَا أَعْلَمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْلَمُ عِنْدِي، فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)[3] وكتب إلى بعض نُوابه على بعض الأمصار كتابًا يعظه فيه وقال في آخره: (وَإِنِّي لَأَعِظُكَ بِهَذَا وَإِنِّي لَكَثِيرُ الإِسْرَافِ عَلَى نَفْسِي غَيْرُ مُحْكِمٍ لِكَثِيرٍ مِنْ أَمْرِي، وَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعِظُ أَخَاهُ حَتَّى يُحْكِمَ نَفْسهُ إِذًا لَتَوَاكَلَ الْخَيْرُ، وَإِذًا لَرُفِعَ الأَمْرُ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِذًا لَاسْتُحِلَّتِ الْمَحَارِمُ، وَقَلَّ الْوَاعِظُونَ والسَّاعُونَ للهِ بِالنَّصِيحَةِ فِي الأَرْضِ، وَالشَّيْطَانُ وَأَعْوَانُهُ يَوَدُّونَ أَنْ لَا يَأْمُرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ أَحَدٌ أَوْ نَهَاهُمْ عَابُوهُ بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ كَمَا قِيلَ:

وَأُعْلِنَتِ الْفَوَاحِشُ فِي البَوَادِي ... وَصَارَ النَّاسُ أَعْوَانَ الْمُرِيبِ

إِذَا مَا عِبْتَهُمْ عَابُوا مَقَالِي ... لِمَا فِي الْقَوْمِ مِنْ تِلْكَ الْعُيُوبِ[4]

وهذا ذكر غيره أيضًا الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذا الكتاب «لطائف المعارف» ممَّا يدلُّ على عناية الأئمَّة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بهذا الموضع، وأنَّها شُبهةٌ خطيرةٌ.

فالنَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يقول: «وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى» أنا وإن نصحْتُكَ وإن وعَظتُكَ وإن كلَّمتُك وإن أمرتُك وإن نهيتك فليس معنى هذا أنَّني لا أحتاج إلى مَنْ ينصحني ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦]، ولا زال النَّاس يتعلَّم بعضهم مِنْ بعضٍ ويعظ بعضهم بعضًا ويُذكِّر بعضهم بعضًا.

❋ ❋ ❋

[1] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:٥٥

[2] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:٥٥

[3] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:٥٥

[4] "لطائف المعارف" لابن رجب رحمه الله؛ ص:٥٥

مِنْ أَسْبَابِ الانْتِفَاعِ بِالنُّصْحِ

في منزلة «التَّذكر» للحافظ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ كتابه «مدارج السَّالكين» كلام مُهِمٌّ في هذا الموضع يطول المقام بذكرِ كثيرٍ منه، في قضية الانتفاع بالذِّكرى: متى تنتفع بها؟ ومتى ينتفع بها الإنسان؟ وذكر مِنْ ضمن هذا: (الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ)[1] لِمَ؟ لأنَّك إذا كان نظرك مُسلَّطًا على مَنْ يعظك فلا بُدَّ وأن تظهر العُيوب، ولهذا ذكر ابن جماعة في كتابه «تذكرة السَّامع والمتكلِّم في آداب العالِمِ والمتعلِّم» أنَّ بعض السَّلف كان يخرج إلى العلم لحضور مجالس شيخه ويقول: (اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَيْبَ شَيْخِي عَنِّي)[2] انظر إلى هذه المنزلة، هذا الأدب، وهذا المقام العالي، الطَّالب إذا جاء جالسًا بين يدي شيخه فإنَّه مُعتقِدٌ فيه النَّفع، مُعتقد فيه أنَّه ينتفع به، فإذا نظر إلى معايبه حيل بينه وبين هذا النَّفع، هذه المداخل طالبُ العلم لو أخذ يتكلَّم فيها وينظر فيها سيجد أنَّ فساد كثيرٍ مِنَ النَّاس يأتي مِنْ قِبَل أنفسهم.

لَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

إحسان التَّصرف مع الأُمور، تنزيلُ الأمور في منازلها مِنْ أجلِّ ما جاءت به الشَّريعة في تفقيهِ النُّفوس: كيف تُفقِّه نفسك في هذا الأمر؟ كيف تنظر إلى هذه الأمور وإلى هذه المسائل؟

❋ ❋ ❋

ذَمُّ طُولِ الأَمَلِ

هنا يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَى» أحرى وأحق، «بِنُصْحِكَ» الَّذي أنتَ تَنصح به وما ابتدأت به مِنَ الكلام يا «أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا» وما ستنتهي به مِنَ المقال، «لَوْ بِعَقْلِكَ» أو «لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا» لِم؟ قال:

---

[1] قال ابن القيّم رحمه الله: (وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ) إلى أن قال رحمه الله: (وَأَمَّا الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ حُرِمَ الانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى عَدَمِ الانْتِفَاعِ بِكَلَامِ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِعَمَلِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ) وأضاف رحمه الله: (فَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ مِنْ شُرُوطِ تَمَامِ الانْتِفَاعِ بِمَوْعِظَتِهِ) "مدارج السالكين"؛ ج١، ص: ٤٤٦، باختصار.

[2] "تذكرة السَّامع والمتكلِّم" لابن جماعة رحمه الله؛ ص: ٩٨.

تُقَطِّعُنِـي عَلَـى التَّفْرِيـطِ لَوْمًـا ... وَبِالتَّفْرِيـطِ دَهْـرَكَ قَـدْ قَطَعْتَـا!

الواعظُ كبيرٌ مُتقدِّم، والموعوظ في النَّشأة والشَّباب.

«تُقَطِّعُنِي» تُعيِّرُني وتُوبِّخني وتُقَطِّعُنِي تعييرًا وتعييبًا، «عَلَى التَّفْرِيطِ» على ما فرَّطتُ في شبابي وفي ريعانه، «عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْمًا» بأن تلومني «وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا!» قد قطعتَ الدَّهر بتفريطك، هذا ليس فيه إنكار مِنَ الألبيري، يعني كما قلتُ لكم السَّلف كانوا ينظرون إلى المقامات، العِبادُ لهم مقامات بين الله جَلَّوَعَلَا يسَّرها الله لهم، قد لا يبلغونها:

_ إمَّا من جهة العلم.

_ وإمَّا من جهة العمل.

_ وإمَّا من جهة الشُّكر.

_ وإمَّا من جهة الصَّبر.

_ وإمَّا من جهة الاستغفار والاعتراف بالذَّنب.

خمسة أسباب قد لا يبلغ بها العبد هذه المنزلة الَّتي الله جَلَّوَعَلَا جعل عنده القدرة على فعلها، لكن لأسباب في نفسه هو لَم يبلغها، فهو يعترف بهذا المقام.

يقول:«تُقَطِّعُنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْمًا» لو قام اللَّيل كلَّه وصام النَّهار كلَّه -مع أنَّ هذا ليس مطلوبًا شرعًا- وقضى عُمره في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما أدَّى شُكر نعمة الله، والآثار في هذا كثيرة عن الأئمَّة، فهُو يقُول:

تُقَطِّعُنِـي عَلَـى التَّفْرِيـطِ لَوْمًـا ... وَبِالتَّفْرِيـطِ دَهْـرَكَ قَـدْ قَطَعْتَـا

وَفِـي صِغَـرِي تُخَوِّفُنِـي الْمَنَايَـا ... وَمَـا تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْـثُ شِخْتَـا

تخوِّفني على ما هو أبعدُ في الحال منك، الموت لا يُفرِّق بين صغيرٍ وكبيرٍ، وأميرٍ وحقيرٍ، وغنيٍّ وفقيرٍ، ومُتقدِّمٍ ومُتأخِّر، وصحيح ومريضٍ؛ ليس هناك تفريق إذا جاء القدر، لكن هناك أشياء تُسمَّى بغلبة الظَّن، فمَنْ تقدَّم في العمر يكون أقرب إلى القبر وأقرب إلى الموت وأقرب إلى الخروج مِنَ الدُّنيا، ومَنْ كان صغيرًا أو شابًا غَلَبَةُ الظَّنِّ أنَّه يتهيَّأ لهُ البقاء، وفي هذا وفي هذا لا يأمن الإنسان مِنَ الموت.

يقُول:«وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا» الَّتي هي الموت، «وَمَا تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتَا؟» وسنتكلَّم على قضية الإساءة في الشَّيخوخة عند قول النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي   وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

وهذا مِنْ محاسن هذه المنظومة العظيمة، وقد أحسن فيها أيَّما إحسان؛ وكان مِنْ آخر ما وقفتُ عليه مِنَ الفوائد المتعلِّقة بهذه المنظومة -لكنَّها ما زالت مخطوطة أو بعضها مفقود- أنَّ الحافظ ابن حجر أعرب ألفاظها، ومنها أنَّه ذكر البقاعي أيضًا في ترجمة الألبيري هذه المنظومة وأشاد بها، نذكر هذا عند الوقوف عليه إن شاء الله موثَّقًا.

على كلِّ حالٍ، هُنا يقول:

وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا   وَمَا تَدْرِي بِحَالِكَ حَيْثُ شِخْتَا

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلاً   فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا

كنتَ في حال صِباك وفي حال شبابك، وكما قلتُ لكم:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي   وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

فهناك سيأتي الكلام على هذا الموضع: على ما يقبح مِنَ الفعل في الشَّيخوخة.

وهُنا قَال:

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلاً   فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا

هذا عتابٌ؛ الألبيري يفتح على المنصوح يقول له: لو قلتَ هذا القول فأنتَ قد صدقت.

وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي   بِبَاطِنِهِ كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

❋ ❋ ❋

الاعتبار بنذير الشَّيب

يُتمِّم الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى النَّظم والكلام على نفسه بلسان مَنْ ناصحه، فيقول بأنَّه يحقُّ لك أيُّها النَّاصح أن تقول لِمَن ناصحك:

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلاً   فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا

يقولُ: كنتَ في حال صباك أهدى منكَ في حال كِبَرك وشيخُوخيَّتك، وهذا ممَّا يتناقض فيه الإنسان لأنَّ الأجدر بالإنسان -وليس الأعذر أو أنَّه معذورٌ على ذلك- أنَّ الإنسان في حال صباه وفي حال صغره ينتابه ريعان الشَّباب وعُنفُوانيته ويأخذ في نفسه مساحة مِنَ المعذرة والعفو وطُول الأمل، فيُطوِّل الأمل في لقاء ربِّه وفي موته وخروجه مِنَ الدُّنيا، وطُولُ أمله هذا يحمله:

_ إمَّا على التَّقصير في الطَّاعات وفعلها.

_ وإمَّا على الإفراط في المعاصي.

وهذا سببه طول الأمل، ولهذا حذَّر السَّلف منه تحذيرًا كثيرًا -ليس هذا محلّه لأنَّه سيأتي فيما يُستقبل مِنْ كلام النَّاظم ما يدلُّ عليه ويُرشد إليه-.

وأمَّا إذا كَبر الإنسان وتقدَّم به العمر فإنَّ غالب ظنِّه أن يخرج مِنْ هذه الدُّنيا فيتهيَّأ للعمل الصَّالح، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧] قال بعض السَّلف مِنْ أئمَّة التَّفسير: (الْمَقْصُودُ بِـ«النَّذِيرِ»: النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[١] وهذا المعنى لا غبار عليه، وقال آخرون: (النَّذِيرُ هُوَ الشَّيْبُ)[٢] والقرآن حمَّال للوجوه، ومثل هذا يدخل في عموم التَّفسير في الآية، فيقول: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ قال: (الشَّيْب).

وذكر غير واحدٍ مِنْ أهل العلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: (كَانَ الرَّجُلُ إذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ عَامًا لَزِمَ الْمَسْجِدَ وَتَعَبَّد للهِ)[٣] وهذا في آثار لا بأس بها في الكثرة عن الأئمَّة، يعني مِنْ جهة الاشتغال بعمل الآخرة إذا تقدَّم بالإنسان أو بالمرء السِّنُّ لأنَّه يغلب على ظنِّه أن يَفْجَأَهُ الموت وأن يخرج مِنْ هذه الدُّنيا.

فهو يقول: أنتَ «كُنْتَ مَعَ الصِّبَا» أي في صباك، وهذا يحصل في فترة ما يُسمَّى ببدء الاستقامة أو نشوة طلب العلم

---

[١] "تفسير الطبري" ج٢٠، ص:٤٧٩

[٢] قال القرطبي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَسُفْيَانُ وَوَكِيعٌ وَالْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ وَالْفَرَّاءُ وَالطَّبَرِيُّ: هُوَ الشَّيْبُ) "الجامع لأحكام القرآن" ج١٤، ص:٣١٦.

[٣] تعذر الوقوف عَلَى الأَثَر الْمَذْكُور. وَقَد جاء بنحوه عَن هلَال بن يساف أنَّه قال: (كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِين سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبَادَةِ)، وأيضًا: قال عَبْد الله بن دَاوُد: (كَانَ الرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً طَوَى فِرَاشَهُ) ذكرهما ابن الجوزي رحمه الله في كتاب "أعمار الأعيان" ص:٢٩، وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ: (كَانُوا يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا، فَإِذَا بَلَغُوا الْأَرْبَعِينَ طَلَبُوا الْآخِرَةَ) "الزهد" لابن أبي الدنيا رحمه الله، ص:٢٢٢.

-أو ما شابه ذلك- عند كثيرٍ مِنَ النَّاس، فلمَّا شِختَ وكبرت تغيَّر حالك، فكان حالك في الماضي أهدى سبيلاً من حالك في الحاضر الَّذي ينبغي أن تزداد فيه علمًا وعملاً ونفعًا.

❊ ❊ ❊

خَوْفُ السَّلَفِ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ

جاء في مُسند الإمام أحمد في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**»[1]، وفي رواية:«**فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى بِدْعَةٍ فَقَدْ ضَلَّ**»[2]، فالإنسان ينتابه الشِّرَّة وينتابه الفترة، لكن الحال هو ما يستقرُّ عليه أمره عند خروجه مِنَ الدُّنيا، ولهذا جاء عن سُفيان الثَّوري وجاء عن طائفة مِنَ السَّلف أنَّهم كانوا يقولون: (مَا أَبْكَى الْعُيُونَ مَا أَبْكَاهَا الْكِتَابُ السَّابِقُ)[3] لماذا؟ لأنَّ الله لا يُعذِّب العبد على علمه فيه فيما يعمله، وإنَّما يُعذِّبه ويُحاسبه إذا عمِل بمقتضى هذا العلم فيه، فيقول: (مَا أَبْكَى الْعُيُونَ مَا أَبْكَاهَا الْكِتَابُ السَّابِقُ) ما الَّذي سيُختم به لهم؟ ولهذا لمَّا حضرت سُفيان الوفاة -وقد انتابه خوفٌ أو بكى- فأخذ عودًا مِنَ الأرض وقال: (وَاللهِ لَذُنُوبِي أَهْوَنُ عِنْدِي مِنْ هَذَا، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ)[4].

فهذا البيت أراد فيه الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُقرِّر ضرورة الثَّبات على الحقِّ والدِّين ولُزوم الطَّاعة، هذا مقصودُه مِنَ البيت، وهو مقصدٌ مهمٌّ.

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلاً ... فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا

ولهذا الله جَلَّ وَعَلَا ضرب لنا مثلاً في القرآن بقوله:﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[النَّحل:٩٢] هذا

---

[1] قال الشيخ أحمد شاكر في "مسند أحمد" (٦٧٦٤): إسناده صحيح.

[2] قال ﷺ:(إِنَّ لِكُلِّ عُمُرٍ شِرَّةٌ، ثُمَّ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى بِدْعَةٍ فَقَدْ ضَلَّ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدِ اهْتَدَى) صحَّحهُ مُقبل الوادعي رحمه الله في "الصَّحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (١٤٨٦) عن رجل من الأنصار رضي الله عنه.

[3] قال ابن رجب رحمه الله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا أَبْكَى الْعُيُونَ مَا أَبْكَاهَا الْكِتَابُ السَّابِقُ. وَقَالَ سُفْيَانُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ: هَلْ أَبْكَاكَ قَطُّ عِلْمُ اللَّهِ فِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ: تَرَكَنِي لَا أَفْرَحُ أَبَدًا، وَكَانَ سُفْيَانُ يَشْتَدُّ قَلَقُهُ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْخَوَاتِيمِ، فَكَانَ يَبْكِي وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَكُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ شَقِيًّا، وَيَبْكِي، وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ) "جامع العلوم والحكم"؛ ج١، ص:١٨٠.

[4] "منهاج القاصدين" لابن قدامة رحمه الله؛ ص:٢٩٦

تشبيهٌ: ﴿كَالَّتِي﴾ امرأة قالوا كانت في مكَّة -كما ذكر أهل التَّفسير- فكانت تغزل وتغزل وتغزل وهي مُتقنة في غزلها، لا عيبَ فيهِ، ثمَّ إذا شارفت على الانتهاء نقضت ما غزلت؛ وهكذا حال الإنسان في عمله مع الآخرة، ولهذا الله عَزَّوَجَلَّ قال في كتابه الكريم في موضعين: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢] -هذه بالواو وهذه بالفاء-؛ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: الزموا الإسلام والطَّريقة الَّتي أنتم عليها حتَّى يُدرككم الموت.

ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩] فُسِّر اليقين في سورة المدثر في قوله: ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[المدثر:٤٧] بأنَّه الموت وهذا مِنْ تفسير القرآن بالقرآن، ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾: يعني حتَّى آتانا الموت، وليس المراد به العلم الَّذي تزعمه المتصوِّفة الملاحدة مِنْ جهة سقوط التَّكاليف، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩]، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢] هذا معنى ما تدلُّ عليه هذه الآيات، وهذه الآيات وغيرها مِنَ النُّصوص الدَّالة على ضرورة الثَّبات على الحقِّ وعلى الدِّين وعلى الاستقامة وعلى الصِّراط المستقيم مِنَ المهمَّات.

***

مُدَاوَمَةُ السَّلَفِ عَلَى الطَّاعَاتِ

جاء في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال له: «**يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**»[١] هذا تنبيهٌ إشاريٌّ مِنَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما يُربِّي عليه أصحابه، واختلاف تنويع أساليب التَّربية عنده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «**لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قيامَ اللَّيْلِ**».

والسَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -وفي مقدِّمتهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَنْ جاء بعدهم مِنَ التَّابعين ومَنْ بعدهم- كان هذا ديدنهم اقتداءً بالنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَصِفُ نبيَّنا محمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في عمله فتقول: (كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً)[٢] يعني دائم.

---

[١] متَّفق عليه، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[٢] متَّفقٌ عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

• وكذلك قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا: (كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ)[1]، ومِنْ هنا قال جماهير أهل العلم إنَّ صلاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد صلاة العصر ركعتين لَم يكن لقصد راتبةٍ للعصر كما فهمه بعض الصَّحابة وفهمه بعض العلماء ممَّن جاء بعدهم، ولكنَّه لـمَّا قضى سُنَّة الظُّهر الَّتي فاتته بعد العصر أثبت هذا العمل لأنَّه عمله – كما جاء في جملة مِنَ الأحاديث في الصَّحيحين وغيرها–.

والخلافُ معروفٌ بين عمر وعائشة وكعب بن عُجرة وجماعة مِنَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومَنْ جاء بعدهم: هل للعصر سُنَّة راتبة أو لَا؟ حملوا هذا المعنى على هذا المُراد (كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ) فلمَّا قضى الرَّكعتين –وقد فاتتاه مِنَ الظُّهر بسبب انشغاله بالوفود– قضاها بعد العصر ثمَّ ثبَّت ذلك العمل، فكان إذا عَمل عَملاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَثبته.

كذلك مَنْ جاء بعده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ممَّا يدلُّ على الثَّبات على العمل، طبعًا أحاديث النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كثيرةٌ في هذا الباب أنَّه كان إذا فاته حزبه –كما في حديث عائشة وعمر عند مسلم وغيره– مِنَ اللَّيل قضاه بالنَّهار ولكنَّه لا يجعله وِتْرًا[2].

والصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لـمَّا جاؤوا مِنْ بعده فيما تعلَّموه منه لم يتركوا شيئًا تعلَّموه مِنَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، خذ أمثلةً على هذا:

_ في صحيح مسلم في حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمَّا طلبت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خادمًا مِنَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعلَّمها وعليًّا التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير[3]، فلمَّا حدَّث عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا قال: (مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال له الرَّاوي عنه: (وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ؟) قال: (وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ) –يعني التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير–، هو يقول: (مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فالرَّجل استحضر حادثة صفِّين –حادثة قويَّة جدًّا وكانت في ليلٍ وكانت في شدَّة أيضًا– فقال له الرَّجل: (وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ؟) قال: (وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ)[4].

---

[1] رواه مُسلم (٧٤٦).

[2] قالَت عائِشَة رضي الله عنها: (كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَي عَشْرَةَ رَكْعَةً) رواه مسلم (٧٤٦).

[3] قَال ابْن أَبِي لَيْلَى: (حَدَّثَنَا عَلِيٌّ أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنَ الرَّحَى فِي يَدِهَا، وَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ سَبْيٌ فَانْطَلَقَتْ فَلَمْ تَجِدْهُ وَلَقِيَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا نَقُومُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى مَكَانِكُمَا. فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمِهِ عَلَى صَدْرِي ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهْوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ) رواه مسلم (٢٧٢٧).

[4] رواه مُسلم (٢٧٢٧).

_ عمر بن أبي سلمة كان ربيب النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -أمُّه: أم سلمة هند أمّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، وكان صبيًّا صغيرًا وكانت يده تطيش في الصَّحفة -في الطَّعام- مع النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال له النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[1]، حدَّث به بعد كِبَر فقال: (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ)[2]، يعني: مازالت هذه الصِّفة الَّتي علَّمنيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الصِّفة الَّتي آكل بها وأطعم بها، بمعنى أنَّه لَم يتركها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

_ أبان بن عثمان بن عفان -كما عند التِّرمذي- يروي عن أبيه عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ**»[3]، (وَكَانَ أَبَانُ قَدْ أَصَابَهُ طَرَفُ فَالِجٍ، فَجَعَلَ الرَّجُل يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: مَا تَنْظُرُ؟ أَمَا إِنَّ الْحَدِيثَ كَمَا حَدَّثْتُكَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْهُ يَوْمَئِذٍ لِيُمْضِيَ اللَّهُ عَلَيَّ قَدَرَهُ)[4]، الشَّاهد فيه أنَّه كان مُلازمًا لهذا الذِّكر وأنَّهم مع ملازمتهم لهذا الذِّكر يعتقدون ما دلَّ عليه.

ومثل هذا في الآثار عن الصَّحابة وعن التَّابعين ومَنْ جاء بعدهم مِنَ الأئمَّة في المحافظة على الأعمال والمداومة عليها نفسٌ كثيرٌ، والمقصود هو الإشارة إلى مقاصد الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

❋ ❋ ❋

النُّشوء في عبادة الله

فقولُه هنا:

وَكُنْتَ مَعَ الصِّبَا أَهْدَى سَبِيلاً ... فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكَثْتَا

كما قلتُ لكم هم يُعرِّضون أنفسهم لأيِّ شيءٍ؟ للاتِّهام، ولا يزعمون في أنفسهم الكمال، يقول كأنَّك كان ينبغي لك

[1] متفق عليه، من حديث عمر بن أبي سلمة ﷺ.
[2] اللفظ للبخاري (٥٣٧٦).
[3] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٣٣٨٨) : حسن صحيح.
[4] قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (٣٣٨٨) : حسن صحيح.

أن تكون أكثر زيادة مِنْ هذا.

ثمَّ قال لنفسه مخاطبًا على لسان المنصُوح، أنَّه قال المنصوح عن نفسه:

وَهَـا أَنَـا لَـمْ أَخُـضْ بَحْـرَ الْخَطَايَـا   كَمَـا قَـدْ خُضْتَــهُ حَتَّـى غَرِقْتَـا

لم أخض بحر الذُّنوب وبحر الخطايا، لِمَ؟ لأنَّه يُخاطبه في حال الشَّباب، حديث «**عَجِبَ رَبُّنا مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**»[1] هو حديثٌ معلولٌ وإن كان بعض أهل العلم يُحسِّنه في الشَّواهد والمتابعات، ولكن يدلُّ على هذا ما جاء في في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»[2] إلى أن قال: «**وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**»[3] معناه أنَّ هذه النَّشأة استمرَّت عليه.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا   عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ[4]

—— ❋ ——

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

هذا مِنْ أبياتِ البُردة للبوصيري، بردة الضَّلال والشِّركيَّات، ولكنَّ الاستشهاد بهذا البيت مثل الطَّريقة الَّتي كان يستشهد بها العلماء في شعراء أهل الجاهلية ومَنْ شابهم.

النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**».

❋ ❋ ❋

قَبُولُ السَّلَفِ لِلنُّصْحِ وَانْقِيَادُهُمْ لِلْحَقِّ

هنَا يقُول رَحِمَهُٱللَّهُ:

[1] "ضعيف الجامع" للألباني رحمه الله (١٦٥٨).

[2] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[3] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري (٦٨٠٦).

[4] لأبي العلاء المعري.

وَهَـا أَنَـا لَـمْ أَخُـضْ بَحْـرَ الْخَطَايَـا كَمَـا قَـدْ خُضْتَـــهُ حَتَّـى غَرِقْتَـا

«وَهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا» لَمْ أدخل في بحر الخطايا ولم أتجرَّأ على الخوض فيه، وأنتَ أيُّها النَّاصح قد خُضته.

المنصوح لَمْ يَقُلْ هذا؛ الألبيري يقول: لو قلتَ هذا فلن أعتِبَ عليك، ولن أجد في نفسي غضاضة مِنْ أن تقول هذا فيَّ، لأنَّهم كما قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -كانوا يقولون-: (رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي)[1] كانوا يفرحون بالنُّصح، ويفرحون بالتَّوجيه، لأنَّ المسلم -وخصوصًا الَّذي يُريد أن يبلغ إلى الكمالات- يعلم أنَّ النُّصح والإرشاد والتَّوجيه وإن كان فيه مَضاضة أو انتقاصٌ مِنْ حقِّه فإنَّه لا سبيل إلى تكميل نفسه إلَّا بقبوله، لا سبيل إلى أن يَصل إلى مراحل ومراتب الكمال إلَّا بقَبول هذا النُّصح وبقبول هذا الحق.

• روَى الأئمَّة وذكر هذا المزي والذَّهبي في السِّير وغيرهم مِنَ المترجمين -انتبه إلى هذه القصَّة-: أنَّ يحيى بن مَعين لَمَّا قدم مصر حضر مجلس نُعيم بن حمَّاد الخُزاعيِّ، فحدَّث نُعيمُ بن حمَّاد الخزاعي مِنْ صحائفه، ونُعيم بن حمَّاد الخُزاعيِّ كان الأئمَّة يقولون فيه بأنَّه ضعيفٌ شديدٌ في السُّنَّة[2]، ومِنْ أشدِّ النَّاس في سنَّة النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ذكر الذَّهبي أنَّه أخذ هذا مِنْ بعض شيوخه ممَّن كان شديدًا على الجهمية -نسيتُ اسم شيخ نُعيم بن حمَّاد الخُزاعِيِّ-[3].

نُعيم بن حمَّاد حدَّث مِنْ صحائفه، فقال: (حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ) فقال يحيى بن مَعين -وهو في المجلس-: (لَا وَاللهِ، مَا سَمِعْتَ هَذِهِ مِنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ قَطُّ، وَلَا سَمِعَهَا ابْنُ الْمُبَارَكِ مِنِ ابْنِ عَوْنٍ قَطُّ) فقال: (تَرُدُّ عَلَيَّ؟) -الإنسان تأخذه شيءٌ مِنَ الجفوة أو الحمية أو ما أشبه ذلك، ليس معصومًا-، قال: (تَرُدُّ عَلَيَّ؟!) قال ابن مَعين: (إِي وَاللهِ أَرُدُّ عَلَيْكَ أُرِيدُ زَيْنَكَ) كيف؟ هو يقول أنا أردُّ عليك لأنَّ ردِّي عليك سيُزيِّنك بالرُّجوع عن هذا الخطأ، (أَرُدُّ عَلَيْكَ أُرِيدُ زَيْنَكَ) قال: (فَغَضِبَ وَغَضِبَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ) حالُ التَّعصب، بعض النَّاس بدل من أن يكون عونًا لشيخه ولِمعلِّمه ليرجع إلى الحقِّ ويستنير له دربه ويصل إلى مراحل الكمالات، لا؛ يفعل عكس ما قال النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**»[4] فيُعين الشَّيطان على شيخه.

---

[1] "سنن الدارمي"؛ ج١، ص:١٦٩

[2] قَالَ ابْن رَجَب الْحَنْبَلِي رحِمَهُ الله: (وَنُعَيْمٌ هَذَا، وَإِنْ كَانَ وَثَّقَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ، فَإِنَّ أَئِمَّةَ الْحَدِيثِ كَانُوا يُحْسِنُونَ بِهِ الظَّنَّ، **لِصَلَابَتِهِ فِي السُّنَّةِ**، وَتَشَدُّدِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَكَانُوا يَنْسُبُونَهُ إِلَى أَنَّهُ يَهِمُ، وَيُشَبَّهُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، فَلَمَّا كَثُرَ عُثُورُهُمْ عَلَى مَنَاكِيرِهِ، حَكَمُوا عَلَيْهِ بِالضَّعْفِ، فَرَوَى صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَافِظُ عَنِ ابْنِ مَعِينٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ وَلَكِنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ) "جامع العلوم والحكم"؛ ج٣، ص١٤٦.

[3] قال الذَّهبي رحمه الله: (قَالَ أَحْمَدُ: كَانَ نُعَيْمٌ كَاتِبًا لِأَبِي عِصْمَةَ -يَعْنِي نُوحًا- وَكَانَ شَدِيدَ الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَمِنْهُ تَعَلَّمَ نُعَيْمٌ) "سير أعلام النُّبلاء"؛ ج١٠، ص:٥٩٨.

[4] رواه البخاري (٦٧٨١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

فدخل نُعَيْم بن حمَّاد الخُزاعي إلى بيته فنظر في صحائفه -في كُتبه الَّتي كَتب- فما وجد هذا الحديث لا عن ابن المبارك ولا عن ابن عون في كُتبه، ثمَّ رجع فقال: (أَيْنَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ لَيْسَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيثِ؟ نَعَمْ يَا أَبَا زَكَرِيَّا غَلِطْتُ)[1] فرجع، الشَّاهد هي النِّهاية. كَوْن الإنسان تأخذهُ بِدايةً في الغضب هذا لا يخلو منه بشر، لكن الشَّاهد هو هذه النِّهاية الَّتي انتهى إليها الأمر، وهذا كثير في تراجم الأئمَّة رَحِمَهُمُٱللَّهُتَعَالَى.

يقول رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَهَا أَنَا لَمْ أَخُضْ بَحْرَ الْخَطَايَا ... كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا

الإنسان ليس معصومًا، يُخطئ ويُصيب، ويعلم ويجهل، وكما قال النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ، يَعْتَادُهُ الفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ**»[2] -والحديث في «الصَّحيحة»-، كذلك قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[3]، الإنسان ليس معصومًا، الخطأ أن يظلَّ على الخطأ.

❋ ❋ ❋

مِنْ كُنَى الدُّنْيَا

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ ... وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا

أمّ الدَّفر هذا كنية الدُّنيا -يعني كنية تُكْنى بها الدُّنيا-، مِنْ كُنى الدُّنيا: أمّ دفر، وهذا كانت تكنيها العرب به قديمًا، والدّفر معناه النَّتن والقذر، فعبَّر عن الدُّنيا بأنَّها أمّ القذر، لذلك النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ**»[4] كما عند التِّرمذي وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» والألباني رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

---

[1] "تهذيب الكمال" للمزي رحمه الله (٢٩/٤٨١)، وأيضًا: "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله (١١/٩٠).

[2] قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" (٢٢٧٦) : إسناد صحيح. اهـ ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[3] رواه مسلم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة ﵁.

[4] قال ﷺ:(أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ) حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح التِّرمذي" (٢٣٢٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

يقول: «وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا» الحميا معناها الشِّدَّة والسَّوَرَة الَّتي تُصيب شارب الخمر إذا احتدَّ عنده الخمر فبلغ أعالي رأسه فأثَّر عليه.

«وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيَّا أُمِّ دَفْرٍ» الَّتي هي الدُّنيا، «وَأَنْتَ» أيُّها النَّاصح «شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا» شربتَ الدُّنيا ومكثت في الدُّنيا وركنتَ إلى الدُّنيا -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

❊ ❊ ❊

فَسَادُ الزَّمَانِ لَيْسَ عُذْرًا لِلْعَبْدِ عَنْ فَسَادِهِ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَـمْ أَنْشَـأْ بِعَصْـرٍ فِيـهِ نَفْـعٌ ... وَأَنْـتَ نَشَـأْتَ فِيـهِ وَمَـا انْتَفَعْتَـا

وَلَـمْ أَحْلُلْ بِـوَادٍ فِيـهِ ظُلْـمٌ ... وَأَنْـتَ حَلَلْـتَ فِيـهِ وَانْتَهَكْتَـا

لَقَـدْ صَاحَبْـتَ أَعْلَامًـا كِبَـارًا ... وَلَـمْ أَرَكَ اقْتَدَيْـتَ بِمَـنْ صَحِبْتَـا

وَنَـادَاكَ الْكِتَـابُ فَلَـمْ تُجِبْـهُ ... وَنَبَّهَـكَ الْمَشِيـبُ فَمَـا انْتَبَهْتَـا

وَيَقْبُـحُ بِالْفَتَـى فِعْـلُ التَّصَابِـي ... وَأَقْبَـحُ مِنْـهُ شَيْـخٌ قَـدْ تَفَتَّـى

هذه الأبيات في ضمن ما ذكره النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كما قلتُ لكم في توجيه خطاب مَنْ نصحه وعبَّر عنه بـ «أبي بكر» بأنَّه يحقُّ له أن يقول لناصحه ذلك، وأنَّ هذا لا يمنعه مِنْ قبول النُّصح منهُ، ولهذا قال:

وَلَا يَغْـرُرْكَ تَقْصِيـرِي وَسَهْـوِي ... وَخُـذْ بِوَصِيَّتِـي لَكَ إِنْ رَشَدْتَـا

فهو يقولُ: لكَ أنْ تقول أيُّها المنصوح بأنَّك لم تنشأ ولم تترَبَّ ولم تترعرع في عصرٍ فيه نفعٌ، وأنتَ أيُّها النَّاصح نشأتَ في هذا العصر الَّذي فيه نفعٌ وفيه عِلمٌ وفيه صلاحٌ وفيه دينٌ ومع ذلك لم تنتفع، فأنا معذورٌ في تأخُّري عن الانتفاع لقلَّة أصحابه، وأنتَ لا عُذر لك في عدم انتفاعك لأنَّك نشأت في هذا العصر ولم تنتفع.

وهذا مِنَ الحُجج على العبد؛ يعني أنَّ مِنْ حُجج الله على عبده أن يُهيِّئ له الزَّمان والمكان الَّذي ينتفع فيه بالعلم والعمل ويُقابل فيه العلماء ويسكن في بلدٍ فيه الصَّلاح وفيه الدِّين وفيه العلم ومع ذلك لا ينتفع بهم، ولهذا كما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصَّة الرَّجل الَّذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا لمَّا سأل العالِمَ هل له من

توبة؛ قال: (نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟)[١] ثمَّ أمره بأن يذهب إلى بلدٍ أشار عليه فيها فيعبدَ الله مع قومٍ يعبدون الله في هذه البلد، لِمَ؟ لما لتأثير الزَّمان والمكان على صلاح العبد، ولهذا تلاحظون أنَّ كثيرين مِنَ النَّاس وربَّما يكون عندهم كثرة في العلم والحفظ لكنَّه ينشأ في بلد يغلب عليه منهج أو مذهب الأشاعرة أو الصُّوفية أو المعتزلة فينشأ نشأتهم، يجب عليه أن يطلب الحقَّ، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حكَمٌ عدلٌ يقذفُ في قلبه نورًا مِنَ الحقِّ بسبب طلبه للعلم، فإن اتَّبع ذلك النُّور أزال كلَّ الظُّلمة الَّتي في قلبه بسبب التَّربية الَّتي عاشها أو الزَّمان الَّذي عاشه أو المكان الذي عاشه؛ فالقرآن حُجَّة على العباد.

هو يقول بأنَّ مِنْ حُججِ الله على العبد أن ينشأ في زمان أو مكان يغلب فيه الصَّلاح، والطَّاعة، والتَّديُّن، ولزوم السُّنَّة، ومع هذا لا يأخذ منه عُدَّته وأُهبته لآخرته فيه.

فهُو يقُول:«وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ» هذا هو المنصوح «وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا» وهذا البيت فيه -كما قلتُ لكم وأُكرِّر-: أثرُ الزَّمان والمكان في صلاح المرء وفساده، ولكنَّه ليس عذرًا له، لِمَ؟ لأنَّه يجب أن يطلب الحقَّ، يجب أن يتحرَّى الحق.

ثمَّ قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْتَهَكْتَا

هذا عكس ما تقدَّم، يقول النَّاظم بأنَّك لك أن تقول -مع قيام الحجَّة عليك- بأنَّه ليس معذورًا مَنْ سكن بوادٍ فيه ظلم أن ينتسب إلى أهله ويعمل بأعمالهم، ورحم الله الشَّافعي إذ يقول:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

وَنَهْجُو ذَا الزَّمَانَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا

فكون الإنسان يعتذر بأنَّ النَّاس يفعلون الأفعال المُشينة وأنَّه معهم هذا لا يُجزئه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا الله جَلَّوَعَلَا أمر العباد بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وإقامة الحُجج وإقامة البيِّنات والدَّليل -وما شابه ذلك-، ثمَّ إن لَم يستجب النَّاس للحقِّ:

_ فإنَّ العبد أولًا يعلم أنَّهم إنَّما لا يستجيبون للحقِّ لأنَّهم يتَّبعون أهواءهم: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[هود:١٤]، وفي الآية الأُخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ

[١] متفق عليه، من حديث أبي سعيد ﷺ، واللفظ لمسلم (٢٧٦٦).

اللَّهِ﴾[القصص:٥٠].

_ وأيضًا يعلم أنَّه إن لَم يستطع النَّجاة بالنَّاس فإنَّه لا يجوز له أن يهلك بهلاكهم، ولهذا قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة:١٠٥]، ومِنْ أحسن ما يُوضِّح هذا ما جاء في البخاري في قصَّة مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لمَّا حصره الخوارج فجاء رجل إليه فقال: (إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ، وَنَزَلَ بِكَ مَا تَرَى، وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ وَنَتَحَرَّجُ) فقال: (الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاؤُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ)[1]، فالمسلم لا يجوز له أن يحتجَّ لا بالزَّمان ولا بالمكان على فساد دينه وعقيدته.

ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ يقول في ميميته:

فَحَـــيَّ عَلَـــى جَنَّاتِ عَـــدْنٍ فَإِنَّهَـــا ... مَنَـــازِلُكَ الأُولَـــى وَفِيهَـــا الْمُخَيَّـــمُ

وَلَكِنَّنَـــا سَبْـــيُ الْعَـــدُوِّ فَهَـــلْ تُـــرَى ... نَعُـــودُ إِلَـــى أَوْطَـــانِنَـــا وَنُسَلَّـــمُ

وَقَـــدْ زَعَمُـــوا أَنَّ الغَرِيبَ إِذَا نَـــأَى ... وَشَطَّـــتْ بِـــهِ أَوْطَانُـــهُ فَهُـــوَ مُغْـرَمُ

وَأَيُّ اغْتِـــرَابٍ فَـــوْقَ غُرْبَتِنَـــا الَّتِـــي ... لَهَـــا أَضْحَـــتِ الأَعْـدَاءُ فِينَـــا تَحَكَّـــمُ

قد يتحكَّم عليك الأعداء وقد يتحكَّم عليك الضُّلاَّل.

❋ ❋ ❋

صَبْرُ السَّلَفِ عَلَى الْحَقِّ رَغْمَ فَسَادِ الْخَلْقِ

مَن نظر في سِيَر القوم مِنْ أئمَّة السُّنَّة في كلِّ زمانٍ رأى أنَّهم يُخالفون أزمانهم وأماكنهم في الحقِّ، وخير ما يُذكر في هذا المقام: محنةُ الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رَحِمَهُٱللَّهُ[2]، صار الاعتزال هو الدِّين الَّذي تدين به الخلافة

---

[1] رواه البخاري (٦٩٥).

[2] مِن بَابِ مَزِيد فَائِدة: قَالَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَمُ حَفِظَهُ الله -مُنَبِّهًا عَلَى أَهَمِّيَةِ اطِّلَاعِ الطُّلَّابِ عَلَى مِحْنَة الإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ الله-: (طَالِبُ الْعِلْمِ مِنْ أَحْوَجِ مَا يَكُونُ إِلَى دِرَاسَةِ مِحْنَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ الله-، وَأَقُولُ إِنَّ مِنْ قُصُورِ طَالِبِ الْعِلْمِ وَمِنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِالأُمُورِ وَتَدْبِيرِهَا أَنْ لَا يَقْرَأَ مِحْنَةَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، فَمَا تَعْرِضُ شُبْهَةٌ مِنْ شُبُهاتِ أَهْلِ البِدَعِ اتِّجَاهَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِيمَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ وَيذُبُّونَ بِهِ عَنْ سُنَّة رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا وَفِي أَحْدَاثِ مِحْنَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ جَوَابٌ عَنْهَا، وَهَذَا يَعْرِفُهُ وَيَعْلَمُهُ مَنْ دَرَسَ مِحْنَةَ الإِمَامِ أَحْمَدَ، وَأَيْمُ اللهِ إِنَّهَا لَمَدْرَسَةٌ مُتَكَامِلَةٌ يَحْتَاجُ خَوَاصُّ الْمُسْلِمِينَ، يَحْتَاجُ القَائِمُونَ عَلَى الدَّعْوةِ، وَالَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ فِي أَوْطَانِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ، أَنْ يَتَعَرَّفُوا عَلَى مِحْنَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَكَيْفَ صَبَرَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وَلَمْ يَقُلْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مَعَ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ...) إِلَى أَنْ قَالَ -حَفِظَهُ الله-: (فَطَالِبُ الْعِلْمِ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَدْرُسَ مِحْنَةَ الإِمَامِ أَحْمَدَ دِرَاسَةً مُتَمَحِّصَةً، إِمَّا مِنْ طَرِيقِ كِتَابِ "ذِكْرُ مِحْنَةِ الإِمَامِ أَحْمَدَ" لِحَنْبَلِ بْنِ إِسْحَاق، أَوْ كِتَابِ "مَنَاقِبُ الإِمَامِ أَحْمَدَ" لِأَبِي الفَرَجِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ، أَوْ مِنْ تَرَاجِمِ العُلَمَاءِ عَلَى الأَقَلِّ فِي الكُتُبِ الَّتِي لَمْ تُفْرِدْ فِي هَذَا البَابِ كَـ "تَأْرِيخِ الإِسْلَامِ" لِلذَّهَبِيِّ، أَوْ "سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ" لِلذَّهَبِيِّ، أَوْ "الْبِدَايَة وَالنِّهَايَةُ" لِابْنِ كَثِيرٍ؛ يَسْتَطِيعُ طَالِبُ الْعِلْمِ أَنْ يَقْرَأَهَا فِي جَلْسَةٍ أَوْ جَلْسَتَيْنِ أَوْ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ، يَسْتَفِيدُ مِنْهَا وَيَنْظُرُ إِلَى الْمَسَارِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللهُ، يَنْظُرُ كَيْفَ تَصَرَّفَ الإِمَامُ أَحْمَد مَعَ أَئِمَّةٍ كِبَارٍ عَاشَ مَعَهُمْ دَهْرًا مِنْ عُمُرِهِ) اهـ

ويُفرض على العلماء ويُمتحنون به، وعلى الفقهاء، وعلى المحدِّثين، وعلى الخُطباء، وعلى أئمَّة المساجد، وعلى كلِّ مَنْ كان له مشاركةٌ في العلم، مع هذا لَم يستجبْ لَهم لا هو ولا مَنْ معه ممَّن ثبت مِنْ أئمَّة الدِّين والعلم.

ففساد الزَّمان ليس حُجَّة للعبد على فساده، بمعنى أنَّه يقول: (النَّاسُ كُلُّهُمْ هَكَذَا) -مثلما يفعل كثير مِنَ النَّاس-، هو لا يريد أن يعيش غربة الدِّين، يغشُّ النَّاس فيغشُّ بغشهم، ويكذبون فيكذب بكذبهم، ويرى أنَّه في قرارة نفسه إن فعل هذا ظهر بصورة التَّشدد، فيوحي إلى نفسه قبل أن يُصرِّح له أحد بأنَّه مُتشدِّد أو بأنَّه يعيش في زمن غير زمنه؛ وكما يقول حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في داليته:

يَـا غُرْبَـةَ الدِّيـنِ وَالْمُسْتَمْسِكِينَ بِـهِ ... كَقَابِـضِ الْجَمْـرِ صَبْرًا وَهُـوَ يَتَّقِـدُ

وَالْمُقْبِلِيـنَ عَلَيْـهِ عِنْـدَ غُرْبَتِـهِ ... الْمُصْلِحِينَ إِذَا مَـا غَيْرُهُـمْ فَسَـدُوا

ولهذا قال في بداية المنظومة:

إِنِّي بَـرَاءٌ مِـنَ الأَهْوَا وَمَـا وَلَـدَتْ ... وَوَالِدِيهَا الْحَيَارَى سَـاءَ مَـا وَلَـدُوا

هذان البيتان -بيتا الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فيهما:

_ كما أنَّ الزَّمان والمكان إذا كانا صالحين لهما أثرٌ على العبد، فإذا لَم يتأثَّر بهما كانا حُجَّة عليه، لأنَّ حُجَّة الله قائمة.

_ وإذا كان الزَّمان والمكان فاسدين فليس له عذرٌ بأن يفسد بفسادها أو بفسادهما.

❊ ❊ ❊

التَّنْبِيهُ عَلَى عِبَارَةِ: «إِذَا أَفْتَى فِيهَا عَالِمٌ تَخْرُجُ مِنْهَا سَالِمًا»

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤكِّدًا هذا الأمر وهو يريد أن يُخْلي ذهن المنصوح مِنْ أنَّه معذورٌ إذا كان النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنده تقصير، وهذا ما ينبغي أن يُنبَّه عليه العوَّام لأنَّهم يجعلون فعل العالِمِ والمُقتدَى به حُجَّة: (قَدْ قَالَ بِهِ فُلاَنٌ) و (قَدْ تَكَلَّمَ بِهِ فُلاَنٌ) و (قَدْ فَعَلَهُ فُلاَنٌ) وهذا لا يعذرهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتَّى انتشر مِنْ أقولهم في هذا العصر: (إِذَا أَفْتَى فِيهَا عَالِمٌ تَخْرُجُ مِنْهَا سَالِم) لا واللهِ لستَ بسالِمٍ لأنَّك مُخاطب بالشَّرع ومخاطب بالدِّين ومخاطب بالأوامر

ومخاطب بالنَّواهي.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى: «أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمٍ»

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَقَــدْ صَاحَبْــتَ أَعْــلاَمًــا كِبَــارًا ... وَلَــمْ أَرَكَ اقْتَدَيْــتَ بِمَــنْ صَحِبْتَـا

«لَقَدْ» اللاَّم هذه:

_ يُحتمل أن تكون ابتدائية.

_ ويحتمل أن تكون موطِّئة للقسم.

وكلاهما صحيح، و «قَدْ» هذا حرف التَّحقيق، و «صَاحَبْتَ» مِنَ الصُّحبة، وهي المصاحبة والملازمة.

«أَعْلاَمًا» الأعلام جمع عَلَم وهو المُعْلِمُ على الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الجبل: عَلَمًا، لماذا؟ لبروزه، والعرب كانوا يقولون: (أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمٍ) يعني نارٌ مُشْعلةٌ، مُحترقةٌ، مُرتفعةٌ، وموضوعة على جبل؛ هذا المقصود مِنَ المثال.

❊ ❊ ❊

الاقْتِدَاءُ بِالْعُلَمَاءِ

يقُول: «لَقَدْ صَاحَبْتَ أَعْلاَمًا كِبَارًا» وليسوا أعلامًا فحسب، بل هؤلاء الأعلام كِبار، ومع هذا لم أرك اقتديْتَ وتأسَّيت وعمِلت بعمل هؤلاء «وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا»، وهذا البيت يُوضِّح أنَّ إمامة الدِّين وأنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء في كلِّ شيءٍ ممَّا أُوحيَ به إليهم إلَّا أنَّه لَا يوحى إلى العلماء وإنَّما يوحى إلى الأنبياء، كلٌّ بحسبه.

وفي أوَّل المنظومة تقدَّم معنا ذِكر جملةٍ مِنَ النُّصوص والآثار في أهميَّة الاقتداء بأهل العلم والصَّلاح عند قول النَّاظم:

إِلَــى عِلْـــمٍ تَكُـــونُ بِــهِ إِمَامًـا مُطَاعًـــا إِنْ نَهَيْــتَ وَإِنْ أَمَرْتَـــا

وهو هنا يقول له:«لَقَدْ» بالتَّحقيق «صَاحَبْتَ أَعْلاَمًا» والأعلام -كما قُلنا-: جمعُ عَلَم لأنَّه مُعْلِمٌ عن الشَّيء، وذلك أنَّ العالِم عَلَم على الأخلاق ومكارمها، فهو عَلمٌ على الكرم، وعَلَم على الجود، وعَلَمٌ على الحياء، وعَلَم على التَّواضع، وعَلَم على لُزوم السُّنَّة، وعَلَمٌ على الصَّبر على الأذى، فهو عَلَمٌ مُعْلِمٌ بأثر العِلم في صاحبه، ولهذا انتفع النَّاس بالعلماء الرَّاسخين في العلم -أئمَّة السُّنَّة- لأنَّهم كانوا أعلاَمًا على ما يحملونه مِنَ العلم: أعلامًا على التَّواضع، أعلاَمًا على الكرم، أعْلامًا على الجود، على الشَّجاعة، على لُزوم السُّنَّة، على التَّحلِّي بالصَّبر، على التَّحلِّي بالأخلاق، وواجبٌ على مَنْ رآهم وعاصرهم وعايشهم أن يتَّخذ مأخذهم.

الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال في كتابه الكريم في دعاء الصَّالحين:﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤] وهذا الَّذي كان عليه أئمَّة الدِّين والسُّنة فيما يتعلَّق برؤيتهم لأشياخهم:

_ روى أبو عمر ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» عن عبد الله بن وَهْبٍ المصريِّ -تلميذ الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ- أنَّه قال: (مَا تَعَلَّمْتُ مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ أَفْضَلَ مِنْ عِلْمِهِ)[١]، وفي روايةٍ ذكرها الذَّهبيُّ: (مَا نَقَلْنَا مِنْ أَدَبِ مَالِكٍ أَكْثَرُ مِمَّا تَعَلَّمْنَا مِنْ عِلْمِهِ)[٢] مِنْ أين جاء هذا؟ هذا له مبدأ وله منشأ وهو أنَّ الإمام مالك كان يقول -كما في «ترتيب المدارك» لعياض-، يقول: (كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: اذْهَبْ إِلَى رَبِيعَةَ فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ)[٣]، لا تنظر إلى آخر الأثر ولكن انظر إلى أوَّله، يقول: (كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي) معناه أنَّه كان صغيرًا لَا يُحسن حتَّى ربط عمامته وإصلاحها، فأُمُّه الَّتي كانت تُعمِّمهُ وتُرسلهُ إلى هذا العالِم وتقول: (تَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ)، وهذا كثيرٌ في آثار السَّلف رَحِمَهُمُٱللَّهُتَعَالَىٰ.

_ ذكر أيضًا أبو عمر ابن عبد البر أنَّ بعض الحكماء كان يقول: (مَنِ اتَّخَذَ الْعِلْمَ لِجَامًا اتَّخَذَهُ النَّاسُ إِمَامًا)[٤]، وكذلك ذكر رَحِمَهُٱللَّهُ قول ابن المبارك، فقال: (وَلَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ الْمُبَارَكِ إِذْ يَقُولُ:

أَيُّهَـــا الطَّـــالِـــبُ عِلْمًـــا ائْــتِ حَمَّـــادَ بْـــنَ زَيْـــدٍ

[١] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٥٠٩.

[٢] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٨، ص:١١٣.

[٣] "ترتيب المدارك" للقاضي عياض رحمه الله؛ ج١، ص:١٣٠.

[٤] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٢٤١.

فَاسْتَفِــدْ حِلْمًــا وَعِلْمًــا ثُــمَّ قَـيِّـدْهُ بِـقَيْـدِ[1]

_ وكان إبراهيم النَّخعيُّ يقول: (كُنَّا نَأْتِي مَسْرُوقًا فَنَتَعَلَّمُ مِنْ هَدْيِهِ وَدَلِّهِ)[2].

_ الحسن بن إسماعيل يَروي عن أبيه أنَّه قال: (كَانَ يَجْتَمِعُ فِي مَجْلِسِ أَحْمَدَ زُهَاءَ خَمْسَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ، نَحْوُ خَمْسِمِائَةٍ يَكْتُبُونَ، وَالْبَاقُونَ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ حُسْنَ الْأَدَبِ وَالسَّمْتِ)[3] الخمسمائة يكتبون ويدوِّنون الحديث المسند الَّذي يرويه الإمام أحمد، والباقون يحضرون فقط يشاهدون الإمام أحمد كيف يجلس، وكيف يقوم، وكيف يتصرَّف، وكيف يُحكِّم السُّنَّة على نفسه.

_ وأيضًا رَوَوْا عن أبي بكر المطوّعي أنَّه قال: (اخْتَلَفْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةٍ وَهُوَ يَقْرَأُ «الْمُسْنَدَ» عَلَى أَوْلَادِهِ، فَمَا كَتَبْتُ مِنْهُ حَدِيثًا وَاحِدًا، إِنَّمَا كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ)[4].

_ وهذا النَّفَسُ تجده كثير، حتَّى قال النَّخعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كَانُوا إِذَا أَتَوْا الرَّجُلَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ نَظَرُوا إِلَى سَمْتِهِ، وَإِلَى صَلَاتِهِ، وَإِلَى حَالِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ)[5]، وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كُنَّا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَأْخُذَ عَنْ شَيْخٍ سَأَلْنَاهُ عَنْ مَطْعَمِهِ، وَمَشْرَبِهِ، وَمَدْخَلِهِ، وَمَخْرَجِهِ؛ فَإِذَا كَانَ عَلَى اسْتِوَاءٍ أَخَذْنَا عَنْهُ وَإِلَّا لَمْ نَأْتِهِ)[6]، وذكرتُ لكم مِنْ قبلُ قول الأوزاعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كُنَّا نَضْحَكُ وَنَمْزَحُ، فَلَمَّا صِرْنَا يُقْتَدَى بِنَا، خَشِيتُ أَنْ لَا يَسَعَنَا التَّبَسُّمُ)[7].

_ في فتنة خلق القرآن -كما ذكرنا مِنْ قبل- امتُحنَ الأئمَّة، وممَّن امتحن في هذه الفتنة بمصر الإمامُ العَلَمُ الَّذي يُلقَّب بـ«خليفة الشَّافعي» يُوسف بن يحيى البُوَيْطِي، أحد رُواة مذهب الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان إمامًا، انتقلتْ له الفتوى، وكان المفتي للأمراء، حسده بعض النَّاس فأرسلوا إلى بغداد إلى أحمد بن أبي دُوَاد[8]، فأرسلَ أحمد بن أبي دُوَاد -وكان مُقرَّبًا مِنَ الخليفة- إلى وَالي مصر أن يمتحن البُوَيْطي، فامتحنه، وحصل للبويطي ما حصل للإمام أحمد مِنْ جهة أنَّهم قالوا له: (أَنْتَ مَعْذُورٌ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَأْخُذَ بِالإِكْرَاهِ) فجاءَهُ رجلٌ لمَّا امتُحِنَ وابتُلِيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ابتلاءً شديدًا -وهو في طبقة أحمد لأنَّه مِنْ تلاميذ الشَّافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، فلمَّا قيل له: (خُذْ بِالإِكْرَاهِ) قال: (إِنَّهُ يَقْتَدِي

---

[1] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٥٠٩.

[2] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٥١٠.

[3] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١١، ص:٣١٦.

[4] "مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي رحمه الله؛ ص:٢٨٨.

[5] "الآداب الشرعية" لابن مفلح رحمه الله؛ ج٢، ص:١٤٨.

[6] "الكامل في ضعفاء الرجال" لابن عدي رحمه الله؛ ج١، ص:٢٦٠.

[7] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٧، ص:١٣٢.

[8] مِنْ بَابِ مَزِيدِ فَائِدَةٍ: قَالَ شَيخُنَا مُصطَفَى مَبْرَمُ -فِي ضَبْطِ اسْمِهِ-: (ابْنُ أَبِي "دُوَاد"، بِدُونِ هَمْزٍ، هَذَا الصَّحِيحُ فِي ضَبْطِهِ) من شرحه لكتاب التَّوحيد.

بِي مِائَةُ أَلْفٍ وَلَا يَدْرُونَ المَعْنَى)[1] نقول لا شكَّ أنَّه يقتدي به أكثر مِنْ مائة ألف وهذا فقط تجوُّز، فقال: (إِنَّهُ يَقْتَدِي بِي مِائَةُ أَلْفٍ وَلَا يَدْرُونَ المَعْنَى) وقد أُمِرَ به أن يُحمل إلى بغداد، وابتُلي ابتلاءً شديدًا كما ذُكر ذلك في ترجمته من طبقات الشَّافعية.

فالشَّاهد من هذا -بوركتم-: أنَّ أثر العالِمِ وأثر المُجَالِسِ على طَالِبِهِ ليس بالأمر السَّهل.

❋ ❋ ❋

لَا تَنْظُرْ إِلَى عَمَلِ فَقِيهٍ وَلَكِنْ سَلْهُ يَصْدُقْكَ

كان بعض السَّلف يقول -كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلميذه أيضًا الحافظ ابن كثير رَحِمَ ٱللَّهُ الْجَمِيعَ- كان يقول: (لَا تَنْظُرْ) يعني هذا احتراز -هذا الَّذي سأذكره الآن مِنَ القاعدة احترازٌ ممَّا تقدَّم-، كان يقول بعض السَّلف: (لَا تَنْظُرْ إِلَى عَمَلِ الْفَقِيهِ وَلَكِنْ سَلْهُ يَصْدُقْكَ)[2] متى؟ إذا كان ممَّا يُشْكِل، لِمَ؟ لأنَّكَ ستجدُ في أقوالِ وأفعالِ وتصرُّفاتِ بعض الفُقهاء وبعض مَنْ ينتسبُ إلى العِلْمِ ما هو على خِلافِ الصَّوابِ، على الأقلِّ هو عنده، كما أنَّه لا يُتأسَّى بأهل الكوفة في النَّبيذ ولا بأهل مكَّة في الصَّرف ولا بأهل المدينة في بعض طبقات الزَّمان يعني فيما يتعلَّق بالسَّماع، وهذا مذكور في كتب أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، حتَّى ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «بيان الدَّليل على بُطلان التَّحليل» أنَّ مِنْ رِعايةِ حقِّ هؤلاء الأئمَّة أن لَا يُرْوَى عنهم ما كانوا فيه[3].

أحيانًا قد تجد أنَّ العالِمِ قد يفعل فعلاً أو يتصرَّفُ تصرُّفًا هو مُشْكِلٌ، فهنا إن كان ممَّا يُشكلُ عليكَ فَسَلْهُ يَصدُقكَ، في القاعدة الَّتي ذكرها شيخ الإسلام -وذكرها تلميذه ابن كثير-: (لَا تَنْظُرْ إِلَى عَمَلِ فَقِيهٍ وَلَكِنْ سَلْهُ يَصْدُقْكَ) متى؟ عند موارد المشكلات، وُرود الشُّبهات.

أضربُ لكم مثلًا:

في الصَّحيح أنَّ زيد بن خالد دخل عليه رجلٌ وهو في بيته فاستشكل وجود السَّتائر وعليها شيءٌ مِن الصُّور -أو

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١٢، ص٦١.

[2] "مجموع فتاوى ابن تيمية " لابن قاسم رحمه الله؛ ج٢٢، ص:٢٢٧.

[3] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فَمِنْ رِعَايَةِ حَقِّ الْأَئِمَّةِ أَنْ لَا يُحْكَى هَذَا عَنْهُمْ، وَلَوْ رُوِيَ عَنْهُمْ لَفَرُطَ قُبْحُهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ﵁ يَكْرَهُ أَنْ يَحْكِيَ عَنِ الْكُوفِيِّينَ وَالْمَدَنِيِّينَ وَالْمَكِّيِّينَ الْمَسَائِلَ الْمُسْتَقْبَحَةَ، مِثْلَ مَسْأَلَةِ: النَّبِيذِ، وَالصَّرْفِ، وَالْمُتْعَةِ) "بيان الدليل على بطلان التحليل" ص١٤٧.

بهذا المعنى، ما راجعتُ الحديث قريبًا-، فذكرَ هذا، فقيل له: (أَمَا سَمِعْتَهُ قَدْ قَالَ: إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ)[1] هذا الَّذي فَهِمَهُ، لأنَّه لَم يكنْ صورة واضحة وربَّما كانت ممزَّقة، المهمُّ أنَّهم كانوا يستشكلون.

ومِثْلُ أيضًا ما حصل لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا حدَّث بحديث الواشمة[2]، فقالت تلك المرأة له: (لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ)[3] قال: (لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧][4]، ثمَّ ذَكَرَتْ له أنَّ بعض نسائه تفعل هذا، فقال: (لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا)[5]، والشَّاهد مِنْ هذا أنَّ العالِمَ الَّذي اتَّبع السُّنَّة وحكَّم السُّنَّة على ظاهره وباطنه وعلى نفسه وهُمْ -ولله الحمد- في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يُوجدون يَقِلُّون ويَكْثُرونَ، ولكن كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَنْ تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ)[6].

❋ ❋ ❋

معنى «الكتاب» في نصوص الشَّرع

قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ	وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا
وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي	وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى
وَنَفْسَكَ ذُمَّ لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا	بِعَيْبٍ فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

لا يزال كلام النَّاظم -رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاهُ- موصولًا في توجيه الخطاب إلى نفسه على لسان مَنْ ناصحهُ، ويقول له بأنَّك إذا قلتَ ذلك فقد صدقت -كما مرَّ معنا ذلك مرارًا-، ومِنْ هذا أنَّه قال له:«وَنَادَاكَ الْكِتَابُ» يعني دعاك

---

[1] قال رسُول الله ﷺ:(لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ. قَالَ بُسْرٌ: فَمَرِضَ زَيْدُ بْنُ خَالِدٍ فَعُدْنَاهُ، فَإِذَا نَحْنُ فِي بَيْتِهِ بِسِتْرٍ فِيهِ تَصَاوِيرُ، فَقُلْتُ لِعُبَيْدِ اللَّهِ الْخَوْلَانِيِّ: أَلَمْ يُحَدِّثْنَا فِي التَّصَاوِيرِ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَالَ: إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ، أَلَمْ تَسْمَعْهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: بَلَى قَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ) متفق عليه، واللفظ لمسلم (٢١٠٦).

[2] (لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ) متفق عليه، من حديث ابن مسعود ﷺ، واللفظ للبخاري (٤٨٨٦).

[3] اللفظ للبخاري (٤٨٨٦).

[4] اللفظ للبخاري (٤٨٨٦).

[5] (قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: فَاذْهَبِي فَانْظُرِي. فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا. فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا) اللفظ للبخاري (٤٨٨٦).

[6] "إعلام الموقعين" لابن القيّم رحمه الله؛ ج١، ص:٤٠٣.

بنداءاته الَّتي فيه، «الْكِتَابُ»:

_ والكتاب حيث أُطلق في نصوص الشَّرع فإنَّه لا يُراد به إلَّا القرآن، هذا في حال الإطلاق كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾[الكهف:١] إلى غير ذلك من النُّصوص.

_ أمَّا إذا قُيِّد بـ «أهل»: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾[آل عمران:٦٤] فإنَّ هذا يُراد به التَّوراة والإنجيل كما هو واضح.

_ كما أنَّ الكتاب قد يُطلق في غير ما أُنزل على القرآن، وهذا قليلٌ ويُستعمل على حسب الفنِّ وهو لا يُستعمل أيضًا إلَّا عند النُّحاة فإنَّهم يُطلقون «الْكِتَاب» ويريدون به كتابَ سِيبَوِيه، وقيل السَّبب في هذا أنَّ سيبويه لَم يضع له عنوانًا، وإلَّا فإنَّ لفظ الكتاب في نصوص الشَّريعة إنَّما يُراد به القرآن.

❋ ❋ ❋

خَطَرُ قَسْوَةِ الْقَلْبِ

هنا يقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ» أي لَم تجب نداء الكتاب بامتثال الأمر واجتناب النَّهي، «وَنَبَّهَكَ» التَّنبيه يكون مِنَ الغفلة -بعدَ غفلةٍ-، «وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ» وهو الشَّيب الَّذي يشتعل في الرَّأس.

«وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا» في هذا البيت يذكر النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حُججًا مِنْ حُجج الله على عبده، فهو وإن خاطب بذلك نفسه فإنَّه يعني به كلَّ مؤمنٍ، فهو يقول: «وَنَادَاكَ الْكِتَابُ» وعرفنا أنَّه القرآن، ونداءات القرآن كثيرةٌ جدًّا نادى الله بها عباده المؤمنين، وقد قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤] ولهذا قال بعض السَّلف: (مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ)[١] لِمَ؟ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا قال هنا: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإذا تخيَّل العبد أو تصوَّر بالأصح -لأنَّ الخيال ضربٌ مِنَ الخيال-، إذا تصوَّر العبد أنَّ قلبه الَّذي في جسده وبين جَنْبَيْهِ لا يملك له شيئًا ولا يستطيع أن يُوصل إليه نفعًا ولَا أن يدفع عنه ضرًّا إذا ما وصل هذا القلب إلى مرحلة الموت ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ

[١] "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج١، ص:٧٠١، عن مالك بن دينار رحمه الله.

أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾[الحديد:١٦] بعُدت الشُّقَّة عليهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد:١٦]، كذلك ربُّنا جَلَّوَعَلَا قال في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[الأعراف:١٩٨]، فهذه أمثالٌ يضربها الله جَلَّوَعَلَا على أنَّ العبد في مقام الإعراض والغفلة لا يستطيع أن يُوصل إلى قلبه ولا إلى نفسه خيرًا ولو حرص على ذلك لأنَّ القلب قد يموت، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[يس:٧٠].

وهذه الخطابات وهذه النِّداءات مُجملة، وجاء التَّفصيل في أحكام القُرآن مِنَ النِّداء إلى التَّوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]، مِنَ النِّداء إلى الصَّلاة والزَّكاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[البقرة:٤٣]، مِن النِّداء إلى الصِّدق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التَّوبة:١١٩]، وفي نداء برِّ الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣]، وهكذا في صلة الرَّحم، وهكذا في جميع الأوامر والنَّواهي الَّتي أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها في القرآن أو جاء الأمر بها في السُّنَّة فإنَّ هذا ممَّا نادى الله جَلَّوَعَلَا به عباده.

إلَّا أنَّ قول النَّاظم هنا -والَّذي يظهر- أنَّه يتوجَّه إلى الموعظة، بمعنى أنَّه إذا صلَح قلب العبد بموعظة القرآن صلَح القلبُ أيضًا بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[يونس:٥٧] لِمن؟ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية الأُولى الَّتي ذكر الله فيها أنَّ القرآن شفاء، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الإسراء:٨٢] لاحظ: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فهذا القرآن الَّذي أنزله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على رسوله.

وكذلك قال ربُّنا جَلَّوَعَلَا في سياق آيات شفاء القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت:٤٤]، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الإسراء:٨٢]، وكما أنَّ هذه النِّداءات وهذه المواعظ الَّتي تكون في القرآن كفيلة بإصلاح قلب العبد وتطهيره وتنقيته وإزالة ما فيه مِنَ الأمراض والأدواء فإنَّها لا تزيد مَنْ في قلبه مرضًا إلَّا مرضًا: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤-١٢٥] فالقرآن يُتلى على نفسِ الآذان ويصلُ إلى نفس القلوب الَّتي هي مُضغة لكنَّ أثره وفرقانه على هذه القلوب فرقان ما بين السَّماوات والأرض، ولهذا إذا كان القلب حيًّا ولكن تشوبه الشَّوائب، عليه غبرات، عليه سحائب، عليه غشاوات، فإنَّ هذا القرآن كفيلٌ بأن يُزيلها ما لَم يصل الأمر إلى العناد -إلى معاندة القرآن، ومعارضة القرآن-، ولهذا جاء في البخاري في حديث أبي مُحمَّد جُبير بن مُطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه مرَّ على النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وكان مشركًا- وهو يُصلِّي بالنَّاس صلاة المغرب

ويقرأ بالطُّور حتَّى بلغ قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[الطُّور:٣٥] قال: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِير)[١] أسلم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَأَرْضَاهُ؛ والَّذي يُعرِض عن القرآن ما ينتفع بهداياته، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف:١٤٦] لاحظ إلى أساليب الهداية في القرآن وأنَّ العبد هو المحلّ لهذا الصَّلاح وهذا الفساد، فإذا كان القلب قابلاً -كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره من أهل العلم- لهذا الصَّلاحِ أصلَحَهُ الله جَلَّوَعَلَا بهذا القرآن، وإلَّا فإنَّه لا يزيده إلَّا فسادًا وخسارة.

فالنَّاظم هنا يقول: «وَنَادَاكَ الْكِتَابُ» وأيُّ موعظة أعظم وأبلغ وأزجر للعبد مِنْ موعظة الكتاب لِما ذَكر الله فيه مِنْ أهوالِ وشدائد السَّكرات وشدائد الموت وأهوال يوم القيامة والعرض على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتكليمه لعباده -إلى غير ذلك-.

فهو يقول: «وَنَادَاكَ الْكِتَابُ» ومع هذا: «فَلَمْ تُجِبْهُ» فلم تُجب هذا الكتاب بمقتضى ما يُجاب به: امتثالًا للأمر واجتنابًا للنَّهي، وهذا يدخل فيه أيضًا اعتقاد أنَّه كلام الله جَلَّوَعَلَا مُنزَّل من عنده.

❊ ❊ ❊

نذير الشيب

قال النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ ... وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا

«وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ» هو شيب الشَّعر الَّذي يكون في الرأس أو في غير موضع الرَّأس، قد جاء عند البخاري في «الأدب المفرد» عن سعيد بن المسيَّب.

- وسعيد بن المسيَّب مِنْ كبار التَّابعين، بل بعض المُحدِّثين يقول بأنَّه أفضل التَّابعين، والبعض الآخر يقول

---

[١] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ) رواه البخاري (٤٨٥٤).

أفضل التَّابعين أُويْس القرني لأنَّ النَّص جاء فيه[1]؛ ولعلَّ هذا يُحمل على الرِّواية في العلم[2] -مَنْ فضَّله مِنَ المُحدِّثين- في الرِّواية في العلم والفقه -وما أشبه ذلك-، سعيد منزلته عظيمة.

يقول كما عند البخاري، وهذا مِنْ قوله، ماذا يُسمَّى قول التَّابعي في المصطلح؟ المقطوع (وَمَا لِتَابِعٍ هُوَ المَقْطُوعُ)[3] والموقوف إلى الصَّحابي، والمرسل أيضًا إلى التَّابعيِّ لكن بِشرطِ ذِكْرِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه بدون واسطة.

هنا سعيد بن المسيَّب عند البخاري في «الأدب المفرد» يقول: (أَوَّلُ مَنْ شَابَ -إِبْرَاهِيمُ- فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا هَذَا؟ قَالَ: وَقَارٌ، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي وَقَارًا)[4] هذا مقطوع على سعيد بن المسيّب، والله جَلَّ وَعَلَا ذكر في القرآن المشِيب في مقام الخوف منه لأنَّ الإنسان إذا جاءه المشيب تفوته كثير مِنَ الأشياء، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا عن زكرياء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمَّا طلب مِنْ ربِّه وليًّا قال:﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم:٦] قال قبلها:﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم:٤]، وهكذا ذكر الله الشَّيب في القرآن لأنَّه في مقام الإنذار، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما مرَّ معنا -في هذه الآية في سورة فاطر-:﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧] والنَّذير فُسِّر على وجهين:

_ الَّذي قطع به البخاري في كتاب التَّفسير في صحيحه أنَّه الشَّيب، قال: (قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: الشَّيْبُ)[5] هذا الَّذي قطع به البخاري.

_ وطائفة مِنَ المفسِّرين يقولون: (المُرَادُ بِالنَّذِيرِ: النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ)[6].

يقُول:«وَنَبَّهَكَ المَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا» وجاء في أحاديث عن النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في فضلِ مَنْ شاب في الإسلام شيبة، قال:«**مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[7]، وفي رواية أُخرى:«**مَنْ شَابَ شَيْبَةً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا**

---

[1] عنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ: (إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ) رواه مسلم (٢٥٤٢).

[2] أي: مَنْ فضَّل سعيد بن المسيب -رحم الله الجميع-.

[3] المنظومة البيقونية في علم المصطلح.

[4] قال سعيد بن المسيب رحمه الله: (إِبْرَاهِيمُ أَوَّلُ مَنِ اخْتَتَنَ، وَأَوَّلُ مَنْ أَضَافَ، وَأَوَّلُ مَنْ قَصَّ الشَّارِبَ، وَأَوَّلُ مَنْ قَصَّ الظُّفُرَ، أَوَّلُ مَنْ شَابَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! مَا هَذَا؟ قَالَ: وَقَارٌ، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي وَقَارًا) قال الألباني رحمه الله في "صحيح الأدب المفرد" (٩٤٦) : صحيح الإسناد موقوفًا ومقطوعًا.

[5] قال البخاري رحمه الله في صحيحه: (بَابُ مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ لِقَوْلِهِ:﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يَعْنِي الشَّيْبَ).

[6] "تفسير الطبري" ج٢٠، ص:٤٧٩.

[7] صححه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٢٠٩٣)، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.

حَسَنَةً»[1].

ذكر العلاَّمة الحريري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر مقاماته أبياتًا أو قصيدةً طويلة، وهي عظيمة الوعظ أنصح بمراجعتها، في مطلعها يقول:

خَـــلِّ ادِّكَـــارَ الأَرْبُـــعِ ... وَالْمَعْهَـــدِ الْمُـــرْتَبِـــعِ
وَالظَّاعِـــنِ الْمُـــــوَدِّعِ ... وَعَـــدِّ عَنْـــــهُ وَدَعِ
وَانْـــدُبْ زَمَانًـــا سَلَفَـــا ... سَوَّدْتَ فِيـــهِ الصُّحُفَـــا
وَلَـــمْ تَـــزَلْ مُعْتَكِفًـــا ... عَلَـــى الْقَبِيـــحِ الشَّنِـــعِ
كَـــمْ لَيْلَـــةٍ أَوْدَعْتَهَـــا ... مَـــآثِمًـــا أَبْدَعْتَهَـــا
لِـــشَهْـــوَةٍ أَطَعْتَهَـــا ... فِـــي مَرْقَـــدٍ وَمَضْجَـعِ

إلـى أن قــال:

وَكَـــمْ تَجَـــرَّأْتَ عَلَـــى ... رَبِّ السَّمَـــاوَاتِ العُـــلاَ
وَلَـــمْ تُـــرَاقِبْـــهُ وَلَا ... صَدَقْـــتَ فِيمَـــا تَدَّعِـــي

وقـال فيهـــا:

وَكَـــمْ غَمَصْـــتَ بِـــرَّهُ ... وَكَـــمْ أَمِنْـــتَ مَكْـــرَهُ
وَكَـــمْ نَبَـــذْتَ أَمْـــرَهُ ... نَبْـــذَ الْحِـــذَا الْمُرَقَّـــعِ

إلـى أن قَــال:

أَمَـــا تَرَى الشَّيْـــبَ وَخَـطْ ... وَخَـــطَّ فِـي الرَّأْسِ خُطَـطْ
وَمَـــنْ يَلُـحْ وَخْطُ الشَّمَـطْ ... بِفَـــوْدِهِ فَقَـــدْ نُعِـــي

هذا هو حالُ الإنسان.

—— ❊ ——

[1] قال ﷺ:(لَا تَنْتُفُوا الشَّيْبَ فَإِنَّهُ نُورٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ شَابَ شَيْبَةً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً، وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً) قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب" (٢٠٩٦) : حسن صحيح. اهـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَيَــا مَــنْ يَدَّعِـي الفَهْــمْ إِلَـى كَمْ يَـا أَخَا الوَهْـمْ
تُعَبِّــي الذَّنْــبَ وَالــذَّمْ وَتُخْطِــي الخَطَــأَ الجَــمْ

-طبعًا هذه قصيدةٌ أخرى-.

أَمَــا بَــانَ لَكَ العَيْــبْ أَمَــا أَنْــذَرَكَ الشَّيْــبْ؟
وَمَـا فِــي نُصْحِـهِ رَيْـبْ وَلَا سَمْعُــكَ قَــدْ صُـمْ!

كَأَنِّــي بِــكَ تَنْحَــطْ إِلَــى اللَّحْــدِ وَتَنْغَــطْ
وَقَــدْ أَسْلَمَــكَ الرَّهْـطْ إِلَــى أَضْيَـقَ مِــنْ سَـمْ
هُنَـاكَ الجِسْــمُ مَمْـدُودْ لِيَسْتَـــأْكِلَــهُ الــــدُّودْ
إِلَــى أَنْ يَنْخَــرَ الْعُـودْ وَيُمْسِــي الْعَظْــمُ قَــدْ رَمْ

والشَّيب مِنْ أكثر الفواجع الَّتي تكلَّمت عنهُ العرب في أشعارها، لا تكاد إذا نظرتَ في أشعار العرب -في الجاهلية أو في الإسلام- تجد مِنَ المعايب الَّتي يأنف منها النَّاس أكثر مِنْ قولهم في الكلام في الشَّيب، ممَّا يظهر في أجسادهم، قد يتكلَّمون عن الضَّعف في الجسد أو الضّعف الخاص أو العام -أو ما أشبه ذلك- لكن روعتهم مِنَ الشَّيب مِنْ أكثر ما تكلَّموا فيه في أشعارهم وفي آثارهم، لِمَ؟ لأنَّه نذيرٌ، مُنذر بالزَّوال والانحلال.

❋ ❋ ❋

التَّصَابِي مَعَ الشَّمَطِ

هنا يقُول: «وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا»، ثمَّ قال: «وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى» هذا شيء قبيح.

وَيَقْبُــحُ بِالْفَتَــى فِعْـلُ التَّصَابِــي وَأَقْبَــحُ مِنْــهُ شَيْخٌ قَــدْ تَفَتَّى

هنا يقول بأنَّ مِنَ القبائح الَّتي تكون في الإنسان أن يتصابى مع كبر سنِّه.

«بِالْفَتَى»: الفتى قيَّده طوائف مِنْ أهل العلم وأهل اللُّغة بمَنْ لَم يبلغ سنَّ الرُّشد، يعني لَم يبلغ البلوغ، وإن كان قالوا

قد يُطلق على مَنْ كبر في سنِّه كما جاء عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره، وقرَّر هذا طوائف مِنْ أهل اللُّغة.

لكن مراد النَّاظم هنا بـ:«الفتى» الَّذي لَم يبلغ أو كان في أوَّل البلوغ.

«وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي» هو فتى قد يكون بلغ وقد يكون قارب أو ناهز البلوغ، يقبح منه أن يتصرَّف تصرُّف الصِّبية، ولهذا الآباء يقولون لأبنائهم: (أَنْتَ كَبِرْتَ يَا وَلَدِي هَذَا التَّصَرُّفُ لَا يَلِيقُ بِكَ)، (هَذَا لَيْسَ مِنْ شِيَمِ الشَّبَابِ أَوِ الْفِتْيَانِ)، (هَذَا أَفْعَالُ الصِّبْيَانِ، أَفْعَالُ الأَطْفَالِ) وهكذا.

«يَقْبُحُ» النَّاس يستقبحون هذا.

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

القبيحُ قبيحٌ، لكنَّه يقبح إمَّا بوصفٍ في العبد وإمَّا بخارجيٍّ عنه كالزَّمان أو المكان، الفعل القبيح يزداد قُبحه إمَّا بوصفٍ قائمٍ في العبد أو بوصف خارجيٍّ عنه مِنْ جهة الزَّمان أو مِنْ جهة المكان.

ممَّا يقبح بالإنسان -وهو قبيح ومع زيادة الوصف فيه-: أن يتصرَّف الَّذي بلغ المشيب تصرُّف الفتية ناهيك عن تصرُّف الصِّبيان، هذا ما يقع في الوصف في الإنسان كما جاء في البخاري في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:«**أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً**»[1]، «**أَعْذَرَ**» هنا بمعنى أزالَ العُذر عن عبدٍ أو عن امرئٍ بلغ السِّتِّين ومع هذا هو في الطَّيشِ والتَّهوُّر -كما يسمُّونها «المراهقة»-؛ النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يقول هذا بلغ العذر، ستِّين عامًا: يسمع القرآن، يسمع المواعظ، نبَّهه الشَّيب، نبَّهه ضعف الجسم، تناوبُ الأمراض وتتابع الأمراض، ومع هذا هو عاكفٌ على ما هو عليه!

وأيضًا جاء عند الطبراني في «الكبير والصَّغير» وحسَّنه جمعٌ مِنَ الأئمَّة منهم الهيثمي ومنهم الشَّيخ ناصر -رَحِمَهُمُٱللَّهُ الْجَمِيعَ- في حديث سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال:«**ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» قال:«**أُشَيْمِطٌ زَانٍ**»[2]، والأُشيمط تصغير أَشمط، والأَشمط هو الَّذي اختلط شعر رأسه بين السَّواد والبياض فهو الشَّيب، هذا أُشيمط؛ النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال:«**أُشَيْمِطٌ زَانٍ**» رجلٌ قد شاب شعره وكبرت سنُّه وجرَّبَ الحياة ومرَّت عليه الأحوال ومع هذا هو مُرتكبٌ لهذه الجريمة -جريمة الزِّنا- عياذًا بالله وعافانا الله وإيَّاكم.

[1] رواه البخاري (٦٤١٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[2] قال ﷺ:(ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٣٠٧٢)، من حديث سلمان الفارسي ﷺ.

قد يقبح الفعل بسببٍ خارجيٍّ عن العبد إمَّا مِنْ جهة الزَّمان وإمَّا مِنْ جهة المكان وإمَّا باجتماع الزَّمان والمكان:

_ في التَّمحُّض في الزَّمان: الذُّنوب والمعاصي الَّتي يرتكبها العبد في نهار رمضان وهو صائمٌ قريبٌ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يرى بعض أهل العلم أنَّ مثل: الغيبة والنَّميمة والكذب وشهادة الزُّور مُبطلة للصِّيام كما هو المذهب عند الظَّاهرية، وإن كان الجمهور على أنَّه لا يبطل الصِّيام والصِّيام صحيح ولكنَّه آثم بفعله ذلك، وإثْمُه أشد إذا كان في نهار رمضان، ولا يقولون بالتَّضاعف.

_ وممَّا يختلط فيه الزَّمان والمكان: الحج، في البيت الحرام، في موسم الحج، فإنَّه كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج:٢٥] والسَّيِّئة لا تتضاعف وإنَّما تكون أشد مِنَ الزَّمان والمكان أو المكان الآخر.

وهكذا يعظم الذَّنب باعتبار الزَّمان أو باعتبار المكان، أو يقبح بالإنسان الفعل.

«وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي» يعني فعل الصِّبية، والمنقول عن السَّلف وعن العلماء فيما يتعلَّق بالقول في التَّصابي كثيرٌ جدًّا، اعتنوا به وبيَّنوه لأنَّه مِنْ قبائح ما يكون عليه المرء، وهذا أيضًا كثيرٌ في كلام العرب وفي أشعارها، النَّاس يستقبحون هذا الخارم للعادة، وفي هذا العصر كثُرت هذه القبائح بسبب التَّقليد الأعمى للغرب فصار كثيرٌ -لا أقول مِنَ الشَّباب- بل كثيرٌ مِنْ كبار السِّنِّ يتصرَّفون تصرُّفات الغرب الَّتي يَرَوْنها في وسائل الإعلام وفيما يشاهدونه مِنَ المسلسلات والأفلام فيخرج بأمثال: الشُّورْتَات، وأشياء قبيحة جدًّا في مثل هذا العصر، ما كانت موجودة في مثل هذه المجتمعات.

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي ... وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

***

ذَمُّ النَّفْس

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا ... بِعَيْبٍ فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

ما زال يُوجِّه الخطاب إلى نفسه على لسان مَنْ نصحه، يقول: أنتَ أيُّها النَّاصح أقبِل على نفسك وذمَّها «وَنَفْسَكَ ذُمَّ» وفنِّد على نفسك.

«لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا» وهذا ليس على إطلاقه ينبغي أن يُتنبَّه على هذا الأمر، «لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا» الذَّم لأهل البدع والكبائر المجاهرين بها هذا ممَّا جاءت به الشَّريعة واستقباح ما عليه أفعالهم، وإنَّما أراد النَّاظم أن يُعرض المرء عن إصلاح نفسه ثمَّ ينظر إلى عيوب غيره، جاء عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد جاء مرفوعًا والشَّيخ ناصر يحسِّنه مرفوعًا وفيه ما فيه إلَّا أنَّ الموقوف أمثل عند الطبراني -فيما أذكر- وغيره، أنَّه قال: (يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ القَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الجِذْعَ فِي عَيْنِهِ!)[1] فيَنظر إلى معايب النَّاس، السَّلف لَم يكونوا هكذا، يونس بنُ عُبيد يقول: (إِنِّي لَأَعُدُّ مِائَةَ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ فِي نَفْسِي وَاحِدَةً مِنْهَا)[2] وكان أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (لَنْ تَفْقَهَ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللَّهِ، ثُمَّ تُقْبِلَ عَلَى نَفْسِكَ فَتَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا مِنْكَ مِنَ النَّاسِ)[3]، شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم يقول: (وَمَقْتُ النَّفْسِ فِي ذَاتِ اللهِ مِنْ صِفَاتِ الصِّدِّيقِينَ)[4] يعني أنْ يذم الإنسان نفسه ويقتلع مِنْ جذوره الاغترار بها كما مرَّ معنا في قول عُتبة بن غزوان عند مسلم لمَّا خطب خطبته بعد موت المُغيرة بن شُعبة -ذكرناها مِنْ قبل في مثل هذه مجالس-، لمَّا قال: (وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا)[5] -هذا في صحيح مُسلم-؛ وهذا مِن فقههم.

ومرَّ معنا أيضًا ما كان عليه السَّلف مِنْ هضمهم لأنفسهم، والله جَلَّ وَعَلَا يقول:﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم:٣٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[النِّساء:٤٩]، كذلك الله جَلَّ وَعَلَا أحال العبد في حال المصائب إلى نفسه:﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]: انظروا إلى أنفسكم، فالعبد ينظر إلى نفسه وإلى ما يحول بينه وبين الله جَلَّ وَعَلَا.

يقول:«وَنَفْسَكَ ذُمَّ» قبِّح نفسك، وفنِّد نفسك، «وَنَفْسَكَ ذُمَّ لَا تَذْمُمْ سِوَاهَا... بِعَيْبٍ» تُعاب به «فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا».

❊ ❊ ❊

[1] "صحيح ابن حبان" للألباني رحمه الله (٥٧٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] "محاسبة النفس" لابن أبي الدنيا، ص٨٠.

[3] جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر رحمه الله؛ ج٢، ص:٨١٣.

[4] "إغاثة اللهفان" لابن القيّم رحمه الله؛ ص:١٠٤

[5] رواه مسلم (٢٩٦٧).

معنى «التَّفْنِيد»

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَنْــتَ أَحَــقُّ بِالتَّفْنِيـدِ مِنِّــي ... وَلَـــوْ كُنْــتَ اللَّبِيـــبَ لَمَـا نَطَقْتَـا

هذا البيت وما بعده لا يزال موصولًا بما قبله مِنْ ذكر النَّاظم خطاب نفسه على لسان مَنْ ناصحه بأنَّ له أن يقول هذه المقالة، يعني أنَّ المنصوح له أن يقول لهذا النَّاصح: أنتَ أيُّها النَّاصح أحقُّ بالتَّفنيد. لماذا يقول هذا؟ لأنَّه قد قال له فيما تقدَّم معنا مِنَ الأبيات:

وَفِــي صِغَــرِي تُخَوِّفُنِـــي الْمَنَـايَـا ... وَمَـا تَــدْرِي بِحَالِكَ حَيْـثُ شِخْتَـا

وما ذكرَ لهُ مِنَ الأعذار:

لَقَــدْ صَاحَبْــتَ أَعْلَامًـــا كِبَـــارًا ... وَلَـمْ أَرَكَ اقْتَدَيْـــتَ بِمَــنْ صَحِبْتَـا

إلى آخر ما تقدَّم.

فهو يقول بسبب ما تقدَّم أنتَ أيُّها النَّاصح «أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي» والتَّفنيد مِنَ الفَنَد وهو نوعٌ مِنَ التَّجهيل والتَّسفيه، بمعنى أنَّه يُفنِّدُ هذا القائل أي يُخرج قوله وفِعله عَنْ مَسَار الصَّواب، فهو نوعٌ مِنَ التَّجهيل والتَّسفيه والطَّعن بالخرف، ومنه قولـه تعالى لمَّا حكـى قصَّة يـوسف مع أبيه يعقوب وإرسال يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قميصه بقوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف:٩٣] قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ –القافلة يعني– ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[يوسف:٩٤] الله أعلم بالمسافة الَّتي فصلت بها العير بينها وبين يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وليس هذا هو الَّذي تظهر فيه المعجزة وإنَّما تظهر المعجزة أو البيِّنة أو البرهان لهذين النَّبيَّين أنَّ الزَّمن الَّذي غاب يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن أبيه على قولٍ لبعض أهل العلم: (ثَلَاثِينَ عَامًا) وهو الَّذي اختاره الشَّيخ السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وعلى قولٍ: (أَرْبَعِينَ عَامًا) وهذا اختاره جماعة مِنَ المحقِّقين، يعني لقيَهُ بعد أربعين عامًا[2]، ومع هذا لما فصلت العير: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف:٩٤] يقول لولَا أنَّكم

[1] قال العلامة السّعدي رحمه الله: (فَحَصَلَ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً، لَا تَقْصُرُ عَنْ ثَلَاثِينَ سَنَةٍ، وَيَعْقُوبُ لَمْ يُفَارِقِ الْحُزْنُ قَلْبَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ) "تيسير الكريم الرحمن" ص:٣٨٩.

[2] "تفسير الطبري" رحمه الله؛ ج١٦، ص:٢٧٣.

ستُفنِّدون هذه المقالة وتُسفِّهونها وتُجهِّلون قائلها وترمونه بالخرف -كما جاء عن جماعةٍ مِنَ السَّلف منهم ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-[1] لأنَّهم قالوا بعد ذلك: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥]، ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ هذا معنى الفَنَد.

❋ ❋ ❋

غَضُّ الطَّرْفِ عَنْ عُيُوبِ النَّاصِحِ

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي ... وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا

فهو يقول: «أَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ» أنتَ تُسفِّهني فأنتَ أحقُّ بهذا التَّفنيد منِّي، وهذا حالُ كثيرٍ مِنَ النَّاس أنَّه إذا نُصِح مِنْ قِبَل النَّاصحين يجعل بينه وبين النَّاصح حجابًا مستورًا وهو عيُوب ذلك النَّاصح فيقول: (أَنْتَ تَنْصَحُنِي وَهَذَا حَالُكَ! أَصْلِحْ مِنْ نَفْسِكَ أَوَّلًا) وهذا كلام حقٍّ ولكن مقامهُ مقامُ باطلٍ، لماذا؟ لأنَّه سبيلٌ إلى ردِّ النُّصح، ولا يجوز للمسلم أن يردَّ النُّصح بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوال، إذا كان النَّاصح يحمل حقًّا -الحقُّ أحق أن يُتَّبع-.

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في منزلة الذِّكْرِ -فيما يغلب على ظنِّي- مِنْ «مدارج السَّالكين» ذَكَرَ في منزلة الذِّكْرِ أنَّ مِنْ أسباب انتفاع العبد بالذِّكرى والموعظة: (الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ)[2]، وهذا جاء عن أبي الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وعن غيره مِنَ السَّلف- أنَّه كان يقول: (إِنِّي لَآمُرُكُمْ بِالأَمْرِ وَمَا أَفْعَلُهُ، وَلَكِنْ لَعَلَّ اللهَ يَأْجُرَنِي فِيهِ)[3]، وهذا مرَّ معنا مُناقشته وتقريره في الأبيات الَّتي ذكرها النَّاظم سلفًا.

فهو يقول: أنتَ أيُّها النَّاصح «أَحَقُّ بالتَّفْنِيدِ مِنِّي... وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ» العاقل الَّذي يعْقِلُ ويضع الأمور في أماكنها، «لَمَا نَطَقْتَا» هذا فيه أنَّ الكلمات الحسنة الجميلة الَّتي تخرج مِنْ أهل الباطل لا تهزُّ شخصيَّة المسلم، هذا الَّذي تضمَّن

---

[1] قال الإمام القرطبي رحمه الله: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: لَوْلَا أَنْ تُسَفِّهُونِ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ أَيْضًا: تُهَرِّمُونَ. وَكُلُّهُ مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى التَّعْجِيزِ وَتَضْعِيفِ الرَّأْيِ) "الجامع لأحكام القرآن"، ج١١، ص:٤٤٨ (باختصار).

[2] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ) إلى أن قال رحمه الله: (وَأَمَّا الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ حُرِمَ الِانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِكَلَامِ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِعَمَلِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ) وأضاف رحمه الله: (فَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ مِنْ شُرُوطِ تَمَامِ الِانْتِفَاعِ بِمَوْعِظَتِهِ) "مدارج السالكين"؛ ج١، ص: ٤٤٦ (باختصار).

[3] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٢، ص:٣٤٥.

كلام النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -يُعبِّر بِهِ عن المنصوح- مِنْ حيث الظَّاهر هو أمرُ حقٍّ لكن مِنْ حَيثُ الحقيقة ومَنْزِلَتِها أُريد به باطل.

العاقل لا ينطق بالشَّيء السَّيِئ ولا يقف موقفَ السَّفه لأنَّ العقل مأخوذٌ مِنَ العِقال الَّذي هو الرَّبط والحزم (عِقَالُ النَّاقَةِ) الَّذي يعقلها، فهو يمنع الشَّخص عن مواطن السَّفه والخلل.

فهو يقول:«وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا» هل أصاب في هذه المقال؟ أصاب في اللَّفظ لَا في المعنى، اللَّبيب لا ينطق بمواطن السَّفه، ولكن هل النَّاظم في مثل هذا المقام نطقَ بشيءٍ باطلٍ حتَّى وإن كان مقصِّرًا؟ لا؛ بلا شكٍّ، أعني أنَّك لا تنظر إلى ما يقوله أهل الباطل مِنَ المقالات والألفاظ في أهلِ الحق مِنْ نِسبتهم لأهل السُّنَّة مثلاً بأنَّهم حشوية، جامية، مُجسِّمة، مُمثِّلة، إلى ما شابه ذلك من الألفاظ، أو طعنهم بأنَّهم لا يفقهون الواقع، أو أشياء مِنْ هذه الطُّعونات، لا تنظر إليها.

هو الآن كأنَّه مُتفاخر يقول: لو كنتَ أنت اللَّبيب لما نطقتَ بهذه المقالة «وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا»

❋ ❋ ❋

هَلْ يَبْكِي الإِنْسَانُ دَمًا؟

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا   لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا

يقول: لو أنَّك بكيت وبدَل الدَّمع بكيت دمًا، بمعنى أنَّه اشتدَّ بُكاؤه حتَّى أُفرِغت قنوات دمعه مِنَ الدَّمع فبكى دمًا.

وهل يبكي الإنسان دمًا؟

ذكرَ الحافظ ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المدهش» عن فتح الموصلي أنَّه كان يبكي دمًا من الخوف[1]، وذكر في كتابه

[1] قال ابن الجوزي رحمه الله : (كَانَ فَتْحٌ الْمَوْصِلِيُّ يَبْكِي الدُّمُوعَ ثُمَّ يَبْكِي الدَّمَ) "المدهش" ص:٢٣٨.

«صيد الخاطر» عن سُفيان بن سعيد الثَّوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كان يبكي دمًا مِنَ الخوف[1]، والعلم عند الله في هذا.

أمَّا المباحث الطِّبيَّة المعاصرة فإنَّهم لا يُنكرون هذا ويقولون بأنَّ هذا مِنَ المكنات، وجاء عن جماعة مِنَ السَّلفِ لكن في غير البكاء أنَّه كان يبول دمًا حُرقة مِنْ عدم تَغْيِير المُنكَرِ[2].

فالنَّاظم يقول:«وَلَوْ» وهذا مُفيد -كما مرَّ معنا- مُفيد لامتناع ما بعده، «وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا» معناه أنَّ النَّاظم كأنَّه يرى أنَّه لا يقع البكاء بالدَّم.

❁ ❁ ❁

فَضْلُ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ الله

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَـوْ بَكَـتِ الدِّمَـا عَيْنَـاكَ خَوْفًـا   لِذَنْبِـكَ لَـمْ أَقُـلْ لَكَ قَـدْ أَمِنْتَـا

والبُكاء مِنَ المنازل العظيمة الَّتي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أهل الخشية والخشوع والخوف منهُ، وصف بها أنبياءَه ورسله كما في سورة مريم لمَّا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طائفة مِنَ الأنبياء، ثمَّ قال:﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم:٥٨]، وذكر هذا الوصف أيضًا في المؤمنين في آخر سورة الإسراء فقال:﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وهكذا كان شأن السَّلف مِنَ الصَّحابة والتَّابعين؛ وقَبلهم النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يُسمع لصدره أزيز كأزيز المِرجل مِنَ البكاء[3].

وشأن الصَّحابة كما جاء في الصَّحيحين في حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا قال النَّبي

[1] قال ابن الجوزي رحمه الله: (أَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَبْكِي الدَّمَ مِنَ الْخَوْفِ؟) "صيد الخاطر" ص٨٠.

[2] قال سفيان الثوري رحمه الله: (إِنِّي لَأَرَى الْمُنْكَرَ فَلَا أَتَكَلَّمُ فَأَبُولُ أَكدمَ دَمًا) "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٧، ص:٢٥٩.

[3] عَنْ عَبدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّير، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: (أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "موسوعة الألباني في العقيدة"؛ ج٤، ص٣٧.

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[1] قال: (فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَومٌ أَشَدُّ مِنْهُ، غَطُّوا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ)[2].

والبكاء في ظاهر كلام أهل العلم ليس مُقتصرًا على دمع العين، ذكر الذَّهبي في ترجمة بعضهم أنَّه كان مِنْ شدَّة بلاغة وعظه يُبكي القلوب، هكذا قال: (يُبْكِي الْقُلُوبَ) -لا يحضرني مَنْ هذا العالم الَّذي ذكره-[3].

والله جَلَّوَعَلَا قال في كتابه الكريم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[الزمر:٢٣] التَّأثُّر مِنَ الذِّكر والتَّأثُّر مِنَ القرآن ليس مقتصرًا على بكاء العيون، تفاعل المرء معه في اضطراب قلبه وتغيُّر حاله عند سماع القرآن، كما جاء في صحيح البخاري أيضًا في حديث جبير بن مطعم أنَّه قال: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[4]، ما يجده المرء أيضًا عند قراءة القرآن أو سماعه بأن يقشعرَّ جلده أو يتغيَّر قلبه أو يبكي، فإنَّ هذا كلّه مِنْ مؤثِّرات القرآن على هذا العبد.

والقرآن له سلطان على جميع جوارح العبد وحواسِّه، كلُّ حاسَّة لو استعملها المرء في حال سماعه للقرآن لوجد للقرآن تأثيرًا على نفسه -كما هو معلوم-، الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[الرَّعد:٣١] جواب الشَّرط محذوف: لَكان هذا القرآن، وللعلاَّمة الشَّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الأضواء» مبحث في هذا الموضع حول حذف جواب الشَّرط[5].

«وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا» هذا مفعولٌ لأجله، يعني: لأجل الخوف مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بَكيتَ خائفًا مِنَ الله، والبكاء ليس مقصورًا على الخوف، وإن كان داخلاً فيه أيضًا الخوف مِنْ فواتِ المرغوب، يعني:

_ الخوفُ مِنْ حصولِ المرهُوبِ.

---

[1] متفق عليه، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

[2] متفق عليه، من حديث أنس بن مالك ﷺ، واللفظ لمسلم (٢٣٥٩).

[3] لم يتيسَّر الوقوف عليه في المصدر المذكور، لكنِّي وجدتُ أقوالًا مُشابهةً لما ذكرهُ شيخنا حفظه الله جاءت في وصف وعظ الحسن البصري رحمه الله، لكنَّها ذُكرت في كتب لا أعلم حال مؤلفيها.

[4] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ) رواه البخاري (٤٨٥٤).

[5] قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: (جَوَابُ "لَوْ" فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَحْذُوفٌ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ تَقْدِيرُهُ: لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ تَقْدِيرُهُ: لَكَفَرْتُمْ بِالرَّحْمَنِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْأَخِيرِ قَوْلُهُ قَبْلَهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، وَقَدْ قَدَّمْنَا شَوَاهِدَ حَذْفِ جَوَابِ "لَوْ" فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ "يُوسُفَ" أَنَّ الْغَالِبَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ الْمَحْذُوفُ مِنْ جِنْسِ الْمَذْكُورِ قَبْلَ الشَّرْطِ لِيَكُونَ مَا قَبْلَ الشَّرْطِ دَلِيلًا عَلَى الْجَوَابِ الْمَحْذُوفِ) "أضواء البيان"؛ ج٢، ص: ٢٤٠.

_ والخوفُ أيضًا مِنْ فواتِ المرغُوبِ.

وكلُّه جالبٌ للبكاء والتَّحسر.

«وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا... لِذَنْبِكَ» واللاَّم هنا لَام التَّعليل، يعني: لأجل ذنبكَ، بسبب ذنبك، وهذا مِنَ المواطن الَّتي يستجلب بها العبد البكاء مِنْ خشيةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فاستحضار الذَّنبِ واستحضار عظمته واستحضارُ كثرته هذا ممَّا يجلب للعبد التَّأمُّل والتَّفكُّر والتَّذكُّر حتَّى يصل به الأمر إلى أن يبكي على حاله، وما آل إليه هذا الحال.

«وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا» بسبب ذنبك «لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا» لن تأمن هذا، لأنَّ العبد لا يأمن على نفسه، جاء عن جماعة مِنَ السَّلف حتَّى جاء عن أبي بكر –ومثل هذه الآثار العلماء يتجوَّزون في روايتها– أنَّه قال: (لَوْ كَانَتْ قَدَمِي اليُمْنَى فِي الجَنَّةِ مَا أَمِنْتُ مَكْرَ اللهِ أَنْ أَدْخُلَ بِاليُسْرَى)[1]، وكذلك جاء عن سُفيان الثَّوري رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ عند الموت لمَّا قال –وأخذ عودًا–: (وَاللهِ لَذُنُوبِي أَهْوَنُ عِنْدِي مِنْ هَذَا، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ)[2].

ومرَّ معنا في ضمن هذه الدُّروس تبويب البُخاري رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ في صحيحه في «كتاب الإيمان»: (بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا) أو قال: (مُكَذَّبًا)، (وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ كُلُّهُمْ كَانَ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ)[3].

والخوفُ مِنَ الذَّنب لا يصل بالمرء إلى حدِّ القنوط والعجز عن العمل، يعني لا ينبغي أن يسترسل معه حتَّى يكون هو كلّ تفكيره، وينقطع عن العمل بسبب تفكيره في ذنبه والخوف منه فتصيبه نوع مِنَ الوجد النَّفسيِّ الَّذي يمنعه عن القيام بالعمل.

وَلَـوْ بَكَـتِ الدِّمَـا عَيْنَـاكَ خَوْفًـا   لِذَنْبِـكَ لَـمْ أَقُـلْ لَكَ قَـدْ أَمِنْتَـا

«وَمَنْ لَكَ بِالأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ» مَنْ لك بأن تكون آمنًا لا تخاف وأنتَ ذلك العبد المُقصِّر؟

[1] لَمْ أَقِف لَهُ عَلَى مَصْدَرٍ، وقد سُئل العلَّامة الألباني رحمه الله عن هذا الأثر، فقال: (مَا أَعْرِفُهُ) "سلسلة الهدى والنُّور"، شريط رقم: ٣٧٦، الدَّقيقة الثَّامنة تقريبًا.

[2] "منهاج القاصدين" لابن قدامة رحمه الله، ص:٢٩٦.

[3] صحيح البخاري.

وَمَـــنْ لَكَ بِالأَمَـــانِ وَأَنْـتَ عَبْـــدٌ أُمِــرْتَ فَمَــا ائْتَمَــرْتَ وَلَا أَطَعْتَــا

أنتَ عبدٌ لله، وحقُّ العبودية أن تكون مِلكًا لمعبودك، يأمرك وينهاك، وهذه حقيقة العبودية ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] إلَّا لآمرهم وأنهاهم.

«وَأَنْتَ عَبْدٌ... أُمِرْتَ» بالأوامر الَّتي في القرآن وفي السُّنَّة، ولكن مع هذه الأوامر لَا امتثلتها وأطعتَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها ولا اجتنبت النَّواهي الَّتي نهاك الله عَزَّوَجَلَّ عنها.

وهذا ممَّا يؤكِّد قول النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ فيما يتعلَّق بالخوف، بمعنى أنَّ مِنَ الأسباب الجالبة للخوف: استحضار مقام التَّقصير عند أعتاب وأبواب العبودية، فإذا استحضر العبد ما عنده مِنَ التَّقصير وما عنده مِنَ النَّقص فإنَّ هذا يجلب له الخوف الَّذي يجلب له البكاء.

وَمَـــنْ لَكَ بِالأَمَـــانِ وَأَنْـتَ عَبْـــدٌ أُمِــرْتَ فَمَــا ائْتَمَــرْتَ وَلَا أَطَعْتَــا

والواجب على العبد أن يمتثل أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما قال ربُّنا سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وكما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[1]، مَنْ يؤمِّنك وأنتَ ذلك العبد المفرِّط؟ «أُمِرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلَا أَطَعْتَا».

❋ ❋ ❋

ثِقَلُ الذُّنُوبِ عَلَى الإِنْسَانِ

قال النَّاظمُ رَحِمَهُٱللَّهُ:

ثَقُلْــتَ مِــنَ الذُّنُــوبِ وَلَسْـتَ تَخْشَى لِجَهْلِـــــكَ أَنْ تَخِــفَّ إِذَا وُزِنْـتَــا

«ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى» يعني أنَّ الذُّنوب قد أثقلتك، لأنَّ الذُّنوب لها ثِقَلٌ كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في

[1] متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لمسلم (١٣٣٧).

سورة العنكبوت قول الكافرين للمؤمنين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ [العنكبوت:١٢] ثمَّ قال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣]، ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ يعني: أثقال ذُنوبهم، وأثقال أيضًا الَّذين يُضلُّونهم بغير علمٍ، وهذا أيضًا يُفسِّره قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

ولمَّا ذكر النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حديث الغلول الطويل: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ...**»، «**عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ**»[١] هذا ثِقَل الذُّنوب أيضًا، فكما أنَّ الحسنات لها ثِقَل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:٨]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:٦] في النُّصوص الَّتي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣] فالذُّنوب والمعاصي والطَّاعات كلُّها لها ثِقَل على العبد وأيضًا لها ثِقَل في ميزانه.

* * *

ما الَّذي يُوزن يوم القيامة؟

قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ... لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا

يُشير إلى أنَّ العبد يُوزن في يوم القيامة، مرَّ معنا في دروس «الواسطية» أنَّ مُحصَّل ما ذُكر من كلام أهل العلم أنَّه يُوزن ثلاثة أشياء:

[١] عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ) متَّفق عليه، واللفظ لمسلم (١٨٣١).

_ يُوزن العبد نفسه، ومِنَ الأدلَّة على هذا حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»[1] -المتَّفق عليه-، وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[2].

_ ويوزن العمل، والدَّليل عليه حديث: «**كَلِمَتَانِ...**»[3].

_ ويُوزن صحائفُ الأعمال، ودليله حديث البطاقة؛ مَنْ صحابيُّه ومَنْ أخرجه؟ حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند التِّرمذي[4].

✷ كما يقولون أَهْتَبِلُها نصيحةً: الكلام في العلم كثيرٌ ولكنَّ طالب العلم إذا درس متنًا فإنَّ ضَبْطَهُ بأن يحفظ على كلِّ مسألة ما لا يقل عن دليلٍ أو دليلين، أنتَ الآن إذا درستَ الواسطية -مثلاً- كما مرَّ معنا، شرحناها، ولها شروحٌ كثيرة جدًّا، عندك متن مُستقل، جرِّد هذه الأدلَّة مِنْ كلام الشَّارح ومِنْ كلام غيره، مِنْ أجل أن تعتاد أن تُعبِّر عن هذا الدَّليل أنتَ بأُسلوبك -على مُقتضى ما يدل عليه العِلم ليس مِنْ جانب الرَّأي والهوى-، لكن لا بدَّ أنَّ طالب العلم يُعوِّد نفسه على تصوير المسائل واستحضار أدلَّتها، هذا هو العلم، إذا شرحَ متنًا أو تَدارس متنًا هذا -كما تعلمون- من المهمَّات.

يقول: «ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى» لست تخاف، «لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا» هنا أراد الميزان، لكن هل المراد هو نفس العبد؟ هل المراد صحائفه؟ هل المراد عمله؟

«ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى» لست تخاف، والخشية أخصُّ مِن الخوف، وهي فردٌ مِنْ أفرادها ولهذا وصف الله بها خوَاصَّ عباده -وهم أهل العلم-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨].

[1] قال ﷺ: (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ) متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[2] عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ) حسَّنه الألباني رحمه الله في "غاية المرام" (٤١٦).

[3] قال ﷺ: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ) مُتَّفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[4] قال ﷺ: (إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا ربِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَومَ، فَيُخْرِجُ بِطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ؟ مَا هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التِّرمذي" (٢٦٣٩).

«وَلَسْتَ تَخْشَى» ما السَّبب أنَّك لست تخشى؟ «لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا»:

_ بأن تكون خفيفًا في الميزان أنتَ مِن جهة ذاتك.

_ وأن تكون خفيفًا في الميزان مِن جهة عملك.

_ وأن تكون خفيفًا في الميزان مِن جهة صحائف عملك.

❋ ❋ ❋

لَيْسَ عَيْبًا أَنْ تُخْطِئَ
لَكِنِ الْمَعِيبَ أَنْ تُصِرَّ وَتُكَابِرَ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي ... وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

تتجاوز الحدَّ، فيُشير إليه إلى أنَّك أنتَ الآن مُشفقٌ عليَّ وأنا في المعاصي، وتُشفقُ على أمثالي وعلى غيرنا، «وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي» ولم يقلْ: (وَتُشْفِقُ لِلْعَاصِي) لأنَّ هذا أمرٌ لا يخلو منهُ عبدٌ -كما مرَّ معنا-:«**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ**»[1]، وكما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:«**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيغْفِرُ لَهُمْ**»[2]، وقال:«**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ: الْعُجْبَ**»[3]، فكلُّ العباد لهم ذنوب:«**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[4]، -وهذه الأحاديث كلُّها في «السِّلسلة الصَّحيحة» للعلاَّمة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ-[5].

---

[1] قال ﷺ:(مَا مِنْ عَبدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٥٧٣٥)، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

[2] رواه مسلم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] قال الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٢٩٢١) : حسن لغيره. اهـ ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[4] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٤٥١٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[5] في "السلسلة الصحيحة": الحديث الأول (برقم: ٢٢٧٦)، الحديث الثاني: (برقم: ١٩٥٠)، الحديث الثالث: (برقم:٦٥٨)، والحديث الرابع (برقم: ٢٩٨٤).

ليس عيبًا أن يُذنب العبد إذا بادر بالتَّوبة، ولكنَّ المعِيب أن يُصرَّ على ذلك الذَّنب -نسأل الله العافية والسَّلامة-، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٥]، وفي الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ» هل تعرفون القُمع؟ الَّذي يكون واسع مِنَ الأعلى وضيِّق مِنَ الأسفل، فهو واسعٌ في دخول الذُّنوب وضيِّقٌ في خروجها، «**وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**»[1]، فالإصرار على الذَّنبِ ذنبٌ في حدِّ ذاته، وتأخير التَّوبة عن الذَّنبِ ذنبٌ في حدِّ ذاته.

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ... لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا

❋ ❋ ❋

الإشفاق على أهل المعاصي

«وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي» كان بعض السَّلف يرجو أجرَ نفسه إذا أشفق على أهل المعاصي، وهذا لا شكَّ فيه، ولهذا جاء عن إبراهيم التَّيمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّه كان يقول: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَظْلِمُنِي فَأَرْحَمُهُ)[2] بسبب عاقبة الظُّلم، كان عندهم استحضارٌ لِمثل هذه الأُمور في مُعاملة النَّاس، ولم يكونوا يغترُّون لَا بأعمالهم ولا بأقوالهم ولا بعلومهم على الإطلاق رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قال: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَظْلِمُنِي فَأَرْحَمُهُ) أرحمُه بسبب أنَّه ظلمني، ممَّا سيجني عليه ذلكَ الظُّلم مِنَ الآثام والسَّيِّئات -نسأل الله العافية-.

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي ... وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

«وَنَفْسَكَ» الَّتي هي أحقُّ بك وأولى بك «مَا رَحِمْتَا!» ما ترحم نفسك مِن الذُّنوب، منَ المعاصي، منَ السَّيِّئات، مِن الغيبة، منَ النَّميمة، مِن الكذب، مِن البهتان، مِن قول الزُّور، مِن عقوق الوالدين، مِن قطيعة الرَّحم -ممَّا شابه ذلك مِن هذه الأُمور الَّتي يخاف العبد فيها على نفسه-؟ وقد مرَّ معنا في الأبيات المتقدِّمة الكلام على معاملة العبد لنفسه.

❋ ❋ ❋

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٨٩٧)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

[2] "سير أعلام النُّبلاء" للذَّهبي رحمه الله؛ ج٥، ص٦٢.

معنى «خَبَطَ عَشْوَاء»

يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَا

«رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى» والقهقرى معناها الرُّجوع إلى الخلف تأخُّرًا بعد التقدُّم، كما جاء في حديث الحوض في الصَّحيحين[1].

«وَخَبَطْتَ عَشْوَا» خبطُ العشواء: السَّير بلاَ معرفة بمواضع القدم، والعشواء تأنيثٌ للأعشى وهو الَّذي لا يُبصر إبصارًا جيدًّا وإنَّما بصره مُختلطٌ بشيءٍ مِنَ العَشى يُقال له: (الأعشى) ولُقِّب بهذا اللَّقب جماعةٌ مِنَ العرب وخصوصًا مِنَ الشُّعراء، فالعشواء قالوا: (هِيَ النَّاقة) وهذا المثل تضربهُ العرب مثلاً لمن لا يُحسن السَّير أو يمشي ثمَّ يرجِعُ بسبب تخبُّطه، فيقولون: (خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ) بسبب أنَّه لَا يُحسن السَّير، هذا خبطُ العشواء، حتَّى أنَّهم قالوا بأنَّ سبب خبط العشواء عند هذه النَّاقة والمثال بها: هي أنَّها إذا سارت في الصَّحراء وبين الصُّخور وعلى الجحور سارت قريبة مِنَ الحيَّات والعقارب فتُثيرها بسبب أنَّها تسير في هذا المقام، فإذا قالت العرب: (خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ) فإنَّهم يعنون: سيْرَ النَّاقة الَّتي لا تُبصر جيِّدًا.

فيقول:«رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى» إلى الخلف «وَخَبَطْتَ عَشْوَا».

❊ ❊ ❊

لَوْ ذُقْتَ وَتَلَذَّذْتَ مَا فَارَقْتَ

يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَا

[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:(بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى) رواه البخاري (٦٥٨٧).

«لَعَمْرُكَ» هذا نوعٌ مِن القسم اللَّفظي الَّذي تستعمله العرب، وقد تقدَّم الكلام عليه في المنظومة[1].

«لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ» إلى غايتك «مَا رَجَعْتَا» يقول: لو أنَّك حصَّلت الوصول إلى الغاية الَّتي تُريدها -وخصوصًا غاية أهل الايمان وهي رضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وطُمأنينة القلب به- لَما سَهُل عليك الرُّجوع عن هذا الطَّريق وقد وصلتَ إلى هذه المنزلة، يدلُّ على هذا ما جاء في البخاري في رحلة أبي سُفيان بن حرب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وكان على دين قومه- لَـمَّا دخل الشَّأم، فسأل هرقل عن أقرب النَّاس نسبًا بالنَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقيل له: (أَبُو سُفْيَانَ) فسأله مسائلَ عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعمَّنْ معه ممَّن أسلم مِنَ العرب فكان منها أنَّه قاله له: (أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟) قال: (بَلْ يَزِيدُونَ) قال: (وَكَذَلِكَ الإِيمَان حَتَّى يَتِمَّ) ثمَّ قال له: (وَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟) قال: (لَا)، وفي إجابات هرقل قال: (وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ)[2] يعني أنَّ الإيمان إذا اختلط بالقلب وصار القلب مُزيَّنًا بالإيمان كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧] فإنَّه يصعب على المرء أن يرجع عنه، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ: (الْإِيمَانُ إِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ وَخَالَطَتْهُ بَشَاشَتُهُ لَا يَسْخَطُهُ الْقَلْبُ بَلْ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ)[3] وقال أيضًا رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ: (وَالاسْتِقْرَاءُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا خَلَصَ الإِيمَانُ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ يَرْجِعْ عَنْهُ)[4]، وهذا معنى ما قاله النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في الصَّحيحين في حديثِ أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[5].

فالألبيري يقول: يستحيل على إنسانٍ عرف الإيمان وأبصر النُّور الَّذي في الإيمان والهداية والاستقامة وطُمأنينة القلب وانشراح الصَّدر وراحة النَّفس وهدوء البال ثمَّ يَسهُل عليه أن يرجع عن هذا الإيمان، فهو يقُول:

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا   لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَا

لو ذُقتَ حلاوة الإيمان، لو عرفتَ منازلَ أهله فيهِ لصعُبَ عليك أن ترجع عنه، ولهذا أعظم ما يكون عليه حياة المرء المؤمن في حال زيادة إيمانه -كما هو معلوم-، والكلام على هذا يطول.

---

[1] انظر الصَّفحة: ٩٨

[2] متفق عليه، من حديث أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه.

[3] "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ ج١٠، ص:٦٤٩.

[4] "المستدرك على مجموع الفتاوى"، ج١، ص:١٤٩.

[5] متفق عليه؛ واللَّفظ لمسلم (٤٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

***

لا تغتر بكثرة العمل

ثُـمَّ يقُول لَـه:

وَلَــوْ وَافَيْــتَ رَبَّــكَ دُونَ ذَنْــبٍ ... وَنُوقِشْــتَ الْحِسَــابَ إِذًا هَلَكْتَــا

يقول: «وَلَوْ وَافَيْتَ» بمعنى: رجعتَ، مِنَ المُوَافاة وهي الرُّجوعُ.

«وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ» وإنَّما عملتَ بكلِّ الطَّاعات وتركتَ كلَّ المعاصي والسَّيِّئات، ثمَّ: «نُوقِشْتَ الْحِسَابَ» نوقشتَ حسابك عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، «إِذًا» والحالة هذه «هَلَكْتَا» فلَم تقمْ طاعاتك وعباداتك واجتنابك للمعاصي والسَّيِّئات مقامَ النِّعم الَّتي أنعم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها على العبد، وهذا أمرٌ مُطبِقٌ عليه أئمَّة الإسلام، لأنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال -كما في الصَّحيحين-: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ**»[1]، وأيضًا ما جاء في كثيرٍ مِنَ الأحاديث الَّتي في الابتلاء وحكمتِه مِنْ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يبتلي العبد بأنواع مِنَ الابتلاءات ليُوصله إلى منزلةٍ لا يُدركها بعمله مهما عمل[2] -في أحاديث كثيرة عنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-.

وهنَا يقُول: «وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ» جاء عن مُحمَّد ابن أبي عُمَيرة -مذكور في الصَّحابة- موقوفًا[3]، وجاء عن عُتبة بن عبدٍ مرفوعًا، وحسَّن السّيوطي إسناده في «الجامع»، وحسَّنَه كذلك العلاَّمة الألباني في «الصَّحيحة» وفي «الجامع» -جاء مرفوعًا وموقوفًا-: «**لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ هَرَمًا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعالَى لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[4]، ما معنى الحديث؟ يقول: «**لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ**» يُسحب على وجهه «**مِنْ يَوْمِ وُلِدَ**» منذُ

---

[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا) متفق عليه، واللَّفظ للبخاري (٦٤٦٣).

[2] يُشيرُ شيخُنَا حَفِظَهُ اللهُ إلى قولهِ ﷺ: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ مَنْزِلَةٌ فَلَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلٍ، ابْتَلَاهُ اللهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) قال الألباني رحمه الله في "صحيح الترغيب" (٣٤٠٩) : صحيح لغيره. اهـ

[3] قال الألباني رحمه الله عند ذكره لحديث "لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ...": (وَلَهُ شَاهِدٌ عِنْدَ أَحْمَدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عُمَيْرَةَ ﷺ مَوْقُوفًا وَهُوَ فِي حُكْمِ المرْفُوعِ) "السلسلة الصحيحة" (٤٤٦).

[4] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٥٢٤٩)، من حديث عتبة بن عبد ﷺ.

وِلَادته «إِلَى يَوْمٍ يَمُوتُ هَرَمًا» يعني قد وصل إلى أرذل العمر «عَلَى وَجْهِهِ» لأجل ماذا؟ لأجل رضا الله «فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ»، ثمَّ يأتي يوم القيامة قال:«لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني لرأى أنَّ ذلك لا شيء، حقيرًا ليسَ له أيّ قيمةٍ أمام ما أنعم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى به على العبد.

فإذَا عرفَ العبد هذه المنزلة مِنْ نفسه عند ربِّه جَلَّوَعَلَا فإنَّه يجتهد في عمل الطَّاعات، حتَّى أنَّ ما جاء مِنَ الآثار عن النَّبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ تُوضِّح مثل هذا، مثل قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:«**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**»[1] وبدايةُ الحديث:«**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَلَا أَنَا**»[2] وهو الَّذي كان يقوم حتَّى تتفطَّر قدماه، وهُو الَّذي ما ترك بابًا مِنْ أبواب العبادات إلَّا ولَجَه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ -ما نحتاج نقول مثل هذا الكلام-؛ ثمَّ يقول:«**وَلَا أَنَا**» وحتَّى أنَّه لمَّا كان يقوم اللَّيل -كما في الصَّحيحين في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا- قالت: (يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟) قال:«**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[3] يعني أن يشكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على مثل هذا.

مرَّ معنا أنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لمَّا قال له أبو بكر -كما في الصَّحيحين في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص-: (عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي)[4] قَالَ:«**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[5]، «**مِنْ عِنْدِكَ**» هذا فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فهو يقُول:«وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ» ولذلك النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال:«**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ: الْعُجْبَ**»[6] -والحديث في «السِّلسلة الصَّحيحة» للعلاَّمة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ-.

❊ ❊ ❊

[1] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللَّفظ للبخاري (٦٤٦٣).

[2] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللَّفظ للبخاري (٦٤٦٣).

[3] متفق عليه، من حديث عائشة ﷺ، واللفظ لمسلم (٢٨٢٠).

[4] متفق عليه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[5] متفق عليه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

[6] قال الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٢٩٢١) : حسن لغيره. اهـ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

الفَرقُ بَيْنَ الحِسَابِ وَالعَرْضِ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وَنُوقِشْتَ الْحِسَابَ إِذًا هَلَكْتَا» يُشير إلى ما جاء في الصَّحيحين مِن حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال:«مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»[1] وكانت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا -كما في أوَّل الحديث-: (كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ)[2]، قالت: (أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧]؟) استشكلَتْ قوله عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:«مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ» مع قوله تعالى:﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؛ فقال لها النَّبي عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:«إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ»[3] عرض الأعمال، أمَّا المناقشة: (فَعَلْتَ كَذَا، وَقُلْتَ كَذَا، كَانَ مِنْكَ كَذَا، وَلَمْ تَفْعَلْ بِكَذَا) فإنَّ هذا -والعياذ بالله- يهلك، على أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يمُنُّ على مَنْ يشاء مِنْ عباده كما جاء أيضًا في الصَّحيحين في حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ -فيما يغلب على ظنِّي- في حديث المناجاة، أنَّ الله يُناجي عبده يقول:«أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ؛ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[4].

* * *

وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا

يقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وَنُوقِشْتَ الْحِسَابَ إِذًا هَلَكْتَا» وفوق هذا:

وَلَـمْ يَظْلِمْكَ فِـي عَمَـلٍ وَلَكِـنْ ... عَسِيـرٌ أَنْ تَقُـومَ بِمَـا حَمَلْتَـا

كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦] وهذا وإن كان جاء في صيغة المبالغة إلَّا أنَّها ليست مرادة هنا، لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال في كتابه الكريم:﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩]، وقال جَلَّوَعَلَا:﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[الإسراء:٧١]، وقال جَلَّوَعَلَا:﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء:١٢٤]، وقال:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً

---

[1] متفق عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها واللفظ للبخاري (٦٥٣٦).

[2] متفق عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري (١٠٣).

[3] متفق عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري (١٠٣).

[4] متفق عليه؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري (٢٤٤١).

يُضَاعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٠].

فهو يقُول هنا: لَم يظلمكَ في أيِّ عملٍ لأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قال في كتابه الكريم -في سورة الكهف-:﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف:٣٠] فالرَّب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يُضيع أجر أحدٍ أبدًا وكلُّ ذلك عنده مسطورٌ في كتاب، حتَّى جاء في صحيح مُسلم في حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ -في الحديث الطَّويل-:«**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَّالَمُوا**» قال في آخره:«**فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[1].

وَلَـــمْ يَظْلِمْكَ فِـــي عَمَـــلٍ وَلَكِـــنْ   عَسِيـــــرٌ أَنْ تَقُـــومَ بِمَـــا حَمَلْتَـــا

❃ ❃ ❃

التَّفَكُّرُ فِي الآخِرَةِ

يقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَـــوْ قَـــدْ جِئْـــتَ يَـــوْمَ الْحَشْـــرِ فَرْدًا   وَأَبْصَـــرْتَ الْمَنَـــازِلَ فِيـــهِ شَتَّـــى

«وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ» يوم القيامة، يوم حشر النَّاس ونشرهم على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة.

«يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا» لوحدك، لأنَّ الإنسان يُحشر كما خلقه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مِنْ جهة ذاته وهيئته وكذلك لا يحيطُ أحدٌ به مِنْ أصوله وفروعه وحاشيته وإنَّما يُحشر وحده:﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[الأنعام:٩٤] ما الَّذي كانوا يزعمون؟! ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[التغابن:٧]، فهنا قال:﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى في سورة الكهف:﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭ﴾[الكهف:٤٨]، وجاء في الصَّحيحين في حديثِ عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال:«**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»[2] يعني غير مختونين، وقال ربُّنا

[1] رواه مسلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر ﷺ.

[2] متفق عليه، من حديث عائشة ﷺ، واللفظ لمسلم (٢٨٥٩).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء:١٠٤]، فكما بدأ الله هذا الخلق يُعيده، فيُحشر النَّاس على هذا الحال.

«وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا» والله جَلَّ وَعَلَا قال في كتابه الكريم: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس:٣٣-٣٧]، كذلك قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر سورة المعارج: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[المعارج:١١-١٦] إلى آخره، فالله جَلَّ وَعَلَا يحشر النَّاس على هذا الحال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾.

✱ **في قضية استحضار الآيات**: لَا تنتظر أن تأتيك الآية مِنْ حيث الرَّأس الَّذي أردتَه، لأنَّك أحيانًا ستمضي ساعة؛ فخيرٌ مِنْ هذه السَّاعة الَّتي ستُمضيها: أن تُمضيَ دقيقةً في آيتين قبلها أو أن تقرأ مِنْ نفس السُّورة، أحسن.

فهو يقول: «وَلَوْ قَدْ جِئْتَ» أيُّها المخاطَب «يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا» مَنِ استحضر هذا المقام مع استحضار الحبِّ لمن حوله في هذا الزَّمان انقطعت بين يديه علائق الدُّنيا وهَان عليه كلُّ شيءٍ مِنْ أمر الدُّنيا، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ حتَّى قال العلماء: لِمَ قدَّم الأخ؟ لأنَّ الفزعات -يعني الفزع والهول- لا يأتي مِنْ قِبَل الزَّوجة ولا مِنْ قِبَل الأبناء، فقُدِّم هنا، وهذا المقام مقامُ فزعٍ فهو يظنُّ أنَّ فزع الدُّنيا كفزع الآخرة فينتفض -كما يقول أهل هذه البلاد-: نَخْوَةَ أخيه.

قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ وهي أرفق ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ لا ينفع كلُّ هذا، -نفسي نفسي لا أسالك سواها-.

وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْدًا وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى

أبصرتَ منازل النَّاس ودرجاتهم، «شَتَّى» مُختلفة، متفرِّقة، بسبب أعمالهم كما قال ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾[الزمر:٢٠] والآيات في هذا كثيرة، في أوَّل الواقعة وفي آخرها: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة:١٠-١١]، ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾[الواقعة:٢٧]، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾[الواقعة:٤١] هذه منازلُ في الآخرة، حتَّى أصحاب الجنَّة منازلهم متفاوتة ومُختلفة، وكذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[فاطر:٣٢] هؤلاء كلُّهم مِنْ أمَّة محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكلُّهم -الظَّالم والمقتصد والسَّابق- مِنْ أهل المنازل، ولكن هل منزلتهم واحدة؟

هو يقول:«وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى» حتَّى جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال:«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى آثَارِهِم كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً»[1]، وجاء في صحيح مسلم في حديث المُغيرة بن شُعْبة أنَّ النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال:«سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ» -اصطفاهم الله سبحانه- «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[2] -وهذا في صحيح مُسلم في حديث المُغِيرة بن شُعبة-.

* * *

النَّدمُ بعدَ فوَاتِ الأوانِ

يقول رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَلَــوْ قَــدْ جِئْــتَ يَــوْمَ الْحَشْــرِ فَرْدًا ... وَأَبْصَــرْتَ الْمَنَــازِلَ فِيــهِ شَتَّــى

«وَأَبْصَرْتَ» يعني رأيتَ «الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى» ما الَّذي ستفعله؟ قال:«لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا» تُعْظِم النَّدامة وتُعظِّمها وتندم، «لَهْفًا» لأيِّ شيءٍ؟ «عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا» ولهذا قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آخر سورة الفجر:﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾[الفجر:٢٤-٢٦]، وكذلك قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[الزمر:٥٦]، وقال ربُّنا جَلَّوَعَلَا عنهم:﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[الأنعام:٣١].

وَلَــوْ قَــدْ جِئْــتَ يَــوْمَ الْحَشْــرِ فَرْدًا ... وَأَبْصَــرْتَ الْمَنَــازِلَ فِيــهِ شَتَّــى

لَأَعْظَمْــتَ النَّدَامَــةَ فِيــهِ لَهْفًــا ... عَلَــى مَــا فِــي حَيَاتِــكَ قَـدْ أَضَعْتَـا

---

[1] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري (٣٢٥٤).

[2] رواه مسلم (١٨٩)، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

مرَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قبرٍ ثمَّ قال لأصحابه:«**رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانَ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ**»[1] -والحديث في «السِّلسلة الصَّحيحة»-، تأمَّل في هذا الحديث:«**مِمَّا تَحْقِرُونَ**» معناه أنَّها ليست فرضًا، كثيرٌ مِنَ النَّاس يقولون: (سُنَّةٌ... تَحِيَّةُ الْمَسْجِدِ سُنَّةٌ)، (الْقَبْلِيَّةُ سُنَّةٌ)، (الْبَعْدِيَّةُ سُنَّةٌ مَا هِيَ فَرْض)، (مَا هِيَ مَفْرُوضَةٌ عَلَيَّ) يحقرون، يقول:«**رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانَ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ**» والحديث في «السِّلسلة الصَّحيحة» -لا يحضرني الآن مَنْ صحابيُّه ولا مَنْ أخرجه-[2]، «**رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانَ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ**» يُخبر عن الحالة الَّتي هو فيها في قبره «**أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بقيَّةِ دُنْيَاكُمْ**».

❋ ❋ ❋

حَرُّ الدُّنْيَا وَحَرُّ الآخِرَةِ

قال رَحِمَهُ اللهُ:

لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا ... عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا

ما حالك؟ قال:

تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ ... فَهَلاَّ مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا

يقيس لك حياتك الدُّنيا بما فيها مِنْ فرارك مِنَ المؤذيات والمؤلمات على أنَّك تكون أعقل إذا فررتَ مِنْ نار جهنَّم، ولهذا جاء في التِّرمذي في حديث أبي هريرة عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال:«**مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا**»[3] -والحديث حسَّنه الشَّيخ الألباني أيضًا في «صحيح التِّرمذي».

الله جَلَّ وَعَلَا قال في المنافقين يُحرِّض بعضهم بعضًا على ترك الغَزْوِ والجهاد مع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾[التوبة:٨١] أتخرُجون وتُجاهدون وتُقاتلون وتتركون أموالكم وأولادكم وأزواجكم! تخرجون في هذا الحرِّ -في حرِّ المدينة وشدَّته وفي الصَّحراء-؟ ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، قال الله عَزَّوَجَلَّ:﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ

[1] قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" (١٣٨٨) : إسناد صحيح على شرط مسلم. اهـ ، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[2] من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٩٠٧).

[3] حسنَّه الألباني رحمه الله في "صحيح التِّرمذي" (٢٦٠١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[التوبة:٨١-٨٢].

هو يقول: «تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ» الهجير والهاجرة: شِدَّة الحر، ولذلك تُسمَّى صلاة الظُّهر بصلاة الهاجرة، «تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ» تهرب مِنَ الهجير «وَتَتَّقِيهِ» كما يهرب الإنسان مِنَ التُّراب ويتأثَّر منه، ولو وُضع في قبره فلن يُغطَّى إلَّا بأمثاله مِنَ التُّراب.

«فَهلاَّ مِنْ جَهَنَّمَ» هل لكَ عقلٌ ورزانةٌ ولبٌّ وحياةُ قلبٍ فتفرّ وتهرب مِنْ نار جهنَّم؟ «فَهلاَّ مِنْ جَهَنَّم قَدْ فَرَرْتَا» لِمَ؟ أجابك فقال: «وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا» لن تُطيق أهون عذابِ أهل النَّار.

«وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا» جاء في أهون عذاب أهل النَّار أنَّه أبو طالب[1] -عمُّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في حديث العباس بن عبد المطلب في الصَّحيحين لمَّا قال: (يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟)[2] قَال: «**نَعَمْ؛ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[3]، وجاء عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ**»[4] هذا أهون أهل النَّار عذابًا، فلا تسأل عمَّن قال الله فيهم: ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[النساء:١٤٥] و ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾[الحج:١٩] إلى آخر ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا.

«وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا» جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**نَارُكُمْ**» هذه نار الدُّنيا الَّتي بها البراكين وبها ما تُوقدون وبها كلُّ شيءٍ ممَّا تستعملون، يقول: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**»[5] قالوا: (يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً)[6] يعني نار الدُّنيا تكفي في التَّعذيب، فقال: «**فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**»[7] فهل يُطيق أحدٌ العذاب بنار الدُّنيا؟ فكيف يُطيق بسبعين جزءًا مِنْ نار الآخرة؟ عذابٌ شديدٌ، ولذلك الله عَزَّوَجَلَّ جعل نار الدُّنيا ذِكرى لِنَار الآخرة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

---

[1] أي أهون أهل النَّار عذابًا مِن الكفَّار.

[2] متفق عليه، من حديث العباس رضي الله عنه.

[3] متفق عليه، من حديث العباس رضي الله عنه.

[4] متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، واللفظ للبخاري (٦٥٦١).

[5] متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللَّفظ للبخاري (٣٢٦٥).

[6] متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللَّفظ للبخاري (٣٢٦٥).

[7] متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللَّفظ للبخاري (٣٢٦٥).

[الواقعة:٧١-٧٣] هذان سببان لوجود هذه النَّار في الدُّنيا -ذكرهم الله في سورة الواقعة-، هل رأيتم هذه النَّار الَّتي تُشعِلونها وتُورونها؟ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾[الواقعة:٧١-٧٢] لم يا ربِّ؟ قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ تُذكِّر بنار الآخرة، ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[الواقعة:٧٣] المُقْوِي هو المسافر المبتعد في شدَّةٍ، صحراءٍ، يُوقِد النَّار مِنْ أجل أن يستدفئ بها أو مِنْ أجل أن يطرد عنه الهَوَامّ بها، إلى آخر ما فيها من المصالح والأسباب.

فهُو يقُول:

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا ... وَلَوْ كُنْتَ الحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا

«فَلاَ تُنْكِرْ» لا تُنكر كلَّ هذا لأنَّه حقٌّ ودينٌ وكلُّه جاء في نصوص الكتاب والسُّنَّة، «فَلاَ تُنْكِرْ فَإِنَّ الأَمْرَ جِدٌّ» واقعٌ وحقٌّ «وَلَيْسَ كَمَا حَسِبْتَ وَلَا ظَنَنْتَا» الله أعلم ما الَّذي ظنَّه وما الَّذي حسبه.

* * *

التَّوَاضُعُ واتِّهَامُ النَّفْسِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا
فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا
وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي ... بِبَاطِنِتِي كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

وفي نُسخةٍ أُخرى: «بِبَاطِنِهِ كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا».

فَلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ ... عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتَا
وَيَهْوِي بِالوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا ... وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا
كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي ... وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا
وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً ... وَتَلْقَى الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ كُنْتَا

هذه الأبيات رجعَ فيها الإمام الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى إلى مخاطبة مَنْ كنَّاه بـ:«أبي بكر»، على ما تقدَّم في أوَّل التَّقرير

والشَّرح على هذه المنظومة:

_ إذا قُلنا بأنَّه ولده.

_ أو قُلنا بأنَّه أحد أقرانه الَّذي حصلت بينه وبينه فجَّة.

_ أو قُلنا بأنَّه مِنْ تصوُّر الشَّاعر في باب النُّصح، فيعمّ آخرين، فمثَّل بأبي بكرٍ وأراد به مَنْ كان حاله كحال هذا الَّذي صوَّره في المنظومة.

فيقُول: «أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي» توجَّهتَ إليَّ يا أبا بكرٍ بالنَّقد والذَّم وكشفِ العُيوب وهتكِ السِّتر وإنَّما أظفرك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقليلٍ مِنَ المعايب، وأنتَ لَا تدري بما بيني وبين الله جَلَّوَعَلَا منها، ولَم تُحِطْ به علمًا.

«كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي» إنَّما ما أظفرَكَ الله به وظَهَرتَ عليه وصار معلومًا لديك إنَّما هو قليلٌ ولَم تُحطْ علمًا بما عندي، وإلَّا فإنَّ لك الحقّ أن تقوله.

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا

فهو يتمدَّحه بهذا الأمر، وأنَّه لَم يبلغْ إلى حدِّ الفجور في الخُصومة حتَّى يذكر كلَّ ما يعلم أو يزيد عليه كحال مَنْ يُخاصم في ذلك.

❋ ❋ ❋

الْفَرْقُ بَيْنَ نَظْرَةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ لِلذُّنُوبِ «١»

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي ... وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا

«وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا» وذلك أنَّ سِتر الله على العبد عظيمٌ جدًّا يمنع مِن الاطلاَّع على كلِّ ذنوبه أحدٌ مِنَ النَّاس، وكما قال بعض السَّلف: (لَوْلَا سِتْرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مَا جَالَسْنَا أَحَدًا)[1]، وأيضًا: (لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ مَا جَلَسَ إِلَيَّ

[1] "شعب الإيمان" للبيهقي رحمه الله؛ ج٦، ص:٢٩٠، عن سُفيان بن عُيَيْنَة رحمه الله.

أَحَدٌ)[1]، وهذا جاء عن جماعةٍ من الأئمَّة رَحِمَهُمُ‌ٱللَّهُ‌تَعَالَى، وكما يقول القحطاني في نونيته:

وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي

وَلَأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي ... وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهَوَانِ

لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي وَمَثَالِبِي ... وَحَلُمْتَ عَنْ سَقَطِي وَعَنْ طُغْيَانِي[2]

فالعبد إنَّما هو بستر الله تَبَارَكَ‌وَتَعَالَىٰ عليه، و «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ**»[3] وسِتْرُ الله عظيمٌ.

وعند طائفةٍ مِنْ أهل العلم محسَّن حديث:«**إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَيِيٌّ سِتِّيرٌ**»[4] بمعنى أنَّه يستر العبد، وقد جاء في الصَّحيحَين في مُناجاة العبد ربَّه يوم القيامة أنَّه يقول:«**سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[5].

فهو يقُول:«أَبَا بَكْرٍ» أنتَ توجَّهت إلى نَقدِي فكشفتَ أقلَّ عيبِي، وأكثر هذا العيب ومُعظمه سترت.

ثُمَّ يقُول لـهُ:

فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ... وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

«فَقُلْ مَا شِئْتَ» لأنَّ هذا حال البشر، ولأنَّ هذا الكلام صادرٌ مِنْ إمامٍ في الدِّين معلوم التَّواضع، وهؤلاء القوم لا ينظرون إلى الذَّنب كنظرنا إليه نحن، كما جاء ذلك في صحيح البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُ لَمَّا قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا)[6]، وكما جاء أيضًا في الصَّحيح عن أنس رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُ أنَّه قال: (إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيْهِ‌وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ)[7] -أو نحو هذا المعنى رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُمَا-، فنظرتهم

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٦، ص:١٢١، عن محمَّد بن واسع رحمه الله.

[2] نُونية القحطاني رحمه الله.

[3] قال ﷺ:(مَا مِنْ عَبدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٥٧٣٥)، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

[4] قال ﷺ:(إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (١٧٥٦)، من حديث يَعْلَى بن أُميَّة ﷺ.

[5] متفق عليه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري (٢٤٤١).

[6] رواه البخاري (٦٣٠٨).

[7] رواه البخاري (٦٤٩٢).

للذُّنوب ونظرتهم للآثام ونظرتهم للمعاصي ليست كنظرتنا نحن -نظرةُ المحقِّر للذَّنب-، قد قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ -وجاء هذا مرفوعًا وموقوفًا في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا[1] وغيرها-:«**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ**»[2] -أو كما قال النَّبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ-، وهو في «السِّلسلة الصَّحيحة».

فهو يقُول:«فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي» قل ما شئتَ فيَّ مِنَ الأُمور المُخزية، «وَضَاعِفْهَا» ضاعف ما تعلم وضاعِف ما قلتَ «فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا» فأنا لا أُبرِّئ نفسي، على الخلاف بين المفسِّرين في قوله تعالى:﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[يوسف:٥٣] هل هو يوسف أو امرأة العزيز.

ومَنْ نظر إلى نفسه في مقام العبودية بهذا النَّظر كفاه الله شرَّ نفسه، لأنَّ العبد يُذنب الذَّنب فلا تزال حرارته في قلبه فيرى الله منه ذلك ويرى تواضعه وعدم قيامه بمقام العبودية فيعفو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والله كريم، وربَّما يعمل الرَّجل الحسنة الصَّغيرة فيَعدُّها مِنْ جبال الحسنات ولا يرى الله جَلَّوَعَلَا في قلبه إلَّا العُجب والكبر، ولهذا قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:«**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُم مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ: الْعُجْبَ**»[3].

فهو يقُول:«وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا... وَمَهْمَا عِبْتَنِي» مهما قلتَ مِنَ العيب، «وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي... بِبَاطِنَتِي» أي بما أُبْطِنه، أو «بِبَاطِنِهِ» بباطن أمري، «بِبَاطِنَتِي كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا» أنا أعلمُ بنفسي وأعلمُ بتقصيري وأعلمُ بما عندي مِنَ التَّقصير وأنَّ قولك هذا نوعٌ مِنَ الصِّدق، فأنتَ ذممتني بما فيَّ فهذا مدحٌ -هذا نوعٌ مِنَ المدح-.

هكذا يريد أن يُصوِّر الألبيري رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ، وقد جاء عن بعض الأئمَّة أنَّه كان يقول -عن حقيقة الإخلاص-: (الإِخْلَاصُ: اسْتِوَاءُ الْمَدْحِ وَالذَّمِ)[4] وهذا الأمر ثقيلٌ وصعبٌ جدًّا، ولكن هكذا كانوا يقولون، والإنسان لا يقوى على مثل هذه المقامات إلَّا أن يشاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذا المقام الَّذي يستحضر فيه أنَّ تسلُّط النَّاس عليه بسبب ذنبه لَا بسبب ظُلمهم، يعني أنَّ الله سلَّطهم عليه بسبب ذنوبه هُوَ لَا لأنَّهم قد ظلموه، فإذا استحضر المرء مثل هذا المقام قد ينجو في مثل هذه المحنة والفتنة.

عند طائفةٍ مِنَ الأئمَّة أنَّ حقيقة الإخلاص استواء المدح والذم، وإلَّا فإنَّ هذا معيارٌ ثقيلٌ جدًّا.

---

[1] من حديث عائشة ﵂ بلفظ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا:(يَا عَائِشَةُ! إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٢٤٧٢).

[2] قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" (٣١٠٢) : إسناده صحيح على شرط الشيخين. اهـ ، من حديث سهل بن سعد ﵁.

[3] قال الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٢٩٢١) : حسن لغيره. اهـ ، من حديث أنس بن مالك ﵁.

[4] "بستان العارفين" للإمام النووي رحمه الله، ص٧٤، عن ذي النُّون المصري.

وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفَرْطِ عِلْمِي ... بِبَاطِنَتِي كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

كأنَّك في حال قولكَ هذا مدحتَ وأثنيتَ وأحسنتَ المقال «كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا» كما قلتُ لكم إنَّ هذا المقام -إن قَصَدهُ الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فهو مقامٌ لِمن استحضرَ حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنَّه قد يقع العقاب بتسلُّطِ النَّاس عليه -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

* * *

ذُلُّ المَعْصِيَةِ وَعِزُّ الطَّاعَةِ

ثُمَّ يقُول له:

فَلَا تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهْوَ عَارٌ ... عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتَا

وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا ... وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا

هذه المنظومة أحسن فيها الألبيري إلى طلبة العلم الَّذين يُريدون أن يُربُّوا أنفسَهم على عدم الالتفات إلى أنفسهم، وأن يستحضروا أنَّ مقامَ الحسنةِ ليس كمقام السَّيِّئة، ومقام الطَّاعة ليس كمقام المعصيَّة، وأنَّ القبائح مُورثة للذّلَّة والمهانة، والطَّاعة مُورثة للعزَّة والرِّفعة.

فهو يقُول: يا أيُّها المنصوح «لَا تَرْضَ الْمَعَايِبَ» لا ترضَ بأن تكون مَعيبًا وتضع نفسك في مقامٍ يعيبُك النَّاس عليه، وإذا نظرتَ في كتب أئمَّة الحديث عند ذكرهم لخوارم المروءة رأيتَ أطرافًا مِنْ قولهم -مِنْ منثوره ومنظومه- الَّذي يُعاب ويُقدح به المرء.

كما أنَّ الرَّفيق والصَّديق والأخ والمُشاكل الَّذي يُرافقك إذا رأى مقام المعايب فإنَّه يُبغضك ويقع في قلبه نوعٌ مِنَ البُعد، فكيف إذا كان هذا الأمر فيما يَتعلَّق بمعاملة العبد لربِّه بأن لا يكون منه مع الله إلَّا المعايب والمخازي ولا يخشى أن يقع مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القلَى -وهو البُغض ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[الضُّحى:٣] -، ولهذا جاء عن الحسن البصريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّه قال: (يَا ابْنَ آدَم إِنَّ الْخَضِرَ صَحِبَ مُوسَى فَقَالَ لَهُ فِي الثَّالِثَةِ:﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾

[الكهف:٧٨] أَمَا تَخْشَى أَنْ يَقُولَ اللهُ لَكَ هَذَا وَأَنْتَ تُبَارِزُه بِالذُّنُوبِ؟)[١] -نسأل الله السَّلامة والعافية-، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف:٧٨].

«فَلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ» والمعايب لا يرضَى بها الإنسان فيمَنْ يُصاحبه، ولا يرضى بمعايبِ النَّاس إلَّا مَنْ شاكلهم عليها وهذا ما يُسمَّى بـ:«المشاكلة» وهي تقارب الأرواح و «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[٢] هذا ليس فقط فيما تعارفوا عليه مِنَ المعروف الحَسَن ولكن ممَّا تعارفوا عليه أيضًا مِنَ المعروف السَّيِّئ، فإنَّك تجد أهل السُّوء يُشاكل بعضهم بعضًا، وكما قيل: (الطُّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ)، والنَّاس كما يقول شيخ الإسلام -وغيره مِنَ الحكماء-: (النَّاسُ كَأَسْرَابِ الْقَطَا مَجْبُولُونَ عَلَى تَشَبُّهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ)[٣]، والنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال -وقوله أصدق-:«**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[٤].

فهُو يقُول:«فَلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ» إنَّما يردُّ المعايب مَنْ يبغضها وينكرها، أمَّا مَنْ كان معك على نفسِ الشَّاكلة فإنَّه يُشاكلك ويُشاركك في المعايب والمساوئ.

فيقُول:«فَلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ... عَظِيمٌ» ما الَّذي يُؤدِّي إليه؟ «يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتًا» فهذه المعايب الَّتي تكون بين الصَّاحب وصاحبه لا تُورث إلَّا المقت، فكيف بالمعايب الَّتي هي الذُّنوب والمعاصي في معاملة العبد لربِّه؟ لِهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج:١٨]، والنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال -كما في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في المسند-:«**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**»[٥].

وجاء عن أبي الدَّرداء في مسألة المصاحبة والمشاكلة أنَّ الإنسان قد يُبتلى ببعض النَّاس فإذا خالطهم وعاشرهم وَقَعَتِ المصائب مِنْ قِبَلهم، فقال في قولته المشهورة الَّتي يُردِّدها النُّحاة والبلاغيون: (أُخْبُرْ تَقْلِهْ)[٦] أو (تَقْلَهْ)، انظر المَخْبَرَ والحَالَ الَّذي عليه الإنسان فإذا ظهر فإنَّه لن تجد مِنْ نفسك إلَّا القِلَى له -تَقْلُوه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[الضُّحى:٣] كما قُلنا قبل قليل-، فالإنسان إذا خَبَرَ النَّاس وعرف حقائقهم قَلاَهم، نسأل الله العافية والسَّلامة.

---

[١] لَمْ يتيسَّر الوقُوف على مصدرٍ للأثر المذْكُور؛ وقد جاء بنحوه عن ابن الجوزي رحمه الله قال: (خَالَفَ مُوسَى الْخَضِرَ فِي طَرِيقِ الصُّحْبَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَحَلَّ عُقْدَةَ الْوِصَالِ بِكَفٍّ:﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أَمَا تَخَافُ يَا مَنْ لَمْ يَفِ لِمَوْلاهُ أَبَدًا أَنْ يَقُولَ فِي بَعْضِ خَطَايَاكَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ؟) من كتابه "التَّبصرة"، ص:٢٣٩.

[٢] رواه البخاري (٣٣٣٦) من حديث عائشة ﵂، ورواه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة ﵁.

[٣] "مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية" لابن قاسم رحمه الله؛ ج٢٨، ص:١٥٠.

[٤] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٣٥٤٥)، من حديث أبي هريرة ﵁.

[٥] قال أحمد شاكر رحمه الله في "مسند أحمد" (٥١١٤) : إسناده صحيح. اهـ ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

[٦] "عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري رحمه الله؛ ج٢، ص١.

وصنَّف بعض العلماء كتابًا هو مِنْ أعجب ما يكون في الصُّحبة للأسف الشَّديد عُنوانه يُثير التَّشنُّج فكيف بحقيقته ومَخبره! صنَّف كتابًا سمَّاه «تفضيلُ الكلاب على كثيرٍ ممَّن لبِس الثِّياب» والكتابُ مطبوع، كذلك مَنْ أراد أن يتسلَّى عن صحبة النَّاس ويعرف أنَّ المُصاب جلل ببعضهم فليقرأ كتاب «العُزلة» للخطَّابي، فإنَّه مِنْ أنفس الكتب في هذا الباب[١].

فهو يقُول: «فَلاَ تَرْضَ المَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ» لا ترض أن تكون ممَّن تلبَّسوا بها فصارت ثوبًا له وصارت شعاره ودثاره، «فَلاَ تَرْضَ المَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ» فإنَّ هذه المعايب عارٌ.

فَلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهُوَ عَارٌ ... عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتَا
وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا ... وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا

تَقْلِبُ الموازين، تُؤثِّر على نفسيَّة هذا الإنسان، فيكون المرءُ عاليًّا مُرتفعًا فإذا ظهرت معايبه وظهرت مساوئه: يهوي، يسقط، ويتبدَّل مِنَ الفوق إلى تحت -نسأل الله العافية والسَّلامة-، وإنَّما هو ستر الرَّب جَلَّجَلَالُهُ على خلقه وعلى عباده، -نسأل الله أن يُسبل علينا السِّتر ظاهرًا وباطنًا وأن يعفو عن زلَّاتنا ويغفر ذنوبنا وحوبنا فهو القدير على ذلك-.

«كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي» وجاء في بعض النُّسخ -وأظُنُّها المطبوعة في الدِّيوان- ضبطوها: «تُنْعِلُكَ الدَّرَارِي» مِنَ النَّعل -أكرمكم الله-، يقول لك: الطَّاعات هذه تجعلك كالمَلِكِ على الدَّراري الَّتي هي جمعُ دُرَّة، وهي الكوكب الدُّريُّ -قَصَدَ به الكواكب- فيكون هذا حالك.

«كَمَا الطَّاعَاتُ» فكما أنَّ الذَّنب يحمل العبد إلى المهانة والذِّلة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[المجادلة: ٢٠] على قدر ما يكون عند الإنسان -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي ... وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا

هذه الطَّاعات تُقرِّب العبد مِنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولهذا جاء في صحيح مسلم: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ**

---

[١] مِنْ بَابِ مَزِيد فَائِدة: قَالَ شيْخنَا مُصطفَى مَبرَم حَفِظَه اللهُ -ثَناءً عَلَى كِتَابِ "العُزْلَة" للْخَطَّابِيِّ-: (يَا لِهَذَا الْكِتَابِ مَا أَحْسَنَهُ وَأَرْوَعَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرَ فِيهِ جُمْلَةً مِنَ الضِّعَافِ وَمَا أَشْبَهَهَا، إِلَّا أَنَّهُ كِتَابٌ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ طَالِبُ الْعِلْمِ وَخُصُوصًا فِي أَزْمِنَةِ الْفِتَنِ، فَإِنَّهُ سَلْوَةٌ لِكُلِّ حَزِينٍ وَأُنْسٌ لِكُلِّ مُسْتَوْحِشٍ، وَمَا زِلْتُ أُوصِي إِخْوَانِي وَمَنْ لَنَا وُصُولٌ إِلَيْهِمْ بِهَذَا الْكِتَابِ، وَالْعِنَايَةِ بِهِ، فَإِنَّهُ كِتَابٌ عَظِيمٌ) اهـ

سَاجِدٌ»[1] مقام الطَّاعة، فالعبد قريبٌ مِنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حالِ سُجوده.

وأثر الإيمان والعمل الصَّالح على العبد تُجاه مخالطيه ومُصاحبيه عظيمٌ جدًّا، كما جاء في الصَّحيحين في حديث أبي موسى الأشعري فيما مثَّل به النَّبيُّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ للجليس الصَّالح والجليس السُّوء بنافخ الكير وحامل المسك[2].

وكذلك قول ربِّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[مريم:٩٦] والوُدُّ: خالصُ المحبَّة، المحبَّة القويَّة، لأنَّ مَنْ عمل الصَّالحات جعل الله له في القُلوب مِنَ المحبَّة، وإذا كان العبد فيما يُحسن به إلى النَّاس يؤثِّر على قلوبهم فكيف إذا اجتمع فيه الإحسان في حقِّ الله والإحسان في حقِّ الخلق؟ ولهذا قال البُستي رَحِمَهُٱللَّهُ في «عُنوان الحِكَم»:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا مَلَكَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ[3]

وهنا ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ما حالهم؟ ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، يُوضِّح هذا ما جاء أيضًا في الصَّحيحين أنَّ النَّبي عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ**»[4] حتَّى يخرج هذا الأمر إلى وضعِ القبول له في الدُّنيا عند أهل الصَّلاح والخير، فقال: «**ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ**»[5]، «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ**»[6] وإنَّما المُعتبر به شهادة العدول.

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي ... وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا

«وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا» تنتشر وتظهر، وليس مقصودًا للعبد، لأنَّ هذا إذا كان مقصوده فـ«**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ**

---

[1] رواه مسلم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[2] قال ﷺ: (إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ) متَّفق عليه، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

[3] نونية البستي رحمه الله.

[4] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لمسلم (٢٦٣٧).

[5] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ لمسلم (٢٦٣٧).

[6] عن أَنَس بْن مَالِك ﷺ قال: (مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَجَبَتْ. ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: وَجَبَتْ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) متَّفق عليه، واللفظ للبخاري (١٣٦٧).

بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ»[1] و «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ»[2] -كما في صحيح مُسلم-، ولكن أبى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إلَّا أن يُظهِر محاسن عباده الَّتي أخلصوا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فيها، وأن يُبيِّن إمامتهم للنَّاس، ولهذا أظهر الله إمامة أئمَّة الدِّين والسُّنَّة مِنَ السَّلف الَّذين لزموا الصِّراط المستقيم وأسقط أهل البدع مع أنَّ ما ذُكر من حفظهم الشَّيء العظيم كـ «الكرابيسي»، ومِنْ عِبادتهم الشَّيء العظيم كـ «عمرو بن عُبيد»، وإذَا ذُكروا ذُكروا بالذَّم والبدعة، وحتَّى أنَّ أرباب مذاهبهم لا يجرؤون على ذكرهم والثَّناء عليهم إلَّا فيما بينهم.

يقُول رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَتَنْشُــرُ عَنْـكَ فِـي الدُّنْيَـا جَمِيـلاً   وَتَلْقَــى الْبِـرَّ فِيهَــا حَيْــثُ كُنْتَـا

«وَتَلْقى الْبِرَّ» أو «الْبَرَّ»:

_ «الْبِرَّ»: نوعُ الإحسان «الْـبِرُّ حُسْــنُ الْخُلُــقِ»[3] -كما جاء في صحيح مسلم-، فتلقى البِرَّ والإحسان مِنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إذا كان هكذا حالك.

_ أو «تَلْقَى الْــبَرَّ» الَّذي هو خَدينُكَ وصاحبُكَ، فيجعل الله لك ويُقيِّض مِنَ النَّاس مَنْ يكون على شاكلتك ويُعينك على الطَّاعة وعلى الإحسان «وَتَلْقَى الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ كُنْتَا».

وَتَمْشِــي فِــي مَنَاكِبِهَــا عَزِيــزًا   وَتَجْنِــي الْحَمْــدَ مِمَّــا قَــدْ غَرَسْتَـا

يقول أنتَ تمشي في مناكب هذه الأرض عزيزًا وإن كنتَ وحدك لأنَّ الله أعزَّك بالإسلام: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩]، (الْجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الْحَقَّ وَلَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ)[4].

«وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا» في هذه الأرض أينما كنتَ، أينما حللتَ، أينما نزلتَ.

وَتَمْشِــي فِــي مَنَاكِبِهَــا عَزِيــزًا   وَتَجْنِــي الْحَمْــدَ مِمَّــا قَــدْ غَرَسْتَـا

[1] رواه البخاري (٦٤٩٩) من حديث جندب بن عبدالله ﷺ، ورواه مسلم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ له.

[2] عَن عَامِرِ بْن سَعْد قَالَ: (كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ) رواه مسلم (٢٩٦٥).

[3] رواه مسلم (٢٥٥٣)، من حديث النَّوَّاس بن سمعان ﷺ.

[4] "إغاثة اللهفان" لابن القيم رحمه الله، ص:٤٢١؛ عن ابن مسعود ﷺ.

ما الَّذي غرسته؟ العمل الصَّالح، والبِرُّ، والإحسان، وطاعة الله، ونشر العلم، والدَّعوة، والولاء على التَّوحيد والسُّنَّة، والبراءة على الشِّرك والبدعة؛ يجعل الله لك هذه العزَّة كما جعلها لأصحاب الكهف، وكما جعلها لأقوام مِنَ الأُمَم قبلنا، وكما جعلها لأصحاب النَّبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعده.

❊ ❊ ❊

الْعِبْرَةُ بِمَنْ أَنْتَ عِنْدَ اللهِ لا عِنْدَ النَّاسِ

انظر أنَّ الأمر الظَّاهر الَّذي قد يُبتلى بسببه العبد ليس عليه الحكم، أضرب لك مثلين:

• إذا تأمَّلت في قصَّة يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رأيتَ أنَّ النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا سُئل عن الكريم قال: **«الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»**[1] عَلَيهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو كذلك، نبيٌّ من أنبياء الله ورُسله، أينَ ظاهر الأمر في القرآن؟ تجد أنَّ يُوسف أُخذ مِنْ أبيه فأُلْقيَ فِي الجبِّ، تجد أنَّ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أُخرج مِنَ الجبِّ وبيع بدراهم معدودة ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[يوسف:٢٠] وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم عَلَيهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبيع بدراهم معدودةٍ، وظلَّ في بيتِ العزيز بعض المفسِّرين يقول: (ثَلاثِينَ عَامًا)[2]، وبعضهم يقول: (أَرْبَعِينَ عَامًا)[3] على هذا الحال، مملوك، وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم.

أنتَ حالك هو ما عند الله سبحانه، وليس ما عند الخلق وتصوُّراتهم ونظراتهم وأفكارهم وموازينهم، لو نظرتَ إلى نفسك بموازين النَّاس سُقِط في يدك -وخصوصًا أهل الغربة والصَّلاح والدِّين-، ودخل السِّجن: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف:٣٦]، ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[يوسف:٣٢] وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، ويصبر ويقول بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠] عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

• وهكذا إذا نظرتَ إلى إمام أهل السُّنَّة والجماعة: الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، حُمِل إلى دولة الخلافة وأُرْغِم على القول بخلق القرآن، وعُرِض على السَّيفِ، وضُرب، وسُلْسل بالأغلال والحديد حتَّى لَم يستطع أن يحملها، وشدَّ

---

[1] رواه البخاري (٤٦٨٨)، من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

[2] قال العلامة السّعدي رحمه الله: (فَحَصَلَ التَّفْرِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً، لَا تَقْصُرُ عَنْ ثَلَاثِينَ سَنَةٍ، وَيَعْقُوبُ لَمْ يُفَارِقِ الْحُزْنُ قَلْبَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ) "تيسير الكريم الرحمن" ص:٣٨٩.

[3] "تفسير الطبري" رحمه الله؛ ج١٦، ص:٢٧٤.

عليه سراويله مَخافة أن ينكشف، وسُجِن، وتَرك التَّحديث -أو مُنع منه-، وهو إمام أهل السُّنَّة والجماعة، إذا ذُكرت السُّنَّة والجماعة ذُكر في مقدّمة أئمّتها.

«وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزًا» ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩]، نسأل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يجعلنا ممَّن إذا أُعطيَ شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر.

* * *

هَلِ الألبيري يُخَاطِبُ شَخْصًا مُعَيَّنًا؟

يقول النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَنْـتَ الآنَ لَـــمْ تُعْـرَفْ بِعَيْـبٍ ... وَلَا دَنَّسْـــتَ ثَوْبَــكَ مُــذْ نَشَأْتَــا

وَلَا سَابَقْــتَ فِـــي مَيْـــدَانِ زُورٍ ... وَلَا أَوْضَعْـــتَ فِيـــهِ وَلَا خَبَبْتَــا

فَــإِنْ لَـمْ تَنْـأَ عَنْـــهُ نَشِبْـتَ فِيــهِ ... وَمَـــنْ لَكَ بِالْخَــلَاصِ إِذَا نَشِبْتَــا

تُدَنِّــسُ مَـــا تَطَهَّـــرَ مِنْــكَ حَتَّــى ... كَأَنَّــكَ قَبْــلَ ذَلِكَ مَـــا طَهُرْتَــا

لا يزال الإمام الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يخاطبُ مَنْ ناصحه وكنَّاه بـ «أبي بكر»، أحيانًا يُوجِّه الخطاب لأبي بكرٍ وأحيانا يوجِّه الخطاب مِنْ أبي بكرٍ إلى نفسه -نفس النَّاظم- وإلى هنا انتهى هذا الموضع، يعني هذا النَّظم مقسوم إلى ثلاثة أقسام:

_ قِسْمٌ بدأه بخطاب «أبي بكرٍ»، وانتهينا منه.

_ والقسمُ الثَّاني شرع فيه فخاطب به نفسه على لسان أبي بكر.

_ ثمَّ رجع في القسم الثَّالث إلى مُخاطبة أبي بكر؛ فقال له:

وَأَنْـتَ الآنَ لَـــمْ تُعْـرَفْ بِعَيْـبٍ ... وَلَا دَنَّسْـــتَ ثَوْبَــكَ مُــذْ نَشَأْتَــا

وهذا البيت ممَّا يدلُّ على أنَّه لَم يُردْ شخصًا مُعينًّا بعينه، لا على أنَّه ابنُه ولا على أنَّه قرينه، لأنَّه أحيانًا يُخاطبه بما قد مضى مِنْ عمُره بسبب البُعد عن العلم والبعد عن مَجَالسه، والآن يُخاطبه على أنَّه نَشْءٌ لَم يُعرفْ بعَيبٍ ولا بِما يُذم.

❋ ❋ ❋

التَّنْبِيهُ عَلَى عِبَارَةِ:
«لَا أُبَالِي بِمَا يَظُنُّهُ النَّاسُ فِيَّ»

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ ... وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

«وَأَنْتَ الآنَ» يا أبا بكر «لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ» فلم تشتهر بين النَّاس بما يَعِيبك أو يُشينُك، وأعظم مِنْ هذا أنَّك لَم تُعرف بما يَقدَحُ في دينك.

«لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ... وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا» منذ النَّشأة، المراد بها هنا: البلوغ، مرحلة بلوغه، لأنَّها المرحلة الَّتي يجري على العبد فيها قلمُ التَّكليف -كما يُعبِّر الأصوليُّون-، فإذا بلغ صار مخاطبًا بأمور العُبودية، فهو يقول له عند النَّشأة هذه:«لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ» بما يُشين.

• **والإنسان لا يقول فيما يَقدح في دينه:** (أَنَا لَا أُبَالِي بِمَا يَعْتَقِدُهُ النَّاسُ فِيَّ) لأنَّ هذا غلط وخطأ في التَّفكير وخطأ في الشَّرع، النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمَّا جاءته صفيَّة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهو مُعتكف في مسجده وحدَّثته ليلاً ثمَّ أراد أن يقلبها إلى منزلها، خَرجَ وكانت تمشي خلفه فرآه رجلاَنِ مِنَ الصَّحابة، فلمَّا رآه أسرعَا المشي، فقال النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:«**عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ**»[1]، فقالَا: (سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ)[2]، فقال النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:«**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ**»[3] هذا وهو رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفع عنهم الْمَسَاءَةَ، وهكذا العُلماء لمَّا عقدوا -كما مرَّ معنا- لمَّا عقدوا ما يتعلَّق بخوارم المروءة مِنْ أجل أن لا يقدح في الإنسان بشيءٍ في دينه، ولأنَّ هذا أيضًا يستوجب أحيانًا ردَّ الحقوق، فتُردُّ شهادته بسبب ما ظهر منه مِنَ السُّوء، ولأنَّه إذا ظهر منه السُّوء خرج مِنَ المعافاة، لأنَّ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال -كما في الصَّحيحين-:«**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ،**

---

[1] متَّفق عليه، من حديث أم المؤمنين صفية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

[2] متَّفق عليه، من حديث أم المؤمنين صفية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

[3] متَّفق عليه، من حديث أم المؤمنين صفية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»[1] -نسأل الله العافية والسَّلامة-.

فهو يقول له: أنتَ لَمْ تُعرف الآن بِما يَعيبُك وما يشينُك ويُسقط شهادتك أو عدالتك.

❋ ❋ ❋

مَعنَى «الدَّنَسِ»

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ» الدَّنَس: معناه الوسخ في أصل لُغة العرب، ويُطلق على النَّجاسات -وما أشبه ذلك-، ويُطلق أيضًا على الذُّنوب، ومنه قول النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الصَّحيحين في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا كان يستفتح الصَّلاة يُكبِّر ويسكتُ هُنَيهة[2]، فقال له أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ:«أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ» يعني الوسخ، «اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ»[3]، وهذا الحديث عظيم تكلَّم عليه ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في جُملة من كتبه بكلامٍ عظيمٍ جدًّا.

❋ ❋ ❋

مَعَانِي «الثَّوبِ» فِي اللُّغَةِ

هنَا قَال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَنْـتَ الآنَ لَـــمْ تُعْــرَفْ بِعَيْــبٍ   وَلَا دَنَّســـتَ ثَوْبَــكَ مُـــذْ نَشَأْتَـــا

ما المراد بالثَّوب؟ الثِّياب أحيانًا -كما ذكر العرب وذكر غيرهم مِنَ العلماء- تُطلق على الإنسان نفسه: (ثِيَابُ بَنِي

---

[1] متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واللفظ للبخاري (٦٠٦٩).

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ؟...) متَّفق عليه، واللفظ لمسلم (٥٩٨).

[3] متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم (٥٩٨).

عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّة)[1] أراد أجسادهم -قول امرؤ القيس-، قالوا: ومنه قول النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[2]، وفي إطلاق قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥] مِنْ أهل العلم مَنْ قال: (الثِّيَابُ هِيَ الْمُرَادَةُ)[3] يعني الملبوسة، هي اللُّبس الَّذي يلبسه الإنسان، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالثِّيَابِ هَاهُنَا: الْقَلْبُ)[4] ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يعني: وقلبك فطهِّر، ومنهم مَنْ قال الَّذي قلتُ لكم سابقًا وهذا استدلُّوا بها في مسألة اشتراط الطَّهارة أو وجُوب الطَّهارة للصَّلاة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، ومِنْ أهل العلم مَنْ قال: (تُحْمَلُ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا)[5] فيصحُّ الاستدلال بها في هذا الموضع وفي هذا الموضع.

فهنا هو يقول له: أنتَ لَم تتدنَّس ثيابُك -قلنا: بالقلب أو البدن أو الثِّياب-.

❋ ❋ ❋

خُطُورَةُ مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ وَأَهَمِّيَّةُ اغْتِنَامِهَا

«وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا» لأنَّ الإنسان في أوَّل النَّشء وعند وُقوع قلم التَّكليف عليه تقعُ منه عُنفوانية الشَّباب وهو ما يُسمَّى بخطورة مرحلة المراهقة، مع ما يتجاذبه إليه الشَّيطان والهوى والنَّفس، فإذا نشأ المرء على سلامةٍ وطُهرٍ وعدم تنجُّسٍ وذنوبٍ فإنَّ هذا مِنْ أعظم نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، ولهذا جاء في الصَّحيحين في حديث أبي هُريرة في السَّبعة الَّذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لَا ظلَّ إلَّا ظلُّه، قال: «**وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**»[6] هذه الأشياء السَّبعة إذا نظرتَ في تأمُّلات أهل العلم عليها تجدُ أنَّهم قد فاتهم شيءٌ دقيقٌ فيها وهو: نُدْرَة أصحابها، ولذلك قال: «**إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ**»[7] -هذه قد يكون فيها نوعٌ من الكثرة-، لكن بعض هذه الصِّفات مُعارضةٌ للفطرة الَّتي فُطر عليها الإنسان:

---

[1] امرؤ القيس.

[2] مُتَّفق عليه، من حديث أسماء بنت أبي بكر ﵄.

[3] "تفسير الطبري"؛ ج٢٤، ص١٣.

[4] "إغاثة اللهفان" لابن القيم رحمه الله، ص٥٨.

[5] "تفسير الطبري"؛ ج٢٤، ص١٢.

[6] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﵁، واللفظ للبخاري (١٤٢٣).

[7] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﵁، واللفظ للبخاري (١٤٢٣).

_ مِنْ حبِّ التَّسلُّط في الإِمَامِ الْعَادِلِ.

_ مِنْ حُبِّ الظُّهور في «**رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ**»[1].

_ «**رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[2].

_ «**رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»[3].

هذا للنُّدْرة فيما يتعلَّق بما جُبل عليه الإنسان مِنْ أضداد هذه الأشياء، فالنَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ**»، ولهذا لمَّا قال الإمام أحمد والإمام ابن شَوْذَب رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: (**إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الشَّابِ إِذَا نَسَكَ أَنْ يُؤَاخِيَ صَاحِبَ سُنَّةٍ يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا**)[4] لنُدرة هذه الأشياء.

وأمَّا حديث: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**»[5] فإنَّه معلولٌ، ضعيفٌ، ضعَّفه أكثر أهل العلم.

وابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ له كلامٌ جميلٌ جدًّا في مراحل نشأة الإنسان وما يقع في كلِّ مرحلةٍ، في كتابٍ اسمه «تنبيه النَّائم الغمر على مواسم العمر»، وذكر فيه أشياء مِنْ هذا القبيل -مِنْ هذه الفوائد-.

ويدخل في هذا الَّذي نحن بصدده:

وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ ... وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عند الحاكم[6] وغيره: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ**»[7]، وأيضًا قول النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ...**» قال: «**وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟**»[8].

---

[1] متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري (١٤٢٣).

[2] متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[3] متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

[4] "تلبيس إبليس" لابن الجوزي رحمه الله، ص١٢، عن ابن شوذب رحمه الله.

[5] "ضعيف الجامع" للألباني رحمه الله (١٦٥٨).

[6] أخرجه في "المستدرك" (٧٨٤٦).

[7] قال ﷺ: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح التَّرغيب" (٣٣٥٥)؛ من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

[8] قال ﷺ: (لاَ تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاه؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاه؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟) حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٧٩٠٨)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

كلُّ هذا أراد الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُلفت النَّاصح إلى أنَّك ما دُمتَ في أوَّل ريعان الشَّباب فاحتفظ بهذه المرحلة وبهذه المكانة وباغتنامها وبالإحسان فيها لأنَّ الأسف على ما سلف مُحال، يعني ما ينفع الإنسان إلَّا مع التَّوبة والاستغفار والإنابة والرُّجوع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«وَأَنْتَ الآنَ لَـم تُعرَفْ بِعَيْبٍ... وَلَا دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ» بالمعاصي والسَّيئات والمُنكرات «مُذْ نَشَأْتَا».

❋ ❋ ❋

المعنى الجامع لتعريف «الزُّورِ»

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَا سَابَقْـــتَ فِـــي مَيْـــدَانِ زُورٍ ... وَلَا أَوْضَعْـــتَ فِيـــهِ وَلَا خَبَبْتَـــا

ما سابقتَ في ميدان زور، ما أدركتَ المرحلة الَّتي تكون مُسابِقًا فيها، «فِي مَيْدَانِ» الميدان: المكان الواسع.

«زُورٍ» الزُّور: كلُّ اعتقادٍ أو قولٍ أو عملٍ باطلٍ، هذا الشَّيء يجمع لك ما تفرَّق مِنْ تفاسير السَّلف في هذا الباب، لأنَّ مِنْ تفاسير السَّلف ما يقع فيه الاختلاف في التَّنوُّع -يعني تنوُّع الأَلفاظ- فتجد مَنْ يقول في تفسير قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾[الفرقان:٧٢]:

_ قال بعض السَّلف: (﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ يَعْنِي عِبَادَةَ الأَصْنَامِ)[١].

_ وقال بعضهم: (مَوَاطِنُ اللَّهْوِ)[٢].

_ وقال بعضهم: (الْكَذِبُ وَالْبَاطِلُ)[٣].

والمعنى الجامع لهذا كلِّه أنَّهُ كلُّ باطلٍ احتوى عليه القلب أو نطق به اللِّسان أو عملت به الجوارح، هذا كلُّه يُسمَّى زورًا، ومنه: عبادة الأصنام، عبادةُ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الاعتقادات الباطلة، الأقوال الباطلة، ومنه أيضًا: شهادة الزُّورِ الَّتي يشهدها الإنسان على غيره لإحقاق باطلٍ أو إبطال حقٍّ فإنَّ هذه شهادة زورٍ وهي من الكبائر كما قال

[١] "تفسير الطبري"؛ ج١٩، ص:٣١٣.
[٢] "تفسير البغوي"؛ ج٦، ص٩٨.
[٣] "تفسير الطبري"؛ ج١٩، ص٣١٤.

النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي بَكْرة نُفَيْع بن الحارث:«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ -ثَلَاثًا-، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ. قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ»[1] لماذا؟ إشفاقًا على النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ شدَّة الوجد الَّذي وجده وهو يتكلَّم، عندما رآه الصَّحابة عندما كان يُحذِّرهم من هذا المقام.

«وَلَا سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ... وَلَا أَوْضَعْتَ» وهو الإسراع، ومنه قوله تعالى:﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ خلالكم: يعني في داخلكم، يُسرعون في الباطل معكم -أراد المنافقون جَلَّ جَلَالُهُ-، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ الخَلَل: يعني الفراغات، يدخلون بينكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٧].

❊ ❊ ❊

هل يوجد ترادفٌ في اللُّغة؟

هنا قال:«وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا» يعني لا أسرعتَ فيه السُّرعة المفرطة، ولا سرتَ فيه أيضًا السَّير المقتصد، وإلَّا فإنَّ كثيرين مِنْ أهل اللُّغة وكثيرين مِنَ الشُّرَّاح يجعلون الإيضاع بمعنى الخَبَب، وبعضهم عندما يُفسِّر اللَّفظ يقول: (وَأَوْضَعَ بِمَعْنَى: خَبَبَ).

• وهذا نبَّهتكم في كثيرٍ من المرَّات على أنَّه يُضيِّق على طالب العلم أمرًا وسَّعه الله (أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ)[2] يقصدُ ماذا؟ لغة العرب، إذا قلنا بالتَّرادف اللَّفظي بين الألفاظ المُطلقة أسقطنا كثيرًا مِنَ المعاني الَّتي أرادها العرب، فعندما نُفسِّر اللَّفظ بلفظٍ فهذا الَّذي يُسمَّى (التَّرادف) وهو: (اتِّحَادُ الْمَعْنَى مَعَ اخْتِلَافِ اللَّفْظِ) فالعرب ما تُغاير بين لفظين إلَّا لزيادة في المعنى، ولهذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ قال بأنَّ القَول بعدم التَّرادفِ قول محقِّقي نُحاة البصرة، والكوفيِّين يقولون بأنَّ هناك ترادف، ثُمَّ ذكر أنَّه إذا وقع فهو شيءٌ نادرٌ[3].

❊ ❊ ❊

[1] متَّفق عليه، واللفظ للبخاري (٢٦٥٤).

[2] الشاعر حافظ إبراهيم.

[3] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَإِمَّا نَادِرٌ، وَإِمَّا مَعْدُومٌ) "مقدمة في أصول التَّفسير" ص٥.

شُكرُ اللهِ عَلَى النِّعَم

هنا النَّاظم يقُول:«وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا» والإيضاع فيه نوعٌ مِنَ الحرص، ولهذا استعمله الرَّب جَلَّوَعَلَا فيما يتعلَّق بالمنافقين لتَثْبِيطِ المؤمنين:﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾[التوبة:٤٧] -الدُّخول معكم-، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٧] هذا خَطر.

فهنا قَال:«وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَبْتَا» الفائدة في هذا أنَّه يقول لك: ينبغي لك أن تكون في مقاماتٍ مِنَ الحمد والشُّكر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأنَّ مَنْ عصمه الله جَلَّوَعَلَا مِنَ الوقوع في شيءٍ مِنَ الفتن والمعاصي يلتفتُ بقلبه إلى شُكر الله جَلَّوَعَلَا.

النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علَّمنا هذا فيما يتعلَّق بماذا؟

بمغفرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له، لمَّا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ)[١] كما في الصَّحيحين، وفي رواية: (حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ)[٢] وفي رواية: (حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ)[٣]، وهذا حصل حتَّى لبعض التَّابعين مثل: مَسْرُوق كما جاء عنه بسندٍ صحيح كانَ يقُوم اللَّيل حتَّى تتفطَّر قدماه وكانت امراته تبكي عند قدميه اشفاقًا عليه[٤] -رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ-، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: (يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟)[٥] فيقول:«**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[٦].

فالألبيري يقول لك الآن: تذكَّر هذه النِّعمة عليك مِنْ أجل أن يحفظها، ابن المبارك يقول:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

[١] متفق عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها، واللَّفظ لمسلم (٢٨٢٠).

[٢] متفق عليه، من حديث المغيرة بن شُعبة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري (٤٨٣٦).

[٣] متفق عليه، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم (٢٨١٩).

[٤] روَى أَنَسُ بْنُ سِيرِينَ، عَنِ امْرَأَةِ مَسْرُوقٍ قَالَتْ: (كَانَ مَسْرُوقٌ يُصَلِّي حَتَّى تَوَرَّمَ قَدَمَاهُ، فَرُبَّمَا جَلَسْتُ أَبْكِي مِمَّا أَرَاهُ يَصْنَعُ بِنَفْسِهِ) "سِير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج٤، ص٦٥.

[٥] متفق عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم (٢٨٢٠).

[٦] متَّفق عليه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وَتَــرْكُ الذُّنُــوبِ حَيَــاةُ القُلُــوبِ وَخَـيْــرٌ لِــنَفْسِــكَ عِصْيَـانُهَــا[1]

فهو يقول لكَ:

وَأَنْـتَ الآنَ لَــمْ تُعْــرَفْ بِعَيْــبٍ وَلَا دَنَّسْــتَ ثَوْبَــكَ مُــذْ نَشَأْتَــا

وَلَا سَابَقْــتَ فِــي مَيْــدَانِ زُورٍ وَلَا أَوْضَعْــتَ فِيــهِ وَلَا خَبَبْتَــا

إذًا ما الواجب عليك؟ شُكر نعمة الله عليكَ، معرفة هذه المنزلة الَّتي أنزلك الله إيَّاها بأن عصمك مِنْ مواطن الذُّنوب والمعاصي والشُّبهات والشَّهوات.

* * *

خُطُورَةُ إِدْمَانِ المَعَاصِي

ثُمَّ قَال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَـإِنْ لَــمْ تَنْـأَ عَـنْــهُ نَشِبْـتَ فِيــهِ وَمَــنْ لَكَ بِالْخَـلَاصِ إِذَا نَشِبْتَــا

هذه إشارة مِنَ الألبيري عجيبةٌ جدًّا، هؤلاء عندهم النَّظر والتَّأمُّلات في النُّصوص وفي مسالك العلماء وفي مسالك مَنْ كان قبلهم، يقول لك: الآن إذا ذُقتَ حلاوة الذَّنب المتوهَّمة في الدُّنيا «نَشِبْتَ» كأنَّك خُطِف بكَ في كلاليب، أو وَقعتَ في شَوْك السَّعدان، مَنْ يخلِّصك؟ هذا ما يُسمَّى بالإدمان عند المعاصرين.

فهو يقول لكَ: «فَإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ» إذَا لَم تَبعُد عن تدنيس ثوبكَ وعن فعلك ما تُعاب عليه «نَشِبْتَ» فإذا نشبتَ: «وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ؟» كيف تتخلَّص مِنْ هذه النَّشبة إذا نَشبتَ فيها ووقعتَ فيها الْتذَّت به نفسك؟ لأنَّ المعصية هي لذَّة وإن كانت تعقبها الحسرات -نسأل الله العافية-، ولهذا ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عالج هذه المسائل مُعالجة دقيقةً جدًّا وأطال -عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ وَكَتَبَ اللهُ أَجْرَهُ- في كتابه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشَّافي» أو يُعرف باسم «الدَّاء والدَّواء».

[1] "الداء والدواء" لابن القيم رحمه الله، ص١٤٧، عن ابن المبارك رحمه الله.

فهو يقُول: إذا لَم تنأَ عمَّا يَعيبُ وعمَّا يُدنِّسُ «نَشِبْتَ» فإذا نشبت:«مَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ؟» إلَّا أن يُوفِّقك الله جَلَّجَلَالُهُ، وهذا الأمر خطيرٌ جدًّا لأنَّ الاعتياد على فعل المعصية -كما يقولون- يصيرُ إدمانًا، ولهذا النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ»[1].

طبعًا هذه المنظومة -منظومة الألبيري- أنتم لاحظتم كثرة الدَّقائق والمعاني فيها، الأبيات بعضها دقيقةٌ جدًّا ما تستطيع أن تمشي وأن تختم المجلس أو الدَّرس في أُسبوعٍ أو أسبوعين.

فهنا الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:«وَمَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ إِذَا نَشِبْتَا» النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال:«شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ»[2] هذا التَّشبيه ذكرنا مِنْ قبل قاعدة في أنَّ البلاغيين يقولون بأنَّه لا يُشترط أن يتكافأ المُشبَّه والمشبَّه به مِنْ كلِّ وجهٍ، النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هنا لمَّا قال:«مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ» بماذا أراد أن يُشبِّهه؟ بالشِّرك وأنَّه كافرٌ؟ لا؛ بلا شكٍّ، لا يقول هذا أهل السُّنَّة ولا يَدِينون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به، وإنَّما أراد أنَّه كعابد وثن في باب الملازمة ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢] والعكوف: معناه اللُّزوم -لُزوم المكان للعبادة-، فأراد النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا كما قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ وهذا ممَّا سمعتُ شيخنا العلاَّمة ابن غديان عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللهِ يُقرِّره يقول: (إِنَّمَا أَرَادَ تَشْبِيهَ مُدْمِنِ الْخَمْرِ بِمُلاَزِمِ الصَّنَمِ) فالجامع بينهما: الملازمة.

❋ ❋ ❋

سُؤَالُ اللهِ الْعَافِيَةَ

لهذا كما قلتُ لكم الألبيري يقول لك: مَنْ رزقه الله العافية لا ينظر إلى غيرها، ويُحافظ على هذه العافية، ولذلك النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علَّمنا الدُّعاء بالعافية في مواطن كثيرة في أذكار الصَّباح والمساء، وكان يقول للعبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ»[3]، و«سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ»[4] -أو كما قال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

---

[1] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٥٨٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٣٧٠١)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

[3] قال ﷺ:(يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٧٩٣٨).

[4] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الجامع" (٣٦٣٣)، من حديث أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه.

فهو يقُول لكَ:«فَإِنْ لَمْ تَنأَ» النَّأيُ: معناه البُعد (نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوَى)[1] ومعناه البُعد، نأى الدَّار: بَعُد الدَّار، فإن لَم تنأَ عن هذا الموضع وهو ما يُعاب ويُدنَّس به «نَشِبْتَ فِيهِ... وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا؟» وبعد أن تَنشب يَرجعُ لك إلى الثِّياب الَّتي كانت نظيفة؛ فيقُول:

تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى   كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهُرْتَا

بدأ الوقوع في هذه الأمور -نسأل الله العافية والسَّلامة-، فيقول:«تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى» رزقك الله الطُّهر، والعفاف، والعافية، لأنَّ العافية تُستعمل مُقابل الذَّنب أو المجاهرة به، ما الدَّليل؟ الحديث الَّذي قدَّمناه سابقًا:«**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**»[2] وابن القيِّم يقول: (الْمُعَافَاةُ السَّلاَمَةُ مِنَ الذَّنْبِ، وَالذَّنْبُ عَدَمُ المُعَافَاةِ)[3] ولكن على حسبه.

❋ ❋ ❋

التَّنبيهُ علَى عِبارَةِ: «لاأَستَطِيعُ تَركَ بَعْضِ الذُّنُوب»

قال النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى   كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهُرْتَا

قد يقول قائل -ككثيرٍ مِنَ النَّاس اليوم- وجاء اتِّصال مِنْ بعض النَّاس يقول: (أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ لَكِنَّنِي مَا أَقْدِرُ) هذا التَّعبير خطأ، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ما أمر بالتَّوبة إلَّا مع قُدرة العباد عليها، ولا أمر بالإقلاع عن الذَّنب إلَّا مع قدرة العبد عليه، لأنَّ أهل السُّنَّة يقولون بأنَّه: (لَا تَكْلِيفَ بِمَا لَا يُطَاقُ) التَّكليف بما لَا يُطاق مذهب المعتزلة، فالعبد قادرٌ، والجواب عن هذا أنْ يُقال: مَنْ حققَّ شرُوط التَّوبة استطاع أن يترك هذه المعاصي وهذه السَّيِّئات.

---

[1] النابغة الذبياني.

[2] متَّفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري (٦٠٦٩).

[3] بلفظ: (وَقَوْلُهُ: "وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ" إِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ الْعَافِيَةَ الْمُطْلَقَةَ، وَهِيَ الْعَافِيَةُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالْغَفْلَةِ وَالْإِعْرَاضِ وَفِعْلِ مَا لَا يُحِبُّهُ وَتَرَكِ مَا يُحِبُّهُ، فَهَذَا حَقِيقَةُ الْعَافِيَةِ، وَلِهَذَا مَا سُئِلَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَافِيَةِ، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ وَأَسْبَابِهِ) "شفاء العليل" لابن القيم رحمه الله؛ ج١، ص٣٦٤.

ـ النَّدم.

ـ الإقلاع.

ـ عدم العودة إليها.

ـ ردّ المظالم إلى أهلها -إن كانت مُتعلِّقة بحقوق الخلق والعباد-.

إلى آخره، على أنَّ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ذكر في بعض كُتبه عشرين طريقةً لترك العوائد، وهو كلام مُهمٌّ -إن شاء الله نذكره في موضع آخر أو ينزل في مقال-، مُهمٌّ جدًّا لأنَّ العوائد بلا شكٍّ تركها صعبٌ جدًّا ولكن قد يقع في قلب العبد مِنَ المؤثِّرات الَّتي تحمله على تركِ هذا الذَّنب، النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمَّا ذكر قصَّة البغيِّ مِنْ بغايَا بني إسرائيل -والتَّوبة شروطها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ هي واحدة، في كلِّ ديانات الأنبياء واحدة، أنَّه النَّدم، والإقلاع عن الذَّنب، والعزم على عدم العودة إليه، وردِّ المظالم إن كان مُتعلِّقًا بحقوق العباد-، هل تظنُّون مِنْ هذا الحديث -حديث البغيِّ-[1] أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غفر لها مع استمرارها على الذَّنب؟ لا؛ هذا لا يُمكن لأنَّه مُخالفٌ لما جاء في الشَّرائع، إذًا قام في قلبها مِنَ الرَّحمة والاحتراق على هذا الكلب في غَيْبة أنظار العالَم كلِّه فهي تعلم أنَّه لا يراها أحدٌ، حتَّى هذا الكلب ما يعقل ماذا تفعل، فتَنْزِع مُوقَها وتنزل إلى البئر وتستقي له ثمَّ تسقيه مِنْ شدَّة اللَّهث الَّذي هو فيه فغفر الله لها، يعني أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل لها مِنَ الأسباب ما أعانها على ترك هذا الذَّنب وعدم الالتفات إليه.

وكما جاء في حديث الرَّجل الَّذي تصدَّق على بغيٍّ وتصدَّق على سارقٍ وتصدَّق على غنيٍّ، وذكر النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: البغيِّ لعلَّها أن تتعفَّف، والغنيِّ لعلَّه أن يتصدَّق، والسَّارق لعلَّه أن يتعفَّف عن السَّرقة[2].

«فَإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ» لَم تبعُدْ عن هذا الذَّنب «نَشِبْتَ فِيهِ» -نسأل الله السَّلامة والعافية-، «وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا؟».

تُدَنِّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى ... كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهُرْتَا

[1] قال ﷺ:(بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم (٢٢٤٥).

[2] قال ﷺ:(قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ للبخاري (١٤٢١).

❋ ❋ ❋

الْفَرْقُ بَيْنَ نَظْرَةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ لِلذُّنُوبِ «٢»

لاحِظ إلى الرَّبط الَّذي يربطه الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يقول:

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ　　　وَكَيْفَ لَكَ الْفِكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَا

يقول: «نَشِبْتَ»، وهنا عبَّر بـ: «الوثاق» وعبَّر بـ: «الأَسْر» لأنَّ هذه الذُّنوب إذا أحاطت بصاحبها -وخصوصًا مع التَّحقير-، فرقٌ بين مَنْ يعمل الذَّنب وهو يرى جبال الدُّنيا تسقط عليه مخافة الله عَزَّوَجَلَّ واعترافًا منه بتقصيره في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما مرَّ معنا في أثر أنس وأثر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا)[1] وأنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ)[2] وهذا الفرق بيننا وبينهم، إذا جمعتَ بين أثرِ أَنس وأثر ابن مسعود فهو يقول: الذُّنوب نفسها لكن نظرتُنا لها أنَّنا كنَّا نعُدُّها مِنَ الموبقات، ونظرتكم لها أنَّكم مثلما وقع الذُّباب على أنف أحدكم فقال به: هِشْ.

فالَّذي يتأمَّل في مثل هذه المواقف للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ينظر إلى الفرق بيننا وبينهم، ليسوا معصومين كما نصَّ على هذا أئمَّة السَّلف في كتب الاعتقاد، كذلك إذا نظرتَ حتَّى فيما يتعلَّق بالعلاقات والإشكالات، تقع في الأشياء الَّتي تقع بين البشر في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكن:

_ الجامع بيننا وبينهم: أنَّ الحلول موجودة.

_ والفارق بيننا وبينهم: أنَّ النُّفوس غير النُّفوس.

❋ ❋ ❋

[1] رواه البخاري (٦٣٠٨).

[2] رواه البخاري (٦٤٩٢).

أدبٌ مستنبطٌ من قصة الخصومة بين أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

سأضرب لكم قصَّة مِنْ أعجب ما يكون حصلتْ بين الخيِّرَين -خير الأُمَّة-: «أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»، والحديث في صحيح البخاري في حديث أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -يحكيها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: (إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ)[1] هل ذَكَره؟ لَم يذكرهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

• **انظر إلى الفرق بيننا وبينهم**، اليوم تأتي إلى عند الشَّخص تُريد أن تحكِّمهُ، بعض الأحيان يأتيني شخصٌ يقول لِي: (اخْتَلَفْتُ أَنَا وَهَذَا) أقول لهم: (اطْوُوا صَفْحَةَ الْمَاضِي، اقْصدُوا الصُّلْحَ، لَا تَذْكُرْ مَا قَالَهُ فِيكَ) لأنَّه سيزيد، إذا ذكر كلُّ واحدٍ مِنَ المتخاصمين ما عندهُ على الآخر كذَّبَهُ الآخر ولو بالكِبر، وخصوصًا إذا أدخلا بينهما حَكمًا؛ فانظر إلى أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ).

ثُمَّ قال -أبو الدَّرداء-: (فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ)[2] فحاول معه أبو بكرٍ فلم يرضَ، فذهبَ إلى النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلمَّا رآه رسول الله صاحبه في الغار، لَمَّا رآه وهو قادم وقد رفع ثوبه حتَّى كشف عن ركبتيه[3]، قال: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ**»[4] يعني دخل في غمرة الخصومة، فأتى إلى النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: (إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ)[5]، وجاء عُمر نادمًا[6] يبحث عمَّن؟ عن أبي بكرٍ، وعلم أنَّه لن يأتي إلَّا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء عمر وَهُمْ على هذه الحال، فلمَّا رآه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قام فخطب خُطبةً فِي أبي بكرٍ، وذكر أنَّه قال: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ؛ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**»[7]، قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ

---

[1] رواه البخاري (٣٦٦١).

[2] رواه البخاري (٤٦٤٠).

[3] قال أبو الدَّرداء رضي الله عنه: (أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ) رواه البخاري (٣٦٦١).

[4] رواه البخاري (٣٦٦١).

[5] رواه البخاري (٣٦٦١).

[6] قال أبو الدَّرداء رضي الله عنه: (وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم) رواه البخاري (٤٦٤٠).

[7] رواه البخاري (٣٦٦١).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ)[1] قصَّةٌ تحتاج منك إلى تأمُّل.

فالحلول هي نفسها، موجودة؛ الكتاب والسُّنَّة وما كان عليه السَّلف أنزلهُ الله لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، لكنَّ الفرق في قلوبنا، الفرق في نفوسنا، الفرق في تقبُّلنا لهذه الحلول وتجاوزنا عن أنفسنا وعن بعضنا.

❋ ❋ ❋

التَّحْذِيرُ مِنْ رُفَقَاءِ السُّوءِ

قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ ... كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى

وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِذَارًا ... وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا

لا يزال كلام النَّاظم -رَحِمَنَا اللهُ وَإِيَّاهُ- فيما يتعلَّق بالوصايا الَّتي أوصى بها مَنْ كنَّاه بـ «أبي بكرٍ»، ومَنْ يبلُغه هذه الوصايَا، لأنَّه حتَّى ولو سلَّمنا بأنَّ المعنِيَّ بها شخصٌ واحدٌ فإنَّها ليست مُختصَّة به وإنَّما هي وصايا لكلِّ مَنْ ينتفع بها وتبلغه؛ فهو هنا يوصيه بهذه الوصايا العظيمة.

وهذه الأبيات -وما يُستقبل أيضًا- هي مِنْ أجلِّ أبيات هذه المنظومة، وأنتم قد رأيتم ما بثَّ فيها الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ نفائسِ الدُّرر والغُرر الَّتي استقاها مِنْ كتاب الله ومِنْ سُنَّة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآثار سلف الأُمَّة.

وهنا يقول: «فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ» خف منهم، ما هذا الخوف؟ المراد به الخوف الطَّبيعي: أن يتسبَّبوا لك في الأذى؛ وإنَّما تأتي مثل هذه الوصايا في الكتاب والسُّنَّة وكلام أهل العلم ويُراد بالخوف مِنَ الأذى في الدِّين، لأنَّه لا يُخاف على المؤمن ما بقيَ على دينه وثابتًا على إيمانه مِنَ الأذى في أُمور الدُّنيا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:١-٣]، وكما قال أيضًا ربُّنا سبحانه: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[البقرة:١٩١] فتنة الدِّين -كما مرَّ أيضًا- أشدُّ مِنْ أن يُقتل المرء «**لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعْتَ وَحُرِّقْتَ**»[2] -كما في حديث أبي الدَّرداء عند ابن ماجه وغيره-.

---

[1] رواه البخاري (٤٦٤٠).

[2] حسَّنه الألباني رحمه الله في "صحيح ابن ماجه" (٤٠٣٤)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

فالمراد: خَفْ أبناءَ جِنْسِكَ مِنْ أن يكونوا سببًا في فتنك، وسببًا في ذهاب دينك وإيمانك.

وهنا قوله:«أَبْنَاءَ جِنْسِكَ» المخالِطين لكَ؛ فاسم الجنسِ يُطلق على الجماعة مِنَ النَّاس أو الجماعة الَّذين يجمعهم وصفٌ، وأراد بهم الإنس، والجنّ أيضًا داخلون في هذا، إلَّا أنَّ فتنة الإنس بالنِّسبة للإنسيِّ أعظم، وذلك أنَّ فتنة الجنِّ والشَّياطين تندفع بالاستعاذة وذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقراءة القرآن وسورة البقرة، أمَّا شيطان الإنس -لأنَّ الله جعل شياطين مِنَ الإنس وشياطين مِنَ الجنِّ-: فإنَّك لو قرأتَ عليه القرآن والسُّنَّة ما انصرفَ عنك، وقد مرض قلبه فيُمرِض قلبك معه.

فيقول هنا:«فَخَفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ» خف مِنْ بني آدم مَنْ يكون سببًا لِفتنتك، وزاد هذا إلى ما هو أدقُّ مِنَ الخوف وهو الخشية فقال:«وَاخْشَ مِنْهُمْ» وهذا فيه تدقيقٌ مِنَ الألبيري رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ في معاملة النَّاس والحذر منهم وأنَّ المرء ينبغي له ...

* كلمة «ينبغي» هذه عندما تُستعمل هيَ أشدُّ مِنْ «يَجب»[١]، كما نصَّ عليه الإمام أحمد وغيره.

فينبغي له أن يكون في حصانةٍ وحِفظٍ لدينه مِنْ جُلساء وخُلاَّط السُّوء أكثر مِنْ أيِّ شيءٍ؛ حتَّى قال:«وَاخْشَ مِنْهُمْ» مثل ماذا؟ قال:«كَمَا تَخْشَى» هنا قلنا بأنَّ ما أراده الألبيري رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ مِنْ أنَّ الخوف في أُمور الدِّين، فهو يقول بأنَّكَ تخافُ وتخشَى على دينك كما تخشى على جسدكَ وحياتك -وأشدّ- مِنَ الضَّراغم.

«الضَّرَاغِمَ» جمعُ ضِرْغام، الأسد الفاتك، فهو أسدٌ ومع هذا فيه فَتْكٌ.

«وَالسَّبَنْتَى» المراد به الفهد أو النَّمر.

فكما أنَّك تخشى الأسد وتَخشى النَّمر على دُنياك وعلى جسدك وعلى لَحمك ودمك مِنْ أن يُقطَّع فإنَّك تخشى وتخاف أيضًا مِنْ جليس السُّوء على دينك مِنْ أن يكون سببًا في فساده وذهابه، ولهذا جاء عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند ابن أبي شيبة أنَّه قال: (خَالِطُوا النَّاسَ) -نفسُ البيت الَّذي قاله الألبيري رَحِمَهُٱللَّهُ-، (خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ

[١] مِنْ بَاب مَزِيد فَائِدَة: قَال شَيْخُنَا مُصطَفَى مَبْرم -حَفِظَهُ الله-: (مَا مَعْنَى "لَا يَنْبَغِي"؟ بَعْضُ الْمُصْطَلَحَاتِ صَارَتْ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مُغَيَّرَةً عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنَدَ الْمُتَقَدِّمِين..؛ لَفْظُ "لَا يَنْبَغِي": كَثِيرٌ مِنَ المتَأخِّرينَ يَسْتَعْمِلُ مِثْلَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِيمَا لَا يَحْتَمِلُ التَّحْرِيمَ، يَحْتَمِلُ الْكَرَاهَةَ، مَعَ أَنَّ لَفْظَةَ "لَا يَنْبَغِي" مِنْ أَشَدِّ الأَلْفَاظِ الدَّالَةِ عَلَى التَّحْرِيمِ، وَلِهَذَا اسْتُخْدِمَتْ حَتَّى فِي الشِّرْك:﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، أَقْصِدُ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَنِي بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ المصْطَلَحَاتِ، فَإِذَا قَرَأَ لِلشَّافِعِي مَثَلًا أَوْ لِأَحْمَدَ أَوْ لمالِكٍ: (وَلَا يَنْبَغِي فِعْلُ كَذَا) يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ فِي الْقَرَائِنِ الْمُحِيطَةِ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: الأَدِلَّة، عَدَمُ وُجُودِ الخِلَافِ، هَلْ قَالَ أَحَدٌ غَيْرُهُ بِهَذِهِ اللَّفْظَةِ، حَتَّى يَخْرُجَ لَهُ مُحَصَّلٌ مِنْ كَلَامِ هَذَا الإِمَامِ) اهـ، من شرحه لكتاب التوحيد باختصار يسير.

وَصَافِحُوهُمْ وَدِينكُمْ لَا تَكْلِمُونَهُ)[1] -هذا عند ابن أبي شيبة-، (خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ) -سنرجع إلى مسألة المُزايلة-، (وَصَافِحُوهُمْ) وفي نفس الوقت: (وَدِينكُمْ لَا تَكْلِمُونَهُ) الكَلْم معناه: الجرح، فلا بدَّ في مُعاملة النَّاس مِنْ أن يكون ثمَّة حيطة بحيث إنَّ الإنسان لا يُخالطهم حتَّى يجرح دينه.

والألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى هنا قال:«كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى».

❋ ❋ ❋

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ العُزْلَةِ وَالخُلْطَةِ

ثُمَّ قَال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِذَارًا ... وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا

«وَخَالِطْهُمْ» خالط النَّاس، لأنَّه لا بُدَّ مِنْ مخالطة النَّاس في جُمَعِهم وجماعاتهم وأعيادهم، ولا بُدَّ مِنْ مُناكحتهم وفي المناكحة تقع الصَّهارة -وما أشبه ذلك-، لا بدَّ للإنسان مِنْ هذا، ولهذا جاء في حديث ابن عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -عند التِّرمذي[2] وغيره-:«**المُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[3].

وهذا البيت مِنْ أحسن الأبيات الَّتي تجمع لك مسألة التَّرجيح في الخلاف بين أهل العلم في أيِّهما أفضل: هل هي العُزلة أم الخُلطة؟ لأنَّ المسألة فيها خلاف بين أهل العلم:

- منهم مَنْ يقولُ: (الْعُزْلَةُ أَفْضَلُ) ويُطلق القول، وهذا القول ليس بصحيح.
- ومنهم مَنْ يقولُ: (الْخُلْطَةُ أَفْضَلُ) ويُطلق القول، وهذا القول ليس بصحيح.

والَّذي عليه المحقِّقون أنَّ العزلة والخُلطة تختلف باختلاف الإنسان والزَّمان والمكان، فهذه الثَّلاثة الأشياء عليها مدار العزلة والخلطة.

---

[1] "مصنَّف ابن أبي شيبة" (٢٦٢٢١).

[2] في "سنن الترمذي" (٢٥٠٧) بلفظ:(المسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ المسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ).

[3] صحَّحه الألباني رحمه الله في "صحيح الأدب المفرد" (٣٨٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

_ مِنْ جهة المكان: تعرفون ما جاء في الصَّحيحين في حديثِ أبي سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصَّة الرَّجل الَّذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا لـمَّا قال له: (انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ)[1].

_ ومِنْ جهة الزَّمان: قد مرَّ معنا أيضًا الكلام عليه فيما ذكره الألبيري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في مواضع متقدِّمة، مِنْ جهة أنَّ الإنسان قد يُلقي بالمعايب على الزَّمان والعيب فيه، كما قال الشَّافعيُّ:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

وَنَهْجُو ذَا الزَّمَانَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا

انظرْ لو تكلَّم الزَّمان لكنَّا نحن، لأنَّنا نحن الَّذين نتصرَّف فيه ونعايشه ليلاً ونهارًا.

_ فالشَّاهد أيضًا الإنسان فيما يُخالط غيره.

لهذا جاءت الأحاديث في العُزلة، وجاءت الأحاديث في الخلطة.

• فنحمل أحاديث العُزلة حيث فسد الزَّمان أو الإنسان أو المكان.

• ونحمل أحاديث الخُلطة مع وجود هذه الأشياء لو وُجدت واحتاج الأمر إلى أن يُخالط المرء النَّاس أو كان الصَّلاح موجودًا في الزَّمان والمكان والإنسان.

فإذا وُجد الفساد خالطنا وحاذَرنا، وقد يأتي زمان ليس فيه إلَّا الفساد فيعمد الإنسان إلى شَعَف الجبال كما جاء في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] وغيره، والأحاديث في هذا كثيرة.

حتَّى أنَّ العلاَّمة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ سُئل على مسألة العُزلة والخُلطة في هذه البلاد -في المملكة-، فقال: (الاخْتِلاَطُ أَفْضَلُ) لأنَّ البلَد فيها خير وفيهَا صلاَح، فقال: (الْخُلْطَةُ بِهِمْ أَفْضَلُ).

✷ ومِنْ سَفَه العُقول أنْ يُظنَّ أنَّ العلم هو كثرة الكلام -مثل ما نفعله الآن- نحن كثيروا الكلام، لكن لا نُريد بهذا أنَّ هذا هو العلم، ولكنَّ الزَّمان يَختلف باختلاف المتلقِّي، فبعض النَّاس لا بُدَّ أن تشرح له ليس كلَّ كلمةٍ بل كلَّ حرفٍ، وبعضهم يُمكن أن تُعطيه الكلمة الواحدة فيفهمها.

---

[1] متَّفق عليه، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، واللفظ لمسلم (٢٧٦٦).

[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ) رواه البخاري (٣٣٠٠).

أبواب البُخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي العلم، ولهذا نظمَ البُلْقِينِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبواب البُخاري وما فيها مِنَ الدِّقَّة والفقه بأبياتٍ مِنْ أَجَلِّ ما تكون، وأنا أقول هذا الكلام للمناسبة عندما رأينا الطَّعن في «كتاب التَّوحيد» مِنْ دكتور متخصِّصٍ في العقيدة ويزعم أنَّه يُجِلّ الشَّيخ الفُلاني والعالِمِ الفلاني ممَّن نُجلُّهم ونحترمهم، «الرّضواني» وكلامه معروفٌ، مِنْ أين أُوتي؟ مِنْ كثرة الكلام، وإلَّا فإنَّ «كتاب التَّوحيد» -كما قال بعضهم- قِطعةٌ مِنْ صحيح الإمام البُخاري لَا فرق فيه، والَّذي يقول بأنَّه: (لَيْسَ فِيهِ تَأْصِيلٌ) فيه إسقاطٌ لجميع كُتب الحديث، لأنَّها سائرة على هذا المعنى، لكن الَّذي لا يفهم يُريد الكلام الكثير حتَّى يَفْهَم.

البُخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في صحيحه: (بَابٌ: الْعُزْلَةُ خَيْرٌ مِنْ خُلاَّطِ السُّوءِ)[1] هكذا وقع في النُّسخة الَّتي شرح عليها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكر أنَّه وقع في رواية الإسماعيلي: (مِنْ خُلَطَاءِ السُّوءِ)[2]، والَّذي رأيته أيضًا في مُصنَّف ابن أبي شيبة: (مِنْ خُلَطَاءِ السُّوءِ)[3]؛ وهذا الأثر أيضًا جاء عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما ذكر الحافظ في «الفتح»-، جاء عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مُعلَّقًا إلَّا أنَّه أعلَّه بالانقطاع -رجاله ثقات وأعلَّه بالانقِطاع- جاء عند ابن أبي شيبة وغيره، والَّذي عند ابن أبي شيبة: (مِنْ خُلَطَاءِ) لأنَّ بعض الشُّرَّاح أنكر هذا الجمع: (خُلاَّطِ السُّوءِ) كابن حجر والكرماني وغيرهم.

فالبخاري بوَّب بهذا الباب، وهذا الباب هو عبارة عن أثر عن عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومرَّ معكم قوله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ وَصَافِحُوهُمْ وَدِينَكُمْ لَا تَكْلِمُونَهُ)[4] يعني: لا تتسبَّبوا في كَلمِ هذا الدِّين؛ وهنا البخاري قال: (بَابٌ: الْعُزْلَةُ خَيْرٌ مِنْ خُلاَّطِ السُّوءِ) وهذا جاء عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وإن كان فيه انقطاع لكن مثل هذه الأشياء يُتسمَّح فيها-، ولذلك قال الخطَّابي في كتاب «العزلة» بأنَّه: (لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعُزْلَةِ إِلَّا السَّلاَمَةُ مِنَ الْغِيبَةِ وَمِنْ رُؤْيَةِ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَا يُقْدَرُ عَلَى إِزَالَتِهِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ خَيْرًا كَثِيرًا)[5]، بل حسَّن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي ذرٍّ مرفوعًا بلفظ: (الْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسَ السُّوءِ)، قال: (وَسَنَدُهُ حَسَنٌ، لَكِنَّ الْمَحْفُوظَ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ)[6]، وإن كان حتَّى هذا الموقوف إسنادُ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أحسن مِنْ إسناده، ومع هذا حسَّن الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى هذا الحديث.

ومثل هذا كثير في كلام أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى مِنْ جهة الكلام على الخلطة وعلى العزلة والتَّرجيح بينها.

[1] "صحيح البخاري"، كتاب الرقاق.

[2] قال ابن حجر رحمه الله: (وَقَعَ عِنْدَ الإِسْمَاعِيلِي:"خُلَطَاء"، بَدَلَ:"خُلَّاط") "فتح الباري"؛ ج١٤، ص:٦٥٦.

[3] "مصنف ابن أبي شيبة" (٣٤٤٧٧).

[4] "مصنَّف ابن أبي شيبة" (٢٦٢٢١).

[5] نقله عنه الحافظ ابن حجر في "الفتح"؛ ج١٤، ص:٦٥٦.

[6] "فتح الباري"؛ ج١١، ص:٣٣٩.

وهذا الباب مِنْ أدقِّ الأبواب الَّتي يحتاجها طالب العلم خصوصًا في هذه الأزمان الَّتي كثُرت فيها الفِتن حتَّى لا يأمن المرء فيها مِنْ ثوبه أن يكون سببًا في سوءِ سُمعته وأن يَنظر النَّاس إلى لُبسه بأنَّه مُخلٌّ للمروءة، فكيف يأمنُ فيها الإنسان على جليسه؟

ذكرتُ لكم في بعض المجالس أنَّ بعضهم ألَّف كتابًا سمَّاه: «تفضيل الكلاَب على كثيرٍ ممَّن لَبس الثِّياب»، ومَنْ قرأ في كتاب «العزلة» عرف ما كان يُعانيه السَّلف وما يُعانيه كلُّ مَنِ انبسط في العلم وانبسط في التَّمسّك بالسُّنَّة، «انبسط» بمعنى ماذا؟ توسَّع، بسَطَ الأمر في العلم وبسط الأمر في التَّمسُّك بالسُّنَّة، كلَّما نظر بعينٍ لَا ينظر بها النَّاس، وهذا أمرٌ واضحٌ.

مَنْ نظر في كتاب ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «المدارج» كيف تكلَّم على: غربة العلم، غُربة التَّوحيد، غربة السُّنَّة[1]، وهذه الثَّلاثة المرتكزات هي الَّتي تَدور عليها الغربة، وأشدّ ما تكون السُّنَّة غربتها بين أهلها غُلوًّا وجفاءً، أو إفراطًا وتفريطًا، فيظنُّ الإنسان أنَّه على السُّنَّة وقد غلا فيها أو فرَّط فيها ولَم يلزم الطَّريق الوَسَط، وهكذا في العلم: يظنُّ أنَّه يطلب العلم بينما هو يعيش غربته، ولا يزيده العلم إلَّا بُعدًا عن أهله وسمت أهله، وهو يظنُّ أنَّه هو طالبُ العلم وهو المقدَّم وهو الموجِّه -وما أشبه ذلك-، وكلُّ هذا فيه خطرٌ وغضاضةٌ على دين المرء، وغُربة التَّوحيد أيضًا بين أهل الشِّرك، فهي غُربة العِلْم بين أهل الجهل، هذا ما قاله ابن القيِّم، ويحقُّ لنا أن نقول: وأيضًا غُربة العلم بين مَنْ يطلبُ العلم ولا يدري أنَّه على غير السَّبيل والطَّريق، ما دليلي؟ ما جاء في صحيح مُسلم -في حديث ابن عُمر- في حديث حُميد بن عبد الرَّحمن ويحيى بن يَعْمَر لَمَّا قال: (وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ)[2] يتقفَّرون العلم وهم على مذهب القدرية، (يَتَقَفَّرُونَ) يعني: حريصين جدًّا على العلم، وأنتَ تطلبُ العلم: التفتْ يُمنة والتفتْ يُسرَة إلى أين يسير بك هذا العلم؟ هل يُصلح باطنك؟ هل يُصلح ظاهرك؟ هل يُقرِّبك إلى الله؟ هل يُباعدك عن الله؟ لا بدَّ مِنْ مُراجعة النَّفس في مسألة الإخلال في هذه الأُمور وإلَّا فإنَّ المرء على خطَرٍ -نعوذ بالله-.

ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كلامٌ في مسألة الخُلطة مِنْ أنفس ما يكونُ وأروعه، وكنتُ سأُحيلكم عليه ولكن في الغالب

---

[1] انظر "مدارج السالكين"؛ ج٣، ص:١٨٥.

[2] عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: (كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ: مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ، حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، **وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ**، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ؛ قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ) رواه مسلم (٨).

أحيانًا قد لا يجد المرء الكتاب أو لا يجد الوقت لقراءته، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مخالطة النَّاس: (إِنَّ فُضُولُ الْمُخَالَطَةِ هِيَ الدَّاءُ الْعُضَالُ الْجَالِبُ لِكُلِّ شَرٍّ، وَكَمْ سَلَبَتِ الْمُخَالَطَةُ وَالْمُعَاشَرَةُ مِنْ نِعْمَةٍ، وَكَمْ زَرَعَتْ مِنْ عَدَاوَةٍ، وَكَمْ غَرَسَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْ حَزَازَاتٍ تَزُولُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ وَهِي فِي الْقُلُوبِ لَا تَزُولُ، فَفُضُولُ الْمُخَالَطَةِ فِيهَا خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)، (فُضُولُ): هو الشَّيءُ الزَّائد، وكما مرَّ معنا مرارًا قول الحُميدي الأندلسي -لَمَّا قال-:

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا ... سِوَى الإِكْثَارِ مِنْ قِيلٍ وَقَالِ
فَأَقْلِلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا ... لأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلاَحِ حَالِ[1]

ففُضول المخالطة هو المذمُوم، متَى يأتي الذَّم؟ إذا كثُر الكلام في غيرِ مَنفعة فِي دينٍ ولَا دُنيا، فابن القيِّم يقول: (وَكَمْ غَرَسَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْ حَزَازَاتٍ تَزُولُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ وَهِيَ فِي الْقُلُوبِ لَا تَزُولُ، فَفُضُولُ الْمُخَالَطَةِ فِيهَا خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمُخَالَطَةِ بِمِقْدَارِ الْحَاجَةِ، وَيَجْعَلَ النَّاسَ فِيهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ مَتَى خَلَطَ أَحَدَ الأَقْسَامِ بِالآخَرِ وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَهُمَا دَخَلَ عَلَيْهِ الشَّرُّ:

_ أَحَدُهَا: مَنْ مُخَالَطَتُهُ كَالغِذَاءِ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَإِذَا أَخَذَ حَاجَتَهُ مِنْهُ تَرَكَ الْخُلْطَةَ، ثُمَّ إِذَا احْتَاجَ إِلَيْهِ خَالَطَهُ، هَكَذَا عَلَى الدَّوَامِ، وَهَذَا الضَّرْبُ أَعَزُّ مِنَ الْكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ، وَهُمُ الْعُلَمَاءُ بِاللهِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ وَمَكَايِدِ عَدُوِّهِ وَأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَأَدْوِيَتِهَا، النَّاصِحُونَ للهِ تَعَالَى وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِخَلْقِهِ، فَهَذَا الضَّرْبُ فِي مُخَالَطَتِهِمْ الرِّبْحُ كُلُّهُ.

_ الْقِسْمُ الثَّانِي: مَنْ مُخَالَطَتُهُ كَالدَّوَاءِ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَرَضِ فَمَا دُمْتَ صَحِيحًا فَلاَ حَاجَةَ لَكَ فِي خُلْطَتِهِ، وَهُمْ مَنْ لَا يُسْتَغْنَى عَنْ مُخَالَطَتِهِمْ فِي مَصْلَحَةِ الْمَعَاشِ وَقِيَامِ مَا أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُعَامَلاَتِ وَالْمُشَارَكَاتِ، وَالاسْتِشَارَةِ وَالْعِلاَجِ لِلأَدْوَاءِ وَنَحْوِهَا، فَإِذَا قَضَيْتَ حَاجَتَكَ مِنْ مُخَالَطَةِ هَذَا الضَّرْبِ بَقِيَتْ مُخَالَطَتُهُمْ مِنَ:

_ الْقِسْمِ الثَّالِثِ: وَهُمْ مَنْ مُخَالَطَتُهُ كَالدَّاءِ عَلَى اخْتِلاَفِ مَرَاتِبِهِ وَأَنْوَاعِهِ وَقُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ مُخَالَطَتُهُ كَالدَّاءِ الْعُضَالِ وَالْمَرَضِ الْمُزْمِنِ، وَهُوَ مَنْ لَا تَرْبَحُ عَلَيْهِ فِي دِينٍ وَلَا دُنْيَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَلاَ بُدَّ مِنْ أَنْ تَخْسَرَ عَلَيْهِ الدِّينَ وَالدُّنْيَا أَوْ أَحَدِهِمَا، فَهَذَا إِذَا تَمَكَّنَتْ مُخَالَطَتُهُ وَاتَّصَلَتْ فَهِيَ مَرَضُ الْمَوْتِ الْمَخُوفُ، وَمِنْهُمْ مَنْ مُخَالَطَتُهُ كَوَجَعِ الضِّرْسِ يَشْتَدُّ ضَرْبًا عَلَيْكَ فَإِذَا فَارَقَكَ سَكَنَ الأَلَمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ مُخَالَطَتُهُ حُمَّى الرُّوحِ وَهُوَ الثَّقِيلُ الْبَغِيضُ الْعَقْلِ الَّذِي لَا يُحْسِنُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُفِيدُكَ وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يُنْصِتَ فَيَسْتَفِيدَ مِنْكَ، وَلَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ فَيَضَعَهَا فِي مَنْزِلَتِهَا، بَلْ إِنْ تَكَلَّمَ فَكَلاَمُهُ كَالْعِصِيِّ تَنْزِلُ عَلَى قُلُوبِ السَّامِعِينَ مَعَ إِعْجَابِهِ بِكَلاَمِهِ وَفَرَحِهِ بِهِ، فَهُوَ يُحْدِثُ مِنْ فِيهِ كُلَّمَا تَحَدَّثَ وَيَظُنُّ أَنَّهُ مِسْكٌ يُطَيَّبُ بِهِ الْمَجْلِسُ، فَإِنْ سَكَتَ فَأَثْقَلُ مِنْ نِصْفِ الرَّحَى الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يُطَاقُ حَمْلُهَا وَلَا جَرُّهَا عَلَى الأَرْضِ، وَيُذْكَرُ

[1] "سير أعلام النبلاء" للذهبي رحمه الله؛ ج١٩، ص:١٢٧.

عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ:«مَا جلَسَ إِلَى جَانِبِي ثَقِيلٌ، إِلَّا وَجَدْتُ الْجَانِبَ الَّذِي هُوَ فِيهِ أَنْزَلَ مِنَ الْجَانِبِ الآخَرِ» وَرَأَيْتُ يَوْمًا عِنْدَ شَيْخِنَا) -أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (وَرَأَيْتُ يَوْمًا عِنْدَ شَيْخِنَا -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- رَجُلاً مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، وَالشَّيْخُ يَحْمِلُهُ، وَقَدْ ضَعُفَتِ القُوَى عَنْ حَمْلِهِ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ:«مُجَالَسَةُ الثَّقِيلِ حُمَّى الرِّبْعِ» ثُمَّ قَالَ:«لَكِنْ قَدْ أَدْمَنَتْ أَرْوَاحُنَا عَلَى الْحُمَّى فَصَارَتْ لَهَا عَادَةً» أَوْ كَمَا قَالَ، وَبِالْجُمْلَةِ فَمُخَالَطَةُ كُلِّ مُخَالِفٍ حُمَّى لِلرُّوحِ فَعَرَضِيَّةٌ وَلَازِمَةٌ، وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُبْتَلَى بِوَاحِدٍ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، وَلَيْسَ لَهُ بُدٌّ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ وَمُخَالَطَتِهِ فَلْيُعَاشِرْهُ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا.

_ الْقِسْمُ الرَّابِعُ: مَنْ مُخَالَطَتُهُ الْهَلَكُ كُلُّهُ، وَمُخَالَطَتُهُ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ السَّمِّ[1]، فَإِنِ اتَّفَقَ لِآكِلِهِ تِرْيَاقٌ، وَإِلَّا فَأَحْسَنَ اللهُ فِيهِ العَزَاءَ، وَمَا أَكْثَرَ هَذَا الضَّرْبَ فِي النَّاسِ -لَا كَثَّرَهُمُ اللهُ-، وَهُمْ أَهْلُ البِدَعِ وَالضَّلَالَةِ الصَّادُّونَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أهل البدع الآن؛ فالدَّرجات الأولى قد يكون سُنِّيًّا، انتبه! (الصَّادُّونَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّاعُونَ إِلَى خِلَافِهَا، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، فَيَجْعَلُونَ الْبِدْعَةَ سُنَّةً، وَالسُّنَّةَ بِدْعَةً، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، إِنْ جَرَّدْتَ التَّوْحِيدَ بَيْنَهُمْ قَالُوا: تَنَقَّصْتَ جَنَابَ الأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ! وَإِنْ جَرَّدْتَ الْمُتَابَعَةَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: أَهْدَرْتَ الأَئِمَّةَ الْمَتْبُوعِينَ! وَإِنْ وَصَفْتَ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُشَبِّهِينَ! وَإِنْ أَمَرْتَ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتَ عَمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْمُنْكَرِ قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُفْتِنِينَ! وَإِنِ اتَّبَعْتَ السُّنَّةَ وَتَرَكْتَ مَا خَالَفَهَا قَالُوا: أَنْتَ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ الْمُضِلِّينَ! وَإِنِ انْقَطَعْتَ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَخَلَّيْتَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيفَةِ الدُّنْيَا قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُبْلِسِينَ! وَإِنْ تَرَكْتَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَاتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ فَأَنْتَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ! فَالحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ الْتِمَاسُ مَرْضَاتِ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ بِإِغْضَابِهِمْ، وَأَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِإِعْتَابِهِمْ وَلَا بِاسْتِعْتَابِهِمِ، وَلَا تُبَالِي بِذَمِّهِمْ وَلَا بِغَضَبِهِمْ، فَإِنَّهُ عَيْنُ كَمَالِكَ كَمَا قَالَ:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ ... فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّيَ كَامِلُ

وَقَالَ آخَرُ:

وَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي ... بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ

فَمَنْ كَانَ بَوَّابَ قَلْبِهِ وَحَارِسَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَدَاخِلِ الأَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ بَلَاءِ الْعَالَمِ، وَهِيَ: فُضُولُ النَّظَرِ وَالكَلَامِ وَالطَّعَامِ وَالْمُخَالَطَةِ) لأَنَّه كان يتكلَّم على فضول النَّظر والكلام والطَّعام والمُخالطة، وإنَّما اخترنا ما يتعلَّق بمجلسنا،

---

[1] هَكَذَا ضَبَطَهَا شَيْخُنَا مُصَطَفَى مَبْرَمُ حَفِظَهُ اللهُ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ دُروسِهِ: (هَذَا الصَّحِيحُ فِي ضَبْطِهَا: سَمٌّ، وَيَصِحُّ ضَبْطُهَا: سُمٌّ وسِمٌّ، لَكِنِ النَّوَوِيُّ يُرَجِّحُ أَنَّهَا: سَمٌّ) اهـ.

قال: (وَاسْتَعْمَلَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الأَسْبَابِ التِّسْعَةِ الَّتِي تُحْرِزُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَقَدْ أَخَذَ بِنَصِيبِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ)[1] وكلامه في هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرٌ ومُحقَّق.

هذا ما يتعلَّق بقولِ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَخَـفْ أَبْنَـاءَ جِنْسِكَ وَاخْـشَ مِنْهُـمْ	كَمَـا تَخْشَـى الضَّرَاغِـمَ وَالسَّبَنْتَـى
وَخَـالِطْهُـمْ وَزَايِلْهُـمْ حِـذَارًا	وَكُـنْ كَـالسَّامِـرِيِّ إِذَا لُمِسْتَـا

«وَزَايِلْهُمْ» الْمُزايلة هي البُعد، كما في قوله تعالى:﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا﴾[الفتح:٢٥] البعد والانفصال، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]: باعدنا بينهم، «وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ» خالطهم وابتعد عنهم، ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾[يونس:٢٨]، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والآيات في هذا ظاهرةٌ في المعنى، يعني أنَّ الْمُزايلة هي مُفاعلة مِنَ المباعدة، بمعنى أنَّك تبتعد عنهم، وهذا مِنْ أشدِّ ما يكون في فِقه النَّفس أن تُخالط النَّاس حيث احتاج الخُلطة، وكان بعض السَّلف إذا أذّن للصَّلاة قال: (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَلْقَى النَّاسَ فَيَشْغَلُونِي عَنْ رَبِّي)[2] وهذا جاء عن جماعة مِنَ السَّلف، ولو ذكرنا كثيرًا مِنَ الآثار لأطلنا، وسُقنا كتاب «العُزلة»، وهناك كتاب لابن أبي الدُّنيا كتاب «العزلة والانفراد» وغيرها مِنَ الكتب.

وهناك كلماتٌ نفيسة -بأنَّ العُزلة لا بدَّ فيها مِنْ علمٍ وزهدٍ-، قيل: (الْعُزْلَةُ بِغَيْرِ عَيْنِ الْعِلْمِ زَلَّةٌ وَبِغَيْرِ زَايِ الزُّهْدِ عِلَّةٌ)[3] إذا فَصَلْنا عنها عين العلم ماذا ستكون؟ زلَّة، فإذا اعتزل الجاهل وقع في الزَّلل والضَّلال -نسأل الله العافية والسَّلامة-؛ وبدون زاي الزُّهد: علَّة، مُعتزِلٌ لكنَّه وراء الدُّنيا وأهلها يأخذها بكلِّ مشتهياته.

❋ ❋ ❋

قِصَّةُ السَّامِرِيِّ وَالْعِجْل

هنَا يقُول:«وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا» السَّامِرِيُّ هو صاحب قصَّة العِجل، والله ذكر قصَّة العجل في سورة

---

[1] "بدائع الفوائد"؛ ج٢، ص٢٧٣.

[2] كانَ الفُضيل بن عِياض يقُول: (مَا أَجِدُ لَذَّةً رَاحَةٍ، وَلَا قُرَّةَ عَيْنٍ، إِلَّا حِينَ أَخْلُو فِي بَيْتِي بِرَبِّي، فَإِذَا سَمِعْتُ النِّدَاءَ قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَلْقَى النَّاسَ فَيَشْغَلُونِي عَنْ رَبِّي -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-) "الزهد الكبير" للبيهقي رحمه الله (١٥١).

[3] "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" للقاري رحمه الله؛ ج٩، ص:٢٨٢، عن بعض العارفين.

البقرة إجمالًا ولَم يذكر مَنْ صاحبها، وذَكرها في سورة الأعراف أيضًا ولَم يذكر صاحبها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[الأعراف:١٥٢] قال الحافظ ابن كثير: (وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ مُسَجَّلَةٌ لِكُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[1] في «البداية والنِّهاية»، وهذه فائدةٌ عزيزةٌ قلَّ أن تجدوا مَنْ يذكرها في هجران أهل البدع، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[الأعراف:١٥٢] إلى يوم القيامة.

«وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ» ذَكر الله تفاصيل هذه القصَّة -العجل وصاحب العجل وكيف كانت- بالتَّفاصيل في سورة طه، وذكر جَلَّوَعَلَا في سورة البقرة -قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة:٥٤]، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[البقرة:٥١] الآيات في قصَّة العجل كثيرة، لكنَّها جاءت في سورة طه مُفصَّلة مع ذكر صاحبها وهو: السَّامريُّ.

وقد أطال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو أطول مَنْ رأيته حتَّى مِنَ المفسِّرين- تكلَّم على قصَّة السَّامريِّ والعجل في كتاب «إغاثة اللَّهفان»[2]، أطال جدًّا، -يعني أطال جدًّا بالنِّسبة للكتاب، ليس عشر مجلَّدات فالكتاب مِنْ مُجلَّدين-، لكن بالنِّسبة لغيره ذَكر تفاصيل هذه القصَّة وما عبث به الشَّيطان في قصَّة العجل.

«وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا» وذلك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبَرَ أنَّ مُوسى قال له: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[طه:٩٨] قال المفسِّرون -كابن عبَّاسٍ وغيره-: (لَا أَمَسُّ وَلَا أُمَسُّ)[3] وذلك أنَّ المفسِّرين ذكروا بأنَّه قد ابتلاه جَلَّوَعَلَا بمرضٍ مِنْ شدَّة الحمَّى فإذا أمسكه شخصٌ ازدادت عليه وأُصيب بها اللاَّمس، حتَّى ذكر بعض العلماء -أظنُّه ابن الجْوزي- أنَّ سُلالته في بلاد الشَّأم إلى ذلك الوقت الَّذي يحكيه هو -والعلم عند الله- وأنَّه مَنْ لَمَسَهم وجد هذا -مِنَ السَّامريَّة-، وهذا فيه ما فيه، لكنَّهم ذكروا هذا أيضًا وأظنُّه ابن الجوزي[4] أو ابن رجب أو غيره -تُراجعونه على كلِّ حالٍ-.

والسَّامريُّ أيضًا لمَّا اتَّخذ العجل -فيما يظهر مِنْ كلامٍ بعض المفسِّرين فيما جاء مِنْ بعض الإسرائيليات-: أنَّه كانت فيه حياة، دبَّ فيه حياة، ولَم يُنكر أحدٌ مِنَ الأئمَّة أنَّ السَّامريَّ رأى فَرَس جبريل، وليس في تَصَارِحِهم أنَّه رأى جبريل، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[طه:٩٦] يعني: مِنْ أثر فرس الرَّسُول -كما هي قراءة

---

[1] "البداية والنهاية" لابن كثير رحمه الله؛ ج٢، ص:١٥٢.

[2] "إغاثة اللهفان"، ص:٥٢٩.

[3] "تفسير الطبري"؛ ج١٨، ص:٣٦٤.

[4] قال ابن الجوزي رحمه الله: (وَصَارَ ذَلِكَ عُقُوبَةً لِوَلَدِهِ، حَتَّى إِنَّ بَقَايَاهُمُ الْيَوْمَ فِيمَا ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ بِأَرْضِ الشَّامِ يَقُولُونَ ذَلِكَ، وَحُكِيَ أَنَّهُ إِنْ مَسَّ وَاحِدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ وَاحِدًا مِنْهُمْ، أَخَذَتْهُمَا الْحُمَّى فِي الْحَالِ) "زاد المسير في علم التفسير"؛ ج٥، ص٢١٩.

ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-[١]؛ لأنَّنا اليوم تكلَّمنا على قضيَّة السَّامريّ وما سيحضرني فيها طويلٌ جدًّا، وهذا تفصيل، لكن أنَّهم ذكروا أنَّ الحياة قد دبَّت فيه حقيقة، ومِنَ المفسِّرين مَنْ يقول بأنَّه كان فَمُه مفتوحًا وكان في آخره خرقٌ فإذَا دخل فيه الهواء أحدثَ صوتًا[٢] وهو الَّذي قال الله فيه:﴿لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾[طه:٨٨] فإنَّها دبَّت فيه الحياة وأَقْدَر الله السَّامريّ على هذا تَتْمِيمًا لهذه الفتنة.

ومِنَ العجائب أنَّك ترى في بعض كتب المفسِّرين والعلماء كالزَّركشي، -وهذا ظاهر فيما يحضرني في كلام ابن القيِّم-: أنَّ بعضهم قال بأنَّ السَّامريَّ هو الدَّجَّال الأعور[٣]، وتبنَّى هذا بعض العصريِّين وأقام عليه معركة في مثل هذا الأمر، وليس فيه حُجَج قويَّة على هذا، وهي مِنَ الأشياء الَّتي أجمل لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها القصَّة، فنأخذ ما ذكره الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ذلك.

لكن الشَّاهد أنَّه يقول:«وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا» (لَا أَمَسُّ وَلَا أُمَسُّ)، فمَنْ رأيتَ أنَّك تتضرَّر فيه بدينك فلا تأخذك المجاملات، ويكفي أن تُعطيَهُ البشاشة في أوَّل مَدخله اتِّقاءً لِسوء شرِّه كما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -في الصَّحيحين- لَمَّا دخل الرَّجل فهشَّ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له فلمَّا ولَّى قال:«**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ**»[٤]، قال:«**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**»[٥] هذا يحتاج إلى علمٍ وإلى فقهٍ، لأنَّ مِنَ النَّاس مَنْ تُقرِّبه خَشيَةَ أنَّك إذا أبعدته ازداد شرُّه وفتنَتُه وانفرادهُ بنفسه -والكلام طويلٌ-، وأحيانًا قد تُدخل الشَّخص لِما ترى فيه من المصلحة، أو لِما ترى مِنْ قبوله منك.



الإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ

قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

[١] قال ابن القيِّم رحمه الله: (قَالَ سُفْيَانُ: وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقْرَؤُهَا: فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ) "إغاثة اللهفان" ص٥٣٠.

[٢] (فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، فَكَانَ يَدْخُلُ الرِّيحُ مِنْ دُبُرِهِ وَيَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ) ذكره ابن القيِّم في كتابه "إغاثة اللهفان" ص٥٣٠، من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

[٣] قال بهذا الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"؛ ج٢، ص١٤٠.

[٤] متَّفق عليه، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واللفظ للبخاري (٦٠٥٤).

[٥] عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ائْذَنُوا لَهُ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ أَوْ ابْنُ الْعَشِيرَةِ. فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْكَلَامَ؟ قَالَ: أَيْ عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ) متَّفق عليه، واللفظ للبخاري (٦٠٥٤).

فَخَــفْ أَبْنَـاءَ جِنْسِكَ وَاخْـشَ مِنْهُـمْ ... كَمَــا تَخْشَــى الضَّرَاغِــمَ وَالسَّبَنْتَــى
وَخَـالِطْهُــمْ وَزَايِلْهُــمْ حِــذَارًا ... وَكُــنْ كَـالسَّامِـرِيِّ إِذَا لُمِسْتَــا

هذا قد شرحناه، ولكنَّما ذكرته لأنَّه مُتعلِّق بما بعده، لأنَّه لَمَّا قال:

وَخَـالِطْهُــمْ وَزَايِلْهُــمْ حِــذَارًا ... وَكُــنْ كَـالسَّامِـرِيِّ إِذَا لُمِسْتَــا

قال بعد ذلك:«وَإِنْ جَهِلُوا» فالعطف هنا فيه ترتيبٌ على مَنْ تُخالطهم، فإذا وقعت المُخالطة فإنَّه ولا شكَّ سيقع فيها الغلط، وخصوصًا إذا كثُرت الخلطة؛ ولهذا قال:

وَإِنْ جَهِلُــوا عَلَيْــكَ فَقُــلْ: سَــلاَمٌ ... لَعَلَّــكَ سَــوْفَ تَسْلَــمُ إِنْ فَعَلْتَــا

فهو يقول: إنَّ مُقتضى الإكثار مِنَ المُخالطة يُؤدِّي إلى الغلط، ولكنَّ الغلط إذا وصل إلى حدِّ الجهالة مِنَ المُخالِطِ فهنا ينبغي الابتعاد طلبًا للسَّلامة.

فيقول:«وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ» والجهل هنا المراد به ما يُقابل الحِلْم، لأنَّ الجهل مِنَ الألفاظ المشتركة، والمشترك هو عكس المترادف -عند مَنْ يقول به-، وهو: (اتِّحَادُ اللَّفْظِ وَاخْتِلاَفُ الْمَعْنَى).

فالجهل في كلام العرب جهلان، كلام العرب عمومًا -وإن كان له في المُصطلح الشَّرعي أيضًا اسمٌ آخر أو معنى آخر-:

_ يُطلق الجهل في مقابل العِلْم، وهذا أكثر استعمالًا.

وَالْجَهْــلُ قُــلْ تَصَــوُّرُ الشَّــيْءِ عَلَــى ... خِــلاَفِ وَضْعِــهِ الَّــذِي بِــهِ عَــلاَ[1]

هذا هو الاستعمال في الغالب عند العرب وعند الأُصوليِّين وعند العُلماء، أنَّهم يستعملون الجهل في مقابل العِلم، ثُمَّ يقولون: (الْجَهْلُ جَهْلاَنِ: جَهْلٌ بَسِيطٌ، وَجَهْلٌ مُرَكَّبٌ).

_ والنَّوع الثَّاني: الجهل الَّذي هُو ضدُّ الْحِلْمِ، وهو السَّفَه.

فهو يقول:«وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ» بمعنى أنَّهم تجاوزوا حدَّ الحِلْم والأَناة، فينبغي لكَ أن تستحضر أنتَ هُنا مقام الحِلم، والجهل الَّذي أراده هنا هو الجهل الَّذي أراده عمرو بن كلثوم التَّغلبي لَمَّا قال:

أَلَا لَا يَجْهَلَــنَّ أَحَــدٌ عَلَيْنَــا ... فَنَجْهَــلَ فَــوْقَ جَهْــلِ الْجَاهِلِينَــا

---

[1] نظم الورقات، للعمريطي رحمه الله.

وهذا شأن بعض أهل الجاهلية أنَّهم إذا جَهِل عليهم إنسانٌ جهلوا عليه فوق جهله، لكن النَّاظم هنا يُؤدِّبنا بِما أدَّبنا به القرآن، بِما أدَّبنا به الإسلام، مِنْ أنَّه في حال الجهل علينا لا نَجهل بِما يُساوي جَهل الجاهلين فضلاً عن أن يكون فوق جهل الجاهلين.

فالنَّاظم يقُول: «وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ: سَلاَمٌ» سَلاَم أي: طلبًا للسَّلامة أو الابتعاد طلبًا للسَّلامة، هذا قولُ أكثر المفسِّرين الَّذين يُفسِّرون قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص:٥٥]، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قالوا قولًا سالِمًا في أنفُسهمْ طلبًا للسَّلاَمة، وعلى هذا أيضًا حَملوا قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان:٦٣]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ كـلُّ بـاطـل، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ بمقتضى الجهـل، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ طلبًا للسَّلامة؛ على أنَّه قد جاء في مُسند الإمام أحمد أنَّه تسابَّ رجلان عند النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقال: «**كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا**»، والحديث قال الحافظ ابن كثير: (إِسْنَادُهُ حَسَنٌ) في «التَّفسير» على قلَّة شُهرته في كتب أهل العلم -معنا في مسند الإمام أحمد-، فكثير مِنَ المفسِّرين لا يذكرون مثل هذا الحديث، وهذا ممَّا يُميِّز تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: استيعابه للأحاديث الواردة في تفسير آيات القُرآن[1].

الشَّاهد مِنْ هذا: أنَّ هذا الرَّجل كان كلَّما سابَّهُ ذلك الرَّجل قال: (عَلَيْكَ السَّلاَمُ) فقال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ**»[2]؛ فهنا النَّاظم يُؤدِّبنا بهذا الأدب.

على أنَّه إذا قال الإنسان قولًا لَا يُخرجه عن العُرف الشَّرعيِّ في الانتصار لنفسه فإنَّه لا يُؤثَم في هذا، والنَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء عنه في الصَّحيحين في حديث سليمان بن صُرَد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: (اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ وتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»[3] لأنَّ الجهل والسَّفه مِنْ عَمل الشَّيطان.

---

[1] مِنْ بَابِ مَزِيدِ فَائِدَةٍ: قَالَ شَيْخُنَا مُصْطَفَى مَبْرَم حَفظهُ الله -ثَنَاءً علَى تَفسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ-: (سَمِعْتُ شَيْخَنَا الوَادْعِي يَقُولُ: الشَّوْكَانِيّ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ:"وَتَفْسِيرُهُ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحْسَنهَا" -قَالَ ذَلِكَ فِي "الْبدرِ الطَّالع"، وَكَذَا السَّيُوطِي-. وَأَيْضًا سَمِعْتُه يَقُولُ:"جَزَى اللهُ الْحَافِظَ ابْنَ كَثِيرٍ فَقَدْ حَفِظَ لَنَا كَثِيرًا مِنْ أَسَانِيدِ الأَحَادِيثِ الَّتِي فُقِدَتْ مُصَنَّفَاتُهَا"، وهَذِهِ الْمِيزَةُ لَا تُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ ابْنِ كَثِيرٍ، فِي الْغَالِبِ مَا يَكَادُ يَذْكُرُ حَدِيثًا فِي مُصَنَّفِهِ إِلَّا وَيَسُوقُهُ بِسَنَدِهِ، وَكَمْ كَانَ فِي هَذَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ لِلْبَاحِثِينَ -رَحِمَهُ اللهُ-) اهـ من شرح كتاب التوحيد، بتصرُّف يسير.

[2] قال ابن كثير رحمه الله: (قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي خَالِدٍ الْوَالِبِيِّ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ-، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ" إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ) اهـ "تفسير ابن كثير"؛ ج٦، ص:١٢٣.

[3] مُتَّفقٌ عليه، من حديث سليمان بن صُرد رضي الله عنه، واللفظ لمسلم (٢٦١٠).

فالنَّاظم هنا يقول: «وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ: سَلاَمٌ» فقُل قولًا سالمًا؛ قال العلماء: (لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ سَلاَمُ التَّحِيَّةِ)[1]، وقد قيل إنَّ آية سورة القصص نزلت في أهل الكتاب[2] في أنَّهم إذا سمعوا الباطل ممَّا يُنسب إلى كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ التَّوراة أو الإنجيل قالوا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص:٥٥] أنتم تنسبون إلى الله الجهل.

ثُمَّ قال النَّاظم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَقُلْ: سَلاَمٌ... لَعَلَّكَ» تَرجِّي، وهذا التَّرجي مِنَ المخلوقين لا يُعلم حاله، بعكسِ ما إذا كان مِنَ الخالق فإنَّه على الجزم والوجوب -كما قال العلماء-.

❋ ❋ ❋

رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ

فهو يقول: «لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ» تَسْلم مِنَ النَّاسِ، وتَسْلم أيضًا في عِرضك وفي دينك بالبعد عن هذه المواطن الَّتي هي مواطن السَّفه.

«لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا» ثمَّ ممَّا يدلُّ على أنَّ «لعلَّ» هذه للتَّرجِّي -عند النَّاظم- الَّذي قد يكون بعيد المُحمل أنَّه قال: «وَمَنْ لَكَ بِالسَّلاَمَةِ» مِن أين ستَجِد السَّلامة؟ «وَمَنْ لَكَ بِالسَّلاَمَةِ فِي زَمَانٍ... تَنَالُ الْعُصْمَ» أي تكون معصومًا فيه «إِلَّا إِنْ عُصِمْتَا» ولَا يُعصم إلَّا مَنْ عَصمه الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن نوح وابنه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[هود:٤٣] فمن رحمهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المعصوم.

فهو يقُول: «وَمَنْ لَكَ بِالسَّلاَمَةِ» مِنْ أين تأتي بهذه السَّلامة وأنتَ تعيش بين هؤلاء النَّاس الَّذين تَرامت أطرافُ أفكارِهم ومُعتقداتهم؟

النَّـاسُ شَتَّـى وَآرَاءٌ مُفَرَّقَـةٌ ... كُـلٌّ يَـرَى الْحَـقَّ فِيمَـا قَـالَ وَاعْتَقَـدَا

وما دُمت بين طائفتين تتجاذبها -أو يتجاذبها- طريقَا الشَّيطان: إمَّا إلى غُلوٍّ وإمَّا إلى جفَا، إمَّا إلى إفراطٍ وإمَّا إلى تفريط، فإنَّك إذا لَم تلزم الطَّريق الوسط الَّذي هو الصِّراط المستقيم -وحتَّى ولو لزمته- فإنَّك لن تسلم مِنَ

[1] "تفسير البغوي" ج٦، ص:٢١٥.

[2] قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ -إِلَى آخِرِ الْآيَةِ- قَالَ: هَذِهِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ الَّذِي كَتَبَ الْقَوْمُ بِأَيْدِيهِمْ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِذَا سَمِعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَمَرُّوا بِهِ يَتْلُونَهُ، أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا) "تفسيره الطبري" ج٦، ص٣٦.

الطَّرفَين أو من أحدهما.

فالمعصوم على الحقيقة ليس مَنْ أثنى عليه النَّاس أو مدحوه أو رضوا عنه، وإنَّما المعصوم مَنْ لَزم أمر الله وإن ردَّهُ النَّاس ورفضوه، هذا هو المعصوم، هذا هو الَّذي عُصم وحصَلتْ له النَّجاة.

الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما جاء عنه بإسنادٍ حسنٍ مشهورٍ رواه عنه كلُّ مَنْ صنَّف على التَّقريب في كتب مَناقب الشَّافعيِّ وما رُوِيَ عنه مِنَ الزُّهد، أنَّه قال ليونس بن عبد الأعلى: (اعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَى السَّلاَمَةِ مِنَ النَّاسِ سَبِيلٌ)، (اعْلَمْ) يعني كُن مُستَيقِنًا (أَنَّهُ لَيْسَ إِلَى السَّلاَمَةِ مِنَ النَّاسِ سَبِيلٌ، فَانْظُرِ الَّذِي فِيهِ صَلاَحُكَ، فَالْزَمْهُ)[1].

وهذا قول الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَتابع عليه العلماء وكانوا يسِيرُون عليه بأنَّه ليس هناك سبيل يُوصل إلى رضَا النَّاس، وكما قيل: (رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَك) كما جاء هذا عن سُفيان الثَّوري أنَّه قال: (رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، فَأَحْمَقُ النَّاسِ مَنْ طَلَبَ مَنْ لَا يُدْرَكُ)[2]، وقال أبو طالب المكي -بعد أن ذكر هذا الأثر-: (قَدْ قَالَ بعْضُ الحُكَمَاءِ فِي مَعْنَاهُ قَوْلًا مَنْظُومًا:

مَــنْ رَاقَــبَ النَّـــاسَ مَـــاتَ غَمًّـــا ... وَفَــــازَ بِاللَّـــــذَةِ الْجَسُــــورُ[3]

يعني الَّذي يمضي.

فالإنسان الَّذي يُراقب ويَنظر ماذا قال فيه زيد؟ وماذا قال فيه عُبيد وماذا فعل؟ وهل فلانٌ عنه راضٍ؟ وهل فلانٌ عنه غاضب؟ وأين منزلته مِنْ فلان؟ وأين منزلته مِنْ علاَّن؟ هذا يموتُ همًّا وغمًّا وكمدًا وحسرةً طلبًا لِعلمه عن حاله عند النَّاس، هل هذا هو العاقل؟ لا؛ بلا شكٍّ، ولذلك قال: (وفَازَ باللَّذَّةِ الجَسُورُ)[4] الجسور هو الَّذي يَمضي ولا يُبالي بما عليه النَّاس.

وَإِنَّ امْــرَأً يُمْسِــي وَيُصْبِــحُ سَالِمًــا ... مِــنَ النَّــاسِ إِلَّا مَـــا جَنَــى لَسَعِيدُ[5]

يعني: ما جناه هو على نفسه، أن يتأمَّل فيه، وأن يحصل له به الهمّ، فهذا هو السَّعيد.

---

[1] "آداب الشافعي ومناقبه" لأبي حاتم الرَّازي، ص٢١٢.

[2] كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكِّي؛ ج٢، ص٣٨٩.

[3] كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكِّي؛ ج٢، ص٣٨٩.

[4] البيت لسَلم الخاسر، انظر "البداية والنهاية" لابن كثير رحمه الله؛ ج١٠، ص:١٨٨

[5] "شعب الإيمان" للبيهقي رحمه الله؛ ج١١، ص٤٠، عن حسان بن ثابت ﷺ.

الخطَّابي رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ في كتابه الفذِّ «العزلة» الَّذي دائمًا ما نذكره جعل فيه فصْلاً، قال: (بَابٌ فِي تَرْكِ الاعْتِدَادِ بَعَوَامِّ النَّاسِ وَقِلَّةِ الاكْتِرَاثِ بِهِمْ وَالتَّحَاشِي لَهُمْ)[1] كان بعض السَّلف -وهذا مِمَّا بوَّب عليه الخطَّابي رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ- كان بعض السَّلف يَخشى مِنْ كثرة ثناء النَّاس عليه أو أنَّه يكره اجتماع ثناء النَّاس عليه وأنَّ هذا مِمَّا يُشكِّكه في أمرِ دينه، كان النَّضر بن شُمَيل -وهذا ذكره الخطَّابي تحت هذا الباب- كان النَّضِر بن شُمَيْل يقول: (كَتَبَ إِلَيَّ الْخَلِيلُ: وَأَنْ دَعِ النَّاسَ وَاشْمِئْزَازَهُمْ، إِذَا عَرَفْتَ الْحَقَّ فَالْزَمْ)[2] ثُمَّ ذكر الخطَّابي ما أُنْشِدَهُ -وساق سنده لِمَن أَنْشَدَهُ-:

دَعِ النَّـاسَ مَـا شَـاءُوا يَقُولُـوا فَإِنَّنِي ... لِأَكْثَـرِ مَـا يُحْكَـى عَلَـيَّ حَمُــولُ
فَمَـا كُـلُّ مَـنْ أَغْضَبْتُـهُ أَنَـا مُعْتَـبٌ ... وَلَا كُـلُّ مَـا يُـرْوَى عَلَـيَّ أَقُــولُ[3]

وذكر أيضًا -الخطَّابي- عن أَكْثَم بن صَيْفِيٍّ أنَّه قال: (رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، وَلَا تَكْرَهْ سَخَطَ مَنْ رِضَاهُ الْجَوْرُ)[4] هذا ابتعد بنا بعيدًا، يقول: لا ترض ولا تكره سخط مَنْ رضاه الجور، لأنَّ بعض النَّاس قد يَرضى عليك لكن في رضاه هذا الجور والظُّلم ومُجاوزة الحدِّ، لأنَّه قد يرضى عليك في غير مقام الرِّضا وفي غير محلِّ الرِّضا.

جاء بأثر الشَّافعي رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ الَّذي تقدَّم ذكره رواية طويلة: أنَّ رجُلين كانا يتعاتبان والشَّافعيُّ يسمع كلامهما -هذه رواية البيهقي في كتاب الزُّهد- والشَّافعيُّ يسمع كلامهما، فقال لأحدهما: (إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ تُرْضِي النَّاسَ كُلَّهُمْ، فَأَصْلِحْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا أَصْلَحْتَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَلاَ تُبَالِ بِالنَّاسِ)[5].

ومِمَّا يُنقل مِنْ محاسن الشِّعر في هذا -لَا أدري مَنْ قائله- قولُ مَنْ قالَ:

ضَحِكْتُ فَقَالُـوا: أَلَا تَحْتَشِمْ ... بَكَيْتُ فَقَالُــوا: أَلَا تَبْتَسِمْ!
بَسُمْتُ فَقَالُــوا: يُرَائِـي بِهَا ... عَبَسْتُ فَقَالُـوا: بَـدَا مَا كَتَمْ!

خرَّج ما في نفسه، (صَمَتُّ فَقَالُوا: كَلِيلُ اللِّسَانْ) يعني ما يعرف يتكلَّم.

صَمَتُّ فَقَالُوا: كَلِيلُ اللِّسَانْ ... نَطَقْتُ فَقَالُــوا: كَثِيرُ الْكَلِمْ!
حَلِمْتُ فَقَالُـوا: صَنِيعُ الْجَبَانْ ... وَلَـوْ كَـانَ مُقْتَـدِرًا لَانْتَقَمْ!
بَسُلْتُ فَقَالُــوا: لِطَيْشٍ بِـهِ ... وَمَـا كَـان مُجْتَرِئًا لَـوْ حَكَمْ!

---

[1] "العزلة"، ص:٧٦.

[2] "العزلة"، ص:٧٦.

[3] "العزلة"، ص:٧٦.

[4] "العزلة"، ص:٧٦.

[5] "الزُّهد الكبير" للبيهقي رحمه الله، ص:١٠٥.

يَقُولُـونَ شَـذَّ إِذَا قُلْـتُ: لَا وَإِمَّعَـــةً حِيـــنَ وَافَقْتَهُـــمْ!
فَأَيْقَنْـتُ أَنِّـي مَهْمَـــا أُرِدْ رِضَـا النَّاسِ لَا بُّـدَ لِي أَنْ أُذَمْ

هذا مِنْ محاسن ما يُقال، لا يُمكن أن تُرضي النَّاس وأن تصل فيهم إلى رضاء، ولَم يُكلِّفك الله جَلَّوَعَلَا بهذا، نعم تقدَّم معنا في الدُّروس أنَّ دفع مواطن الشُّبَه والرِّيب عن النَّاس، وأنَّ الإنسان يكون حيث أراده الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ هذا أمرٌ لا بُدَّ منه.

روى أيضًا البيهقي في كتابه «الزُّهد الكبير» أنَّ مُحمَّد بن حمدان الطَّرائِفيّ يقولُ: (سَمِعْتُ الرَّبِيعَ بْنَ سُلَيْمَانَ يَقُولُ: أَنْبَأَنَا أَسَدُ بْنُ مُوسَى، أَنْبَأَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ قَالَ: قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: إِنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ لِيَأْخُذُوا سَقَطَ كَلَامِكَ فَيَجِدُونَ الْوَقِيعَةَ فِيكَ، فَقَالَ: هَوِّنْ عَلَيْكَ)[1] هذا الطَّالب يقُول للحسن: بعضُ النَّاس يأتي ويَجلس في مجلسك؛ لِماذا؟ ليأخذ ما تتكلَّم به، فيبحثُ عن سقطاتك (الْيَوْمَ قَالَ كَذَا) ولو كان ناصحًا لو كان دَيِّنًا لو كان يُريد نجاة نفسه لَفعل أمرين اثنين يفعلهما السَّلف -فيمن يحضر مجالس الشُّيوخ-:

_ الأمر الأوَّل: أنَّ بعض السَّلف -كما ذكر ابن جماعة في «تذكرة السَّامع والمُتكلِّم»- كان يقول إذا حَضر مَجلِسَ شيخه: (اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَيْبَ شَيْخِي عَنِّي، وَلَا تُذْهِبْ بَرَكَةَ عِلْمِهِ مِنِّي)[2] لماذا فِقْه السَّلف بهذه الصُّورة؟ لأنَّك إذا ظَهَرَتْ لك مَعايبُ شيخك وصِرت تضعه تحت المجهر أذهَبتَ ما تستفيدُه منه، وقد لَا يبقى لك شيخٌ على وجهِ الأرض، فهو بشر لا بُدَّ وأن يقع منه الخطأ، الخطأ الموجب للتَّرك إذا كان قادحًا في دينه لسنا نتكلَّم عليه، وإنَّما نتكلَّم على ما تنطوي عليه الطَّبيعة البشريَّة.

_ والأمر الثَّاني: أنَّه إذا ظهر الخطأ جاء باب النُّصح.

فإذا لَم يفعلْ بهذين الأمرين فَسَدَ وأَفْسد؛ فهنا يقول جرير بن حازم: (قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: إِنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ لِيَأْخُذُوا سَقْطَ كَلَامِكَ فَيَجِدُونَ الْوَقِيعَةَ فِيكَ، فَقَالَ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي جِوَارِ اللَّهِ فَطَمِعَتْ، وَأَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي الْجِنَانِ فَطَمِعَتْ، وَأَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي الْحُورِ الْعِينِ فَطَمِعَتْ، وَأَطْمَعْتُ نَفْسِي فِي السَّلَامَةِ مِنَ النَّاسِ فَلَمْ أَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ لَا يَرْضَوْنَ عَنْ خَالِقِهِمْ عَلِمْتُ أَنَّهُمْ لَا يَرْضَوْنَ عَنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِمْ)[3] هذا قولُ الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ عند البيهقي في «الزُّهد الكبير».

[1] "الزُّهد الكبير" للبيهقي رحمه الله، ص:١٠٥.
[2] "تذكرة السَّامع والمتكلِّم" لابن جماعة رحمه الله، ص: ٩٨.
[3] "الزُّهد الكبير" للبيهقي رحمه الله، ص:١٠٥.

وبمثل هذه الطَّريقة كانوا يتعاملون مع نفسيَّاتهم، فكثير مِنَ النَّاس الَّذين يلتفتُون -كما قلتُ لكم سابقًا-: إلى ما يقوله النَّاس فيهم، وماذا قال فُلان عنِّي؟ وماذا كان قول فُلان؟ يُصاب بحالاتٍ مِنَ اليأس والأسى وضيق النَّفْس والاضطرابات، ولكن انظر إلى مظانِّ نفسك عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فافعله.

❋ ❋ ❋

هَجْرُ الإِنسَانِ لِلْمَكَانِ الَّذِي يَضُرُّهُ فِي دِينِه

النَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ يقول:

وَمَــنْ لَكَ بِالسَّلَامَــةِ فِــي زَمَـانٍ	تَنَــالُ الْعُصْــمَ إِلَّا إِنْ عُصِمْتَــا
وَلَا تَلَبَــثْ بِحَـيٍّ فِيــهِ ضَيْــمٌ	يُمِيــتُ الْقَلْــبَ إِلَّا إِنْ كُبِلْتَــا

المرء يعيش حيث يجد صلاح نفسه وقلبه، وكان الشَّافعي رَحِمَهُٱللَّهُ يقول لَا ينبغي لأَحدٍ أن يُقيم بِبلدٍ ليس فيها أهل علم -أو ليس فيها عالم-[1].

فالنَّاظم هنا يُرشدنا إلى معنى آخر: النَّفس البشرية طبيعتها أنَّها تُحبُّ المكان الَّذي خُلقت فيه، أَلِفَتْهُ، رَبَتْ فيه؛ هذه فطرةٌ في الإنسان لا شكَّ فيها، ولكن إذا كان المقام في هذا المكان وفي هذا البلد يضرُّه في دينه فإنَّه يبتعد عنه، جاء في الصَّحيحين في حديثِ أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصَّة الرَّجل الَّذي قتل تسعة وتسعين نفسًا لَمَّا سأل العابدَ هل له مِنْ توبة؟ أجابه: (لَا) ولـمَّا سأل فأجابهُ العالمُ قال: (نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟) ثُمَّ أرشده إلى ما فيه صلاح نفسه وصلاحُ دينه فقال: (انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ)[2] وهو في طريقه تُوفي -والقصَّة معروفةٌ-، والشَّاهد منها أنَّه أرشده إلى أن يكون في

---

[1] قال الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تَسْكُنَنَّ بَلَدًا لا يَكُونُ فِيهِ عَالِمٌ يُفْتِيكَ عَنْ دِينِكَ) "آداب الشَّافعي ومناقبه"، لأبي حاتم الرَّازي رحمه الله، ص:٢٤٤.

[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ) متَّفق عليه، واللفظ لمسلم (٢٧٦٦).

البلد الَّتي فيها صلاح نفسه وما يوصله إلى رضا الله جَلَّجَلَالُهُ.

والشَّافعي رَحِمَهُٱللَّهُ مِنْ محاسن المنقول عنه في أبياته المشهورة:

سَافِرْ تَجِــدْ عِوَضًــا عَمَّــنْ تُفَارِقُــهُ ... وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إِنِّـي وَجَدْتُ رُكُــودَ الْمَـاءِ يُفْسِــدُهُ ... إِنْ سَـالَ طَابَ وَإِنْ لَـمْ يَجْرِ لَـمْ يَطِبِ

هنا يقول:«وَلَا تَلْبَثْ» والأبيات الَّتي بعدها سيتضمَّن الشَّرح لها؛ لأنَّه قال:«وَلَا تَلَبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ» ظلمٌ، وضنكٌ، وما لا تستطيع أن تتعايش معه، ولا تستطيع أن تُغيِّره، قَال:

وَغَــرِّبْ فَالتَّغَـــرُّبُ فِيـــهِ خَيْـــرٌ ... وَشَــرِّقْ إِنْ بِرِيقِــكَ قَــدْ شَرِقْتَــا

لا تستطيع أن تتحمَّل الحياة في هذه الأماكن الَّتي أنتَ فيها، وعلى هذا فاطلب الرَّاحة ولو كان في مَنْأًى وبُعدٍ عن النَّاس وبُعد عن الخلق أو عن المكان الَّذي أَلِفْتَهُ.

«وَغَرِّبْ» أي: اطلب الغَرْبَ، بعيدًا عن ذلك، «وَغَرِّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ... وَشَرِّقْ» أي طلبًا للمشرق «وَشَرِّقْ إِنْ بريقِكَ قَدْ شَرِقْتَا» الشَّافعيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ يقول:

مَا فِـي الْمُقَامِ لِذِي عَقْـلٍ وَذِي أَدَبٍ ... مِــنْ رَاحَــةٍ فَـدَعِ الأَوْطَـانَ وَاغْتَرِبِ

سَافِرْ تَجِــدْ عِوَضًــا عَمَّــنْ تُفَارِقُــهُ ... وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ

إِنِّـي وَجَدْتُ رُكُــودَ الْمَـاءِ يُفْسِــدُهُ ... إِنْ سَـالَ طَابَ وَإِنْ لَـمْ يَجْرِ لَـمْ يَطِبِ

وَالأُسْدُ لَوْلَا فِرَاقُ الأَرْضِ مَـا افْتَرَسَتْ ... وَالسَّهْـمُ لَوْلَا فِـرَاقُ القَوْسِ لَـمْ يُصِبِ

وَالشَّمْسُ لَـوْ وَقَفَتْ فِـي الْفُلْكِ دَائِمَةً ... لَمَلَّهَـا النَّاسُ مِـنْ عَجَـمٍ وَمِـنْ عَرَبِ

وَالتِّبْـرُ كَالتُّـرْبِ مُلْقًـى فِـي أَمَاكِنِـهِ ... وَالْعُـودُ فِـي أَرْضِهِ نَوْعٌ مِـنَ الْحَطَبِ

فَــإِنْ تَغَــرَّبَ هَــذَا عَــزَّ مَطْلَبُــهُ ... وَإِنْ تَغَــرَّبَ ذَاكَ عَـــزَّ كَالذَّهَــبِ

فالنَّاظم رَحِمَهُٱللَّهُ هنا يقول:

وَغَــرِّبْ فَالتَّغَـــرُّبُ فِيـــهِ خَيْـــرٌ ... وَشَــرِّقْ إِنْ بِرِيقِــكَ قَــدْ شَرِقْتَــا

❋ ❋ ❋

حقيقة الزهد ومفهومه الصحيح

ثُمَّ لفت انتباهَهُ إلى قضيَّة: الزُّهد في الدُّنيا، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ... لَأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَا
وَلَوْ فَوْقَ الأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا ... سُمُوًّا وَارْتِفَاعًا كُنْتَ أَنْتَا

هذا هو خَتْمُ هذه المنظومة بالوصيَّة بالزُّهد، مع أنَّ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ جعل هذه المنظومة كلَّها في الوصيَّة بهذا الزُّهد وبيان ما عليه الدُّنيا وكشف حقيقتها وعَوارِها؛ كما مرَّ معنا في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ... تَسُوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَا
وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا ... كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِذْ حَلُمْتَا
سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ ... فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَا
وَتُطعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ ... سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا

هو يُبيِّن لكَ أنَّ هذه الدُّنيا هذا هو حالها: «تَطْعَمُ مِنْكَ مَا فِيهَا طَعِمْتَا»، ومرَّ معنا ما ذَكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا كلِّه.

إلَّا أنَّه هنا قال: «فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا» يقول: مع ما قدَّمتُ لكَ فإنَّ حقيقة الزُّهد ليس أن تكون خامِلاً؛ وما معنى الخُمول؟ إذا نظرنا إلى أكثر عبارات السَّلف الواردة في الزُّهد وفي ذمِّ الدُّنيا وفِي ذمِّ الرِّئاسةِ رأينا أنَّ غالب ما يتكلَّمون به -إنْ لَم يكنْ هذا هو الأصل، إن لَم يكن ليس هناك غيره- هو مدحُ الخمول وطلبه، وأنَّه هو الَّذي يُراد مِنْ أهل الزُّهد، لكن هنا النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا» وظاهر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّه مَحمُولٌ على معنًى آخر ذمَّهُ السَّلف وهو التَّكاسل والتَّماوت والمَسْكنة الظَّاهرة الَّتي تُوحي للإنسان النَّاظر في حال هذا المتنسِّك -أو في حال هذا الَّذي يزعم أنَّه سَلك مسْلك الزُّهد- أنَّه زاهدٌ، ولهذا جاء عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنَّها رأَتْ شبابًا في المدينة يمشون ويتماوَتُون فقالت: (مَنْ هَؤُلَاءِ؟) فقيل: (نُسَّاكٌ) فقالت: (كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَعَ، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكُ حَقًّا)[1] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُوَأَرْضَاهُ، ولهذا أيضًا جاء عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه رأى رجلاً طأْطأَ رقبتهُ في الصَّلاَة فقال: (يَا صَاحِبَ الرَّقَبَةِ، ارْفَعْ رَقَبَتَكَ، لَيْسَ الْخُشُوعُ فِي الرِّقَابِ، إِنَّمَا الْخُشُوعُ فِي الْقُلُوبِ)[2]، وكان حُذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: (إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النِّفَاقِ، فَقِيلَ لَهُ:

[1] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ ج١، ص:٥١٧.
[2] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ ج١، ص:٥١٧.

وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَى الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ)[1]؛ فالنَّاظم هنا يقول:«فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا» تكسُّرًا وتميُّعًا وإظهارًا للمَسْكنةِ في ظاهر البدن مع أنَّ القلب مُترفِّع عن كلِّ أحدٍ، وهذا هو خشوعُ النِّفاق الَّذي عبَّر عنه حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُوَأَرْضَاهُ.

قضيَّة التَّماوُت أو التَّمسكن هذا إنَّما ظهر عندما اختلطت الحضارات وكثُرت الفتوحات ودخل في الدِّين أقوامٌ، بدايتُهُ موجودةٌ بسبب هذه الفتوحات، إلَّا أنَّه ظهر بكثرة في القرن الرَّابع وما بعده، وكان وجوده أيضًا في زمن الحارث المحاسبي، وفي زمن غيره ممَّن كانوا يزعمون التَّنسُّك وهم ليسوا على الهَدْيِ وعلى السَّبيل.

السَّلف عندما كانوا يُشِيدون بالخمول كانوا يُقابلونه بمطلبِ الرِّئاسة والتَّرفع على النَّاس، وتقدَّم معنا الكلام على الرِّئاسة وعلى تحذير النَّاظم منها عند قوله:

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا ... وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْتَا

تقدَّم معنا الكلام على مطلب الحِرص على الرِّئاسة[2].

والرِّئاسةُ الحرص عليها مَذمومٌ، وحُصولها في التَّبعيَّة محمودٌ، هذا الَّذي تدلُّ عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة وآثار السَّلف، ولهذا النَّاظم قال في أوَّل منظومته:

«أَبَا بَكْرٍ» دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ... إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا
إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ... مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

وهذا هو الرِّئاسة، هذه حقيقةُ العلم، ولكن أن يكون هذا هو المقصود فهذا هو المذموم، ولهذا النَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال كما في صحيح مسلم في حديث أبي إسحاق سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُوَأَرْضَاهُ -أحدُ العشرة المبشَّرين بالجنَّة-:«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ»[3] هذا هو العبد الَّذي يُحبُّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الشَّاهد مِنْ هذا أنَّ حرص الإنسان على العلم وعلى ما تَحْصل به الرِّئاسة وسَعيُه مِنْ أجلها: هذا هو الَّذي ذمَّه السَّلف، واعتاضوا عنه لطالبِ العلم بأن يكون خاملاً بعيدَ الذِّكر، فإذا جاء مقامه كان هو المطلوب، إذا احتاجه النَّاس، إذا قَصده النَّاس، إذا كان النَّاس بحاجةٍ إلى علمه، إلى وعظه، إلى تذكيره فإنَّه يكون في حالها.

---

[1] "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله؛ ج١، ص:٥١٧.

[2] انظر الصفحة: ٦٦

[3] عَن عَامِرِ بْنِ سَعْد قَالَ: (كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ) رواه مسلم (٢٩٦٥).

ومرَّ معنا أنَّ إبراهيم النَّخعي كان يقول: (وَاللَّهِ لَقَدْ تَكَلَّمْتُ، وَلَوْ وَجَدْتُ بُدًّا مَا تَكَلَّمْتُ، وَإِنَّ زَمَانًا أَكُونُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الْكُوفَةِ زَمَانُ سُوءٍ)[١]، كما قال سُفيان أيضًا: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ضَيَّعَ هَذِهِ الْأُمَّةَ حَيْثُ احْتِيجَ إِلَى مِثْلِي)[٢].

الشَّاهد أنَّ النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا» ليس هو أن تكون خاملاً، وأيضًا تفسير ما في بداية البيت جاء في نهايته: «لَأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَا».

«فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا» يعني التَّكسُّر أو التَّماوت أو زعم أنَّك لا تُريد شيئًا مِنَ الدُّنيا الَّذي فَطر الله النَّاس عليه، «لَأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَا» أنتَ الأمير حقًّا ولكن إذا زهدت، ولهذا قال بعد ذلك:

وَلَـوْ فَـوْقَ الأَمِيـرِ تَكُـونُ فِيهَـا ... سُمُـوًّا وَارْتِفَعًـا كُنْـتَ أَنْتَـا

يعني لو كنتَ فوق الأمير -وليس الأميرَ فقط- وأنتَ ملازم للزُّهد والبُعد عن الدُّنيا ومواطن الرِّيَبِ فيها وطلب الرِّئاسة، وأن يكون حظُّك مِنَ الدُّنيا هو الدُّنيا، لأنَّ مَنْ كان حظُّه مِنَ الدُّنيا هو الدُّنيا فذاك هو الخسران المبين -عياذًا بالله-.

وحقيقة الزُّهد أن تأتيك الدُّنيا وتأخذ منها حاجتك، ولهذا كان مضرب الأمثال في زهدِ السَّلف: الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْوَأَرْضَاهُمْ، وخصوصًا لمَّا جاءتهم الدُّنيا بعد الفتوحات الكثيرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ثُمَّ مَنْ جاء بعدهم، وكان في قِمَّة هذه الأمثال في التَّابعين: عُمر بن عبد العزيز الَّذي انتهت إليه الخلافة وكان أزهد النَّاس في الخلافة وما يتبع الخلافة مِنَ الجاه والسُّلطان والنُّفوذ وكثرة المال، بل إنَّه انتزع المظالِمَ كلَّها مِنْ بنِي أُميَّة وأحيا السُّنن وأماتَ البدع الَّتي ظهرت، وزهد في الدُّنيا زُهدًا ذكروا أنَّ امراته فاطمة بنت عبد الملك رَحِمَهَاٱللَّهُ قالت يومًا لعمر بن عبد العزيز: (أَرَاحَنَا اللهُ مِنْكَ، قَالَ: آمِين)[٣] لِمَ؟ لأنَّه منعَ عنهم ما كانُوا عليه، وردَّ المظالِمَ لأهلها، هذا هو الزُّهد أن لا تأخذ مِنَ الدُّنيا إلَّا ما هو لك، وأخْذُ الإنسان مِنَ الدُّنيا ما هو له لا ينافي الزُّهد بأيِّ حالٍ من الأحوال.

شيخ الإسلام عرَّف الزُّهد بكلمة هي مِنْ أجمع الكلمات -وهي الَّتي دَندن عليها تلميذه ابن القيم وقال بأنَّها هي

[١] "سنن الدارمي" ص:١٨٢
[٢] "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني؛ ج٧، ص: ٦٤.
[٣] "كشف الكُربة في وصف حال أهل الغربة" لابن رجب الحنبلي رحمه الله، ص:٨.

الحق–؛ قال: (الزُّهْدُ: تَرْكُ مَا يَضُرُّ الْعَبْدَ فِي الآخِرَةِ)[1] هذا هو الزُّهد في الدُّنيا.

إذا فَقُهْتَ هذا عرفت ما هو الزُّهد الَّذي كان عليه السَّلف، ولهذا النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ**»[2] وجاء في رواية: «**وَآكُلُ اللَّحْمَ**»[3]، «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[4] وهذه الأشياء هي مِنَ المطالب الَّتي يحتاجها الإنسان بغريزته وفطرته في حياته: يحتاج أَن ينام، يحتاجُ أن يُفطر، يحتاج أن يأْكُل اللَّحم، يحتاج أن يتزوَّج النِّساء ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد:٣٨].

«وَلَوْ فَوْقَ الْأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا» وأنتَ مُلازمٌ للزُّهد وطالبٌ للزَّهادة في الدُّنيا «سُمُوًّا وَارْتِفَعًا كُنْتَ أَنْتَا» يعني أنتَ الَّذي عرفتَ ما هو الزُّهد وعرفتَ ما هي حقيقته، لا تعارُضَ في أن يكون الإنسان ملكًا وزاهدًا في الدُّنيا يأخذ ماله مِنَ الدُّنيا ويأخذ حظَّه مِنَ الدُّنيا، ومَنْ نظر في سِيَر السَّلف وفي سِيَر الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفي سِيَر مَنْ جاء بعدهم عَلم أنَّهم كانوا يعنون بالزُّهد –في كثيرٍ مِنَ الأحيان–: الْبُعد عَن الْحَرام وأَكل الحلاَل، يعني معرفة المكاسب، حتَّى لَمَّا قيل لِمحمَّد بن الحسن: (أَلَا تُصَنِّفُ كِتَابًا فِي الزُّهْدِ؟ قَالَ: قَدْ صَنَّفْتُ كِتَابًا فِي الْبُيُوعِ)[5] انظر إلى الفقْهِ، هذا فقهٌ دقيقٌ، معناه أَنَّه يقول: إنَّ مَنْ عَرفَ ما يدخل وما يخرج عليه فإنَّه قد زهد في الدُّنيا.

والزُّهد في الدُّنيا على مراتب لأنَّه هو حقيقة التَّقوى، وجاء عن الحسن البصري أَنَّه كان يقول: (مَازَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ حَتَّى تَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَلاَلِ مَخَافَةَ الْحَرَامِ)[6] هذا هو الزُّهد الَّذي عناه النَّاظم –رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ–.

❋ ❋ ❋

الانتقال إلى دار السَّلام

يرجعُ إلى أمر الدُّنيا ويندُبُ ما تنتهي إليه، يقول:

---

[1] "دقائق التَّفسير" لابن تيمية رحمه الله، ص: ٧٣.

[2] متَّفق عليه، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ لمسلم (١٤٠١).

[3] قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" (٤/٤٤٥): (رَوَى ابْنُ سَعْدٍ (٣/٣٩٤) بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ: أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ أَرَادَ أَنْ يَخْتَصِي وَيَسِيحَ فِي الأَرْضِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: أَلَيْسَ لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ؟ فَأَنَا آتِي النِّسَاءَ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ).

[4] مُتَّفق عليه، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[5] "المبسوط" للسرخسي رحمه الله (١١١/١٢) بهذا اللفظ، وجاء في "الحاوي الكبير" للماوردي رحمه الله (١١/٥) بلفظ: (أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الحَسَنِ قِيلَ لَهُ: هَلَّا صَنَعْتَ كِتَابًا فِي الزُّهْدِ، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، قِيلَ: فَمَا ذَلِكَ الْكِتَابُ؟ قَالَ: هُوَ كِتَابُ الْبُيُوعِ).

[6] "جامع العلوم والحكم" لابن رجب رحمه الله؛ ج١، ص٢٠٩.

فَـإِنْ فَارَقْتَهَـــا وَخَرَجْـــتَ مِنْهَـا إِلَـى «دَارِ السَّـــلاَمِ» فَقَـدْ سَلِمْتَـا

النَّاظم يُكرِّر مسألة السَّلامة -السَّلامة في الدُّنيا والسَّلامة في الآخرة-.

فَـإِنْ فَارَقْتَهَـــا وَخَرَجْـــتَ مِنْهَـا إِلَـى «دَارِ السَّـــلاَمِ» فَقَـدْ سَلِمْتَـا

دار السَّلام هي الجنَّة ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾[الحجر:٤٦].

- **لماذا سُمِّيت «دار السَّلام»؟**

لأنَّه ليس فيها إلَّا السَّلامة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨]، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[طه:١١٨-١١٩] وهذا غاية ما تريدهُ النَّفس، ولهذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ فيها المزيد:﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٥]، وقال جَلَّوَعَلَا:﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦] وتلك هي دار السَّلام، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم -مُبيِّنًا هذه الحقيقة الَّتي ذكرها النَّاظم في هذا البيت «فَقَدْ سَلِمْتَا»-:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]، ولهذا قال سبحانه:﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾[القصص:٦٠] هذه هي الدُّنيا، ولهذا أيضًا قال ربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُبيِّنًا حقارتها ومُبيِّنًا أنَّ مَنْ صرف نفسه إليها فقد انصرف إلى أن يتمكَّن منه إبليس:﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[فاطر:٦]، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].

ثُمَّ قال:«وَإِنْ أَكْرَمْتَهَا» أكرمتَ هذه الحياة الدُّنيا، نظرتَ لَهَا بعينِ الإكرام.

«وَإِنْ أَكْرَمْتَهَا وَنَظَرْتَ فِيهَا... بِإِجْلاَلٍ» الباء هنا للمصاحبة، يعني الإكرام مصحوبٌ بالإجلال، فإذا كان الإكرام غير مصحوب بالإجلال فهو محمودٌ لأنَّه إكرامٌ لِمَا هو وسيلة لِما أكرمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن إذا نظرَ إليها الإنسان مع الإجلال لَهَا وأنَّها هي محطَّته وهي محلُّه وهي بدايته وهي نهايته وهي فَوزُه وهيَ خسارته فذلك قد ملَّكَ نفسه الدُّنيا -عياذًا بالله-، ولهذا يقول:«وَإِنْ أَكْرَمْتَهَا وَنَظَرْتَ فِيهَا» نظرتَ في حال الدُّنيا، «بِإِجْلاَلٍ» مع الإكبارِ والتَّكريمِ والإجلالِ «فَنَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا» والله جَلَّوَعَلَا ما آتى الإنسان هذه النَّفس إلَّا ليُكرمها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشَّمس:٩-١٠]، وكما في صحيح مُسلم في حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:«**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا**»[1].

---

[1] رواه مسلم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

❁ ❁ ❁

مِنْ حُقُوقِ مَشَايِخِنَا عَلَيْنَا

وهنا أكمل النَّاظم هذه المنظومة ورجع إلى الاعتذار عمَّا قاله فيها وإلى أهميِّة ما قاله فيها، يقول:

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا ... حَيَاتَكَ فَهِيَ أَجْدَرُ مَا امْتَثَلْتَا

«جَمَعْتُ لَكَ» هذا ممَّا يُشكر عليه أهل العلم، ليس فقط في هذا الباب -في نصائح أهل العلم-، يجمع لك كتابًا في النَّحو أو كتابًا في المصطلح أو كتابًا في الاعتقاد أو كتابًا في التَّوحيد، حقٌّ لَهم أن تشكرهم، أن تدعُو لَهم، أن تُثنِيَ عليهم، أئمَّةُ الإسلام هم أهلُ الهدى ومصابيح الدُّجى، ورحم الله الذَّهبي -لا يحضرني بمناسبة ماذَا ذكر هذا-[1]، لكن ذكر كلمة عظيمة جدًّا قِيلَت لأحدهم وقع في بعض الأئمَّة- وهي: (إِنَّمَا نَحْتَرِمُكَ مَا احْتَرَمْتَ الْأَئِمَّةَ)[2] كلمةٌ عظيمةٌ، بل في غايةِ العظمة.

فهو يقول: «جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ» وحقُّ مَنْ جُمع له شيءٌ وأُعطِيَه بهذه السُّهولة وبهذه السَّلاسة أن يكون حقُّه: الشُّكر والثَّناء والدُّعاء، وهذا الَّذي كان عليه السَّلف، ابن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لـمَّا ذكر منظومة القواعد الفقهية قال:

وَهَذِهِ قَوَاعِدٌ نَظَمْتُهَا ... مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَدْ حَصَّلْتُهَا

جَزَاهُمُ الْمَوْلَى عَظِيمَ الأَجْرِ ... وَالْعَفْوَ مَعْ غُفْرانِهِ وَالْبِرِّ

---

[1] ذكره الذهبي رحمه الله في "سير أعلام النبلاء" (١٩/٥٨٢) قال: (قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ: كَانَ الْعَبْدَرِيُّ أَحْفَظَ شَيْخٍ لَقِيتُهُ، وَكَانَ فَقِيهًا دَاوُودِيًّا، ذَكَرَ أَنَّهُ دَخَلَ دِمَشْقَ فِي حَيَاةِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي الْعَلَاءِ، وَسَمِعْتُهُ وَقَدْ ذُكِرَ مَالِكٌ، فَقَالَ: جِلْفٌ جَافٍ ضَرَبَ هِشَامَ بْنَ عَمَّارٍ بِالدِّرَّةِ، وَقَرَأْتُ عَلَيْهِ "الْأَمْوَالَ" لِأَبِي عُبَيْدٍ، فَقَالَ -وَقَدْ مَرَّ قَوْلٌ لِأَبِي عُبَيْدٍ-: مَا كَانَ إِلَّا حِمَارًا مُغَفَّلًا لَا يَعْرِفُ الْفِقْهَ، وَقِيلَ لِي عَنْهُ: إِنَّهُ قَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: أَعْوَرُ، سُوءٌ، فَاجْتَمَعْنَا يَوْمًا عِنْدَ ابْنِ السَّمَرْقَنْدِيِّ فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ "الْكَامِلِ" فَجَاءَ فِيهِ: وَقَالَ السَّعْدِيُّ كَذَا، فَقَالَ: يَكْذِبُ ابْنُ عَدِيٍّ، إِنَّمَا ذَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْجُوْزَجَانِيِّ، فَقُلْتُ لَهُ: فَهُوَ السَّعْدِيُّ، فَإِلَى كَمْ نَحْتَمِلُ مِنْكَ سُوءَ الْأَدَبِ، تَقُولُ فِي إِبْرَاهِيمَ كَذَا وَكَذَا، وَتَقُولُ فِي مَالِكٍ جَافٍ، وَتَقُولُ فِي أَبِي عُبَيْدٍ؟! فَغَضِبَ وَأَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ، وَقَالَ: كَانَ ابْنُ الْخَاضِبَةِ وَالْبَرَدَانِيُّ وَغَيْرُهُمَا يَخَافُونِي، فَآلَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَقُولَ فِيَّ هَذَا؟! فَقَالَ لَهُ ابْنُ السَّمَرْقَنْدِيِّ: هَذَا بِذَاكَ، فَقُلْتُ: **إِنَّمَا نَحْتَرِمُكَ مَا احْتَرَمْتَ الْأَئِمَّةَ**، فَقَالَ: وَاللَّهُ لَقَدْ عَلِمْتُ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ غَيْرِي مِمَّنْ تَقَدَّمَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مَا لَمْ يَعْلَمَاهُ، فَقُلْتُ مُسْتَهْزِئًا: فَعِلْمُكَ إِلْهَامٌ إِذًا، وَهَاجَرْتُهُ، وَكَانَ سَيِّئَ الاعْتِقَادِ، يَعْتَقِدُ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ظَاهِرَهَا، بَلَغَنِي عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي سُوقِ بَابِ الْأَزَجِ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَضَرَبَ عَلَى سَاقِهِ، وَقَالَ: سَاقٌ كَسَاقِي هَذِهِ).

[2] "سير أعلام النبلاء" للإمام الذَّهبي رحمه الله؛ ج١٩، ص:٥٨٢، عن الحافظ ابن عساكر رحمه الله.

أبعدَ مِنْ هذا: الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (مَا بِتُّ مُنْذُ ثَلاَثِينَ سَنَة إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو لِلشَّافِعِيِّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُ)[1] رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، هذا الَّذي صرَّح به أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنَّه سُئِل عنه، لأنَّهم كانوا لَا يُظهرون أعمالهم، لِمَ؟ لأنَّ الإمام أحمد سأله ابنه عبدالله عن الشَّافعي فقال: (كَانَ الشَّافِعِيُّ كَالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا، وَكَالعَافِيَةِ للْبَدَنِ)[2] لَا تظنُّوا أنَّ الَّذين جاءوا مِنْ بعدِ الَّذين قبلهم نزل هذا مِنْ على كرسيٍّ وجلس هذا مكانه! ما نالوا منازلهم إلَّا بالسَّيْر على سبيلهم، وما ارتفع التَّابعون إلَّا بإجلال الصَّحابة، وما ارتفع تابعُ التَّابعين إلَّا بإجلال التَّابعين والأخذ عنهم، الإجلال الشَّرعيُّ، وليس إجلالًا فلسفيًّا أو صُوفيًّا يصل الأمر به إلى الغُلوِّ؛ انظر إلى تراجم الأئمَّة، سيتَّسع بنا المقام إذا دخلنا في مثل هذا الباب.

ذكرتُ لكم مِرارًا قولة ابن جرير الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي قُرَّة عين -في هذا الباب- لطالب العلم ليعرف مسالك أهل العلم كيف تعاملوا مع بعضهم البعض، وأنَّ لكلِّ إنسانٍ حدًّا[3]؛ الأُصوليُّون يذكرون في كتب «أصول الفقه» تجزُّؤ الاستفادة، أنتَ لا يُمكن أن تصلَ لاجتهادك في كلِّ بابٍ مِنْ أبوابِ العلم، ومَنْ قال هذا فإنَّ دونه خرطُ القتَاد، وادَّعى كذِبًا وزورًا، ولهذا الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لـمَّا تكلَّم على لُغة العرب قال: (لَا نَعْلَمُهُ يُحِيطُ بِجَمِيعِ عِلْمِهِ إِنْسَانٌ غَيْرُ نَبِيٍّ)[4] وهذا في جميع العِلم، وأيضًا لـمَّا ذكر السُّنَّة قال: (لَا نَعْلَمُ رَجُلاً جَمَعَ السُّنَنَ فَلَمْ يَذْهَبْ مِنْهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ)[5] وهذا كثيرٌ في نهج السَّلف؛ لا بدَّ وأن يفوتك شيء يحتاج أن تُكمِّله مِنْ غيرك مِنْ أهل العلم.

يقُول:«جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا» قال جمعتها لك وأنتَ امتثلها.

وأنتَ إذا درستَ كتابًا في النَّحو، في الأُصول، في العقيدة، في التَّوحيد، اشكر لأهل العلم، ليسوا معصومين ولا يمكن أن يكونوا معصومين، ولا يُمكن أن تجد كتابًا ككتاب ربِّ العالمين، وإلَّا ما الفرق بين الخالق والمخلوق؟ لا يُمكن أن يكون هذا.

---

[1] "وفيات الأعيان" لابن خلكان رحمه الله؛ ص: ١٦٤

[2] قال عَبْد اللهِ بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل: (قُلْتُ لأَبِي: أَيّ رَجُلٍ كَانَ الشَّافِعِيُّ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُكَ تُكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، كَانَ الشَّافِعِيُّ كَالشَّمْسِ للدُّنْيَا، وَكَالْعَافِيَةِ لِلْبَدَنِ، هَلْ لِهَذَيْنِ مِنْ خَلَفٍ أَوْ عَنْهُمَا عِوَضٌ؟) "وفيات الأعيان" لابن خلكان رحمه الله؛ ص١٦٤.

[3] مَقُولَة ابْن جَرِيرٍ الطَّبَري -الَّتِي أَرَادَهَا-: قَالَ شَيْخُنَا مُصطَفَى مَبْرم حَفِظه الله فِي مَوْضعٍ آخَرَ: (ابْنُ جَرِيرٍ لَمَّا ذَكَرَ مَسْأَلَةَ اللَّفْظِ فِي الْقُرْآن فِي كِتَابِ "صَرِيحِ السُّنَّة" لَمْ يَقِفْ عَلَى شَيْءٍ، أَوْسَعُ النَّاسِ حِفْظًا فِي زَمَانِه -وَكُتُبُهُ شَاهِدَةٌ عَلَيْهِ- كِتَابُ "تَهْذِيبِ الآثَارِ" عَلَى مَا بَقِيَ مِنْه، وَكِتَابُ "التَّفْسِير".. وَكُلُّ هَذَا يَكْتُبُونَهُ مِنْ حِفْظِهِم، يَحْفَظُونَهُ ثُمَّ يَجلِسُونَ لِلعِلْمِ) اهـ.

[4] قال الشَّافعي رحمه الله: (وَلِسَانُ الْعَرَبِ أَوْسَعُ الأَلْسِنَة مَذْهَبًا وَأَكْثَرهَا أَلْفَاظًا وَلَا نَعْلَمُهُ يُحِيطُ بِجَمِيعِ عِلْمِهِ إِنْسَانٌ غَيْرُ نَبِيٍّ) "الرسالة" للشافعي رحمه الله، ص٤٢.

[5] "الرسالة" للشافعي رحمه الله، ص٤٢.

❊ ❊ ❊

ثناء العلماء على كتبهم

هنَا يقُول:«جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا... حَيَاتَكَ» يعني الْتزمها طيلة حياتك «فَهِيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا» أفضل ما امتثلت هو هذا، وهذا يقع في كتبِ أهل العلم: يُثنون على الكتب باعتبار ما تضمَّنته مِنَ الدَّلالة إلى الهدى والرَّشاد، لو نظرتَ إلى كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتكلَّم على كتابه «جلاء الأفهام» تقول: (أيّ شيءٍ يقوله هذا؟) هم يريدون بذلك الثَّناء على العلم، لَا يُريدون أن يُعظِّموا أنفسهم، وليس مِنْ طريقتهم أن يَحطُّوا مِنْ كلام أئمَّتهم والَّذين تقدَّموهم، وإذا قالوا عبارةً، قالوا: (ربَّما لَا تَجِدهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ) أمَّا أن يأتي هو نفسُه ويَعقد مُقارنة بين طرحه وطرح غيره فلم يكن هذا معروفًا عند السَّلف أبدًا ولَا معروفًا عند أهل العلم وأئمَّة الإسلام، إذا أثنوا زادوا كلمة فقالوا: (بِمَا لَا يُوجَدُ فِي مَكَانٍ آخَرَ) والكُتب بيننا -كتب أهل العلم الَّتي يُوجد فيها شيءٌ مِنْ هذا الثَّناء-.

أيضًا لمَّا تنظر لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنَّصارى» ذكر شيئًا مِنْ هذا، وأثنى على كتابه ثناءً كثيرًا، وهذا موجودٌ أيضًا في كتاب البَرْبَهَاري، وموجودٌ أيضًا في كتب كثيرٍ مِنَ الأئمَّة.

فهُو يقُول:

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا ... حَيَاتَكَ فَهِيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا

«أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا» لماذا؟ فيها دلالة على الكتاب والسُّنَّة، قرأناها مرارًا -مِنْ أوَّلها إلى آخرها- كلُّها مِمَّا يدُلُّك على الكتاب وعلى السُّنَّة وعلى الزُّهد في الدُّنيا، هذا ما يفعله أهل العلم.

❊ ❊ ❊

إطالة العتاب إشفاقًا على المعاتب

ثُمَّ قَال:«وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ» طوَّلتُ مُعاتبك لأنَّ هذا لمصلحتك، وأنتَ قد تُطوِّل وتُكرِّر على

الإنسان، لِمَ؟ لشفقتك عليه، ولمصلحته، «وَطَوَّلْتُ الْعِتابَ وَزِدْتُ فِيهِ» لِـمَ؟ «لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا» لأنَّك في هذه البطالة، و«البطالة» ما زال مُصطلحًا معروفًا: تركُ العمل، تركُ الاجتهاد، «لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا» هذا السَّبب، وكلَّما تمادى الإنسان في باطلٍ كلَّما احتاج إلى شيءٍ مِنَ التَّوجيه وشيءٍ من النُّصح.

❋ ❋ ❋

مِنْ آدَابِ الْمَوْعُوظِ

ثمَّ يقول راجعًا إلى نفسه على ما ابتدأ به:

وَلَا يَغْــرُرْكَ تَقْصِيــرِي وَسَهْــوِي   وَخُــذْ بِوَصِيَّتِــي لَـكَ إِنْ رَشَدْتَــا

لا يغررك ما أنا فيه مِنَ السَّهوِ، مِنَ الزَّللِ، مِنَ النَّقص، مِنَ التَّقصير؛ خُذ أنتَ بنصيحتي، وهذه المسألة أيضًا مرَّ معنا مُعالجتها في شرح هذه المنظومة لمَّا تكلَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى بعود العِتاب إلى نفسه.

يقُول:«وَلَا يَغْرُرْكَ تَقْصِيرِي» لأنَّك إذا نظرتَ إلى مُحدِّثك بعين النَّقص والتَّقصير لَم تنتفع بعلمه، ولابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فيما يحضرني في منزلة التَّذكُّر مِنْ «مدارج السَّالكين» كلامٌ نفيسٌ جدًّا فيما يتعلَّق بكيفيَّة الانتفاع بالذِّكرى، وأنَّ مِنْ أعظم أسباب الانتفاع بالذِّكرى إذا سمعتها مِنْ غيرك: (الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ)[1].

لسنا نقول أنَّ الإنسان يَجلس إلى أهل الأهواء والبدع، نحن نتكلَّم إذا تكلَّمنا في مضمار وميدان أهل السُّنَّة وأئمَّة الدِّين، لا نتكلَّم على أهل الأهواء والبدع، حُصونُنا محفوظة مِنْ أن يلج فيها أهل البدع.

❋ ❋ ❋

[1] قال ابن القيِّم رحمه الله: (وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْعِظَةِ بَعْدَ حُصُولِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: شِدَّةِ الافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ، وَتَذَكُّرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ) إلى أن قال رحمه الله: (وَأَمَّا الْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ حُرِمَ الانْتِفَاعَ بِمَوْعِظَتِهِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى عَدَمِ الانْتِفَاعِ بِكَلَامِ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِعَمَلِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ) وأضاف رحمه الله: (فَالْعَمَى عَنْ عَيْبِ الْوَاعِظِ مِنْ شُرُوطِ تَمَامِ الانْتِفَاعِ بِمَوْعِظَتِهِ) "مدارج السالكين"؛ ج١، ص: ٤٤٦ (باختصار).

بُطْلَانُ قَاعِدَةِ: «حَمْلِ الْمُجْمَلِ عَلَى الْمُفَصَّلِ» فِي كَلَامِ النَّاسِ

مرَّةً قبل سنواتٍ طويلةٍ -لا تربو على سبعة عشر عامًا-، أُنبِّه على هذا لأنَّه أحيانًا مِنْ مثل هذه الأشياء الَّتي قد لا يُفصِّل فيها الإنسان ما فصَّله في مكان آخر، ليس معناه رجوع المُجمل إلى المُفصَّل، هذا باطلٌ بلا شكٍّ، مِنْ أبطل الباطل، بل حملُ المُجمل على المُفصَّل هو أعظم حُصون أهل البدع ومَنْ يُدافع عنهم، إذا سلَّمتَ بِحَمْل المُجمل على المفصَّل فاعلم أنَّه قد أُسقط المنهج السَّلفي في يدك.

-وسأذكر موقفًا آخر وسنختم المنظومة-:

كنتُ أَلْقيتُ محاضرةً عن «الأُخُوَّة» في جَمْعٍ كبير -يعني يُعتبر في أكبر مساجد عدن-، وتكلَّمتُ فيها عن الأُخوَّة، وما ينبغي، وما يجب، وحقوق الأخُوَّة، وحقُّ الأخ على أخيه، وكان هناك طُلاَّب العلم مِنَ المشهورين المحسوبين في المشايخ، فقام وتكلَّم بعدي بعد أن أذنتُ له -هذه عادةٌ جَرت عندنا أحيانًا هناك-، وأنا لا أُريد أن أذكر هذا لأنَّ المقام ليس هذا مقامه أن يُذكر، فتكلَّم على أُخُوَّة أهل البدع وعلى أُخُوَّة المبتدعة! ما الَّذي جاء بهذا إلى هذا المقام؟ أحيانًا قد لا يكون هذا المقام لأنَّك تريد أن تُعظِّم أمرًا في نفوس السَّامعين، والشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن رَحِمَهُٱللَّهُ له نكتة لطيفة في هذا الباب لـمَّا ردَّ على عُثمان بن منصور في كتابه الَّذي خلَّفه وكان المفهوم منه أنَّه يُريد أن يطعن -وإن لم يُسمِّ- في الشَّيخ مُحمَّد بن عبد الوهَّاب وفي الدَّعوة بأنَّهم مِنَ الخوارج، فقال: (مَا الْحَاجَةُ إِلى كِتَابٍ كَهَذَا! لِمَنْ كَتَبْتَهُ ولَيْسَ فِي نَجْدٍ إلَّا أَهْلُ التَّوحِيدِ وَالسُّنَّةِ؟) وليس معنى قول الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن أيضًا أنَّه يمنع مِنْ هذا الكتاب، ولكن لكلِّ شيءٍ مقامه، ولكلِّ مقامٍ مقال.

سأرجع لأَذكر موقفًا يتعلَّق بحَمل المُجمل على المفصَّل:

وهو الَّذي تُلاحظون أنَّ الدِّفاع هذه الأيَّام عن الرّضواني بهذه القاعدة أكثر مِنْ غيرها في ساحة «كتاب التَّوحيد»، كما قلتُ لكم قبل قليلٍ:«جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا» نشكر أهل العلم على كتبهم، لـمَّا تُكُلِّم في هذا المقام ما ذهبوا يقولون له: (هَذَا الَّذِي قُلْتَهُ خَطَأٌ) بل ذهبوا يُنقِّبون ويُفتِّشون على ثناءات الرّضواني على دعوة الشَّيخ مُحمَّد بن عبد الوهَّاب وعلى «كتاب التَّوحيد»! وما الَّذي ينفع لو قضى قرونًا يُدافع عنه وعن الدَّعوة وعن «كتاب التَّوحيد» ثمَّ بعد ذلك يقول: (هَذَا التَّوْحِيدُ مَا ينفَع نَتَوَسَّع فِيهِ، لَيْسَ فِيهِ تَأْصِيلٌ عِلْمِيٌّ، لَيْسَ فِيهِ التَّأْصِيلُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ السَّلَفِ)؟ هذا قولٌ باطلٌ.

في مُناقشة أبي الحسن المأربي -الَّتي كانت في عام ثلاثة وعشرين (هـ) في شعبان-، كنا نُناقشه عن مسألةٍ، قال في مضمونِ كلامه -وهذا مُسجَّل كلُّه- لا تحضرني المسألة، الظَّاهر هي مسألة «الغثائية» في الصَّحابة، -تَنَبَّه لهذه القواعد لأنَّها بها يُهدم المنهج السَّلفيُّ-: الشَّاهد أنَّه لَمَّا نُوقش في قضية الغُثائية -كنَّا نناقشهُ في قضيَّة الغُثائية- قال: (أَنَا لِي كَلاَمٌ كَثِيرٌ فِيهِ ثَنَاءٌ عَلَى الصَّحَابَةِ وَفِيهِ مَدْحُ الصَّحَابَةِ) قلتُ لهُ: (هَذَا حَمْلٌ لِلْمُجْمَلِ عَلَى المُفَصَّلِ، هَذِهِ قَاعِدَةٌ بَاطِلَةٌ) أحدُ الَّذين كانوا معي يُناقشونهُ قال: (يَا أَبَا يُوسُفَ اتْرُكْ هَذِهِ المَسْأَلَةَ الآنَ) قلتُ: (إِذَا سَلَّمْتَ لَهُ بِهَذِهِ المَسْأَلَةِ فَخَيْرٌ لَنَا أَنْ نَقُومَ مِنَ الآن، لِأَنَّهُ مَا سَيأْتِيكَ بِبَاطِلٍ يَذْكُرُهُ فِي هَذَا المَجْلِسِ إِلَّا وَلَهُ مِنَ الْكَلاَمِ فِيهِ بِحَقٍّ أَكْثَرَ مِنْهُ، نَحْنُ نُنَاقِشُ الخَطَأَ الآنَ وَلَا نُنَاقِشُ مَاذَا لَهُ مِنَ الكَلاَمِ فِيهِ، الإِنْسَانُ يَمْدَحُ الصَّحَابَةَ طِيلَةَ عُمُرِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «عِنْدَهُمْ خَلَلٌ فِي التَّرْبِيةِ»! مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ هَذَا؟ مَا الَّذِي تُرِيدُهُ مِنْهُ؟ مَاذَا يَشْفَعُ لَهُ هَذَا؟ أَوْ يَقُولُ:«عِنْدَهُمْ غُثَائِيَّةٌ» أَوْ «عِنْدَهُمْ خَلَلٌ فِي التَّرْبِيةِ» «وَمِسْطَحٌ انْزَلَقَ، وَأُسَامَةُ بْن زَيْدٍ حَكَّمَ العَوَاطِفَ وَلَمْ يُحَكِّمِ الْعِلْمَ» هَلْ نَقُولُ لَهُ هَذَا الْكَلاَمَ: حَمَلْتَ المُجْمَلَ عَلَى المُفَصَّلِ؟ لَهُوَ خَيْرٌ لَنَا أَنْ نُسَلِّمَ لَهُ بِهَذَا وَنَمْشِي! مَا سَيَأْتِيكَ بِكَلاَمٍ لِلْبَاطِلِ إِلَّا وَلَهُ بِهِ مِنْ حَقٍّ).

ولهذا حفظ الله الشَّيخ ربيعًا لَمَّا كتب كتابه في قضية «حمل المجمل على المفصَّل» بناءً على هذه المناقشة، -بعد ما كانت هذه المناقشة-.

وذكرتُ لهم في المجلس أنَّ الشَّوكاني في كتابه الَّذي كتبه في الملحدين ذكر الإجماع على عدم حَمل المجمل على المفصَّل في غير كلام الشَّارع[1]، وذكره عن البقاعي، والبقاعي لَمَّا ردَّ على ابن عربي تبنَّى هذا الأمر، وهو الَّذي فتق هذه القضية، كيف؟ ابن عربي له وله وله، فإذا حملنا المجمل على المفصَّل فقد سُقط في أيدينا، مَنْ سيستطيع أن يُدافع عن المنهج السَّلفي بمثل هذه الطَّريقة وبمثل هذه الصُّورة؟

❊ ❊ ❊

[1] قال الإمام الشَّوكاني رحمه الله: (قَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ لَا يُؤَوَّلُ إِلَّا كَلَامُ الْمَعْصُومِ) "الصوارم الحداد"، ص٩٧.



خَاتِمَـــةٌ

يقُـول خاتِمًـا: «وَقَدْ أَرْدَفْتُهَـا تِسْـعًا حِسَـانًا» تسـعة أبيـاتٍ، «وَكَانَـتْ قَبْـلَ ذَا مِائَـةً وَسِـتًّا» كـم المجمـوع؟ خمسة عشرة ومائة.

فَـصَـــلِّ عَلَـى تَـمَــامِ الـرُّسْـلِ رَبِّي وَعِـتْـرَتِــهِ الْكَـرِيـمَــةِ مَــا ذُكِـرْتَـا

«وَعِتْرَتِهِ» يعني آل بيته «وَعِتْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ مَا ذُكِرْتَا».

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التَّوفيق والسَّداد، والهدى والرَّشاد

وأن يُوفِّقنا للعلم النَّافع والعمل الصَّالح.

والحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين


تم بحمد الله

فهرس

مُقَدِّمَـةٌ ٣
نُبْذَةٌ عَنِ الشَّيْخِ الشَّارِحِ ٥
مَتْنُ الْقَصِيدَةِ التَّائِيَّةِ ١٠

شرح المنظومة:

مُقَدِّمَةٌ........ ١٧
الْحَثُّ عَلَى التَّحَلِّي بِالآدَابِ وَاجْتِنَابِ مَا يُعَابُ ١٨
التَّعْرِيفُ بِالنَّاظِمِ ٢١
التَّعْرِيفُ بِالْمَنْظُومَةِ ٢٢
ذِكْرُ هَادِمِ اللَّذَاتِ ٢٤
التَّحْذِيرُ مِنَ الاغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا ٢٧
الفَرْقُ بَيْنَ وَيْلٌ وَ وَيْحٌ ٢٨
التَّحْذِيرُ مِنَ الاغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا «تَتِمَّةٌ» ٢٩
مَنِ الْمَقْصُودُ بِـ«أَبِي بَكْرٍ»؟ ٣١
فَضْلُ الْعِلْمِ وَشَرَفُ أَهْلِهِ ٣١
أَثَرُ الْعِلْمِ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ٣٥
الْعِلْمُ سَبِيلُ الرِّفْعَةِ ٣٧
بَقَاءُ أَجْرِ الْعِلْمِ بَعْدَ وَفَاةِ صَاحِبِهِ ٣٧
سُلْطَانُ الْعِلْمِ ٣٩
أَهَمِّيَّةُ الْحِفْظِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ ٤٠

يَزِيدُ بِالْإِنْفَاقِ وَيَنْقُصُ بِالْإِقْتَارِ ٤٤
حلاَوَةُ الْعِلْمِ وَلَذَّتُهُ ٤٥
حَيَاةُ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا هِيَ بِالْعِلْمِ ٥٥
الْحِرْصُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَالصَّبْرُ عَلَى تَحْصِيلِهِ ٥٨
الْعِلْمُ رِزْقٌ مِنَ اللَّهِ ٦٠
الِانْتِفَاعُ بِالْعِلْمِ ٦١
الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ ٦٢
رَأْسُ الْعِلْمِ التَّقْوَى وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى ٦٥
مِحْنَةُ الْأَلْقَابِ ٦٦
ذَمُّ الرِّئَاسَةِ وَالتَّصَدُّرِ ٦٦
الْإِحْسَانُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ٧٠
التَّحْذِيرُ مِنْ تَرَكِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ ٧٢
خُطُورَةُ الاعْتِمَادِ عَلَى الْفَهْمِ فِي مَعْزَلٍ عَنِ النُّصُوصِ........ ٧٣
التَّنْبِيهُ عَلَى أَضْرَارِ «الْبَرْمَجَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ» وَ «الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ» ٧٥
عَاقِبَةُ مَنْ تَكَاسَلَ عَنِ الطَّلَبِ ٧٦
فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْجَاهِلِ ٧٨
تَقَبُّلُ النُّصْحِ ٨١
حَسْرَةُ الْفَوْتِ ٨٣
الْعِلْمُ سَبِيلُ الرِّفْعَةِ ٨٥
التَّحْذِيرُ مِنَ الْكَسَلِ ٨٧
رَأْسُ مَالِ الْمَرْءِ عِلْمُهُ........ ٨٩
مَعْنَى «الاخْتِيَالِ» ٨٩
رَأْسُ مَالِ الْمَرْءِ عِلْمُهُ «تتِمَّةٌ»........ ٨٩
الْجَهْلُ وَقَبِيحُ أَثَرِهِ ٩١
لِمَاذَا خَصَّ الْأَلْبِيرِيُّ بِالذِّكْرِ «مُلْكَ الْعِرَاقِ»؟ ٩١

الْجَهْلُ وَقَبِيحُ أَثَرِهِ «تَتِمَّةٌ» ٩٢
أَثَرُ الْعِلْمِ عَلَى حَمَلَتِهِ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ ٩٣
الْفَرْقُ بَيْنَ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ ٩٤
أَثَرُ الْعِلْمِ عَلَى حَمَلَتِهِ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ «تَتِمَّةٌ» ٩٥
تَنْبِيهٌ لَطِيفٌ عَلَى عِبَارَةِ: «مِنْ بَرَكَةِ الْعِلْمِ نِسْبَتُهُ إِلَى قَائِلِهِ» ٩٥
فَضْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ «١» ٩٦
حُكْمُ قَوْلِ: «لَعَمْرُكَ» ٩٨
أَهَمِّيَّةُ نَشْرِ الْعِلْمِ وَتَبْلِيغِهِ ٩٨
فَضْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ «٢» ١٠٠
شَرْحُ حَدِيثِ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ**» ١٠١
مُقَارَنَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الْمَالِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ ١٠٢
مَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «مَنْ دَبَّ وَدَرَجَ» ؟ ١٠٣
مُقَارَنَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الْمَالِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ «تَتِمَّةٌ» ١٠٣
هَلْ ثَبَتَ عَنِ الشَّافِعِيِّ جَوَازُ زَوَاجِ الْأَبِ ابْنَتَهُ مِنَ الزِّنَا؟ ١٠٥
مَنْ عَرَفَ الْخَلَّاقَ فَلَا يَضُرُّهُ الإِمْلَاقَ ١٠٦
طَلَبُ الْفَقْرِ لَيْسَ مَقْصُودًا فِي الشَّرِيعَةِ ١٠٩
الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ وَالْفَقِيرِ الصَّابِرِ ١١٠
مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ١١٢
الثَّنَاءُ عَلَى كِتَابِ «قَاعِدَة فِي الْمَحَبَّةِ» ١١٢
مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ «تَتِمَّةٌ» ١١٣
الدِّينُ النَّصِيحَةُ ١١٤
أُنْمُوذَجٌ مِنْ تَطْبِيقِ السَّلَفِ لِحَدِيثِ النَّصِيحَةِ ١١٥
ذَهَابُ آدَابِ النَّصِيحَةِ لَيْسَ عُذْرًا لِرَدِّهَا ١١٦
الْمُتَاجَرَةُ مَعَ اللَّهِ ١١٨
هَلْ تَتَعَارَضُ الدُّنْيَا مَعَ الدِّينِ؟ ١١٩

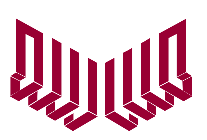
نَمَاذِجُ مِنْ مُتَاجَرَةِ السَّلَفِ مَعَ اللهِ ١٢٠
أَحْوَالُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَاتُهَا ١٢١
الدُّنْيَا أَحْلَامُ نَوْمٍ وَظِلٌّ زَائِلٌ ١٢٢
شَرْحُ حَدِيثِ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْـمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» ١٢٣
تَقَلُّبُ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ١٢٦
نِعْمَةُ السِّتْرِ ١٢٨
كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا ١٢٩
الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ لَا دَارُ مَقَرٍّ ١٣١
الْمُؤْمِنُ لَا يَحْزَنُ عَلَى فَوَاتِ الدُّنْيَا ١٣٥
مَا لَا تَبْلُغُهُ نَفْسُكَ لَا تُتْبِعْهُ عَيْنَكَ ١٣٦
لَا يَنْفَعُ تَحْصِيلُ الدُّنْيَا إِنْ خَسِرْتَ الآخِرَةَ ١٣٧
بَيَانُ الضَّحِكِ الْمَذْمُومِ وَالضَّحِكِ الْمَحْمُودِ «١» ١٣٨
التَّحْذِيرُ مِنْ مُجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ ١٤٣
بَيَانُ الضَّحِكِ الْمَذْمُومِ وَالضَّحِكِ الْمَحْمُودِ «٢» ١٤٤
مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ ١٤٥
مَعْنَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ ١٤٧
لَا تَسْأَلْ إِلَّا اللَّهَ ١٤٨
أَشْرَفُ حَدِيثٍ لِأَهْلِ الشَّامِ ١٤٩
مَعْنَى «التَّوْفِيقِ» ١٤٩
مَنْزِلَةُ الإِخْلَاصِ ١٥١
الْعِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ ﷺ ١٥٢
اعْتِرَافُ الْعَبْدِ بِظُلْمِ نَفْسِهِ ١٥٣
الْحَثُّ عَلَى الإِكْثَارِ مِنَ الدُّعَاءِ ١٥٥
فَضْلُ الإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ١٥٦
اغْتَنِمْ أَيَّامَكَ وَلَا تَغْتَرَّ بِشَبَابِكَ ١٦٠

مَنْ نَاصَحكَ فَقَدْ أَحبَّكَ ١٦٣
انْصَحْ وَلَوْ كُنْتَ مُقَصِّرًا ١٦٤
مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الأَخْيَارُ مِنْ هَضْمِ النَّفْسِ وَالتَّوَاضُعِ وَالِانْكِسَارِ ١٦٦
شُبْهَةٌ حَوْلَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ١٦٨
مِنْ أَسْبَابِ الانْتِفَاعِ بِالنُّصْحِ ١٧١
ذَمُّ طُولِ الأَمَلِ ١٧١
الاعْتِبَارُ بِنَذِيرِ الشَّيْبِ ١٧٣
خَوْفُ السَّلَفِ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ ١٧٥
مُقْتَطَفَاتٌ مِنْ مُدَاوَمَةِ السَّلَفِ عَلَى الطَّاعَاتِ ١٧٦
مَسْأَلَةٌ: هَلْ لِلْعَصْرِ سُنَّةٌ رَاتِبَةٌ؟ ١٧٧
مُقْتَطَفَاتٌ مِنْ مُدَاوَمَةِ السَّلَفِ عَلَى الطَّاعَاتِ «تَتِمَّةٌ» ١٧٧
النُّشُوءُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ١٧٨
قَبُولُ السَّلَفِ لِلنُّصْحِ وَانْقِيَادُهُمْ لِلْحَقِّ ١٧٩
مِنْ كُنَى الدُّنْيَا ١٨١
فَسَادُ الزَّمَانِ لَيْسَ عُذْرًا لِلْعَبْدِ عَلَى فَسَادِهِ ١٨٢
صَبْرُ السَّلَفِ عَلَى الْحَقِّ رَغْمَ فَسَادِ الْخَلْقِ ١٨٤
التَّنْبِيهُ عَلَى عِبَارَةِ: «إِذَا أَفْتَى فِيهَا عَالِمٌ تَخْرُجُ مِنْهَا سَالِمًا» ١٨٥
مَعْنَى: «أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمٍ» ١٨٦
الِاقْتِدَاءُ بِالْعُلَمَاءِ ١٨٦
قَاعِدَةٌ: «لَا تَنْظُرْ إِلَى عَمَلِ فَقِيهٍ وَلَكِنْ سَلْهُ يَصْدُقْكَ» ١٨٩
مَعْنَى «الْكِتَابِ» فِي نُصُوصِ الشَّرْعِ ١٩٠
خَطَرُ قَسْوَةِ الْقَلْبِ ١٩١
نَذِيرُ الشَّيْبِ ١٩٣
الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَ أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ رَحِمَهُمَاللَّهُ ١٩٣
نَذِيرُ الشَّيْبِ «تَتِمَّةٌ» ١٩٤

التَّصَابِي مَعَ الشَّمَطِ ١٩٦
ذَمُّ النَّفْسِ ١٩٨
مَعْنَى «التَّفْنِيد» ٢٠٠
غَضُّ الطَّرْفِ عَنْ عُيُوبِ النَّاصِحِ ٢٠١
هَلْ يَبْكِي الْإِنْسَانُ دَمًا؟ ٢٠٢
فَضْلُ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ٢٠٣
ثِقَلُ الذُّنُوبِ عَلَى الْإِنْسَانِ ٢٠٦
مَسْأَلَةٌ: مَا الَّذِي يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ٢٠٧
نَصِيحَةٌ بِخُصُوصِ ضَبْطِ الْعِلْمِ ٢٠٨
مَسْأَلَةٌ: مَا الَّذِي يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ «تَتِمَّةٌ» ٢٠٨
لَيْسَ عَيْبًا أَنْ تُخْطِئَ، لَكِنِ الْمَعِيبُ أَنْ تُصِرَّ وَتُكَابِرَ ٢٠٩
الْإِشْفَاقُ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي ٢١٠
مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «خَبَطَ خَبْطَ عَشْوَاءَ» ٢١١
لَوْ ذُقْتَ وَتَلَذَّذْتَ مَا فَارَقْتَ ٢١١
لَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ ٢١٣
الْفَرْقُ بَيْنَ الْحِسَابِ وَالْعَرْضِ ٢١٥
وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٢١٥
التَّفَكُّرُ فِي الآخِرَةِ ٢١٦
نَصِيحَةٌ بِخُصُوصِ اسْتِحْضَارِ الْآيَاتِ ٢١٧
التَّفَكُّرُ فِي الآخِرَةِ «تَتِمَّةٌ» ٢١٧
النَّدَمُ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ ٢١٨
حَرُّ الدُّنْيَا وَحَرُّ الْآخِرَةِ ٢١٩
التَّوَاضُعُ وَاتِّهَامُ النَّفْسِ ٢٢١
الْفَرْقُ بَيْنَ نَظْرَةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ لِلذُّنُوبِ «١» ٢٢٢
ذُلُّ الْمَعْصِيَةِ وَعِزُّ الطَّاعَةِ ٢٢٥

لَيْسَتِ الْعِبْرَةُ بِمَنْ أَنْتَ عِنْدَ النَّاسِ وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِمَنْ أَنْتَ عِنْدَ اللهِ ٢٣٠
هَلِ الأَلْبِيرِيُّ يُخَاطِبُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ شَخْصًا مُعَيَّنًا؟ ٢٣١
التَّنْبِيهُ عَلَى عِبَارَةِ: «لَا أُبَالِي بِمَا يَظُنُّهُ النَّاسُ فِيَّ» ٢٣٢
مَعْنَى «الدَّنَسِ» ٢٣٣
مَعَانِي «الثَّوْبِ» فِي اللُّغَةِ ٢٣٣
خُطُورَةُ مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ وَأَهَمِّيَّةُ اغْتِنَامِهَا ٢٣٤
الْمَعْنَى الْجَامِعُ لِتَعْرِيفِ «الزُّورِ» ٢٣٦
هَلْ يُوجَدُ تَرَادُفٌ فِي اللُّغَةِ ؟ ٢٣٧
شُكْرُ اللهِ عَلَى النِّعَمِ ٢٣٨
خُطُورَةُ إِدْمَانِ الْمَعَاصِي ٢٣٩
شَرْحُ حَدِيثِ: «**مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ**» ٢٤٠
سُؤَالُ اللهِ الْعَافِيَةَ ٢٤٠
التَّنْبِيهُ عَلَى عِبَارَةِ: «لَا أَسْتَطِيعُ تَرْكَ بَعْضِ الذُّنُوبِ» ٢٤١
الْفَرْقُ بَيْنَ نَظْرَةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ لِلذُّنُوبِ «٢» ٢٤٣
أَدَبٌ رَفِيعٌ مُسْتَنْبَطٌ مِنْ قِصَّةِ الْخُصُومَةِ بَيْنَ عُمَرَ وَأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما ٢٤٤
التَّحْذِيرُ مِنْ رُفَقَاءِ السُّوءِ ٢٤٥
مَفْهُومُ عِبَارَةِ: «يَنْبَغِي» أو «لَا يَنْبَغِي فِعْلُ كَذَا» عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ ٢٤٦
الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَ الْعُزْلَةِ وَالْخُلْطَةِ ٢٤٧
الرَّدُّ عَلَى طَعَنِ مَحْمُود الرَّضْوَانِي فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ ٢٤٨
الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَ الْعُزْلَةِ وَالْخُلْطَةِ «تَتِمَّةٌ» ٢٤٩
قِصَّةُ السَّامِرِيِّ وَالْعِجْلِ ٢٥٣
الإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ ٢٥٥
رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ ٢٥٨
هَجْرُ الْإِنْسَانِ لِلْمَكَانِ الَّذِي يَضُرُّهُ فِي دِينِهِ ٢٦٢
حَقِيقَةُ الزُّهْدِ وَمَفْهُومُهُ الصَّحِيحُ ٢٦٤

الاِنْتِقَالُ إِلَى دَارِ السَّلاَمِ ٢٦٧
مِنْ حُقُوقِ مَشَايِخِنَا عَلَيْنَا ٢٦٩
ثَنَاءُ الْعُلَمَاءِ عَلَى كُتُبِهِمْ ٢٧١
إِطَالَةُ الْعِتَابِ إِشْفَاقًا عَلَى الْمُعَاتَبِ ٢٧١
مِنْ آدَابِ الْمَوْعُوظِ ٢٧٢
بُطْلاَنُ قَاعِدَةِ «حَمْلِ الْمُجْمَلِ عَلَى الْمُفَصَّلِ» فِي كَلاَمِ النَّاسِ ٢٧٣
خَاتِمَةٌ ٢٧٥





حساب :

فوائد ش/مصطفى مبرم

Fawaidmbrm